أجزاء القول

حازم صاغية

تعريب الكتائب اللبنانية

الحزب، السلطة، الخوف

دار الجديد

حازم صاغية

تعريب الكتائب اللبنانية

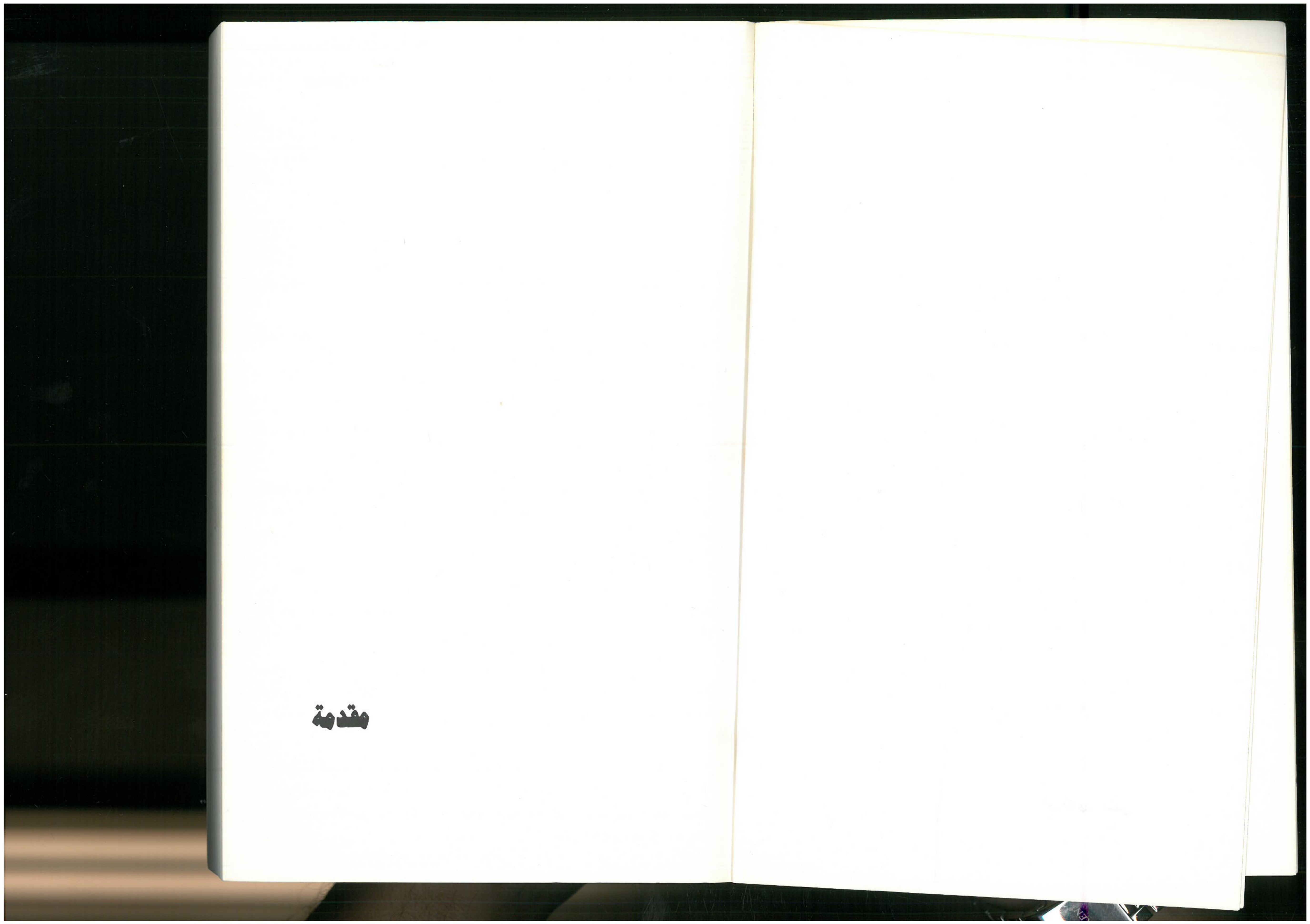
الحزب، السلطة، الخوف

دار الجديد

دار الجديد
١٩٩١

الطبعة الأولى
حقوق الطبعة الأولى محفوظة
ص. ب: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٣٣٧٥.
التنضيد: علي حمدان
ماكيت: حسين فتوني

إلى ندى، ابنتي



مقدمة

طغت على التفكير السياسي العربي حَدَاثِيَّـةٌ مُبَسَّطَةٌ تـرى إلى «الدولـة» من خلال خطٍّ تصـاعدي يحجبُ المجتمـعَ المعني الذي هـو قيد الـدرس، كما يُسـدِلُ الحِجابَ على تعقيداته وتراكيبه وثقافاته.

ولئن ظنَّ أصحابُ هذه النزعة أنَّهم يستعيرون «النموذج الأوروبي»، باستلهامٍ قوميٍّ ساذج، أو ليبراليٍّ حَسَنِ النوايا، أو ربَّما ماركسيٍّ أمينٍ لمراحله الخمس، فإنَّ تاريخانيتهم كانت تدفعهم غالباً إلى تبرير القمعِ الذي يُنْـزَلُ بالمجتمـع، والمصادرةِ التي تتعـرَّضُ لها السياسةُ، من دون أنْ يلوحَ أيُّ بشير بالتقدم الموعود.

وهكـذا لم يكن مستغربـاً أنْ يقودَ تجـاهلُ المجتمـع وحجبُ ارتباطِـهِ بـالسيـاسـة وصدورِها عنه، إلى التسامح مع «تأديبه» لأنَّ التقدُّمَ مثل أسنان المشط تماماً.

ولم يشذ تناولُ لبنان عن هذا التناول العربي الجامع للمسائلِ والمواضيعِ والبلدان فَصِيرَ إلى تطويبِ الشهابيّة خطوةً «حديثة»، وأحياناً «تقدميّة»، وبالطبع «إنمائيّة»، فيما تمَّ التغافل عن الواقع اللبناني بطوائفه ومناطقه، وعن الإطار العربي الإستبدادي الـذي نَمَتِ التجربةُ الشهابيّةُ في كنفه، فكانت محاولةً للتَّكَيُّفِ معه والإستجابةِ له.

وتَبَعـاً لهذه التـرسيمة الفخيمـة بات اكتشـافُ المصدر الـداخلي للعنف المـاروني (وعنفِ سائر الطوائف) في حرب ١٩٧٥ وما تلاهـا، نوعـاً من السحر الـذي لا سبيل إلى تأويله.

وكانَ للمفاجأة بالحرب «الهمجيّة»، بعد الإنماء والتحديث، أنْ سَهَّلت لجوء الكثيرين إلى تحليـلات سِقْطِ المَتَاع، فقـال بعضهم بـ «الفاشيّـة» تعريفـاً جوهـرياً للكتـائب، ولجأ آخرون إلى «حروب الآخرين على أرضنا» مقـولةً أحـاديّةً وبسيطـةً لا تُغني ولا تُسمن من جوع عيونِنا.

تزعم هذه الأسطـر، في المقابـلِ، محاولـةَ التناولِ لظـاهرةٍ سيـاسيةٍ مُحَـدَّدَةٍ هي الكتائب، بوَصْفِها جزءاً من حالةٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ أعرضَ لها تاريخُهَـا الخاصُ بهـا، بمَا في ذلـك الصلةُ بجوارٍ عربيٍّ لا يكفُّ عن التداخل معنا في السياسةِ والحربِ والثقافـةِ، وفي بعضِ المقدماتِ السوسيولوجية أيضاً.

غنيٌّ عن القول أنَّ هذه الأسطرَ لا تُفضي إلى «تأريخ» ولا إلى «بحث اجتماعي». فالسّاعي إلى التاريخ لن يجد ضالته هنا حيث لا يُؤخَذُ التحقيبُ بأيِّ اعتبار. أمّا الساعي وراء البحث الإجتماعيِّ فلا بدَّ أنْ يُقْلِقَهُ غيابُ الكثير من المحاور الأساسية في السياسة اللبنانية وفي تجربة الكتائب تحديداً.

غير أنَّ هذا العملَ يحاول الإستعانةَ بما يوفره له التأريخ والبحث الاجتماعي للوصول إلى رصد المسار الكتائبي ما بين النشأة والتَّحَلُّل: النشأةِ في وسط طائفيٍّ يميل إلى التمدينِ (Urbanization) والتَّرَسْمُلِ والاندراجِ في حياة برلمانية تعدديّة من دون أنْ تضمحلَّ مصادرُ إمداده الريفيّة والصوفيّة، وإلى التَّحَلُّل من ضمن الإرتداد اللبناني العام، بما فيه المارونيّ، إلى السَّوِيَّةِ الدمويّة العشائرية المغايرةِ للطائفية والرَّسْمَلَةِ والسياسة.

ولم يَغِبْ عن هذا المسار تضافرُ عاملين كُتِبَ لهما أنْ يتكاملا، مرّةً في نحوٍ صراعيٍّ ومرّةً أخرى في زيٍّ من التحالف. أمّا الأوّل فتمثَّلَ في البيئة الأهليّة اللبنانيّة، والمارونيّةِ في هذا المجال، التي نما تقدُّمُها ودمويَّتُها الريفيّةُ (أي عروبتُها) نمواً متجاوراً، وأمّا الثاني فتمثَّل في العروبة النضالية بتركيبها وعقائدها، بثقافتها وسلاحِها.

لقد كانت الطائفةُ المارونية الطائفةَ الأولى من حيث أسبقية التَّشَكُّلِ الاجتماعيِّ والقِيَمِيِّ، ولأنّها الطائفةُ الأكملُ طائفياً والأبكرُ في التَّحوُّل عن العلاقات الدموية البحتة، بدت سبَّاقةً في إنتاج نخبةٍ سياسية مستقلَّةٍ عن ملكيات الأرض الكبيرة ومُسْتَنِدَةٍ إلى مهنٍ ومعاييرَ أشدّ حداثة، مِمَّا ساد العالم العثماني وعصبيّاتِه الدموية. هذا، على الأقل، ما نَمَّت عنه الطائفة المذكورة في جبلها وفي مدينة بيروت: فبينما انزوى مشايخُ آل حبيش، وراح الدور الذي لعبه المشايخُ الخازنيون يتراجع في صورة شبه منتظمة، تصدَّر الحياةَ السياسية للموارنة في هذا القرن «المحامون» إميل أده وبشارة الخوري وكميل شمعون وحميد فرنجية و«الصحافي» شارل حلو و«الصيدلي» بيار الجميل و«رجل الأعمال» بيار أده و«الموظف» إلياس سركيس ممن لم ينقطع أيٌّ منهم عن المدينة في نَحْوٍ أو آخر.

ومن طَرَفَي المتن السياسي أو هامِشَيْه، نجح اثنان في أن يتسلَّلا إلى ذروة الهرم: فؤاد شهاب الآتي من صفوف المؤسّسة العسكرية، وسليمان فرنجية القادم من خارج أيِّ تراتب اجتماعي يمكنُ وصفه بالحداثة. فكان لتسلُّل شهاب ومن بعده فرنجية أثرٌ بعيدٌ على الحياة السياسية للموارنة ومن ثَمَّ للبنانيين جميعاً.

بَيْدَ أنَّ نجاحَ الطائفة المارونية الجبلية ـ البيروتية في إقامةِ نصابٍ سياسي، مُتَّصِلٍ بالتعريف بعلاقات الصلب الاجتماعي، وبالتالي محدودِ القدرة على التَّفلُّت الاستبدادي من ضغوطِ «القاعدة» ورقابتِها وامتحانِها وقنواتِ تَدَخُّلِها، هذا النجاح لم يكن غير تتويجٍ لتحولات شكّلت في حصيلتها عمليةَ مصالحةٍ بين الكتلة المارونية الجبلية

و«العصر» الذي يتحرك على إيقاع السيادة والامتداد الأوروبيين.

فَتَبَعاً لأقلِّيَّتِهم المذهبية حيال المنطقة المحيطة، وتَعَاظُمِ عددهم في الجبل بنتيجة الإنقلاب الديموغرافي الذي أصاب العدد الدرزي، وتبعاً لاستعدادِهم للخروج على أنظمة القِيَمِ والعلاقات العثمانية السائدة، غيرِ المُلْزِمَةِ لهم، تمكَّن الموارنةُ البيروتيون والجبليون من النسج مبكراً على المنوال الأوروبي، وذلك بسهولةٍ نسبيّة قياساً بسائر الطوائف اللبنانية الأقلِّ تفلُّتاً من الرابطة العشائرية:

□ تعليميّاً، ترتبت نتائجُ بالغةُ الأهميّة على اتِّحاد كنيستهم برومية في أواخر القرن الثاني عشر. ففي مقابل المصالحة مع لغةِ المنطقة كما بدأت تُؤَسِّسُها زجليات ابن القلاعيِّ الذي توجَّهَ في ١٤٧٠ للدراسة في إيطاليا، كانت الصِّلةُ المبكرةُ بالفاتيكان تُنشىء المرتكزات المحلية للتيار الثقافي المُتَّجه لاحقاً إلى السيادة الكونية. ففي ١٤٣٩، مثلاً، تمثَّل البطريرك الماروني في مَجْمَع فلورانسا، وفي ١٦٥٤ أقيم في رومية معهدٌ خاص بالموارنة، وفي القرن التالي سمح الأمير فخر الدين المعني الثاني للإرسالية الكبوشيَّة الكاثوليكية بالعمل في مدينة صيدا. ولم تقتصر نتائج هذا الإرتباط على التمهيد للتكاثر العددي اللاحق الذي أصاب عددَ الإرساليات الأجنبية، الدينية ومن ثَمَّ العلمانية، في الجبل الماروني، بل تعدته إلى انهيار «الكُتَّاب» كوحدةٍ تعليميةٍ، ونشوءِ «المدرسة»، الوطنيَّة والأهليَّة، كوحدة حديثةٍ نازعةٍ إلى الشمول والتعميم. وفي مقابل الصِّلة بالغرب وتكاثر الإرساليات ونشأةِ المدرسة، كان يظهر ويتعزز طاقم ماروني لا يتوافر مثيلٌ له في الطوائف الأخرى.

□ اقتصادياً وتنظيمياً، تَحَصَّل للموارنة في القرن التاسع عشر ارتباطٌ وثيقٌ بالسوق العالمية في شكلها وحدودِها يومذاك، عبر القطاع الزراعي في الجبل الذي ارتبط بصناعةِ الحرير. وبينما كانت أوروبا تتهيأ لتوسُّعٍ اقتصادي يلفُّ العالَمَ بأسره ويكسُر كلَّ سور صينيٍّ قائم أو محتمل، وَجَدَ موارنةُ الجبلِ في تربية دود القز وفتح الكرخانات ما يتكفَّلُ بهدمٍ تدريجي للإقتصاد المنزلي المكتفي، المعزولِ والمبعثر.

بدورهَا استطاعت الكنيسةُ، ولا سيّما مع وصول «العاميِّ» بولس مسعد إلى كرسيها البطريركيِّ، منتصفَ القرن الماضي، أنْ تُشَكِّلَ جسداً عضوياً يجمعُ إلى قيادَتِهِ الروحيةِ والأيديولوجية قيادةً اقتصاديةً تعملُ على تَجْيِيرِ الإنتاج الزراعي وتعميمِ الربح والعمل المأجور، وأخرى سياسةً تُمارس دورَها في التأثير وصنعِ القرار التَّجَمُّعِيِّ. وكان لذلك كلِّه أنْ أسهم في هزِّ الصلب الاجتماعي عبر التحركاتِ العاميةِ والفلاحية، التي تَوَّجهتها حركة طانيوس شاهين بما حظيت به من رعايةٍ كَنَسِيَّةٍ وعطف فرنسي. وبيَن النتائج البعيدة التي أفضى إليها هذا التَّحوُّل تحريرُ الإحتمالِ السياسي من وطأةِ «الإستبدادِ الشرقي» لملاّكي الأرض.

وكانت من العدّة التنظيمية التي امتلكتها الطائفةُ المارونية مبكراً، المطبعةُ والصحيفةُ والنقابةُ والحزبُ، التي لم تحل صِيَغُهَا وأشكالُها النواتيَّةُ دون التدليل على وجودِ نبض مجتمعيٍّ مستقلٍّ عن «السلطة» وقرارِها المفروض من المنصة العلوية. ففي ١٨٥٣ أُنشئت «المطبعة الكاثوليكية» (وكانت المطبعة الأميركية قد نقلت في ١٨٣٤ إلى لبنان)، وفي ١٨٥٨ صدرت صحيفة «حديقة الأخبار» لخليل خوري، وقبل الحرب العالمية الأولى لعب الموارنةُ في جبل لبنان والمهاجر والمنافي أدواراً تفوق بكثير أعدادَهم في إنشاء الجمعيات المناهضة للعثمانيين، وفي ١٩١٩ تأسس «اتحاد العمال العام».

□ ايديولوجياً وقِيَمِيّاً، راحت تسودُ «نخبةَ» الوسطِ المسيحي عموماً، والمارونيِّ خصوصاً، أفكارٌ مناوئةٌ للعالَمِ العثماني وقِيَمِهِ وتراتبه الموروثِ وأشكاله التنظيمية. فلم يكن من المصادف أنْ يظهر مع حلول العام ١٩٠٢ أوّلُ كتاب عربي عن الثورة الفرنسية هو «نبذة» أمين الريحاني التي وُضعت في نيويورك مُسْتَشْهِدَةً بتاريخ ميشليه وتاريخ دي توكفيل، ومُسَاجِلَةً ضد كارليل. أما العملان المبكران الآخران حول الثورة نفسها، فكانا «١٤ تموز» للماروني يوسف إبراهيم يزبك، وترجمة الأرثوذكسي الطرابلسي فرح أنطون لرواية اسكندر ديما «نهضة الأسد». في هذا المناخ نشأت وتبلورت أفكارُ «المساواةِ» و«الأخُوَّة» والتسامحِ الديني، فضلاً عن الإنكبابِ النهضوي على بعث اللغة العربية وتجديدِها في أوساط المثقفين الموارنة.

□ سياساً، بعد إنشاءِ المدرسة، والإرتباطِ بالسُّوق العالمية، والتمهيدِ لسياسةٍ بديلة تدور حول محور الفئة الإجتماعية الصاعدة، وشيوعِ الأفكارِ المغايرةِ للتقليد، توافرت مقدماتُ المصالحة بين الكتلةِ المارونية الجبليةِ والواقعةِ السياسية المعاصرة مُمَثَّلَةً بفكرة «السيادة» التي تتمتع بها الدولةُ حديثةُ الولادة. فموارنةُ الجبل، تَبَعاً لتكوينهم هذا والعناصر التي أُشيرَ إلى بعضها، كانوا أقدرَ من عرب السلطنة الآخرين على طَرْحِ «المتصرفية» ونيلها، وبعد ذلك طَرْحِ فكرة «الدولة العربية» بعد العملِ على أحياءِ لغتها وثقافتها في مواجهة الرابط الديني، وفي طورٍ لاحقٍ طَرْحِ اللبنانيّة وريادةِ صوغها في دولةٍ ذات سيادة.

فمن الإنهيار الدرامي للسلطنة العثمانية والإمبراطورية الهابسبورغية النمسوية - المجرية، إلى الإنهيار غير المصحوب بأيَّةِ درامية لـ «الدولة» العربية الشريفية في دمشق، راحت تَتَّضِحُ مبكراً الوجهةُ السياسيةُ السائدةُ في عالمِ ما بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت أبرزُ معاندة تتعرض لها الوجهةُ المذكورة محاولة البلاشفة الروس الذين أرادوا أنْ يحافظوا بالقسر والحديد على وَحْدَةِ الإمبراطورية القيصرية، متعددةِ الجنسيات والقوميات واللغات والأديان، غيرَ عابئين بالوعود السابقة عن «حق تقرير المصير» (الشيء الذي بدأ ينهار ويتصدَّعُ مع مُسْتَجِدَّاتِ العهد الغورباتشوفي).

وبهذا المعنى كان «لبنانُ الكبير» في ١٩٢٠ إنجازاً تَقَدُّمِيّاً ينمُّ عن المدى التحديثي الذي قطعه التشكيل الطائفيُّ الماروني في الجبل وبيروت، تماماً كما كانت المتصرفية إنجازاً تقدمياً يُعادلُ الإعلانَ عن نشأةِ هذا التشكيل.

غير أنَّ الإرتباطَ بالوجهةِ الغالبةِ على نطاقٍ دولي والنسجَ على المنوال الأوروبي، لا يُعفيان الطرفَ المُرْتَبِطَ والناسجَ من تلقّي آثارِ المحيط الجغرافي - الثقافي الذي يبقى جزءاً منه، ولو تميَّزَ عنه واختلف. فموارنةُ الأطراف الريفية لم يُصِبْهُمْ ما أصاب جَبَلِيّي الموارنةِ إلّا في حدودٍ طفيفةٍ ومبعثرةٍ، فيما المنطقةُ العربية - الإسلامية عارضت إسلاسَ القيادِ لأوروبا معارضَتَها التَّيَمُّنَ بمنجزاتِها ومساهماتها، أقلَّهُ في الحقلين السياسي والإيديولوجي - القِيَمِيّ.

وقد زادت حِدَّةُ هذه المعارضة مع إنشاء دولة إسرائيل في ١٩٤٨ بدعم الغرب، الرأسمالي والشيوعي في آن معاً، بما فاقم المرارةَ العربية والإسلامية حيالَ الغلبةِ الغربية والنتائجِ المترتبة عليها.

الّا أنَّهُ ومنذ مطلع القرن كانت المشكلةُ السياسيةُ (والشرعية الدستورية)، قد بدأت تختصر النزاعاتِ المتشعِّبَةَ بين العالمِ الذي تمضي السيادةُ الغربيةُ ومفاهيمُها في صوغه، وبين المناهضةِ العربية - الإسلامية له بالاعتماد إلى عمق أهليٍّ لا ينضب. ففي مقابلِ الدُّوَلِ النهائيةِ ذات الحدودِ المرسومةِ والسياداتِ المطلقة، رفعت الجمهرةُ العربية والإسلامية، ولا سيما في بلدان سورية الطبيعية وخصوصاً لبنان، دعواتٍ مُتَّصِلَةً إلى وَحَدَاتٍ إندماجيّةٍ، دينية أو قومية، لا تعترف بالدولِ الناشئةِ ولا تُقِرُّ بحدودها وسياداتها. وفي مقابلِ السلوكِ التدريجي لطريق المؤسسات والتعدد السياسي، كان الإحباطُ الوافدُ من الأرياف، بما فيه إحباطُ الموارنة أنفسِهم، يُلقي بثقله على صدر المدينةِ ووعودها، ويُشيع فيها تصوراتٍ قاطعة وصدامية لا تعوزها الجاذبية الجماهيرية. وكان للهزائمِ العسكرية الموجعة أمام «الغرب» أولاً، وأمام إسرائيل تالياً، أنْ جعلت دعواتَ التوحيدِ تجمع إلى مجافاتِها المسارَ السياسيَّ والدستوري العصري، حِدَّةً واحتقاناً لا يُخفيان عمقَهُما المُتَوَتِّرَ، فتردُّ على ذلك بالتوتر نفسِه أقليّاتٌ قوميّة ودينية لا تكتمُ ذعرها من أنْ تَتَوَجَّهَ شفرةُ الإحتقان الأكثريِّ نحوها.

في الحالاتِ كافة كان لهذا الإحتكاكِ بالخارج الذي يتمُّ استدخالُه في الوضعِ اللبناني عبر قنواتٍ متعددة، سياسيّةٍ وثقافيّةٍ واقتصادية، قُدرةُ شَحْذِ الأسُس الداخليّةِ والأهليّةِ للعنفِ اللبناني، وهو ما لم يستطع برلمانٌ طَرِيُّ العودِ أنْ يستوعبَهُ ويتغلَّبَ عليه.

فبين النُّمُوِّ الطبيعي المُفضي إلى تَطَوُّرٍ حديثٍ، شرطُه المُضِيُّ في احتضانِ الصلةِ المتعددةِ الأبعادِ بالغرب ورعايتها، وردَّةِ الفعلِ السلبية مرة، والتوافقية - الحِمَائيّة مرةً أخرى، تجاه التياراتِ العاصفةِ في محيطٍ مُنَاهِضٍ للغرب، ترعرعت التجربةُ السياسيّةُ

المارونيّةُ في النصف الثاني من هذا القرن، وتبلورت نُخْبَتُهَا.

وتَبَعاً لهذا الإستقبال المتفاوت لعناصرَ متفاوتةٍ أصلاً، اتسمت التجربةُ الأخيرة بميلٍ إلى التَّوَطُّدِ السياسيِّ مشوب بإغراء النزوعِ الإرتدادي الدائمِ نحو آليات عملٍ أوثق صلةً بالإستبداد والتكوين العَشائري الذي لم تَطْوِهِ كُلِّيّاً يدُ النسيان، منها بالمجتمعِ السياسيِّ وإملاءاتِه وفروضه.

فكُلَّما تَعَزَّزَت الدولةُ في الجوارِ العربيِّ وتعزز ميلُها الدستوريُّ التدريجي على حساب نزعاتِها الإيديولوجيةِ العاصفةِ، الدمجيةِ أو التحريرية، تَعَزَّزَ الخيارُ المديني للمارونية استمراراً في محاكاة الغرب وسط مناخٍ سلمي هادىء يُتيح نشرَ المُحاكاة، يوماً بيوم، على المساحة اللبنانية برمَّتها. وكلما طغت الراديكاليةُ والتيّاراتُ شِبْهُ التوتاليتارية والثورية في الجوار العربي، احتكم الموارنةُ إلى المخزونِ الريفي والإرث الشرقي الذي يُراوح بين الاستبدادِ المُنَظَّمِ والعنفِ المُفَتَّتِ، مؤدياً في الحالين إلى تعطيلِ السياسة والنشاط الدستوري.

إنَّها، بلغةٍ أخرى، تحدّي البرلمانية وصعوبةُ الحزبية في عالم ليس فقط «غيرَ» أوروبيٍّ، بل أيضاً مناهضٌ لأوروبا. وهما صعوبةٌ وتَحَدٍّ مطروحان على الموارنة ضد الإستبدادِ الشرقي بما فيه استبدادُهُم هم أيضاً حينما ينجحُ الشرق في إيقاظ شَرْقِيَّتِهِم.

وربَّما كان حزبُ الكتائب أبرزَ الظاهراتِ السياسية المارونية التي حملت في آن معاً جرثومة الإستبدادِ الشرقيِّ وجرثومة مناوأته، فكانت الأولى تَنْزَعُ بها إلى «الميليشيا» والثانية إلى «الحزب».

ح. ص.

الفصل الأول

الشهابية و«المارونية السياسية»

ربّما كان «حزب الكتائب اللبنانية» الذي ساهم في الحياةِ البرلمانية وبناءِ تجربةِ التعايش في جانب، وَحَضْنِ العنف الذي يُؤَسِّسُ لـ «البديل» عن السياسة والدولة في جانب آخر، أوضحَ تعابيرِ التّمزُّق في الوعي السياسي الماروني، لا سِيَّما عند جمهرةِ الفئات الإجتماعية الوسطى، إن لم نَقُلْ في الخيار التاريخي للكثرة المارونية الجَبَلِيَّة.

لكن ما تختصرُهُ التجربةُ الكتائبيةُ لا يكتمهُ التركيبُ الذي أنطوت عليه مؤسَّسةُ رئاسة الجمهورية في لبنان، بوصفها أبرزَ مؤسسات النخبة السياسية المارونية وأهمَّها في زمنِ السِّلم، أي ما بين ١٩٤٣، تاريخ نيل الإستقلال الوطني، و١٩٧٥ سنة اندلاعِ الحرب الأهلية ـ الإقليمية التي استطالت.

فبشارة الخوري وكميل نمر شمعون وشارل حلو، وهم الرؤساء الثلاثة غيرُ «المُنْقِذِينَ» وغيرُ المَدْعُوِّينَ، لحظةَ اختيارهم رؤساء، لصدِّ «خطر خارجي» أو لتدبيرِ تعايشٍ صعب معه، يجمعُ بين تجاربهم السياسيةِ صدورُها عن مقدماتٍ حديثة نسبيّاً، تُفصِحُ عن علاقاتٍ اجتماعيةٍ متقدمةٍ وتُحاول محاكاةَ السياسة في معناها الغربي، كما تتضافرُ فيها وتنعكسُ المستوياتُ المتعددةُ والمستقلّةُ للنشاط الاجتماعي.

فالثلاثةُ ينتمون إلى مناطق الجبل الأكثر تمديناً وتَعَرُّضاً لفعل الإرساليات والإرتباط المالي والإقتصادي بالغرب، كما للإختلاط الطائفي والثقافي الأشدِّ إلحاحاً على التسويات التوافقية وتَطَلُّباً لها. فإذْ يُلاحظ ألبرت حوراني، في معرض التمييز داخل «الإيديولوجيا المارونية» أنَّ إيديولوجية الشمال، وهي المارونية التي أرَّخَهَا الدويهي، ترقى إلى طورٍ سابق على التعايش مع الدروز كما سَجَّلَتْهُ تجربةُ الجبل، بدءاً بالإمارة المعنية في القرنِ السابع عشر، فإنَّ المارونيةَ الجبليةَ هي مارونيةُ المناطق التي هدمتها حروبُ القرن التاسع عشر الأهْلِيَّةُ، أو كادت تهدمها، بما وسمها بميلٍ إلى الإعمار والهدوء والتوافق دلَّ عليه الإستقبالُ المارونيُّ الجبليُّ لإصلاحاتِ المُتَصَرِّفِ داود باشا، عدوِّ يوسف بك كرم الشمالي[1]. فبشارة الخوري من رشميا، إحدى أكبر القرى المارونية في قضاء عاليه

(١) راجع: Albert Hourani, «Ideologie of the mountain and the city. Reflections on the lebanese civil war», in: Roger Owen (ed.), *Essays on the crisis in Lebanon,* Ithaca press, 1976.

بحسب التصنيف الإداري المعمول به حتى ١٩٩٠، وكميل شمعون من دير القمر، إحدى أكبر وأهَمِّ قرى قضاء الشوف، وشارل حلو من بعبدا التي هي، بحسب التصنيف الإداري، نفسِه، عاصمةُ قضاء المتن الجنوبي الذي يُسَمَّى أيضاً قضاء بعبدا. ولئن عَرَفَتْ منطقتا عاليه والشوف شديدتا الإختلاط تقاليدَ التَّعايش (والنزاع) الماروني ـ الدرزي، وهي ما كانت قد اسْتَتَبَّت وتبلورت قبلَ زمنٍ على تعاظمِ زعامةِ كمال جنبلاط في العهدِ الشهابي، فإنَّ المتنَ الجنوبيَّ جمع إلى الطائفتين هاتين لوناً ثالثاً وفَّرَتْهُ الطائفةُ الإسلاميّةُ الشيعيّةُ التي أقام بعضُ أبنائها في غربِ القضاء المذكور، جنوبِ العاصمةِ بيروت.

والثلاثةُ اختاروا مِهَناً تُشيرُ إلى صلةٍ وثيقةٍ بتراتب اجتماعيٍّ جديدٍ ومعاييرَ منفصلةٍ عن معاييرِ المجتمع الزراعي وقيادتِه المُوكَلَةِ إلى كبار مَلَّاكي الأراضي أو زعماءِ العشائر، وهو المسار الذي أفصحت عنه الحياةُ السياسية اللبنانية مع بلوغها أعلى درجاتِ تطورها في انتخابات ١٩٧٢ النيابية العامة قبل ثلاث سنوات على انفجار الحرب.

ففي تشريحٍ لبرلمان ١٩٧٢، وَجَدَ إيليا حريق أنَّه لم يَعُدْ هناك سوى ٧ نواب من أصل ٩٩ يُمَثِّلون ما أسماه بـ «الأرستقراطيين التاريخيين»: درزيان (كمال جنبلاط ومجيد أرسلان) وشيعيان (صبري حمادة وكامل الأسعد) وسُنِّيَّان (سليمان العلي وطلال المرعبي) ومارونيٌّ واحد (هو إلياس الخازن)[٢]. لكن بينما كان «الأرستقراطيون التاريخيون» من غير الموارنة هم القادةُ السياسيون والأهليون لطوائفهم، ولا سِيّما عندَ الدروز والشيعة، فإنَّ الماروني بينهم (الخازن) كان مُجَرَّدَ نائبٍ عاديٍّ يبحثُ عن مقعد له في «لائحة قوية» تُشَكِّلُها الأحزابُ والقوى المارونيّةُ الفاعلةُ.

على أيَّةِ حالٍ، فقد سَبَقَ لبشارة الخوري أنْ اختارَ المحاماةَ مبكراً، وهو ما فعله شمعون بعد أنْ مارس الصحافة في «لو ريفاي»[٣]، وهو أيضاً الخيارُ نفسُه الذي وقع عليه حلو وإنْ تَفَوَّقَ وجهُهُ الصحافيُّ الذي جَعَلَهُ رئيساً لتحرير جريدة «لوجور» على وجهِهِ كمحام[٤].

بلغة أخرى، فإنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة لم يتقدّم إلى الحلبة السياسية بوصفه مجرَّدَ ناطق بلسانِ المجتمع التقليدي وتراتبِهِ. حتّى بشارة الخوري الذي كان «نسيباً

اعاد أ. حوراني نشر هذه الدراسة في كتابه: *The emergence of the modern Middle East*, Macmillan, 1985, p. 170-179.

(٢) انظر: إيليّا حريق، **من يحكم لبنان؟**، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ١٧ ـ ١٨. عن العلامات الأخرى على هذه الوجهة وعلى منحاها إلى الشيوع والتعميم، انظر الأرقام الواردة في: غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) انظر سيرته كما وزعها «حزب الوطنيين الأحرار» ونشرتها الصحف اللبنانية في ١٩٨٧/٨/٨.

(٤) انظر، مثلاً لا حصراً، ناجي كريم الحلو، **حكام لبنان ١٩٢٠ ـ ١٩٨٠**، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، لا ذكر للدار، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

لحبيب باشا السعد، ومُتَحَدِّراً مثلَهُ من أسرة الخوري صالح، أصحابِ الإقطاع في الجرد في أواخر عهد الإمارة»[٥]، كان أيضاً إلى إتقانه المُمَيَّزِ للُّغة العربية كتابةً وخطابةً «محامياً لامعاً، مثقفاً ثقافةً إفرنسيةً عاليةً، وموظفاً احتلَّ أرفعَ المناصبِ الحكومية»[٦]. أمَّا كميل شمعون فيبدو أنَّ عائلتَهُ تتخلَّفُ حجماً وتأثيراً ونفوذاً عن عائلاتٍ دَيْرِيَّةٍ عدَّة، وخصوصاً عمُّون التي برز منها مثقفون وسياسيون بارزون في أواخر القرن الماضي وفي هذا القرن، كاسكندر وسعيد عمّون المؤيدين لـ «القضية العربية» والثورةِ الهاشمية الكبرى[٧]، ومن بعدهما وزير الخارجية وحليف كمال جنبلاط ضد شمعون، فؤاد عمّون. وما ينطبق على أسرة عمون، ينطبقُ بنسبة أو أخرى على عائلتي نعمة وافرام البستاني[٨]، اللتين شكَّلَتَا قُطْبَيْ الإنقسام التقليدي الأهلي في دير القمر[٩].

وفي صُنعِ السياسي الماروني لنفسه بما أسبغَ على سلوكِهِ وشخصِه مِسْحَةً من العصامية، وُجِدَ رافدٌ نضاليٌّ مبادرٌ على تفاوت تأثيره، ولا سيّما عند الإثنين الأكبرِ سنّاً، أي الخوري وشمعون. فالأخير انتسب إلى عائلة عارضت العثمانيين وتعرَّضت للنفي الذي شمله هو أيضاً في صباه، فيما عاش الأوَّل المرحلةَ المذكورة طالباً في باريس بما لا يُخفي اختياراً سياسياً وثقافياً ضمنياً من منظور تلك الحقبة. وقبل ذلك كان رئيسٌ لاحق آخر هو إميل إدّه (الذي تَدَرَّجَ الخوري في مكتبه للمحاماة) أحدَ أبرزَ المعارضين للعثمانيين والهاربين من طُغيانهم، وسط رموزِ النخبةِ المارونيةِ المبكرةِ التي ضمَّت أيضاً الرئيس اللاحق ألْفرد نقّاش، المحامي المتأثِّرَ بميشال شيحا ونجلَ أحد أوائل المصرفيين اللبنانيين.

وإذا كانت الجامعةُ اليسوعية آخر المحطات التي سبقت الإنخراطَ في الحياة العامة عند شمعون وحلو، بما ينمُّ عن هوية ثقافية ـ دستورية تبحث عن تبلورها، فإنَّ الخوري انتقل منها إلى باريس، كما سبقت الإشارة، ليكمل دراسة الحقوق، في وقت كانت معه هذه الدراسة تقتصر على أعدادٍ غير كبيرة.

(٥) كمال الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢، ص ٢١٦.

(٦) فيليب حتّي، **لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، ترجمة أنيس فريحة، مراجعة نقولا زيادة، دار الثقافة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين، بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩، ص ٦٠٤.

(٧) انظر، مثلاً لا حصراً،: جان سرور. **جمعية التضامن الأدبي والحركات الشعبية ايّام الإنتداب الفرنسي**، ١٩٨٥، لا ذكر للدار، ص ٧٧.

(٨) من أصل ٢٠ ثرياً في دير القمر هناك واحد فقط من آل شمعون يأتي ترتيبه سابعاً. وعند تعداد «زعماء العائلات الكبيرة» ترد الأسماء التالية: جرجس بو غندور نعمة ومسعود افرام البستاني في حارة الخندق ومنطقة سوق الميدان لجهة الشرق. وفي منطقة سوق الشالوط وحارة الدلغانة لجهة الغرب: بكوات آل عمون. وكانت العائلات الصغيرة في دير القمر ويسمونها أقليات تطيع هؤلاء طاعة عمياء». شكري البستاني، **دير القمر في أواخر القرن التاسع عشر ـ محاولة تخطيطية اجتماعية اقتصادية**، منشورات الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، ١٩٦٩، ص ٦٥ ـ ٧٠ و١٥٨.

(٩) راجع مقالة جوزف نعمة في **النهار** ١٩٨٧/٩/٢.

وبدوره، ترافق وُلوج باب الحياة العامَّة مع تعديلات أُدخلت على ممارسة العمل السياسي. فمنذ ١٩٢١ أسَّس عدد من المثقفين والمهنيين والمحامين والمصرفيين والملاكين المسيحيين «حزب التّرقي» الذي ضمت قيادتُهُ جان دي فريج ونعّوم باخوس وإميل إدّه وإميل قشّوع وإميل عرب وسليم أصفر وميشال شيحا وشكري قرادحي وبشارة الخوري وألفريد نقّاش وألفونس زينيه ويوسف الجميّل مطالباً، بـ «الإبقاء على الإستقلالِ السياسي للبنان الكبير مع الإنتداب الفرنسي» و«الدفاع عن التقاليد الوطنية والحريّات الدينية» و«التمثيل النيابي للبلاد في ظل نظامٍ يُحَدَّدُ لاحقاً، على أنْ تُؤخَذَ بعينِ الإعتبار في تنظيم البلاد عناصرُ الكفاءة والجدارة فقط»(١٠). بعد ذلك أسَّس المحاميان الجبليان بشارة الخوري وإميل إدّه حزبي «الكتلة الدستورية» و«الكتلة الوطنية» في ١٩٣٤ و١٩٣٧، وانخرط شمعون وحلو في الحزب الأول، أو في أجوائه، ليؤسِّسَ أوَّلُهُما في ١٩٥٩ «حزب الوطنيين الأحرار».

صحيح أنَّ هذه الأحزاب وُلدت وعاشت كأوعية للتحالفات الأهلية، القرابيَّة والمناطقية والطائفية، إلَّا أنَّ إنشاءها لم يُخْفِ بعضَ الدلالات اللافتة وذات المغزى. ففي حدود كونها استئنافاً للنزاع الجنبلاطي ـ اليزبكي، ومن قبله القيسي ـ اليمني، جاء تكوين الأحزاب المذكورة ليحسمَ في أمر انتقال قيادةِ الأطراف الأهلية، المتحالفةِ والمتصارعةِ، إلى الطائفة المارونية. غير أنَّه جاء يحسم ما حسمه في حيِّز يتراوحُ بين «الأهليَّة» المُعَبِّرَةِ عن الولاءات العصبيّة المُتَوَارَثَةِ، وبين «المدنيّة» التي تَفِدُ تدريجاً في أشكالٍ سياسيّةٍ وثقافيّةٍ ومؤسَّسيَّةٍ متأثرةٍ بالغرب الأوروبي، الأمر الذي شكَّل مصدَر الطابع الإنتقالي شبه التقليدي وشبه الحديث لهذه الأحزاب، وكان ذلك عشيَّة نيل الإستقلال وبناء الدولة الوطنية في ١٩٤٣.

والراهنُ أنَّه بمجرد إرساء هذا الحيِّز الإنتقالي الوسيط الذي يجمعُ بين الحزبية والفيدرالية العصبية المُوَسَّعَة، كان السياسيُّ المارونيُّ يُعلن ضرورةَ عدم الإقتصار على المقدمات «السياسية» الخام والمُعطاة سلفاً (الأرض، الدم).

من ناحيةٍ أخرى، وعلى تفاوتِ الثلاثة في صلتهم بـ «الشعب»، لم تَغِبْ عن أيٍّ منهم حقيقةُ ارتباطِ السياسةِ بالمدينة حيث التشريعُ ومراقبةُ أعمالِ السلطةِ التنفيذية، وحيثُ الرأيُ العامُّ وصنعُ القرار ونقدُه كتابةً وسجالاً. ولئن كان شارل حلو، بهذا المعنى، الوحيدَ الذي «لم يَبْنِ زعامةً له. فهو «رئيس بيروتي» بكل ما يعنيه ذلك لشخصيّة مارونية، أي ابن المدينة التي لا تُبنى فيها زعامة» بحسب تعبير ميشال أبو جودة(١١)، فإنَّ الثلاثة

(١٠) Marwan Buheiry, *Beirut's role in the political economy of the French Mandate. 1919-1939*, Centre for lebanese studies, Oxford. p. 15-16.

(١١) في افتتاحية له في **النهار** ١٣/٩/١٩٨٧. كذلك انظر مقابلة أحمد زين مع النائب بيار حلو، قريب شارل حلو، في **السفير** ١٠/١١/١٩٨٧.

تساووا في اختيارهم البيروتي لزوجاتهم، معطوفاً على اختيارِ هويّة مسيحية أوسعَ من تلك المارونية. فبعد اقتران إميل إدّه بلودي سرسق الأرثوذكسية البيروتية، إقترن بشارة الخوري بلور شيحا الكاثوليكية البيروتية التي عُرِفَ شقيقُها ميشال بأنَّه كانَ الأبَ الروحي لشارل حلو. كذلك اقترن هذا الأخير، هو أيضاً، بنينا طراد الأرثوذكسية البيروتية بدورها، وكميل شمعون بزلفا ثابت البيروتية برغم مارونيتها غير المتأصلة(١٢).

فإذا صحَّ، تَبَعاً للفرضية الأنتروبولوجية الواسعة الشيوع، أنَّ الزيجاتِ الخارجيةَ تُوَطِّدُ التحالفات وتُوَسِّعُ رقعتَهَا، صحَّ أنَّ هذه الزيجات تنمُّ عن رغبةٍ أكيدة عند الثلاثة في تعزيز مصادر قوَّتهم المُعْطاةِ بمصادرَ أخرى منشؤها الثروةُ أو المكانةُ الدينية أو الموقعُ العلمي، وفي شقِّ ممر إلى «الصالون البيروتي» وإضافةِ عنصر جديدٍ إلى المُقَدِّماتِ الأهليّة الخام.

وليسَ مِنْ دون دلالة أنَّ الإنحيازَ للمدينة واقتصادِها وخدماتِها في العهدين الإستقلاليين الأوَّلين، خصوصاً العهد الشمعوني، هو ما اعتُبِرَ أحدَ المآخذ الشعبوية على الرئيسين «الليبراليين». فتطوير العاصمة الذي يتمُّ «على حساب الإهتمام بالأطراف» هو الحُجَّة التي شَهَرَهَا الكثيرون إلى أن بلورها العهدُ الشهابي اللاحق(١٣).

من خارج السياسة

لم يَكُنْ مصادفاً، في المقابل، أنَّ الرئيسين الآخرين اللذين أمْلَتْ رئاستَهُمَا ظروفٌ غلب فيها الخارجي على الداخلي، الأوّل بعد أحداث ١٩٥٨ والثاني بعد أحداث ١٩٦٩، صدرا عن وسط مختلف يصعب وصفه بـ «السياسي» بأيِّ معنًى حديثٍ أو ديمقراطي للكلمة.

فالرئيس فؤاد شهاب وَصَلَ إلى الرئاسة من موقعِهِ في قيادةِ الجيش، وكان صعودُ نجمِهِ يحملُ ملامحَ بونابرتية أو بالأحرى ديغولية(١٤)، لجهة تلخيصِ الحياةِ السياسية والإمساكِ بتناقضاتها بعد بلوغِ التوازنات التي تِؤَجِّهُهَا عواملُ خارجية، مدى متقدماً.

(١٢) يجمع عارفو آل ثابت عل تربيتها البروتستانتية الانكلو ساكسونية، وأبوها يدعى «نقولا» الاسم غير المألوف بين الموارنة.

(١٣) انظر مثلاً لا حصراً، Nadim Shehadi, *The Idea of Lebanon*, Centre for Lebanese Studies,Oxford, 1978, p. 10-11.

(١٤) عرف عن شهاب اعجاب بديغول شاركه إيّاه عدد واسع من مثقفيه والمحيطين به. فميشال أسمر، مثلاً، وهو مؤسس «الندوة اللبنانية» التي رفدت الشهابية بعدد من الشرّاح والمستشارين وضع ونشر منذ ١٩٣٨، أي قبل عقدين على وصول ديغول إلى رئاسة بلاده، كتاب «فرنسا المُحَارِبَة وشخصية الجنرال ديغول»، *Ibid.*, p. 13 n.

أما الثاني، الرئيس سليمان فرنجية، الذي جاء من إحدى أشدِّ المناطق المارونية احتضاناً للعلاقات الدموية المُوَسَّعَةِ، زغرتا، فلا ينطبقُ عليه ما ينطبقُ على شقيقه الأكبر حميد، الذي مثَّل لوناً من المصالحة بين ملكية الأرض والمواصفات السياسية المدينية، أي الأكثرَ حداثةً في الحدود اللبنانية للكلمة. وهذا الفارقُ هو ما لا تني تؤكِّدُهُ الصورةُ الشائعة عن سليمان فرنجية كما اعتاد أنصارُه ومؤيدوه على رسمها ـ صورة «شعبية» يعيش صاحبُها بين الأهل في زغرتا وعلى سويَّة عيشهم وفهمهم للعالم المحيط، على الضِّدِّ من «بيروتية» حميد الذي كان محامياً سَلَكَ في تدرُّجه التعليمي والمهني وجهةً مُشابهة لوجهة سياسيي الجبل.

ولئن عبَّر حميد، الذي كان أحد المحاضرين الثابتين في «الندوة اللبنانية»، عن بَرَمِهِ بـ «التزلمية» (Clientalism) التي رأى أنَّها «تُقْعِدُ النظامَ البرلماني إذْ تجعل عضوَ البرلمان مُعتمداً على دعم أزلامه اعتماده على خدمات الدولة كي يرضي بها أزلامه»(١٥)، فإنَّ سليمان يندرج في خانةٍ كاملةِ الاختلاف والمغايرة.

لقد كان الأخير مجرَّد ملاَّك زراعي لم تتوسط بلوغه إلى السياسة أيَّةُ حياة جامعية أو مهنية، ولا اتَّسَعَت مداركُه لأيَّةِ صلة بالمدينة ومسائلها الأكثرَ تعقيداً من العالم الأبْرَشِيِّ الضَّيِّق للريف.

وعن العزلة في زغرتا، التي تُعادل مِهَنِيَّةَ المؤسسة العسكرية في حالة شهاب، نجمت نزعةٌ خارجية تُعَزِّزُ عند الرجلين ميلاً إلى تبسيط التعقيد القائم، مُتَّجِهَةً إلى اقتحام السياسة ومُسْتَجِدَّاتِ المدينة بِعُدَّةٍ إصلاحية فجَّة أو مرتجلة، لكنَّها في الحالين فقيرة(١٦).

ولم يكن بلا دلالة أنَّ منطقتي زغرتا وكسروان التي ينتمي شهاب إلى إحدى بلداتِها الكبيرةِ نسبياً، غزير، تلتقيان، برغم اختلافاتهما، على كونهما منطقتي صفاء ماروني بعيد. فإذا اعتمدنا مثلاً، التقسيمَ الإداريَّ والانتخابيَّ المعمول به حتى ١٩٩٠، وجدنا أنَّ قضاء زغرتا يحظى بثلاثة نواب موارنة يمثلونه في البرلمان، فيما يحظى قضاء كسروان بأربعة موارنة لا شريك لهم من طائفة أخرى.

من ناحية ثانية، فإنَّ قضاء عاليه، ومنه بشارة الخوري، له، بحسب التقسيم إياه، نائبان مارونيان، ونائبان درزيان، ونائب أرثوذكسي. وقضاء الشوف، ومنه شمعون، له ثلاثة نواب موارنة ونائبان درزيان ونائبان سنِّيان وآخر عن الروم الكاثوليك، فيما يحظى قضاء بعبدا أو المتن الجنوبي، ومنه حلو، بثلاثة نواب موارنة ونائب درزي وخامس شيعي.

(١٥) Ibid., p. 29.

(١٦) كانت «حكومة الشباب» السلامية في أوائل عهد فرنجية عدته الإصلاحية.

ومع مشاركة جونيه وبعضِ قضاء كسروان سائرَ مناطق الجبل الماروني تَعَرُّضَهُ للتأثيرات الأوروبية الوافدةِ وإنماءَهُ العناصر الداخلية لاستقبالها، تميَّزت تلك المدينة وذاك القضاء باتِّصالٍ جغرافي مباشر مع الجرد الشمالي الأقلِّ تقدماً. لكن إذا كان التمايزُ المذهبي لدير القمر عن جوارها الدرزي، الذي كانت سوقه الحرفي والتجاري، قد حفَّز وُجهَتَهَا المتقدمةَ المغايرةَ والمتعايشةَ في آن معاً، فإنَّ الإتِّصالَ الجغرافيَّ ـ الطائفيَّ لكسروان قد ثقل على نموها مُخَفِّفاً من تأثيرات جنوبها المَتْنِيِّ عليها. كذلك كان لهذا الموقع أنْ جعل منها محطةَ تطوُّر وسيط بين الشمال والجنوب المارونيين، وفي الوقت نفسه مَحَجَّةً شهيرة لـ «العداء للغريب»(١٧).

هذا الضيق لم يكنْ بعيداً، بين أشياء أخرى، عن قيامِ الرئيس شهاب بنقلِ القصر الجمهوري من القنطاري، في «بيروت الغربية»، المدينة والعاصمة، إلى صربا في كسروان حيث كان يقيم(١٨). وهذا الإنتقال، الذي سار عليه الرؤساء اللاحقون، ليس ذا أهميّة شكليّة فحسب، إذْ الرأسمالية اللبنانية لم تبلغ ما بلغته بفعل مُقَدِّماتِها الجبليّة الأولى فحسب، بل أيضاً بفعل مدينة بيروت منذ اتَّسَعَ دورُها في القرن الماضي بنتيجة توسُّعِ التجارة مع أوروبا ووصولِ الملاحة البخاريّة، حتى اعتبر ألبرت حوراني أنَّ الإزدهارَ اللبناني هو حصيلةُ «العلاقة بين بيروت وجبل لبنان»(١٩).

ليس من غير المألوف أنْ ترفدَ مارونيّةُ كهذه، شبهَ خالصةٍ وشبهَ مُكتفيةٍ، في كسروان كما في زغرتا، ميلاً قطعيّاً في الثقافة الشعبية المحلية يستبعدُ دورَ السياسة في إحداثِ التوافق وتركيب المجتمع التعددي. أمَّا التجربةُ الشخصيّةُ، التعليميّةُ والمهنيّةُ، للرئيسين شهاب وفرنجية، فكان لها أنْ زكَّت هذا الإستعدادَ المشار إليه.

فكما التحقَ الأوّلُ مبكراً بالجيش الفرنسي، يوم كانت الشروطُ العلميّةُ لذاك الإلتحاقِ بسيطةً نسبياً، فإنَّ دراسةَ الثاني توقّفت عند المرحلةِ الثانوية في كليَّة الآباء اللعازاريين في عينطورة(٢٠)، وفي مرحلةٍ تاليةٍ اقترن شهاب بروزات نواريه وهي فرنسيةٌ، واقترن فرنجية بالمصرية إيريس هنديلي، فكانت الخارجيَّةُ التَّامَّةُ لهاتين الزيجتين تعبيراً عن ميلٍ مخالفٍ لما ساور زملاءهم الثلاثة الآخرين الذين توجَّهوا بأبصارهم نحو «الصالون البيروتي» والفرصِ السياسية التي ينطوي عليها.

(١٧) وهنا، على الأرجح، مصدر كلمة «الغريب» التي يُقال على نطاق شعبي واسع إنَّ أهل جونيه درجوا على إطلاقها على كل من يقيم بينهم، حتى لو استغرقت اقامته سنوات طويلة.

(١٨) بطريقته يروي كميل شمعون أنَّ السياسة اللبنانية في عهد شهاب «تقلصت حتى اصبحت بحجم تلك السياسة التي كان يمارسها (...) من مكتبه المتواضع في ذوق مكايل حيث حكم طوال ست سنوات من ضمن الجدارن بعقلية خاصة هي عقلية معاون في الجيش أو رقيب في الدرك». عن: انطوان خويري، **كميل شمعون في تاريخ لبنان**، دار الأبجدية، ١٩٨٧، ص ١٢٧.

(١٩) Albert Hourani, *Political society in Lebanon*, Centre for Lebanese Studies, Oxford, p. 11.

(٢٠) انظر ناجي كريم حلو، حكّام لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٤٣.

بلغةٍ أخرى، في مقابل المنحى العام الذي مثَّله الخوري وشمعون وحلو، والناهضِ على تعزيز السياسة وتضمينها وَشَبْكِهَا بعناصرَ اجتماعيةٍ تمنحها سِمَتَهَا العضويَّة، أو تُفاقِمُ مثلَ هذه السِّمَةِ وتُكَرِّسُهَا، نحا شهاب وفرنجية، تَبَعاً للمقدمات التي صَدَرا عنها وَعملا على عَكْسِهَا وتفعيلها، منحى إنقاص السياسةِ والإمعانِ في تفريغها، بما يُهَيِّؤُها للإحالة إلى قرارٍ إجرائيٍّ بيروقراطيٍّ مع الأوَّل، وإلى مزاجٍ شخصيٍّ لا تتحكَّمُ به الضوابط مع الثاني.

وليس من المبالغة أنْ يُقال أنْ لا سياسةَ الأوَّلِ الذي كان صعودُه إلى الرئاسة في ١٩٥٨ ردّاً توافُقِيّاً على تحدي المحيط، هو الذي مهَّدَ لصعود الثاني الذي كان في ١٩٧٠ ردّاً على التحدي إيَّاه من الطينة نفسها. فعن طريقِ العزلِ والفيتو وصوغِ الحياة البرلمانية بموجب الهوى الرئاسي، أسَّسَ فؤاد شهاب لـلإحتقانِ الماروني الذي عاد لينفجر بلا قيود مع سليمان فرنجية، مُستفيداً من الظروف التي خلَّفَتْهَا هزيمةُ ٥ حزيران العربيَّةُ وارتداءِ التَّحدّي العربي زيّاً أهليّاً صريحاً تمثَّلَ في فصائل «المقاومة الفلسطينية».

ففي المرَّةِ الأولى، مع شهاب، كان الإنقلابُ على السياسة في شكلٍ دولتي (etatist) مبالَغ فيه، وفي الثانية اكتسبَ الأمرُ شكلَ انقلابٍ على الدولة التي جَعَلَ تَفَتُّتُ المجتمعِ ينتقلُ إلى سُدَّتِها بلا رادع أو ضابط.

تكوين الرئاسة

ربَّما كان لعراقة النَّسب الشهابي معطوفةً على فقر فؤاد شهاب الذي حمله في صباه إلى العمل «مُبَاشِراً» في محكمة جونيه[٢١]، أنْ مهَّدت لميلٍ حاد لم يَكْتُمْهُ الكثيرُ من السِّيَرِ الأرستقراطية التي تَعَرَّضَ أصحابُها للتفسخ والانهيار في غيرِ مكانٍ من العالم وفي غيرِ حقبةٍ زمنية. ففي دراسته حول «أزمة الأرستقراطية» الإنكليزية، لاحظ لورانس «ستون أنَّ البيوريتانية (puritanism) في القرن السابع عشر تركت تأثيرات حادة على مُتَفَسِّخي تلك الأرستقراطية مِمَّن «أخذهم بعيداً التيارُ الصاعدُ لدعاياتها ضد الهَدْرِ والتبذير والقمار والشرب» كما أُخذوا بـ «عبادةِ الفضيلة»[٢٢]. وفي رصده لِتَطَوُّرِ التوتاليتارية في اليابان يرى بارينغتون مور أنَّ خَفْضَ مرتبات طبقةَ الساموراي المحاربةَ في مطالع القرن التاسع عشر ومَنْعَ المحاربين من ممارسة أيِّ نوع من التجارة بما دفع بهم إلى العوز، جعلا هذه

(٢١) المرجع السابق، ص ١٠٥، كذلك انظر الياس الديري: **من يصنع الرئيس**؟، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٢٢٧.

(٢٢) Lawrence Stone, *The crisis of aristocracy, 1558-1641*, (abridged ed.), Oxford University press, 1974, p. 88.

الطبقة عند أواخر القرن الماضي «على استعداد لأيِّ مشروعٍ عُنْفِيّ»[٢٣].

وفي جبل لبنان الماروني نفسه هناك مُقَابِلٌ سابق على الشهابية في الأرستقراطية الكسروانية التي أفضى تراجُعُها السياسي إلى خياراتٍ قصوى اعتمدتها «نخبتُها». فيوسف الخازن، أحد أبرز أعيان عائلته في النصف الأوَّل من القرن، كان أحدَ الموارنة النادرين المتعاطفين مع الفاشية كما كان يُذيعُ أحد البرامج من إذاعتها في روما[٢٤]، أما قريبُهُ فريد الخازن فكان قد سَبَقَهُ في إبداء الولاء للقومية العربية كما رمز إليها الأمير فيصل في دمشق والذي كان الخازن مُقَرَّباً منه[٢٥]. وفي الوقت نفسه تقريباً كان الخازنيون يواجهون التحدي المتعاظم لبقايا زعامتهم في كسروان كما مثَّله «حزب الشعب» أو «الجبهة الشعبية» بقيادةِ حبيب بيطار وجورج زوين وبولس نجيم ونعوم باخوس المُتَفَرِّعِينَ عن عائلات عامية وفلاحية صاعدة[٢٦].

ربَّما كانت لتجربة الجَدِّ، أي المير بشير الشهابي الثاني، تأثيراتُها القويَّةُ على عقل الحفيد الشهابي. فبشير كان أيضاً من فرع شَهَابِيٍّ غزير، عرف طفولةً اتسمت بالقسوةِ والحرمان ومارس لوناً من الاستبداد مصحوباً بالحدٍّ من نفوذ الكُبَرَاء مالكي الأرض والسلطان. وبمعالجةٍ تجمعُ بين التَّقِيَّةِ والمكر في تعاملها مع المشكلةِ الطائفيَّة البادئةِ والمتفجرةِ عهد ذاك، ظلَّ انتماؤه الطائفي والمذهبي، برغم الترجيحات، واحداً من الأمور التي يصعب فيها الجزم بصورة قاطعة.

يبقى أنَّ التأثيرين المحتملين (التفسخ وتجربة الجَدِّ) قابلان، فضلاً عن نتائج أخرى، للإفضاء إلى الوجهة التي سلكها الرئيس فؤاد شهاب إبَّان رئاسته، خصوصاً لناحيةِ الموقف من السياسة والسياسيين.

فالسياسيُّ الماروني الوسطي هو، في واحد من وجوهه، رمزٌ للصعود الإجتماعي بعد تراجع موقع الأمراء والأرستقراطيين وذهاب ريحهم. وهو، في وجه آخر، وتبعاً للتكوين شبه الفيدرالي الذي نهضت عليه علاقاتُ الطوائف والمناطق و«الحصص» في

(٢٣) Barrington Moore Jr., *Social origins of Dictatorship and Democracy*, Penguin University Books, 1974. p. 236.

ومن اجل تجربة اخرى حديثة وقوية التأثير تربط بين سَوْق تركيا نحو التقدم وتفسخ السلطنة العثمانية ودور الجيش كمرآة تنعكس عليها بحدة آثار التفسخ، انظر دراسة ريتشارد ل. تشامبرز عن «البيروقراطية المدنية» والأتاتوركية في: R.E.Ward and D.A. Rustow (ed.), *Political modernisation in Japan and Turkey*, Princeton University Press.

(٢٤) انظر: الشيخ الخازن، **الدولة اليهودية في فلسطين**، تقديم وتعريب وتعليق الدكتور غسان الخازن، دار مختارات، ١٩٨٧، ص ١٠٩ فصاعداً.

(٢٥) من مقابلة شخصية مع منح الصلح في بيروت.

(٢٦) Marwan Buheiry, «Bulus Nujaym and the Grand Liban ideal 1908-1919», in: M.B. (ed.), *Intellectual Life in the Arab East. 1908-1939*, American University of Beirut. 1981, p. 68.

لبنان الحديث، تذكيرٌ دائم بالرجالات الذين تصدّى لهم الجَدُّ الشهابي حين حاول أنْ يُطلِقَ مشروعاً مبكراً للصهر والتذويب.

لقد كره فؤاد شهاب السياسيين ممن أطلق عليهم تسميةَ «أكَلَةِ الجبنة» كما بات معروفاً جيداً، بقدر ما كره السياسة التي لا بُدَّ من مُداراتها بالتَّقِيَّةِ والمَكْر علي ما فعل الأميرُ الجَدُّ. ذلك أنَّ اللعبةَ البرلمانيةَ لا تُوصِلُ، من زاوية نظر عداليَّةٍ ومهنيَّةٍ، إلَّا إلى تعادل يقودُ بدوره إلى إنسدادٍ كما حصل في ١٩٥٢، حين تسلَّم شهاب رئاسة الحكومة وروادَتْهُ فكرةُ «تحديد عدد الصحف» كما يروي موظف كبير في الحكومة عايش عن قرب عدداً من رؤسائها(٢٧)، وهو ما تكرَّر على نطاق أوسع في ١٩٥٨ مع تسلُّمِه رئاسة الجمهورية.

فما ينبغي البحثُ عنه، كما تدلُّ التجربتان اللتان أعقبتا حالَتَيْ توازن أهليٍّ وسياسيٍّ، هو «الحلُّ» الآتي من خارج السياسة ومؤسَّسَتِها البرلمانيَةِ الدستوريَّةِ، ومن خارج «لعبتِها»، الكلمة التي تثير اشمئزازاً بعيداً عند أصحاب الوعي العداليِّ والأخلاقيِّ الخالص. ذلك أنَّ بلوغَ اللعبة طورَ التعادل والإنسداد يعني، بحسب هذه النظرة، خطأ اللعبة نفسِها والحاجةَ إلى تغييرِها، أو على الأقلِّ إلى التَّدَخُّلِ الخارجيِّ لتنظيمها، لا النظرَ إليها بوصفها حاضناً طبيعيّاً للتناقض الذي لا يُحَلُّ إلا عبر استئنافِ اللعبةِ إيَّاها.

بطبيعة الحال كانت حدَّةُ التحدي الراديكالي ـ الوحدوي الزاحف من «الجمهورية العربية المتحدة» وسياستُهَا المناهضةُ للغرب، عنصراً طاغياً في دفع الأفكار الشهابية نحو هذه النهايات الحاسمة. وهنا لا بُدَّ من مُجافاة التحليل «الداخلي» البحت بالمعنى التقني للكلمة، أي ذاك الذي لا يَلْحَظُ حجمَ القدرة على استدخالِ الوضع العربي في الوضع اللبناني. ومُجافاة هذا التحليل تُفضي بدورها إلى رفض إرجاعِ الإنهيار الشمعونيِّ وصعودِ شهاب في ١٩٥٨، أو الأزماتِ اللبنانية اللاحقة، إلى مجرَّد عوامل لبنانية مقطوعة الصلةِ عن تفاعلاتها مع الجوار ومسائله وقواه.

فمن نتائج التحدي الناصري أنَّه بَدَلَ أنْ تكون السياسةُ الخارجية أحد تعابير التوازن السياسي في الداخل، كما هي الحال في أيِّ مجتمع برلماني مستقرٍّ، راح التوافقُ مع المحيط، وهو محيطٌ مضطرب وضعيفُ الصلة بالحياة الدستورية وإملاءاتها وثقافتها، يُساهم في تكييف الحياة السياسية في الداخل عن طريق القرار الفوقي المُعَطِّلِ لها. هكذا تكفُّ المؤسسةُ التشريعية الأولى (البرلمان) عن أنْ تكون مؤسسةً أولى، فيُكتَفى بالمحافظةِ على طابعها الصُّوريِّ وما هو شكليٌّ من لعبتها، فيما يُصار إلى نقل السلطةِ

(٢٧) انظر صلاح عبوشي، **تاريخ لبنان الحديث من خلال ١٠ رؤساء حكومة**، دار العلم للملايين، ١٩٨٩، ص ١٦٨.

الفعلية إلى «أجهزة» تُناطُ بها المهامُ التنفيذيّةُ تحت إمرةِ رئيس الجمهورية وإشرافِه. وبَدَلَ السياسةِ في معناها الأساسي الذي يُسبِغُ الأولويَّةَ على ترتيب شؤون البيت الوطني الداخلية من تعليم وطبابة ومواصلات وغيرها، مُشَرِّعاً بما يُلائم هذا المسار ومُراقباً وضع القرارات المتصلة به موضعَ التنفيذ، بَدَلَ ذلك تَحظى السياسةُ الخارجيَّةُ بتوكيدٍ مُبالَغٍ فيه(٢٨) ومُبَالغٍ بالتأثيرات المترتبة عليه، يُوازيه التوكيدُ على «الإنماء» بما يستدعيه من تسريعٍ شبه إنقلابي لحركةِ التَّطَوُّرِ الاجتماعي، ونزعةٍ إلى حرق مراحلها التي شكَّلتها حِقَبٌ تاريخية مديدة. وبمثل هذا التسريع الذي يطمحُ بتغيير المجتمع وإعادة صوغه عبر التَّأثير في شتّى جوانبه، إستندت الشهابيةُ إلى مشروعٍ وصفه وضّاح شرارة بأنَّه «لا يَقِلُّ عن مدِّ جذور الدولةِ إلى قلبِ المجتمعِ، وإرساءِ السيطرةِ السياسيةِ على حصونِ وخنادقِ المجتمعِ الأهلي»(٢٩).

وإذا كان الإنسدادُ والمأزقُ هما ما ينتظران «عقلانيَّةَ» السياسة في آخر مطاف محتم، فإنَّ نكهةً مُخَفَّفَةً من السِّحر والصوفية صالحةٌ لأنْ تُشَكِّلَ علاجاً نافعاً بقدر ما تنمُّ عن إزدراءٍ بالعلنيَّةِ والإنكشاف المُفْتَرَضَيْن للسياسة، وبتعريضها الدائمِ لاحتكاكِ العلاقة بالشعب وطلب رأيه. وفي حدود المعاني التي تحملها الرواياتُ الشعبية، لا يبدو عديمَ الدلالة ما جرى عليه اللبنانيون حينذاك حين راحوا يُقارنون الخباء الشهابيَّ بأيام حكم كميل شمعون الإستعراضية، وزياراته المُتَعَدِّدَةِ للخارج، واستقبالاتِه المتكررة لملوك العالم ورؤسائه، وحضوره بين الناس، وتألُّقِهِ، وزوجته زلفا، من دون إسباغ أيِّ تقديسٍ بيرنيٍّ عليها. وربَّما كان ما يُلِحُّ في التَّنبيه وجودُ جون كيندي وزوجته جاكلين في البيت الأبيض خلال بعض سنوات مكوث شهاب في قصر صربا.

أمَّا في حدود التَّسحير المطلوب، فُعرِفَ الرئيس شهاب بمواصفاتٍ مطابقةٍ لدوره، كالصّمت وعدم مخاطبة الناس إلاّ لِماماً والعزوفِ عن الظهور العامِّ حتى أطلق بعض مناصريه لقب «القديس»عليه، فكان في ذلك، وهو الذي لم يُنجب أبناء، «أباً» وطنيّاً لا يَسَعُ الشعبَ ـ الأبناءَ إدراكُ الأسرار الخطيرةِ التي تجولُ في ذهنه، ولا السُّمُوُّ إلى مصافِ نزاهته وعدالته الخالصتين المُتَرَفِّعَتَيْن عن كلِّ تناقضٍ ترابي.

ويبدو أنَّ السيرةَ الشخصيةَ ـ السياسيةَ لشهاب قدَّمت إسهاماً آخر في هذا التصوّر المصنوع من موادَ فعليَّةٍ ليست ضئيلة. فهو حين تولّى رئاسة الحكومة (١٩٥٢)

(٢٨) تُلاحظ حنّة ارندت أنَّ مثل هذا الإهتمام شبه الآحادي بالسياسة الخارجية بدأ في الأصل تعبيراً عن انقلاب راديكالي نفذته الثورة الفرنسية ضد التصور اليوناني للسياسة، وتحول بعد ذلك إلى احد تقاليدها. وقد أسفر هذا الإنقلاب عن إعدام الملك لويس السادس عشر بصفته خائناً ومتعاوناً مع قوى أجنبية لا بصفته طاغية أو مستبداً. انظر Hannah Arendt, *On Revolution*, Pelican Books, 1982, p. 91.

(٢٩) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد ـ لبنان المجتمع والدولة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧**، معهد الانماء العربي، ١٩٨٠، ج ١، ص ٢٩.

تولّاها مع تعليقِ الحياة السياسية أواخرَ عهد بشارة الخوري وقيامِ «الثورة البيضاء» وذلك في صورة استثنائية تُمَهِّدُ للإنتقال الدستوري. لكنّه في عام ١٩٥٨، ومع نشوء المأزق مجدداً نتيجةَ النزاع الأهلي ـ الإقليمي لذاك العام، تحوّل إلى منقذٍ أوحدَ يُناطُ بشخصه الإستئنافُ الدستوريُّ. وما ظلَّ خافياً يومذاك من هذا الدور الإنقاذي ظهر على نحو جَلِيٍّ بعد عودته عن استقالته في ٢٠ تموز ١٩٦٠[٣٠]، ليتعزَّزَ بعد المحاولةِ الإنقلابيةِ الفاشلةِ التي قادها «الحزب السوري القومي الاجتماعي» في آخر أيّام العام ١٩٦١[٣١].

بمعنى آخر لم يشذ نهوض شهاب للَعِبِ دور البطلِ المنقذِ عن الشروط التي غالباً ما تَحُفُّ بهذا الدور وأدائه، وأبرزُها، كما رأينا، تعليقُ السياسة عند ظهور مأزَقِهَا. عند ذاك فقط تَشْخَصُ الأبصارُ إلى مؤسسةٍ أخرى، غير سياسية، وأوفرُ المؤسَّسات حظاً هي تلك العسكرية.

وفي الحالةِ اللبنانيةِ مثّلت الأخيرةُ، من خلال شهاب، موقعاً مُتعالياً عن الشعب من دون أن يصطبغ بسلوكيات «القمع الوضيع» المعهود في المؤسَّسات العسكرية الأميركيةِ اللاتينية. ولم يكن هذا، في أحد وجوهه، غيرَ استئنافٍ لذهنيّة المُنْتَدِبِ الفرنسيِّ التي هي أيضاً، وتعريفاً، منقطعةٌ عن المجتمع وبالغةُ الإثارةِ لإعجابِ شهاب وانبهاره. فالأخيرُ، بحسب شهادةِ ضابط زامله منذ ١٩٥٥ «كان مُتعالياً يحتقرُ النّاس. هو أمير ولواء جاء من عند الضباط الفرنسيين. ينظر من هذا المنظار إلى الناس (...) لا يُؤمن إلّا بالفرنج. الرأيُ الوحيدُ الذي يأخذُه في اعتباره هو رأيُ الضابط الفرنسي ليه الذي جاء به شهاب في ١٩٥٥ وعيَّنَهُ قَيِّماً في الجيش، وقد أبقاه إلى جانبه حين أصبح رئيساً للجمهورية وحتى ١٩٦٤»[٣٢]. وكان من الطبيعي أن يبدو هذا الموقف الانتدابيُّ (الخارجيُّ) الخالصُ موقفاً خَلَاصِيّاً ينأى بصاحبه عن التناقضاتِ المباشرةِ والمُلِحَّةِ وعن التعامل معها انطلاقاً منها بالتحديد. وهذا على الأقل ما تقوله تجربةُ انتساب غابي لحود، القطب الشهابي لاحقاً، إلى المؤسّسةِ العسكرية. فقد اختار لحود الجندية «لِمَا كانت تُمَثِّلُهُ من ابتعاد عن السياسة». وهو يمضي في قصِّ تجربته: «كنتُ اتألَّم من التناحر الدستوري ـ الكتلوي. الشيخ نديم الخوري، شقيق الشيخ بشارة، كان يُقيم في بيت الدين، والمطران البستاني المُقَرَّبُ من إميل إدّه كان مَقرُّه هناك. عند كلِّ الشباب الرافضين للتناحر السياسي التقليدي كان الجيش وفؤاد شهاب يمثّلان هذا الإبتعادَ. الشاب الذي يُريد أنْ يكون مُسْتَقِلاً، عليه بالجيش»[٣٣].

(٣٠) وهناك صورة شهيرة للنواب وهم يرفعونه على أكتافهم احتفالاً بالعودة.

(٣١) من أجل وجهة نظر سورية قومية ـ شمعونية عملًا بالتحالف القائم يومذاك، انظر: فؤاد عوض، **الطريق إلى السلطة**، لا ذكر للدار.

(٣٢) انظر حازم صاغية: **موارنة من لبنان**، المركز العربي للمعلومات ١٩٨٨، ص ٣٤.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٣٣٠ (الشهادة المذكورة لفؤاد عوض).

الانمائية الاقطاعية[٣٤]

سبقت الإشارة إلى بعض المقدمات التي صَدَرَ عنها وعَكَسَهَا فؤاد شهاب، وبينها كسروانيّةٌ شِبْهُ مكتفيةٍ ترفد المَيْلَ القطعيَّ الذي لا يطرَحُ على ذاته التوافقَ بصفته مَهَمَّةً تنبثقُ من نسيج العلاقات الاجتماعية. بَيْدَ أنَّ هذه السِّمةَ لا تكتملُ دلالاتُها من دون الإشارة إلى سِمَةٍ أخرى صاحبت الشهابيّةَ وتركت بصماتِها عليها.

فالعائلةُ العريقةُ التي مِنْهَا شهاب، جمعت إلى قضائها الإداري المغلقِ امتداداً عَشيرياً يجد جذره في تَوَزُّعِهَا على عدد من المناطق والطوائف اللبنانية. وأغلبُ الظنِّ أنَّ فرعيها الكسرواني الماروني والمسلم السني المقيم في حاصبيّا أبرزُ تلك الفروع المُتَوَزِّعَةِ وأَهَمُّها. لكنَّ المحيطَ الواسع للعائلة الشهابية لا يقومُ والحالُ على ما هي عليه، على الروابط التي تؤسِّس لنشاطٍ سياسي يُسَوِّغُهُ الإنقسامُ الطائفيُّ والتقسيمُ الإداريُّ المعمولُ به. فإمكانُ الجمع بين شهابية كسروان المارونية وشهابية حاصبيّا السنيّة، مثلاً، في «مشروع» سياسي منسجم ومتكامل يَبْقَى إمكاناً معاقاً إنْ لم يكن مُستحيلاً بفعلِ الإختلافين الجَلِيَّيْنِ، الطائفيّ والجغرافي ـ الإداري. وهذه الإستحالةُ، إذا ما أُرفِقَت بالتَّمَسُّكِ العائلي، تقودُ بدورها إلى تعزيز الإتجاهات المُجافِيَةِ للسياسةِ ومقدِّماتها، أتَمَثَّل ذلك في إيثار «ماضي» القوَّةِ والوَحْدَةِ والإمارةِ على «حاضر» ضَعْفِ العائلة وتناثُرها، أمْ تَمَثَّلَ في ارتباطِ «الأصل» و«النسب» بذاك الماضي الذهبي الذي يُثيرُ حنينَ العودة والبعث.

ولئن كان في وُسع هذه الإتجاهات أنْ تُساعد في تغليب ما هو غامضٌ ومُداورٌ، وربما صوفيٌّ، على العمل السياسي المحكومِ بمعطيات الوَحْدَةِ السياسية ـ الإدارية، فإنَّ في وُسعِها أيضاً أنْ تُزَكّي ميولاً أشدَّ تبلوراً في موقعها المجافي للسياسة، والسياسةِ في خصوصيتها اللبنانية على نحو مُحَدَّد.

فالعائلةُ النَّواتيّة الصغرى التي انبثقَ عنها معظمُ السياسيين الموارنةِ الجبليين، إنْ لم يكن كلُّهم، لن تكون مدعاة لغير المقتِ والإشمئزاز المسكونين بانحيازٍ لزمن العشيرةِ المُوَسَّعَةِ وقوّتِها و«سياستها»، أي الزمنِ السابقِ على صعود الطوائفِ بصفتها هذه حيث «كان يُمكِنُ تفسيرُ معظم التاريخ السياسي (...) على ضوءِ العلاقات بين عائلاتٍ ثلاث، الشهابيين السنة، والجنبلاطيين الدروز، والخازنيين الموارنة»[٣٥].

(٣٤) نسجاً على منوال «الاشتراكية الإقطاعية» وهي التسمية التي أطلقها كارل ماركس على كراهية الرأسمالية لا حباً بالاشتراكية، التي يفترض بحسب ماركس أن تتلوها، بل حبّاً بالإقطاعية التي سبقتها.

(٣٥) Albert Hourani, *Political Society...*, *op. cit.*, p. 8.

بهذا، فإنَّ الموقفَ من العائلة الصغرى، التي هي الصِّلةُ والوسيطُ بين الفرد والطائفة، سينسحبُ على «الطائفة» التي تنهضُ السياسةُ اللبنانيةُ على اعتمادِها وَحْدَةً لها وأساساً. إذْ غنيٌّ عن القول إنَّ «العشيرةَ» كانت الضحيَّةَ لهجومٍ مزدوجٍ شنَّتْهُ العائلةُ النَّواتيَّةُ من موقعِ الصلب القاعدي، كما شنَّته الطائفةُ من موقعِ الصياغةِ المؤسَّسِيَّةِ للمجتمع وعلاقاته.

لقد تضمَّنت الشهابيةُ ردّةً ضد الطائفةِ والطائفيةِ بما هُما تعبيرٌ عن مستوى اجتماعيٍّ متقدِّم بالقياس إلى روابط الدم والقرابة. وكانت هذه الردَّةُ تنطلق من تَصَوُّرٍ سابق عليهما، ولو ظلَّ مُضمراً، بقدر ما كانت انقلابيّةً تُحاول «صهرَهُمَا «عبر المؤسّسةِ العسكرية التي أُوْكِلَت لها مَهَمَّةَ إنشاء «الوَحْدَةِ الوطنية».

لكنَّ الشهابية حملت أيضاً، إلى ذلك، روحَ المحليَّةِ الضَّيِّقَةَ التي لا تجدُ لها في كسروان غير الطائفية، التي لم تنفصل عن عشائريتها تماماً، وعاءً وتعبيراً هُما وعاءُ الأمرِ الواقع وتعبيرُهُ. فكانت بهذا كله، تُحاول وَحْدَةً بسيطةً، ماضويّةً، مَرْجِعُهَا المضمرُ الدمُ والنسبُ، من غير أنْ تختفي في محاولتها آثارُ مارونيّةٍ أصابها البَرَمُ وَوَسَمَهَا الضِّيقُ بِمَيْسَمِهِ.

هكذا شكَّلت المؤسَّسَةُ العسكرية مكمَنَ القوَّة وحافظةَ الهويةِ الشهابيتين في آنٍ معاً. فالمؤسَّسةُ المذكورة نموذجيّةٌ تقليدياً في «غزو» السياسةِ من خارجها وفي العمل من وراء ظهر المجتمع، وذلك جَرْياً وراء «مصلحة» المجتمع التي لا يعرفُها أفرادُه كما تقولُ سائرُ النَّزَعَاتِ الإستبدادية في صورة مُحَوَّرَةٍ.

فالأمراء الشهابيون درجوا، أصلاً، على إيثار «الوظيفة على أيِّ عمل آخر. وقلَّ أنْ تجد دائرةً في الدولة إلَّا وفيها شهابيٌّ أو أكثر»(٣٦). وبالنسبة للجيش تحديداً، فمنذ بداية تأسيس الإنتداب الفرنسي للمؤسسةِ العسكرية «كان أكثر المتطوعين من الأسر القديمة ولا سيَّما الشهابيين (الأمراء فؤاد، عادل، جميل، بهيج، لويس، عبد القادر...)»(٣٧). وبعد نيل الإستقلال في الأربعينات، كما في عَهْدَيْهِ الأوَّلَين، تَبَوَّأَ هؤلاء أرفعَ مناصب المؤسّسة العسكرية. ففي ١٩٤٥ عُيِّنَ فؤاد شهاب قائداً للجيش، وفي ١٩٥٤ عُيِّنَ جميل قائداً لمنطقة لبنان الشمالي، كما عُيِّنَ عادل قائداً لمنطقة البقاع، وعبد القادر لنيابةِ رئاسة الأركان، وهنري لقيادةِ الفوج المضاد للطائرات، ولويس لقيادةِ الشرطة العسكرية، وبشير لرئاسةِ قلم الموظفين المدنيين في الجيش(٣٨)، أي أنَّ المؤسّسَة العسكرية حملت، من وجهة نظر العائلة الشهابية على الأقل، واحداً من ملامح الجيش الأمبراطوري الذي يُعْهَدُ

(٣٦) ... عيتاني. **مذكرات بيروتي**، وثائق ودراسات لبنانية ٣، جامعة بيروت العربية. ١٩٧٧، ص ٣٣.
(٣٧) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٢٥٢.
(٣٨) عن فؤاد عوض، **الطريق إلى السلطة**، سبق الاستشهاد، ص ٥٦ و٥٨.

إليه بعثُ مجدٍ أو أحياءُ دولةٍ تَعَاوَرَتْهَا عواملُ الضَّعْفِ والتَّردِّي، فيما كانت رابطةُ الدم إحدى ضمانات «الخلاص» بمعناه النضالي، وربَّما الصوفي أيضاً.

لقد شكَّل هذا السلكُ عِشّاً آمناً لا يَقِي فقط من تَقَلُّبات الزمن التي حملت بعضَ أبناء العامَّةِ إلى الصدارة الإقتصادية والسياسية، بل يُمَهِّدُ أيضاً للردِّ على تلك التقلبات عبر السيطرة على مصدر القوَّة وما يزخرُ به من مكانة. وبمِثْلِ هذا الردِّ، الذي لا يستأذن العلاقاتِ نفسها ولا يمرُّ بقنواتها، يُعاد الإعتبارُ إلى نقاءٍ «أصليٍّ» بل «طبيعيٍّ» عَمِلَ «الخطأ» الإجتماعيُّ على تهديده بالتلوث وإضعافِ السَّطوة.

والراهنُ أنَّ فؤاد شهاب الذي تنتمي والدتُه أيضاً، السيدة بديعة حبيش، إلى عائلة أرستقراطية عانت هي الأخرى تقلبات الزمن الماروني وصعودَ العامَّة، لم يقتصر في ستعمال حُكْمِه، فضلاً عن الاستعمالات الأخرى، في الوُجْهَةِ هذه. فقد أُعيدَ الإعتبارُ إلى صنفٍ من الأرستقراطيين، خصوصاً منهم الإداريين والموظفين، إمّا عبر ترفيعهم في الإدارةِ أو عبر فتح باب البرلمان أمامهم، بما لا يترك مجالاً للشكِّ حول المواد التي وُظِّفَت في غزو السياسة من خارجها. فالمير عبد العزيز شهاب، قريبُ الرئيس وصاحبُ الآراء الصارمة في الإصلاح الإداري، أصبح واحداً من أركان السياسة اللبنانية في سنوات الحُكْم الشهابي. وعبد العزيز، وهو حفيدُ خليل بن بشير الشهابي، لم يُعْرَفْ بأيَّةِ سابقةٍ سياسية، إذ اقتصرت حياتُه العامَّة على النشاط الإداري كمُحَقِّقٍ في جبل لبنان وبيروت، ومحافظ للشمال والجنوب، ومفتشِ دولة ومدير للداخلية، قبل أنْ يصبحَ نائباً في انتخابات ١٩٦٠ العامّة التي كانت الإنتخاباتُ الأولى التّي يُجريها العهدُ الشهابي(٣٩). وربّما كانت حالة عبد العزيز (وآخرين) تعبيراً عن تقريب المسافات بين الإدارة والبرلمان على ما تفعل الأنظمةُ الميَّالةُ إلى الدَّمج والتوحيدِ وإفراغِ المؤسّسة التشريعية من مضمونها.

وفي النواة الشهابية للدائرة الأرستقراطية الأوسع، عُيِّن عادل شهاب في ١٩٥٩، أي في العام الثاني لوصول فؤاد شهاب إلى رئاسة الجمهورية، قائداً للجيش، ورُقِّيَ موريس شهاب في العامِ نفسه ليُصبح مديراً عاماً للآثار، فانطوت الخطوتان على دلالةٍ رمزية تجمع قوَّةَ الجيش إلى وَزْنِ التاريخ وذاكرَتِهِ الحافظةِ، وهما قوَّةٌ وذاكرةٌ لا تستقيمُ من دونهما شهابيّةٌ تَجِدُ في الأمير بشير مُسْتَنَدَهَا وجدَّها الأعلى. وفي سنة ١٩٦٤، وهي الأخيرةُ في عمر الولاية الشهابية دون أنْ تكونَ الأخيرةَ في عمر النفوذ الشهابي، أُلْحِقَ شكيب شهاب بوزارةِ الإعلام، وتولّى حارث شهاب رئاسةَ دائرة الرقابة في الوزارة نفسِها،

(٣٩) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٥١٤. كذكل أنظر الفصل المتعلق بعبد العزيز شهاب في الكتاب نفسه، بالنسبة لموقفه من الإصلاح ولاعتراض كمال جنبلاظ في ١٩٦٨ على نقص شعبيته مما حال دون اصطحابه معه على اللائحة بعد أن كان اصطحبه في دورتي ١٩٦٠ و١٩٦٤ النيابيتين. والجدير بالذكر أنَّ العام ١٩٦٨ هو الذي سجّل الظهور العلني لعلامات الضعف الشهابي وكذلك بداية الإنفكاك الجنبلاط العلني عنها.

وكان إيف شهاب قد عُيِّنَ، قبل عامين على ذلك، عضواً في مجلس الدولة الأعلى[٤٠].

أمّا النواةُ الأعرضُ قليلاً والتي تضمُّ شهابيِّي حاصبيا السُّنَّةَ، فحظيت بمقعدٍ انتخابي لخالد شهاب عن القضاء المذكور في ١٩٦٠، وكان سبق لخالد شهاب، في ١٩٥٢ و١٩٥٣ أنْ شكَّل الحكومتين اللتين عرفتا بـ «حكومَتَيْ الموظفين» فضمَّت الأولى فضلاً عن شهاب، كُلًّا من موسى مبارك وجورج حكيم وسليم حيدر، واقتصرت الثانية على حكيم وحيدر[٤١].

وفي ١٩٦٤ حلَّ سهيل شهاب، إبن خالد، في المقعد النيابي الذي احتلَّه والدُه، قاطعاً الطريقَ على زعاماتٍ بورجوازيةٍ صغرى وعائلاتٍ بدأت تظهر لها أدوارٌ محليّةٌ عن طريق التجارة أو الوظيفة أو التعليم كعائلات ماضي وسويد وغيرهما[٤٢].

وفي نطاقِ الدائرة الأرستقراطية نفسها اختيرَ الشيخ فريد الدحداح في ١٩٥٩ رئيساً لمجلس الخدمةِ المدنية، وأخذَ يشترك، منذ ذلك الحين، في حضور جلسات مجلس الوزراء[٤٣]. وإذا كانت عائلة الخوري قد نجحت، بِسَبَب من صلتها ببيروت و«صالونِها»، في تشكيل إحدى حلقات الإتِّصالِ بين الأرستقراطيّة ذات المنشأ الريفي وبين المصالحِ والسياساتِ الأكثرَ حداثةً في المدينة، فإنَّ شهاب لم يقتصر في محاولةِ إنعاشها ومدِّها بعناصرِ الإستمرار بعد رحيل الشيخ بشارة. وربَّما كان هذا الإنعاشُ أَحَد مصادر التشبيه الدارج بين الشهابية والدستورية، وهو تشبيهٌ يُسْتَقَى من «الإعتدال» الداخلي والسياسةِ العربية للإثنتين. فقد جيء بخليل بشارة الخوري نائباً عن دائرة عاليه في دورات ١٩٦٠ و١٩٦٤ و١٩٦٨[٤٤]، أمَّا شقيقُه ميشال، فـ «يعود دخولُه الحياةَ السياسية عمليّاً إلى الرئيس فؤاد شهاب الذي كلَّفه خلال عهده القيامَ بمهمات سياسية واقتصادية في الخارج والداخل»[٤٥].

وما ينطبقُ على خليل وميشال الخوري ينطبقُ برغم الإختلافات والتفاصيل، على كثيرين كالشيخ فؤاد حبيش صاحب «دار المكشوف» الذي أعاد إحياءَ داره عبر ما وفَّرَتْهُ

(٤٠) انظر البطاقات الشخصية لعادل وموريس وشكيب وايف وحارث شهاب في أرشيف جريدة السفير وفي الـ *Who's who in Lebanon?*

(٤١) أنظر ناجي كريم الحلو، **حكام لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٤٢) من مقابلة شخصية مع محمد أبي سمرا (من قضاء حاصبيا) في بيروت.

(٤٣) الياس الديري، **من يصنع الرئيس**؟، سبق الاستشهاد، ص ٦٠٨.

(٤٤) يطرح التلوث الذي حفَّ بشخص خليل الخوري أسئلة جدية على نقاء الشهابية واختياراتها، وبالتالي إمكان تعايش المتناقضات في حالاتها القصوى (نزاهة ـ فساد) حين تنهار الضوابط السياسية والدستورية. هذه الحالة التي تكررت على نحو أشدّ سطوعاً في تجارب توتاليتارية أو دولتية متعددة وجدت صياغتها الشعبية على شكل التمييز بين نزاهة القائد الأب وفساد المحيطين به.

(٤٥) الياس الديري، **من يصنع الرئيس**؟، سبق الاستشهاد، ص ٤١٧.

له مطبوعاتُ الجيش والدولة[٤٦]، والمحامي الشاب فاروق أبي اللمع الذي كَان قريباً من مجموعةِ الشهابيين الشُّبَّان، وحقَّقَ لاحقاً مع الرئيس الشهابي إلياس سركيس صعودَ نجمِهِ إلى المديريّة العامّةِ للأمن العام. وبحسب رواية أبي اللمع نفسِه عن بدايات حياته العامة، تعرَّض بُعَيْدَ تدرُّجِهِ كمحام في مكتب أدمون رباط، «لتجربةٍ ذات مغزى»، إذْ استدعاه قريبُه فؤاد شهاب، وكان قد انتُخِبَ لِتَوِّهِ رئيساً، وسألَهُ ما إذا كان يُوافق على أنْ يكونَ سكرتيراً له[٤٧].

كذلك تمَّ استحضارُ الزعامة الخازنية في انتخابات ١٩٦٤ عبر نيابةِ الياس الخازن، بعد أنْ كان بدا أنَّ النائبَ الراحل كلوفيس الخازن هو آخر حبّات العنقود. وفي ١٩٦٨ فَرَضَ بعثُ الشهابية للزعامة الخازنيّةِ ترشيحَ خازنيٍّ غير شهابيٍّ على لائحةِ «الحلف الثلاثي» يُواجه المُرَشَّحَ الشهابيَّ الياس ويقتسمُ معه أصوات العائلة الكبيرة. ولم تكن بلا دلالة مواصفاتُ كلٍّ من المرشحين، إذْ الياس ذو التعليم الثانوي يملك مرآباً لتصليح السيارات، فيما خصمُه فيليب الخازن طبيبٌ تخرَّجَ من اليسوعية وتخصص في فرنسا واقترن بابنة نائب البترون كميل عقل، كما عَمِلَ في الحقل المصرفي[٤٨].

وفي حدود الصلة بين هذه العودة (Restoration) الأرستقراطية وأداتِها في المؤسِّسة العسكرية، وصل إلى بَرْلَمَانَيْ ١٩٦٠ و١٩٦٤ نائبان مارونيان هما ضابطان متقاعدان: جميل لحود الذي حلَّ محلَّ قريبه المحامي سليم لحود في قضاء المتن الشمالي، ورشدي فخر (ومن بعده شقيقه فخر فخر) الذي أزاح منافسيه من آل الضاهر في قضاء عكّار.

وإذا كان جميل لحود هو من عُهِدَ إليه أمرُ الغرفةِ العسكرية في رئاسة الجمهورية، المنصب الذي استُحْدث في بداية عهد شهاب وأُلغي مع تراخي القبضة الشهابية أواخر عهد شارل حلو[٤٩]، فإنَّ سليم الذي هزمه قريبُه «اللواء»، صادر عن تقليدٍ سياسي عريق نسبيّاً في المتن وفي العائلة التي درجت على إيكال أمورها السياسية للمحامين. وبهذا المعنى كانت الهزيمةُ بمثابةِ انقلاب تُساعِدُ الشهابيّةُ على إنفاذه داخلَ العائلةِ السياسية والمنطقةِ المُتَقَدِّمَةِ.

أمَّا في عكّار، ففي مقابل انتماء فخر إلى عائلةٍ صغيرةٍ في قرية عندقت، انتمى المرشحان الفاشلان، المَلَّاك ميشال الضاهر والمحامي مخايل الضاهر، إلى العائلة الأكبر في القرية العكَّارية الأكبر: القبيات. أهمُّ من ذلك أنَّ القريةَ هذه كانت سبَّاقةً في رعايةِ

(٤٦) من المقابلة مع منح الصلح، سبق الاستشهاد.

(٤٧) عن حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٤٠٨.

(٤٨) أنظر بطاقتي الياس وفيليب الخازن في أرشيف جريدة السفير، كذلك الـ *Who's who in Lebanon?*

(٤٩) عن وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٤٨.

نوى «الإقتصاد الرأسمالي» في عكّار استناداً إلى زراعة التوت، وفي احتضانِ التعليم الإرسالي في أقصى الشمال اللبناني. كذلك بذلت عائلةُ الضاهر أحد الشهداء الذين أقدم جمال باشا على تصفيتهم في ١٩١٦[٥٠] بما وَسَمَ تجربَتَها ببعضِ عناصرِ المَيْسَمِ الجبلي المُتَقَدِّمِ.

وفضلاً عن عوامل أخرى تقعُ خارج هذا المُتَنَاوَلِ، عملت الأصولُ الإجتماعية لأرستقراطِيِّي السياسة اللبنانية (بحسب تصنيف إيليا حريق) على إشاعة علاقاتٍ تتراوحُ بين الدفءِ والحرارةِ في ما يتَّصِلُ بنظرتهم إلى العهد الشهابي ونظرةِ العهد الشهابي إليهم. فكمال جنبلاط وصبري حمادة كانا من دعائمِ العهد الذي لم يُعَارِضْهُ مجيد أرسلان وكامل الأسعد إلَّا بعد أنْ أصابه الوهن. وبينما عملت الشهابية على إنعاش الزعامة الخازنية، كما رأينا، فإنَّ سليمان العلي المرعبي الذي جيء به إلى النيابة والوزارة في ١٩٦٠، ما لَبِثَ، بتَدَخُّلٍ من الأجهزةِ، أنْ استُبْدِلَ في ١٩٦٤ و١٩٦٨ بأبن عمِّه بشير العثمان المرعبي، كما استُبْدِلَ علي عبد الكريم المرعبي ببهيج القدور المرعبي.

ويكتسبُ هذا النهجُ كاملَ معانيه إذا ما قيسَ بأزمة هؤلاء الأرستقراطيين مع العهد الشمعوني الذي قلَّص عددَ أعضاء البرلمان للحؤول دون الدائرةِ الإنتخابية المُوَسَّعَةِ، ركيزةِ القوَّةِ السياسية لكبار الملاّكين، حتى إذا كانت انتخابات ١٩٥٧ العامَّةُ عجزَ معظمُهُم عن الوصول إلى البرلمان. أي أنَّ التجاوزَ الشمعونيَّ على العملية السياسية، وهو تجاوزٌ بالتعريف تنعكس فيه مصاعبُ البرلمانية في بلدان العالم الثالث الناشئة، جاء تَقَدُّمِيّاً من زاويةِ الممارسة السياسية والتحوير التمثيلي، قياساً بمثيله الشهابي الأشدِّ زعماً لـ «التَّقَدُّمِيَّةِ».

والحقُّ أنَّ صورةَ الرِّدَّةِ الشهابية على السياسة لا تتمُّ من دون استذكار بطلِها الآخر الذي وقف جنباً إلى جنب الأمير العائد. وذاك البطلُ ليس سوى الموظف النزيه ذي المنابت الشعبية التي تُقَرِّبُهُ من البؤس، والذي استطاع بفعلٍ من عصاميَّتِهِ البورجوازية الصغيرة، أنْ يَشُقَّ طريقَ النجاح من دون أنْ يجني ثراءً ينقلُهُ من نعيم النقاء والإستقامة إلى جحيم التلوث.

فالياس سركيس، كأبرز مُمَثِّلي هذا البطل، عَمِلَ في شبابه كاتباً في إدارة سكك الحديد، وفي خلال عمله درس ونال الجزء الثاني من البكالوريا الفرنسية واللبنانية، ليشُقَّ، مِنْ ثَمَّ، طريقَهُ التعليميَّةَ وسط ظروفٍ صعبةٍ، وطريقَهُ المهنيَّةَ عبر خطٍ غيرَ مُلْتَوٍ[٥١].

(٥٠) عن مخطوطةٍ غير منشورة لكاتب هذه الأسطر تحمل عنوان **السياسة دون مجتمعها ـ النموذج العكاري**.

(٥١) انظر الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ١٢٢.

وَمِثْلُ هذا البطل الذي يكون «سكرتير» الأمير وكاتمَ أسراره، كما كان سركيس حيال شهاب، يَجْمَعُهُ برئيسه موقعٌ وموقفٌ مُشْتَرَكانِ من الرأسمالية والسياسة التي تتقاطعُ مع مصالحها وتُعَبِّرُ عنها. فالأمير وريث طبقةٍ احتماعية «سابقةٍ على» الإثنتين، والسكرتيرُ فَرْدٌ لم يَصِلْ إليهما. وعن هذه القطيعةِ في وجهيها، يتعزَّزُ الإرتدادُ الأخلاقيُّ عند كليهما على النحو الذي صاغته الإنمائيَّةُ الشهابية بعد حقبة الرخاءِ والإزدهارِ الشمعونيين، ومن خلال «التنظيم» البيروقراطي لهذين الرخاء والإزدهار.

«المجتمع الجديد»

لم يكن «النهجُ» الذي مثَّلَهُ فؤاد شهاب غريباً عن أجواء بعض المسيحيين من ذوي الصلة بالنشاطَيْن الثقافي والسياسي. فالكثيرون من تلامذةِ ميشال شيحا مِمَّنْ قالوا بالليبرالية القصوى وَفَتْحِ الأبواب جميعِهَا أمامَ نموِّ القطاعات التجارية والمصرفية مع الحدِّ الأدنى من التشريع، هَالَهُم اكتشافُ «الأطرافِ» اللبنانية وتخلُّفِها، فيما حَمَلَهُمْ «الفسادُ» الذي وُصِفَ به العهدُ الإستقلاليُّ الأوَّلُ على إعادةِ تأويلِ شِيحِيَّتِهِم الأصلِيَّة.

فمن على منبر «الندوة اللبنانية» وفي وقت يرقى إلى ١٩٥٤، أي قبل أربع سنوات على انفجار النزاع الذي أكَّدَ للشِّيحِيِّينَ ضرورةَ إعادةِ التأويل، أعلن فيليب تقلا عن أهميّة وضع الإنماء في موضع النقيضِ للسياسةِ والإيديولوجيا والبديلِ عنهما. فقد رأى تقلا، المثقّفُ والسياسيُّ الكاثوليكيُّ الذي أصبح بعد ست سنوات وزيرَ الخارجية الشهابي الدائمَ، أنَّه «مِمَّنْ يؤمنون أنَّ شقَّ طريقٍ وفتحَ مدرسةٍ ومدَّ قسطلٍ للماء وريَّ مساحةٍ من الأرض وتشييدَ بناءٍ وإنشاءَ مصنعٍ وإنصافَ الضعيفِ من القوي، والفقيرِ من الغني، أشَدُّ وقعاً وأكثرُ إقناعاً وأقربُ إلى الغاية التي ننشد، من مايةِ جدالٍ حول الفينيقية والعروبة، وألفِ حوارٍ حول الإتحادِ والإنعزالِ، والأولويةُ لتلك المناطق التي عادت إلى لبنان بعد نأيٍ»[٥٢].

لكنَّ فؤاد شهاب حوَّل تلكَ التَّصَوُّراتِ المبعثرةَ إلى نظامٍ أو «نهج» يُنْتِجُ لوضعه موضعَ التنفيذ طاقمٌ سياسيٌّ ـ إداريٌّ شاب، وتُمْتَحَنُ على ضوئه المواقف أو تُتَّخَذُ القرارات.

والنظام أو «النهج» هنا يتعدَّيان «العهد» الذي هو الوَحْدَةُ الزمنية ـ السياسيّة التقليدية للحياة السياسية في لبنان. أي أنَّنا للمرةِ الأولى في تاريخ لبنان الحديث أمامَ موقفٍ يَقْرُبُ من يَعْقُوبِيَّةٍ (Jacobinism) الموقفِ الحزبي بحيث لا يُعبأ بدورةٍ دستورية تحكُمُها بدايةٌ ونهايةٌ مُحَدَّدَتَانِ خاضعتان للإستفتاء الشعبي، وهو ما جلاه استنكاف

(٥٢) فيليب تقلا، «أحاديث في السياسة اللبنانية»، في: **محاضرات الندوة**، ١٥ شباط ١٩٥٤، ص ١٨٠.

شهاب عن خوض انتخابات الرئاسة في ١٩٧٠ مُعَلِّلاً ذلك لا بحساباتٍ سياسية أو برلمانية، بل «ببيانٍ سياسيٍّ اقتصاديٍّ ضِدَّ طغمةِ النظام وجدار المال» بحسب صياغة ميشال أبو جودة[٥٣].

ففؤاد شهاب برغم «تشديده على أهميَّةِ الطوائف في حياة لبنان وضرورةِ المحافظة على التوازن بينها»، إعتبرَ أنَّ «مشكلةَ لبنان الأساسيَّةَ، اليومَ وغداً، مشكلةُ اجتماعية». وتَبَعاً لِمَا نقله عنه الباحثُ السياسيُّ الفرنسيُّ موريس دو فرجييه، رأى وجوبَ «أنْ ينشأ في لبنان توازنٌ إجتماعيٌّ ليس له وجود»، مُضيفاً بشيء من الجزم: «كان هذا هدفي وأنا في الحكم»[٥٤].

وما قاله شهاب لدو فرجييه بعد انتهاءِ عهده، سَبَقَ أنْ أوردَهُ في خطاب رسميٍّ ألقاهُ حين كان رئيساً، فحضَّ على بناء «المجتمعِ الجديد» الذي من دونه يفقدُ الإستقلال «كثيراً من نوره ومجده وقُدْسيَّتِهِ»[٥٥].

وتلوحُ هذه الدعوة إلى «مجتمع جديد» يتمُّ بلوغُهُ بالإنماء والتقنية والعدالة، شبيهةً بدعواتٍ أخرى كثيرةٍ لجهة إغفالها التجربة التاريخية للمجتمع المذكور، وهو ما يرقى إلى «خصوصية» هذا المجتمع. فالإلحاحُ على التَّغيير، في إصراره كما في افتراضِهِ استواءَ المجتمع على قاعدةٍ واحدةٍ، يستدعي التقليلَ من وزن التناقضاتِ الداخليةِ وتاريخِها، وأحياناً تَجَاهُلَهَا، الشيءُ الذي رأيناه في عَيِّناتٍ كثيرةٍ من الأدبِ السياسي النضالي، القومي واليميني واليساري على السواء.

هذا التقليلُ من وزن التناقضات هو ما أملى على شَهَابِيٍّ كمنوال يونس سبقَ له أنْ دَرَسَ في دمشق وكان مُقَرَّباً من أجواء حزب البعث العربي، أنْ يُؤَسِّسَ في ١٩٥٩ «حركةَ التقدم الوطني» التي «وَضَعَت أُسُسَ الإصلاح الاجتماعي الذي نادى به فؤاد شهاب». ولم يَفُتْ يونس أنْ يلاحظ أنَّ «الإصلاح مُلِحٌّ بما لا ينتظرُ تكوينَ رأيٍ عامٍّ وبرلمان، وأنَّ علينا أنْ نستفيدَ من حُكْمٍ وحاكم يتبنيان هذا البرنامج الإصلاحي»[٥٦].

والواقع أنَّ الطائفةَ المارونية التي كانت السَّبَّاقَةَ في التَّشَكُّلِ كطائفةٍ بالمعنى التاريخي للكلمة، كانت، إستطراداً، السَّبَّاقَةَ في إنتاج المعرفةِ بالواقع الطائفي الصريحِ،

(٥٣) **النهار** ١٩٨٧/٩/٢٧.
(٥٤) نشرت **النهار** في ١٩٧٣/٤/٢٩، أي بعد أربعة أيام على وفاة شهاب، مقابلة دوفرجييه معه.
(١٠) عن وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٩.
(٥٦) عن حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٠٥ ـ ١٠٦. ويُلاحظ أن قادة «حركة التقدم الوطني» هذه كانوا «زعماء» يفتقرون إلى القاعدة الشعبية النيابية (الطائفية)، بحيث أمّنت الشهابية لبعضهم موقِعهم الجديد من خلال توزيرهم أو فرضهم أعضاء في لوائح «الأقطاب» أو تسميتهم موظفين إداريين كبار. وهذا يسري على يونس وفؤاد بطرس وسليمان الزين وباسم الجسر وحسن صعب ومحمد الجارودي وجوزيف مغيزل.

أو على الأقلِّ، الشَّفَّافِ، وبالعلاقاتِ المُتَرَتِّبَةِ عليه. ومن هنا فإنَّ هذا الإنتاجَ، الذي لم يبرأ من الإيديولوجيا والزَّيْفِ بطبيعة الحال، كان في وجهه الآخر تعبيراً عن تَطَلُّعٍ أقَلِّيٍّ مُزْمِنٍ إلى الحصول على الإعتراف الذي تنجم عنه «ضمانات» يُسَمِّيها المعارضون للدورِ السياسي الماروني الراجحِ «امتيازات».

في المقابل ضَمُرَتْ الطَّائفيَّةُ في اللغةِ الشهابية «حتى أنَّ ذَمَّها قلَّ تداولُهُ في الخُطَب». وبحسب صياغة أحمد بيضون «كانت شَبَحاً أليفاً ومخيفاً في آن، يعرف أهلُ السلطةِ أنَّها أساسُ نظامِهم ولا ينسونَهَا لحظةً، على أنَّهم يُؤْثِرون التَّوْرِيَةَ عنها بِمَا يجعلها غيرَ بغيضةٍ»، أي بالوَحْدَةِ الوطنية، وَيُوَرُّونَ عن الطوائف بـ «العائلاتِ الروحية» وكأنهم يُسَمُّون أماني لا حالاتٍ قائمة»[٥٧].

بلغةٍ أخرى، فيما عمدت المارونيّة الثقافية السائدة إلى رعاية «السياسة» في معناها اللبناني المُحَدَّدِ الذي يعترفُ بقيامِ الطوائف وتعددها، كانت الصِّيَغُ الثقافيَّةُ والسياسية الأخرى، بما فيها الشهابية، تُلِحُّ على «سياسة» تنفي هذين القيامَ والتعدُّدَ وتُطالب بالتضافر عند مصلحةٍ مُوَحَّدَةٍ، إجتماعيةٍ أو وطنيةٍ، هي دائماً بؤرةٌ لـ «المجتمع الجديد». ولئن أتَّخَذَت دعوةُ «الحزب السوري القومي الاجتماعي» إلى العلمنةِ الإجرائية لوناً إنقلابياً حاداً شديدَ التعارض مع المؤسَّسات الدستورية، فضلاً عن التكوين المُجْتَمَعِيِّ، وذلك استناداً إلى النزعة التوليفيّة التي عبَّر عنها أنطون سعادة حين اعتبر أنَّ «جميعَ السوريين مسلمونَ لربِّ العالمين»[٥٨]، فإنَّ الشهابيةَ استطاعت بفعلِ من موقعها حيالَ المؤسسات وشكلِ صعودها الدستوري، أنْ تُزاوِجَ بين انقلابيَّتِها ومُؤَسَّسِيَّتِهَا الدستورية التي راحت تفقدُ الكثيرَ من المضمون لمصلحة الشكل العملاني.

بهذا المعنى تحديداً لم يكن المُصَادَفِ أنْ تصطدمَ الشهابية بـ «المارونية السياسية» الجبلية، حاضنةِ السياسة اللبنانية بحسب ما سبق الإلماح. وفي وقتٍ لاحقٍ روى أحدُ «أقطاب» النهجِ الشهابي أنَّ «الإخوان»، وهي التسميةُ التي يُطلقُها المُتَحَدِّثُ على رجالِ الأجهزة مِمَّن أحاطوا بالرئيس شهاب، كانوا «يعملونَ على تعيين الحكوماتِ في العهد المحكي عنه. كانوا يُعاملون أصحابَهُم من النوّاب السائرين معهم على النهجِ الشهابي بأسلوب غيرِ منصف». وقد امتدَّت المعاملةُ هذه، المُعَبِّرَةُ عن إخلالٍ صريحٍ بأعراف الحياة البرلمانية حتى ١٩٧٠ حيث «فُوجِئنا بشهاب يُعلن في بيانٍ قصيرٍ عزوفَهُ عن ترشيح نفسه للرئاسة، لأسباب ذكرها باختصارٍ مُفيدٍ، وأعطيت لنا كلمةُ السرِ أنَّ المرشحَ العتيدَ هو الياس سركيس»[٥٩].

(٥٧) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم ـ مسالك في الحرب اللبنانية**، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ص ١٣.
(٥٨) أنظر مساجلةَ أنطون سعادة الهجائيةَ مع «الشاعر القروي» رشيد سليم الخوري في: **جنون الخلود** ١٩٤٠ - ١٩٤٢، منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي.
(٥٩) «السيد محمد صفي الدين يتذّكر»، الحلقة العاشرة، **الشراع** ١٩٨٧/١٠/١٢.

هكذا راحت الحملاتُ الانتخابية، وبخاصة في دوائر «الأقطاب» الموارنة الجبليين، تتعرَّضُ لمُداخَلاتٍ جَلِفَةٍ وفَجَّةٍ، بهدف إنجاح المرشحين الشهابيين المناوئين لهؤلاء الأقطاب. فمثلاً، أثناء انتخابات جبيل الفرعية في ١٩٦٥، أي في السنة الأولى لعهد شارل حلو الذي كان لا يزال خاضعاً للوصَايَةِ والنفوذ الشهابيين، «أُوقِفَ منذ بدء الإقتراع مخاتيرُ قرى الخاربة وعبيدات ومزرعة السياد (...) وفي أفقا عُلِّق الاقتراع»(٦٠)، فكان إيقافُ المخاتير بهدفِ إضعاف معنويات المؤيدين لريمون إده ممن ردّوا على هذه المحاولةِ التدخلية بتعليق الاقتراع. وتعرَّض موكبُ إدّه للرصاص وهو في بلدة لاسا «فأثار الحدثُ مجدداً مسألةً إداريّةً سياسيّةً حرص ريمون إدّه على إعطائها مكان الصدارة في نقدِهِ لأساليب الحكم التي اتَّبَعَهَا الرئيس السابق، هي مسألةُ إخضاع قوى الأمن لقيادةِ جيش «سياسيَّةٍ»، فطالبَ وفدٌ من أهالي جبيل المناصرين لإدّه، رئيسَ الجمهورية بسحبه قوى الأمن، واتَّهَمَ الوفدُ أفراداً من الدرك بِنَصبِ الكمين في لاسا فردَّ أنصارُ نُهاد سعيد بالمطالبةِ بإنزال الجيش»(٦١).

واستمرت حتى ١٩٦٨، آخر سنوات الزخم الشهابي، محاولاتٌ مشابهة. فَجَرَتْ واحدةٌ لاغتيال كميل شمعون حامت معها «الشبهات حول «الأجهزة» إيَّاها بصفتها الدافعةَ إلى ارتكابها وقطعِ الطريق عليه في جونيه أثناء الحملة الانتخابية»(٦٢). وفي تذكير لاحقٍ بهذه الحادثة، وُجِدَ من يتَّهِمُ الشهابيَّيْن الياس الخازن وموريس زوين اللذين وقفا ضدَّ «الحلف الثلاثي» في انتخابات ذاك العام، بِقَطْعِ الطريق(٦٣)بطبيعة الحال لم تَكُنْ مداخلاتٌ كهذه حَكْرَاً على العهد الشهابي، إذْ مارسها عَهْدَا الخوري في ١٩٤٧ وشمعون في ١٩٥٧ على نطاق واسع، بما يعكسُ حداثةَ التجربةِ السياسيةِ البادئةِ في ١٩٤٣. لكنَّ أبرزَ الفوارق أنَّ المداخلاتِ في العهدين المذكورين لم تستند إلى مشروعٍ متماسكٍ وتعبِّرْ عنه، ولم ترتبط تالياً بجهازٍ تنفيذي، كما لم تتوجه إلى طائفةٍ بعينها هي التي تحتضن العمليَّةَ السياسيَّةَ في لبنان. وفي ما خَصَّ خلافَ شمعون مع الزعامات الإسلامية منذ ١٩٥٦، لعبت مسألة الناصرية الدور الأساسي في ذلك، الأمر الذي ما لبث أن وجد تعبيره في حرب أهلية كانت لها مثيلات في العراق وجزئياً في سورية والأردن(٦٤).

(٦٠) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٥٦.
(٦١) المرجع السابق، ص ٣٥٤.
(٦٢) انطوان خويري، **كميل شمعون**...، سبق الاستشهاد، ص ١٦.
(٦٣) انظر مقالة أمجد اسكندر في **المسيرة** ١٩٨٧/١٠/٢٤.
(٦٤) من ناحيته يروي النائب الشيعي الشمعوني كاظم الخليل أنّ «الرئيس شمعون بذل (في عهده) لبعض المرشحين مساعداته المعنوية وكانت كافية لنجاحهم، كما استعملها ضد اخصامه وكانت كافية لفشلهم»، ويُضيف الخليل: «وأنا من الذين يعتقدون أن المساعدات المعنوية في الانتخابات في البلدان الديمقراطية التي تعتمد النظام البرلماني والحزبي عمل مبرر». عن أنطوان خويري، **كميل شمعون**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٤.

غني عن التذكير بأنَّ شمعون وإدّه كليهما كانا قد رَسَبَا في انتخابات ١٩٦٤ النيابية العامة ممَّا خلَّف شعوراً مارونياً - جبلياً يجمعُ المرارةَ إلى الإحتقان. وكان ما يُفاقِمُ حِدَّةَ هذا الشعور استمرارُ «الفيتو» على تمثيل نواب «حزب الوطنيين الأحرار» الشمعوني في الحكومة طوالَ عهد شهاب ومعظم عهد حلو، مع العلم بأنَّ مثل هذا الفيتو الذي تمسَّكت به أكثريَّةٌ نيابية شهابية في صورة أو أخرى، هرطقةٌ دستورية أقربُ إلى تقاليدِ الجماعات العشيرية و«سياساتِها» في النَّبْذِ والطردِ منها إلى التقاليدِ البرلمانية.

بروفيل الزعيم الشعبي

إصطدم الإصلاحُ الشهابي، إذن، بالطائفة التي هي قاعدةُ السياسةِ والإصلاحِ في الحياةِ اللبنانية، اصطِدامَهُ بالرقعةِ الجغرافية (الجبل) التي هي ركيزةُ هذين الإصلاحِ والسياسة، والنموذجِ الذي كان حَرِيّاً تعميمُهُ على سائر المناطق المتعرضة لاتّساع عَمَلِ المركز واشتمالِها به. ولئن كانت التحالفاتُ العربيَّةُ للعهد الشهابي، وخاصة الطرفُ الناصريُّ الذي اصطدم بـ «المارونية السياسية» وبالدولةِ اللبنانية في ١٩٥٨، وما تفرَّع عن ذلك من دور شهير لعبه السفيرُ المصري عبد الحميد غالب في التأثير على مُجْرَيَاتِ الحياة السياسيَّةِ في لبنان، لئن كانت هذه التحالفاتُ حاسمةً في تقرير الـوُجْهَةِ الشهابية وإذكائها، فقد اكتملت بذلك العناصرُ الداخلية والخارجية التي ترسم للدولة الموعودة مساراً شِبْهَ انقلابي:

فهي ليس الدولة التي تُبنى بالتراكمِ والتدريجِ انطلاقاً من قاعدتِها ومركزِ قوّتها التقليديين، بل تلك التي تُبنى بالتناحر مع هذين القاعدةِ والمركزِ، وبالعمل على تطويعهما. وهي، استطراداً، لا تَتَشَكَّلُ بوصفها مَحوراً يدورُ من حوله النشاطُ السياسيُّ، بل تنشأ وتنمو كمصدرٍ تنبثقُ عنه السياسةُ، وتردُّ إلى الحدود الضَّيِّقَةِ التي تُتِيحُها.

تكامل هذا التخريبُ للسياسة في رُكنها الماروني، مع أعمالِ تخريب أخرى وفدت من أركان متعددة. فالإنقلابيةُ طاولت أيضاً أحدَ أبرزِ مُقَدِّماتِ الصيغة التي نهضت في ١٩٤٣ على قُطبين قويَّيْن مَثَّلَتْهُمَا المارونيةُ الجبليةُ (بشارة الخوري) والسنية البيروتية (رياض الصلح). ولم يكن هذا النهوضُ اعتباطياً، إذْ عبَّر عن انبثاقِ الرأسماليةِ والإزدهارِ اللبنانيَّيْن عن وَحْدَةِ الجبل وبيروت، تعبيرَهُ عن اللونين الشرقي والغربي للبنان الذي نَمَا في كنف الصِّلَةِ المزدوجة بالإقتصادات الغربية والأسواقِ والرساميلِ العربية معاً.

لقد استبدلت الشهابيةُ السُّنِّيَّةَ البيروتيَّةَ، كما مَثَّلَتْهَا زعامةُ صائب سلام، بخليطٍ من السُّنِّيَّةِ الطرابلسية (رشيد كرامي) والدرزية الجبلية (كمال جنبلاط) اللتين لا تتوافرُ فيهما الشروطُ التي تَطَلَّبَتْهَا الصيغةُ أو عَكَسَتْهَا. فإذا أضفنا إلى ذلك إضعافَ المارونية الجبلية - البيروتية حيث نِيطَ بالشيخ بيار الجميل تمثيلُها، بَدَا جليّاً كيف أنَّ الفراغَ الناجمَ

عن «حوارِ» الضعفاء و«تعايُشِهم» لا يُمْكِنُ أنْ تَسُدَّهُ إلاّ «الدولةُ» نفسُها.

وحين تُؤخَذُ مُجْتَمِعَةً هذه الضرباتُ التي كِيلَتْ للسياسة، يُمكِنُ فهمُ الترتيب الذي اعتمدَهُ ريمون إدّه للمخاطر على لبنان حين أدرج، في تصريحٍ معروفٍ له، الشيوعيّةَ والصهيونيّةَ والشهابيّةَ في خانةٍ واحدة(٦٥).

بدوره ترك تهديمُ الحياة السياسية آثارَهُ على المؤسَّسة العسكرية نفسها التي باتت، والحالُ على ما هي عليه، مُطَالَبَةً بأداء دور «سياسي» صارخ. وغنيٌّ عن القول إنَّ هذا ما يَشُذُّ، تعريفاً، عن وظائفها في بلدٍ دستوريّ، ليُلَبّي الميلَ الإنقلابيَّ بهذه النسبة أو تلك. فمنذ لحظة انتخاب فؤاد شهاب رئيساً في ٣١ تموز ١٩٥٨ «اشتعلت العاصمةُ وبعضُ المناطق اللبنانية بنار الإبتهاج، واستعمل أفرادٌ من الجيش، للمرّة الأولى، الذخيرةَ الرسميةَ لإطلاقها في تلك المناسبة، مما شكّل ظاهرةً جديدةً في تاريخ القانون والإنضباط العسكري» اللبنانيين(٦٦). وفي استعادةٍ لاحقةٍ لتجربة ضابط انتسبَ في ١٩٥٠ إلى الجيش ورَأسَ أركانه في الثمانينات، قال اللواء محمود طي أبو ضرغم: «مع الأسف، بعد أنْ تَسَلَّم الرئيس شهاب الحُكمَ انتقلت العدوى السياسية إلى الجيش»(٦٧). فيما اعترفَ أحدُ كبار العسكريين الشهابيين بأنَّ الشهابية جعلت «لابسَ الثوب العسكري صاحبَ امتيازٍ يستطيعُ الدخولَ إلى الإدارات العامة وإنفاذَ مشيئته بسرعة»(٦٨). ولم يتردَّد شهاب نفسه، وفي خطاب ألقاه أمام ضبّاط الجيش، في الحديث عن أنَّ مَهَمَّتَهُمْ «لا تنحصرُ في حماية الحدود وصدِّ كلِّ مُعْتَدٍ غاشمٍ عنها فحسب، بل تتعدّاها إلى الداخل حيث تعملون شعباً وجيشاً، على صَوْن وَحْدَتِنَا الوطنية»(٦٩). بلغةٍ أخرى، فإنَّ عمليةَ الصهر لإنشاء «المجتمع الجديد» وإيكالَ هذه المَهَمَّةِ إلى الجيش عبر صوغِهِ الحياة السياسية وتشكيلها، تؤسِّسان للظاهراتِ التي لم يَبْرأ منها أيٌّ من مجتمعات «العالم الثالث» التي تعرَّضت للتغيير الراديكالي والتجاوز على الدستورِ والمؤسَّسات، كأنْ يتمَّ تقريبُ الجيش، وهو أشدُّ المؤسَّساتِ الرسميةِ رسميةً، من منطقِ العلاقات الأهلية وسُنَنِهَا وتقاليدها (إطلاق النار إلخ.)، ومِنْ ثَمَّ احتمالُ تقريبه من إمكان التَّفَرُّعِ أجهزةً ومراكزَ نفوذٍ، أو أنْ يُصارَ إلى إحداثِ لونٍ من ادْلَجَةِ الجيش امتداداً لأدائِهِ بعضَ المَهَام السياسية، وهو ما تمثَّل في التجربةِ الشهابية بالدور الذي نيط به في إنجاز «الوَحْدَةِ الوطنية» جنباً إلى جنب مع «الشعب».

(٦٥) عن الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٢٢٧.
(٦٦) انطوان خويري، **كميل شمعون...**، سبق الاستشهاد، ص ١٢٦.
(٦٧) أنظر المقابلة معه في **الوطن العربي** ١١/٩/١٩٨٧.
(٦٨) من مقابلة مع سامي الخطيب (لم يُذكر الاسم في حينه) استخدمت مادتها في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٧٨.
(٦٩) عن الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٢٥١.

هكذا كانت «الشعبية» شرطاً لا بُدَّ منه في إنجاز الإنقلاب الشهابي على السياسة. وعمادُ الشعبية في معناها هذا، إحلالُ العاطفة في موقع الصدارة من العمل السياسي بما تنطوي عليه من «هوًى» للشعب ومعاناته لا يُخفي «الشفقةَ» حيالها(٧٠). مِثْلُ هذا المضمونِ الجديدِ الذي يكتسبه المصطلح، يُحيل التعريفَ الأصليَّ للسياسة (التشريع، مراقبة أعمال السلطة التنفيذية، وكاستطرادٍ ضمني واسْتِتْبَاعِيٍّ: الإقامةَ في المدينة - الأغورا)، إلى مُسْتَمْسَكَاتٍ ومآخذ على السياسي الذي يَدْرُجُ وصفه، والحالُ على ما هي عليه، بأنَّه غيرُ عابىء بـ «الشعب»، أو على الأقل، بَعيدٌ عنه وعن همومه.

وبَدَل المحامي والطبيبِ والتاجرِ ممن يُقيمون في المدينة، يصعدُ نجمُ المحامي والطبيبِ والموظفِ الذين يُقيمون بين الأهل ويَقومون بتلبيةِ الخدماتِ المحليّةِ المباشَرَةِ لهم وحلِّ مشاكلهم العالقةِ في المحاكم والدوائر (المحامي والموظف الشعبيان)، أو التعاملِ معهم كمجرَّدِ أجسادٍ وأبدانٍ في صورةٍ شديدةِ العراءِ وعديمةِ التجريدِ لمفهوم «الخدمة» (الطبيب الشعبي). أمّا إذا وصل أحدُ هؤلاء الشعبيين إلى المجلس النيابي، فلن تكونَ مَهَمَّتُهُ التشريعَ ومراقبةَ السلطة التنفيذية، بل العملَ على إقامة الطرق والجسور والمدارس والمستوصفات بالنيابة عن الخِطَّةِ المركزية المُفْتَرَضَةِ للدولة «المُقَصِّرَة» تاريخياً، وغالباً من خلال علاقةٍ مباشرةٍ مع الدوائر الإدارية لا تُقَدِّمُ البرلمانيةُ فيها ولا تُؤَخِّر إلاّ بوصفها «وَجَاهَةً» مدغومةً من مصدرِ السلطة الأوّل.

بمعنى آخر، يتمُّ هنا نَزْعُ سياسِيَّةِ السياسي بِرَدِّه إلى النطاقِ الأهلي على النحو الذي يستجيبُ، من جهةٍ، لعداليَّةٍ لم يكتمها أيٌّ من الحركاتِ الشعبية، ومن جهة أخرى، لماضَويَّةٍ يُلِحُّ فيها الطابعُ النوستالجي السابقِ على السياسةِ وعالمِها المديني، بينما يلوحُ الزعيمُ الشعبي بصفتِهِ يُصْلِحُ خطأً تاريخياً ارتكبته الدولةُ في مدى استمراريتها.

وغنيٌّ عن القول إنَّ سلوكاً كهذا كفيلٌ بتعزيزِ وَعْيٍ ابْرَشِيٍّ ضيِّق، يتبادلُه الزعيمُ وجمهورُهُ على السَّواء في ظلِّ ارتفاع يافطاتِ «الوَحْدَةِ الوطنية» ودعواتِها، كفالَتُه بتحويلِ الشكوكِ الأهليةِ الموروثةِ بالدولة وعمليةِ التراكمِ السياسي إلى يقين.

بدورها لم تبخلْ الشهابيةُ بمثل هؤلاء القادة الشعبيين الذين رُبَّما كان أبرزُهم الدكتور أنطون سعيد لا في كونه طبيباً شعبياً ولا في مجابهته أبرزَ البرلمانيين الموارنة واللبنانيين (ريمون إدّه) فحسب، بل في أنَّه جمعَ أيضاً بين تينك السِّمَتَيْن: العَدَالِيَّةِ الشعبية ونوستالجيا الماضي والبعثِ بمعناه اللبناني الذي أشير إليه.

لقد وفدت عائلة سعيد المُتَوَسِّطَةُ عدداً من قريةِ مشان الصغيرةِ المُوَزَّعَةِ بين آل سعيد وآل شمص الشيعية، إلى قرية قرطبا التي تُعَدُّ القريةَ الأولى عدداً في الجرد

(٧٠) راجع Hannah Arendt, *On Revolution*, *op. cit.*, p. 85-94.

الجبلي. ولمّا كانت[٧١] هذه الأخيرةُ منقسمةً تقليدياً بين عائلتين كبيرتين، كرم وصقر، وكانت الثانيةُ الأكثرَ تَعَلُّماً، فضلاً عن كونها عائلةَ التقليدِ السياسي المحلي، تحالف آل كرم مع فارس سعيد، والد أنطون، الذي بنى صداقةً وطيدةً مع جورج كرم عميدِ عائلته وأحدِ مشايخ الصلح يومذاك.

هذا الإنقلابُ في داخل قرطبا الذي بدأه فارس سعيد، وكرَّسَهُ ابنه أنطون لاحقاً من خلال تعيين أعدادٍ من آل كرم في الإدارة إبَّان العهدِ الشهابي، توافرت له عناصر المقدمات القيادية اللازمة عبر جَمْعِ نُتَفٍ من العلاقاتِ والولاءاتِ والخدمات والإمكانات.

ففارس دَرَسَ الطبَّ عن طريق مِنْحَةٍ كَنَسِيَّةٍ فيما أصبح شقيقُه رجلَ دين خدم في فلسطين وعاد في ١٩٤٨ مُشْبَعاً بعواطفَ مُضَادَّةٍ للصهيونية. وتزوج فارس من ماري الخوري السخن التي كان والدُها يملك كرخانةً للحرير، وانتقل الزوجان من مشان إلى قرطبا التي هي سوقُ الحبوبِ والكرخاناتِ والتبادلِ والتجمع السكاني في منطقتها الجردية. وهذا كلُّه ما يفسِّرُ الأساس الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي نهض عليه تَصَدُّرُ آل صقر للقرية وجوارِها.

لكن على عكس سائر الأطباء يومذاك، آثر فارس البقاءَ في قرطبا وممارسةَ التطبيب بمعناه الإنساني الخدماتي في وسط فلاحيٍّ، فكان بالمقايضةِ يتقاضى أجره بيضاً وخبزاً وسلعاً أخرى مِمّا جعله «محبوباً جداً» وذا علاقاتٍ وثيقة بالقرى المجاورة وأعيانِها، خصوصاً الوجيه الشيعي في «بلاد جبيل» السيد أحمد الحسيني. ولئن كان فارس قد تعاطف مع ستالين، لا مع النازية ولا مع حلفاء ستالين الغربيين، خلال الحرب العالمية الثانية، فإنَّ نجلَهُ انطون بدا في شبابه قريباً من «الحزب السوري القومي الاجتماعي» وعلى صداقةٍ وطيدةٍ بالدكتور عبدالله سعادة، أحدِ أركان الحزب المذكور. وقد عَمِلَ أنطون، بعد دراسته الطبَّ، في حلب ودمشق فضلاً عن أماكنَ متعددةٍ من لبنان، فكان مُنفتحاً على التيارات الناصرية والعروبية ومُتَعَاطِفاً مع «الثوار» في حرب ١٩٥٨ الأهلية - الاقليمية. بَيْدَ أنَّه ظلَّ باستمرار يكرهُ مظاهرَ الثراءِ والترف وتستفزُّهُ «غطرسةُ» ريمون إدّه و«علاقتُهُ بالمدينة والمصارفِ والصالونات وآل سرسق».

واقترن أنطون بنهاد جرمانوس يوم كانت طالبةَ طبٍّ في سنتها الأولى. ونهاد، التي كان والدُها محامياً ووالدتُها ذات نشاطاتٍ إجتماعيةٍ في بيروت، تنتمي إلى عائلةٍ تملك قريةً صغيرة هي مجدل العاقورة. فمشايخُ آل جرمانوس تعلموا مبكراً ونالَ بعضُهُم مواقعَ مرموقةً في الهرم الإداري، من دون أنْ يكونوا، لجهةِ العدد، عائلةً كبيرة.

بعد هذا الإنقلاب الذي أحدثه فارس وأنطون سعيد في قرطبا، جَامعَيْن إلى

(٧١) المعلومات الواردة حول جبيل وآل سعيد من مقابلة مع ماري كلود سعيد (من قرطبا) أجريت في بيروت.

الشعبية نُتَفاً فلسطينيةً وستالينيةً وقوميةً سوريةً وناصريةً، وصِلَاتٍ بالشيعة وأخرى بمصادر الثروةِ في العاصمة برغم التحفظِ عن المدينة وعائلاتِها ومصارِفِها، بعد ذلك وتتويجاً له، تَقَدَّم أنطون سعيد ليقودَ انقلاباً آخرَ في قضاء جبيل ضد ريمون إدّه.

ففي انتخابات ١٩٦٤ العامة شكَّلَ سعيد لائحةً ضمَّت إليه اثنين من أبناء البيوتات «الدستورية» القديمة: الطبيب شهيد الخوري من عمشيت في الساحل، والمحامي السيد علي الحسيني ابن السيد أحمد الحسيني عن المقعد الشيعي. ولم تكن بلا دلالةٍ أنْ تُتْرَكَ رئاسةُ اللائحة لمُمَثِّلِ الجرد، أنطون سعيد، بَدَلَ أنْ تكون كما جرى العُرْفُ لمُمَثِّلِ الساحل الأكثرَ تقدّماً. إلَّا أنَّ عمشيت الساحليّةَ التي مثَّلها شهيد الخوري، كانت قبل تراجعِها السياسي أمام قرطبا الجردية، قد خسرت موقِعَهَا لمدينة جبيل التي تُشَارِكُهَا ساحِلِيَّتَها، والتي مثَّلها على رأس اللائحة المقابلة ريمون إده. فعمشيت هي بلدةُ عائلتي لحود وزخيا الدستوريَّتَيْن اللتين ارتبطت أُولاهما بالتقليدِ والوجاهةِ في معناهُما العثماني، واهتمت الثانيةُ بالثقافة الفرنسية ونوعيّةِ الحياة الباذخة. وقد انصرفت العائلتان على السواء إلى لونٍ من الإنفاق المُوَسَّعِ غير الإنتاجيِّ على بناءِ القصورِ البَكَويَّةِ التي أقام أرنست رينان في أحدِها، والتَّفَنُّنِ في استعمال أوقات الفراغ، فيما تُرِكَتْ جبيل تنمو كمدينةٍ للتداول الرأسمالي الصغير والمشاغل والحرف والكفاءاتِ الحديثة، يقصدُها منذ عشرينات القرن سكان البلدات والأرياف المجاورة بمن فيهم أهلُ عمشيت[٧٢].

بهذا المعنى انطوت لائحةُ أنطون سعيد في وجهها الماروني على إحباطٍ مزدوجٍ كان من نتائجه استبعادُ مدينة جبيل، مركزِ القضاءِ، عن التمثيلِ، ومن ثُمَّ الإنقلابُ على دورها، وإخضاعُ تمثيل الساحل، عبر عمشيت، للتمثيل الجردي. وبالمعنى نفسه أفْصَحَ بعثُ زعامة آل الحسيني في قضاء جبيل الذي يعيشُ شيعتُه ضمنَ محيطٍ مارونيٍّ غامر، عن دلالةٍ لا يجوز التقليلُ منها. ففي واحد من وجوهِهِ كان هذا البعثُ رداً على الإرهاص الماروني داخلَ شيعة جبيل، مُمَثَّلاً في وصول أحمد إسبر إلى البرلمان في ١٩٦٠ على لائحة إدّه. وإسبر، الذي انتمى إلى «الكتلة الوطنية» محامٍ من قرية حجولا الصغيرة، لا يمتُّ بصلةٍ إلى العائلاتِ الشيعية التقليدية كالحسيني وعلّام، كما تشدُّه إلى بيروت روابطُ أمتن من التي تَشُدُّهُ إلى جبيل.

ويتَّضِحُ طابع الردِّ على الإرهاص الماروني في قرية علمات، أكبرِ القرى الشيعية الجبلية، التي شابت علاقَتَهَا بقرية إهمج المارونيةِ المجاورةِ توتراتٌ تقليديةٌ لم تَخْلُ من مِثْلِها علاقاتُ القرى المتجاورةِ. لكن بينما كانت «شعبيَّةُ» إدّه هي الراجحةُ في إهمج، وَقَفَ أعيانُ علمات مع «الحزبيّةِ» المناهضةِ لعميد «الكتلة الوطنية» باستثناء المحامي

(٧٢) من مقابلة مع الهام كلاب (من عمشيت) أجريت في بيروت.

محمد حيدر أحمد ومجموعةٍ من عائلته مِمَّن لم يُكْتَبْ لهم أنْ يُشَكِّلوا ما هو أكثـرَ من أقليَّة العائلة(٧٣).

وفي تقرير لا يخلو صوابُه من التعميم لاتجاهات التصويت في ١٩٦٤، نـالت لائحةُ أنطون سعيد أكثريَّة أصوات الفقراءِ والشيعةِ، أمّا إدّه الذي أُخِذَ عليـه تقليديـاً الإستهتارُ بشؤون القضـاء، فأيَّـدَهُ الميسورون والمتعلمـون وخاصَّـةً أبناءُ «قـرنة الـروم» (٧ قـرى أرثوذكسية) التي تُعْرَفُ بالعلمِ والإنتماءِ إلى شرائحَ اجتماعيةٍ ميسورةٍ، كما أيَّدَتْهُ أكثريَّةٌ كبيرةٌ في مدينةِ جبيل نفسِها.

وبلغة أخرى، وقفت في صفِّ إدّه القاعدَةُ الأقلُّ احتياجاً إلى «شقِّ طريق» و«إقـامةِ مستـوصف»، والأقدرُ على متـابعةِ الشـأن العام بعينٍ لا تطغى عليهـا النظرةُ العـاطفيَّةُ - الأبْرَشيَّةُ للأمور. وفيما أكَّدَ أغلبُ المُقْتَرِعينَ لصالحِ إدّه على مواقفِـه السياسيـةِ العامَّـةِ على الصعيد اللبناني، أكَّدَ الآخرون على الخدماتِ التي لَبَّتْهَا وسوفَ تُلَبِّيها لائحةُ خصومِهِ التي ضمَّت طبيبين شعبيين ومحامياً شعبياً، كلُّهم شهابيون.

(٧٣) من مقابلة مع حسان حيدر (من علمات) أجريت في بيروت.

الفصل الثاني

المدني أولا أم السياسي؟

لم يكُنْ «الـزعيمُ الشعبي» المُعَبِّرَ الـوحيدَ عن التحـوّل الذي أحـدثَتْهُ الشهـابيةُ في تركيب النخبةِ المارونية ورموزها. فالانطلاقةُ الواسعةُ التي نَجَحَ «حزبُ الكتائب اللبنـانية» في إحداثِها خلال بعض سِنِيِّ العهد الشهابي، ومن بعدِهِ خلال عهدِ شارل حلو، بـرَزَت في أهميَّتِها وفي تأثيراتِها اللاحقةِ كلَّ نتيجةٍ أخرى على هذا الصعيد.

صحيحٌ أنَّ الحزبَ الذي تأسَّس في ١٩٣٦، خـلال النزاع الـدائر حـول المعاهـدة اللبنانية ـ الفرنسية وفي مناخ الردِّ على مؤتمراتِ الساحل الإسلامية البادئـة في ١٩٣٣، لم يكن عند نشأته طائراً يُغَرِّدُ خارج سربه. فالفترة نفسها سجَّلت ظهـور أحزاب مشـابهة في طرحها لم يُقَيَّضْ لهـا الاستمرارُ، كـ «حـزب الوحـدة اللبنانيـة» الذي تـرأسه تـوفيق لطف الله وأخذت عليه الكتائب المبالغةَ في مُحـاباةِ إميـل إده، وحزب «الجبهـة القوميـة» الـذي تراسـه يوسف السـودا وكان بين مؤسِّسيـه، فضلاً عن آخـرين، الشيـخ يـوسف الجميّل، لينضم في ١٩٤٤ إلى الكتائب ويذوب فيه[١].

لكن الشَّبَهَ بين الكتائب وزمنها، معطوفاً على قُدْرَتِهَا على الإستمرار، لم ينجحـا في أنْ يؤمِّنا لها تمثيلاً حكومياً حتى تشكيل «الحكومة الرباعية» في ١٤ تشرين الأول ١٩٥٨. قبل ذلك كان قد عُيِّنَ كتائبيان وزيرين، فجيء بجان سكـاف عضواً في الحكـومة المـوقّتة التي أشرفت على انتخابات ١٩٥٣ العامة، وتولّى جـوزيف شادر وزارةَ المـال في حكومـة سامي الصلح في آذار ١٩٥٨ والتي لم تَعِشْ طويلاً لأنَّها شكَّلت يومذاك «محاولـةً يائسـةً قـام بها نظـامُ شمعون المنهـار»[٢]. وبهذا المعنى كـان توزيـرُ سكاف ذا مَـرَدٍّ شخصيٍّ خصوصاً أنَّ العادة جرت على اختيار وزراءٍ «حياديين» للحكومات التي تُجري الانتخابـاتِ العامّةَ، بينما جاء توزير شادر تعبيراً عن حالة نزاعٍ أهلي عَكَسَتْهَا حكـومةٌ لم يعتـرفْ بها قِطَاعٌ واسع من البلاد، ولم تُعَمِّرْ بالتالي.

(١) انظـر: **تاريـخ حزب الكتـائب اللبنانيـة**، دار العمل للنشـر، ج ١، ص ٥٢ ـ ٥٦. ويشير العـدد الخاص من **العمل** الصادر في ١٩٨٦/١١/٢٣ والمعنون «خمسون سنـة في خدمـة لبنان» ص ١٠٢، إلى أن مؤلف هـذا الكتاب هو جان شرف.

(٢) John.P.Entelis, *Pluralism and party transformation in lebanon. AL KATA'IB 1936-1970,* Leiden, E.J. Brill, 1974, p. 148 n.

أمَّا في ١٩٥٨، فلم يكن بلا دلالة أنَّ «ثورةً مضادةً»، من ضمن حدودِ الشّرعية، غير المُسْتَقِرَّةِ حتّى ذلك الحين، هي التي ساقت الحزبَ إلى التمثيل الحكومي، علماً أنَّ الرئيسَ شهاب لم يَبْدُ مضطراً إلى اعتماد الكتائب «غطاءً مارونياً» لحُكْمِهِ، حيث أنَّ علاقتَهُ لم تكن قد تدهورت، بعد، بريمون إدّه وسليمان فرنجية(٣) والبطريرك المعوشي.

فاللجوء إلى «ثورة مضادة» أظهر حاجةَ الحزب إلى تَجَشُّمِ عملٍ غير مألوفٍ ولا استمراري، بأيِّ معنى دستوري، من أجل دخولِ الحياةِ السياسية من بابها العريض. أيْ أنَّه دلَّ على أنَّ أخذَ الكتائب في حسابات السياسات العليا لم يُصبح أمراً بديهياً وتلقائياً، برغم القفزةِ الضخمةِ التي حَقَّقَتْهَا لها مشاركتُها في حرب ١٩٥٨ الأهليَّة ـ الاقليميَّة.

وبمعزل عن الروايات التآمرية، التي ربّما احتوت قدراً من الصحة، حول دور شهاب في دَفْعِ الكتائب إلى الثورة المضادة، فما يُمكنُ قولُه، بناءً على التجربة اللاحقة، إنَّه كان يرتاحُ إلى التعاملِ مع الحزب المذكور قياساً بالسياسيين الموارنة. ويبقى من اللافت إسراعُهُ، وهو العسكريُّ الذي يحملُ «حلّاً قوياً» ودعماً إقليمياً ودولياً من خارج القوى المتصارعة ومن فوقها، إلى تَلَقُّفِ الثورةِ المضادة التي كانت ذريعتُها المباشَرَةُ اغتيالَ الصحافي الكتائبي فؤاد حداد (أبو الجِنّ).

أبعدُ من ذلك ما نمَّت عنه «الثورة المضادة» من استعدادٍ كتائبيٍّ لسلوكِ المسلكِ غير الدستوري، لا حين تضعفُ الدولةُ فحسب كما في ١٩٧٥ بل حين تقوى أيضاً كما في حالةِ الصعود الشهابيِّ في بداياته، وهي مسألةٌ تعودُ بنا من جديد إلى مصاعب بناء دولةٍ دستورية في «العالم الثالث» العاصفِ بالإيديولوجيات الثورية والتحريرية والدَّمْجِيَّةِ. ذلك أنَّ انعكاسَ هذه التحديات الخارجيةِ على بلد مُنْقَسِمٍ أهلياً وفاقدٍ أصلاً لتقليدِ الدولة، يتجاوزُ المؤسَّسةَ الأخيرة، ضَعْفاً أو قوَّة، إلى سائر التنظيمات الشعبية والأهلية.

لقد بدأت نظريةُ الإستبدال الكتائبي، أو بالأحرى الإستبدال بالكتائب، كتعبير صريح عن بعض أوجه التشابه بين الشهابية والكتائبية، وإنْ كان الكلامُ هنا سيقتصرُ على الشروط والمناخات التي تمَّ في ظلِّها اكتشافُ هذه الأوجه وتفعيلُها.

(٣) في الحكومتين الشهابيتين اللتين شكلهما صائب سلام، عُيِّن سليمان فرنجية وزيراً للبرق والبريد والهاتف، وذلك ما بين أول آب ١٩٦٠ و٣١ تشرين الأول ١٩٦١. لكن رينيه معوض ما لبث أنْ احتل الوزارة نفسها في حكومة رشيد كرامي التي دامت ما بين ٣١ تشرين الأول ١٩٦١ و٢٠ شباط ١٩٦٤. وتبعاً للتوازنات الدقيقة التي حكمت عهد شارل حلو، أُبعد الإثنان عن حكومات العهد إلى أن شُكِّلت حكومة عبدالله اليافي الشهيرة في ٨ شباط ١٩٦٨ لتشرف على الانتخابات التي كُسِرَت بنتيجتها شوكة «المكتب الثاني» وكان فرنجية وزير داخلية هذه الحكومة، فلعب دوراً بارزاً في كسر الشركة.
أهم من ذلك، الخدمات التي أتاحها العهد الشهابي لمعوض الذي أنشأ مكتباً خاصاً به لطالبي العمل في القطاع العام كما انفتحت أبواب كازينو لبنان أمام من يريد توظيفهم من ابناء عائلته والزغرتاويين المحيطين به وبها. أنظر: حازم صاغية: **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٩٥.

فالكتائبُ في تصدّيها لِأنْ تُشَكِّلَ «الغطاء الماروني» لم تسلك خطَّ «المؤامرة» بالمعنى البسيط والآحادي للكلمة، بل إنَّ الوُجهةَ الإستبدالية لم تكن سلطويةً بحتة إذْ ربطتَهْا بالصلب الاجتماعي نفسِه وشائجُ متعددةٌ ومتفاوتةٌ كان من تَجَلِّيَاتِهَا ونتائجها امتدادُ الكتائب نحوَ الأطراف.

ففي أحَدِ جوانبه نَجَمَ هذا الامتدادُ عن جاهزيةِ الحزب الموالي للشهابية لمواكبة نتائج التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فقد آلت الشهابيةُ إلى إحداثِ درجةٍ أرفع من توحيد السوق وتوسيعِها وربطِ أطرافها بالمركز الذي سهرت الشمعونيةُ على إنمائه، فراحَ مع العهد الجديد يُزَوِّدُها بالمدارس والطرقات وشبكات الماء والكهرباء، فضلاً عن المخافر طبعاً. وفي موازاةِ هذه الدرجة من التوحيدِ المادي تَحَصَّلَتْ درجةٌ من التّوحيد الثقافي التي تَعَدَّتْ بعض الكتب المدرسية إلى الصحف، وبالأخَصِّ منها صحيفة «النهار» التي أضحت لسانَ المعارضة من الشمال إلى الجنوب. ومن دون أنْ تَخْفَى آثارُ التوحيد على العادات والمآكل، فإنَّها طالت الأغنيةَ والفولكلور حتى بَدَا الأخَوَان رحباني وفيروز، مثلاً، وكأنهم «على موعدٍ مع الإنطلاقة الشهابية». ولم يَفُتْ أحدَ دارسي الأغنية اللبنانية الربطُ بين «ازدهار نشاط الرحابنة ـ فيروز» وبين «تَوَسُّع فعالية مؤسَّساتٍ إعلاميةٍ (الإذاعة، التلفزيون) وأخرى سياحيةٍ وفنيةٍ (مغارة جعيتا، مهرجانات بعلبك الدولية) وثالثةٍ عسكرية ـ سياسية (الجيش)»(٤).

في هذه الحدود لم يقتصر الإستبدال الكتائبيُّ على التزايدِ العددي لمُمَثِّلي الكتائب في الندوة النيابيةِ منذ ١٩٦٠ فصاعداً، ولا على وضعِ الكثير من «الوزارات التنمَوِيَّة» في عُهْدَتِهِم، إذْ طالَ أساساً امتدادَ التمثيلِ الكتائبي من الحيِّز الضيق البيروتي ـ الجبلي إلى بعض المناطق الريفية وشبه الريفية في الأطراف.

على أيَّةِ حال، فـ «الثورةُ المضادة» جعلت الأمورَ أسرعَ انعكاساً على الصعيد السلطوي بقدر ما مهَّدت لكثير من التَّحُّولات الإيجابية لمصلحة الكتائب وانتشارِه. فالحكومةُ الرباعية التي كانت ثانيةَ حكومات العهد الشهابي أناطت بالشيخ بيار الجميل، مؤسِّسِ حزب الكتائب ورئيسِهِ الأعلى، تمثيلَ نصفِ الموارنة، وتالياً نصفَ المسيحيين، لاقتصارِ التشكيلة على مسلمين سُنِّيَّيْن (رشيد كرامي وحسين العويني) ومسيحيين مارونيين (ريمون إدّه وبيار الجميل). وقد عُهِدَ إلى القيادي الكتائبي بوزارات الأشغال العامَّة والتربية الوطنية والصحة العامَّة والزراعة، أي مُعْظَمِ الحقائب التي تضطلعُ بتلبيةِ الخدمات من جِهَةٍ، وبالتأثيرِ في الصُّلْب الاجتماعي، بوَجْهَيْهِ المادي والثقافي، من جهةٍ أخرى.

(٤) محمد أبي سمرا، **ظاهرة الاخوين رحباني ـ فيروز**، رسالة أعدت لإنجاز شهادة ديبلوم علوم اجتماعية في علم الاجتماع الثقافي، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الأول ١٩٨٥، ص ١٧ و١٨.

ولا تكتملُ صورة «الثورة المضادة» التي جاءت الحكومةُ الرباعية لتستجيبَ لها، من دون ملاحظةِ مسألتين يصعبُ التقليل من أهمِّيَّتِهما:

الأولى، أنَّ الإتيان ببيار الجميل ليكونَ «متراسَ المسيحيين» في مقابل رشيد كرامي «متراس المسلمين»، بحسب تسمية ريمون إدّه الشهيرة، أحَلَّ قَفَا الميثاق الوطني مَحَلَّ وَجْهِه. إذْ بعدَ أنْ كان «المعتدلُ» المسيحيُّ المارونيُّ (بشارة الخوري) و«المعتدلُ» المسلمُ السنيُّ (رياض الصلح) رَمْزَيْ العلاقة التوافقية، بات «مُتَطَرِّفا» المسيحيين والمسلمين رَمْزَيْ التوافق الشهابي في زمن الصعود الناصري ـ السوفياتي في المنطقة، الأمر الذي اتَّخَذَ لاحقاً كاملَ أبعاده في الثنائية الكتائبية ـ الجنبلاطية من دون أنْ يكتُمَ هذا التركيبُ السلبيُّ احتمالاتِ «انفجاريةٍ مُلِحَّةٍ» بدأت تَتَحَقَّقُ في ١٩٧٥.

الثانية، طبيعةِ التَّمثيل المسيحي في الحكومة التي قامت «الثورة المضادة» لاستبدالِها. فَمَسيحِيّو الحكومةِ المذكورة شملوا الـوَجْهَيْن التقليديين فيليب تقلا وشارل حلو، وكان ثانيهما أحدَ المشاركين في تأسيس حزب الكتائب إبّان بداياته الأولى، ويوسف السودا، أحد مُنَظِّري الرواية التاريخية للمارونية اللبنانية، وفريد طراد. أي، بِحَسْب وضّاح شرارة، «مُمَثِّلَيْن عن الدستورية» التاريخية وعن المارونية «المعنويّة». ويوضِحُ الكاتب معنى الأخيرة المنسوجَ على منوال «الصهيونيّة المعنويّة»، فإذا هي «تلك التي لم تندمج في مؤسساتٍ سياسيةٍ مناضلةٍ ولا تملك جذوراً محليّةً مُتَأَصِّلَةً، بل شاركت في بلورَةِ المنحى العامِّ الفكري والشعوري للمارونية»[٥].

استمرَّ المنحى نفسُه مع الحكومة الشهابية الرابعةِ التي شكَّلها صائب سلام في أول آب ١٩٦٠، وهي الأولى بعد الانتخاباتِ العامَّةِ التي أجراها العهدُ الجديدُ، فَمُثِّلَت الكتائبُ بوزيرين من أصل أربعة وزراء للموارنة، إذ أَمْسَكَ بيار الجميل بمقاليد وزارة المال بينما جُعِلَ موريس الجميل وزيراً تُحَدَّدَ اختصاصاتُه بمرسومٍ لاحق. وفي الحكومة الشهابية الخامسة التي شكَّلَهَا أيضاً سلام في ٢١ أيار ١٩٦١ ولَم تَضُم سوى ثمانية وزراء إثنان منهم مارونيان، تولّى بيار الجميل وزارَتَيْ المال والصِّحَّة العامَّة، ليُعَيَّنَ في الحكومةِ التاليةِ التي شكَّلها رشيد كرامي في ٣١ تشرين الأول من العام نفسِه، وزيرَ دولةٍ مُكَلَّفاً مهامَ وزارة الأشغال العامَّةِ والنقلِ والمعاونة بالدراسات الرامية إلى تنظيم الشؤونِ المالية العامة. وكان لهذه الحكومة، التي أَجْلَتْ صائب سلام عن الحُكم إلى ما بعد انهيار الشهابية، أنْ استمرّت حتى ٢٠ شباط ١٩٦٤، لِتُعَدَّ أطولَ الحكومات اللبنانية عُمراً حتى العام ١٩٨٤.

وفي موازاةِ استمرارِ النفوذ الشهابي استمراراً فعلياً في السنوات الأربع الأولى

(٥) وضاح شرارة، **السلم الاهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٢ هـ.

من عهد شارل حلو، تولّى الجميل وزارة الداخلية في حكومة عبدالله اليافي التي شُكِّلَتْ في ٩ نيسان ١٩٦٦، عِلْماً أنَّ الظروفَ السياسيةَ التي أحاطت بتصفيةِ الشهابية والدورَ الكتائبي في هذه التصفية، فَتَحَا لاحقاً مزيداً من الأبواب أمامَ المارد الـذي أخرجه فؤاد شهاب من القمقم.

وإذا ما تَذَكَّرْنَا أنَّ الزعامةَ المسيحية، والمارونيةَ الجبليةَ الأحدثَ عهداً بنوعٍ خاص، لم تَعُدْ ترتكزُ إلى الموقع «الأرستقراطي» تَبَعاً لتسمية إيليا حريق[٦] ولا إلى ملكيّاتِ الأرض الكبيرةِ تالياً، فَهِمْنَا كيفَ أنَّ «الحُكْمَ، بخلافِ ما حَصَلَ ويحصُلُ في الطَّرف الإسلاميِّ، هو الذي يُتيحُ للقياداتِ المسيحيَّةِ أنْ تُشَكِّلَ أو أنْ تُؤَلِّفَ «سُلالاتٍ» وعائلاتٍ تتوارثُ النفوذَ والحُكمَ»[٧] تَبَعاً لتعبيره عما يَمُورُ به الصُّلْبُ الإجتماعيُّ. وهكذا لم تتلكأ الكتائبُ في تثبيتِ نفوذِها والتمهيد لانتشار جغرافيٍّ نحوَ مسيحيي الأطراف، في استعمال الخدمات والمنافعِ التي يُتيحُها الحُكْمُ ووزاراتُه[٨]، علماً أنَّها كانت تُضْطَرُّ بين الفينةِ والأخرى إلى التَّدَخُّل لضبطِ هذا الإنتشار.

لكن ماذا عن التَّحَوُّل الذي بدأ يتعرضُ له حزبُ الكتائب نفسُهُ من طريقِ الامتدادِ إلى هذا الجمهورِ الجديد، والذي مَثَّل العام ١٩٥٨ مُنْطَلَقَهُ؟

الرعيل الأول

شكَّلَ كتائبيو الرعيلِ الأوَّل مِمَّنْ أحاطوا بالشيخ بيار الجميل في الثلاثينات والأربعينات، وَسَطاً مُتَعَلِّماً شبه مدينيٍّ، أكانَ ذلك في بيروت أو في حاضراتِ الجبلِ المزدهرةِ المحيطةِ بالعاصمة، أيْ في تلكَ الرقعةِ المُمْتَدَّةِ من بيروت إلى ما بعد بكفيا في الشمال الشرقي، ومنها نحوَ بعبدا وعاليه وبحمدون في الجنوب الشرقي، فضلاً عن الخطِّ الساحليِّ الممتدِّ من جونيه، ومنها إلى الداخل الكسرواني غير المُوغِل في جُرْدِيَّتِه، حتّى جنوبِ بيروت[٩]. واستطاعَ التقدُّمُ الإقتصاديُّ والتعليميُّ أنْ يُوجِدَ بُقَعاً له خارجَ

(٦) راجع الفصل الأول.

(٧) وضّاح شرارة، **السلم الأهلى البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٥٢.

(٨) لا يخالف ذلك ما لاحظه باحث عربي، بما يصح أنْ يكون شهادة لمصلحة الإدارة اللبنانية برغم كل الطعون التي تعرضت لها، من أنه برغم أنَّ الكتائب «شغلت معظم الوزارات التنموية بالتتابع، فإنّه بمجرد أن يُجلى الحزب عن هذه الوزارات حتى يصبح من الصعب توقع استمرار نفوذه الإداري». Frank Stoakes, «The supervigilantes — The lebanese Kataeb party as a builder, surrogate, and defender of the state», in: *Middle Eastern Studies*, october. 1975.

(٩) أنظر في بعض الأصول «البورجوازية» لهذه المنطقة: سليم نصر وكلود دوبار (تعريب جورج أبي صالح)، **الطبقات الاجتماعية في لبنان، مقاربة سوسيولوجية تطبيقية**، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٢، ص ٦٧ ـ ٦٨.

هذه الرقعةِ: في الشمال الشرقيِّ كدير القمر، وفي زحلة شرقاً، وفي جزّين ومشغرة إلى الجنوب الشرقي، إلّا أنَّ هذه البُقَعَ بقيت بُؤَراً مَوْضِعِيَّةً في وسطها ومحيطِها[١٠]. فهذه الرقعةُ هي مساحةُ «الطائفةِ» كدلالةٍ اجتماعيةٍ ـ اقتصاديةٍ، بالقياس إلى شمالها وجنوبها الأوغلِ في العلاقات العشائرية، حيث لم ينضمَّ الأوّلُ إلى إمارة الجبل إلّا في القرن الثامن عشر وبهذا غايره في المقدِّماتِ التي أفْضَتْ إلى رأسماليته وحداثتِهِ، فيما الثاني (الجنوب) لم تَتَنَصَّر زعامتُهُ الشهابيةُ إلّا في الجزءِ الأخيرِ من ذاك القرن، بما عَنَاهُ التَّنَصُّر يومذاك من خيارٍ يفيض عن الضفاف الدينية والمذهبية[١١].

وحتى العام ١٩٥٨، تاريخِ توسُّعِ الحزب شعبياً ووطنياً بِفِعْلِ مساهمته في «الثورة» و«الثورة المضادة»، استمرَّ نموُّهُ محكوماً بالوُجْهَةِ الغالبةِ لحركةِ التَّقَدُّمِ اللبناني انطلاقاً من اقتصادٍ تغلبُ عليه الخدماتُ. وهكذا ضمَّ إلى قاعدةٍ بورجوازيةٍ صغيرةٍ غيرِ بعيدةٍ عن مصادرِ الإزدهارِ المُتَعَاظِمِ آنذاك، قيادةً بورجوازيةً أعلى كعباً من دون أنْ تندرجَ في الطاقم السياسي الحاكم.

فالنخبةُ القيادية ـ الكتائبية لِطَوْرِ ما قبلَ الإمتداد، هي النخبةُ التي وَضَعَهَا طابعُها المدينيُّ وشبه المديني على جوارِ المرافقِ والمؤسّساتِ والعلاقاتِ الوازِنَةِ والمُؤَثِّرةِ في الحياةِ العامة.

صحيحٌ أنَّ المجالَ السياسي الضَّيِّقَ نسبياً آنذاك، لم يكن بابُه مُشْرَعاً بالكامل أمام أفرادِها الحزبيين، ممن كانوا هم أيضاً، وكما سنرى لاحقاً، مُتَرَدِّدِينَ في ولوج هذا الباب، لكنَّ المواصفاتِ الاجتماعيَّةَ والتعليميَّةَ لهؤلاء الأفراد جعلتهم رجالاتِ صفٍّ ثانٍ مُحتمَلين أو مُرَشَّحين للإنتقال إلى الصدارةِ، في حالِ تحقيق أيِّ تحديثٍ سياسي للنظام.

بهذا المعنى بدا مثلُ هؤلاء مُستفيدين تلقائياً من أيِّ تقدُّم تُصيبُهُ الحياةُ السياسيةُ، في استقبالِها لعملِ المؤسَّسات واستيعابها لقوى صاعدةٍ شابّةٍ ومتعلمةٍ. واستطراداً يُمكنُ القولُ إنَّ هذه الخلفيَّةَ الاجتماعيةَ للكتائبيين عَزَّزَتِ الفكرةَ الكتائبيةَ الأصليّة حول العملِ من داخلِ النظامِ تعزيزَهَا فكرةَ استبعادِ العملِ الانقلابيِّ.

يُمكننا الإستدلالُ على البيئة المدينية للكتائبِ عند العودة إلى تأسيسها في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٦. ففي محاولةٍ من بيار الجميل للحدِّ من آثار الصراعِ الكتلويِّ ـ الدستوري على الحزب الوليد، تَشَكَّلَت «إدارةٌ خُماسيّةٌ» ضمَّت بعضَ ألْمَعِ شُبَّان التَّيَّارَيْن المذكورين (جورج نقّاش، شارل حلو، شفيق ناصيف، إميل يارد، فضلاً عن الجميل) مِمَّنْ كانوا جميعاً ابناءَ البيئةِ البيروتية الجبليّةِ إيَّاها. ولئن لم تستمرّ هذه الإدارة غيرَ أشهر،

(١٠) أنظر، بين مراجع أخرى، المرجع السابق، ص ٣٨ ـ ٤٥.

(١١) Albert Hourani, *The emergence...*, *op.cit.*, p. 174.

مُبَايِعَةً، في ٢٩ نيسان ١٩٣٧، بيار الجميل «رئيساً أعلى»، فإن تركيبَ الحزب ظلَّ يُؤَكِّدُ على اختلافٍ واضحٍ يُمَيِّزُ نخبَتَهُ عن مثيلتها في «الحزب السوري القومي الإجتماعي» الذي نشأ قبلَهُ بأربعِ سنوات واعتُبِرَ خصماً له ونقيضاً. فالأخيرةُ غَلَبَ عليها الطابعُ الريفي والتعليمُ المحلي الذي أضعفَ صِلَةَ معظمِ أفرادِها باللغة الأجنبيّةِ، كما غَلَبَ عليها الإنتاجُ الصغيرُ أو الهامشيُّ، إلى الحدِّ الذي جعل زعيمَهَا أنطون سعادة يُعَيِّرُ البيئة التي نما فيها الكتائب بـ «الدعاوةِ» المصنوعة في فرنسا «التي تُنْشَرُ غالباً باللغة الفرنسية في الصُّحُفِ والكتبِ اللبنانية الأرستقراطية»[١٢].

كذلك يُمْكِنُنا الإستدلالُ على الطابعِ المديني للكتائب في النجاحات المبكرةِ التي أحرزها الكتائبيُّ جوزيف شادر في الوصولِ إلى البرلمانِ عن مدينة بيروت تحديداً. فشادر، الأرمنيُّ الكاثوليكيُّ المتأثِّرُ بليبراليةِ ميشال شيحا والذي أضحى نائباً في ١٩٥٣ للمرة الأولى، وُلد في بيروت في ١٩٠٧[١٣]، ودرس في الفرير والجامعة اليسوعية حيث نالَ إجازةَ الحقوق من اليسوعية، وطانيوس سابا الذي وُلد في مدينة عاليه في ١٩٠٨، درس في الفرير وعَمِلَ في التِّجارة حيث أصبح من كبار مستوردي الأدوية الحديدية ورئيساً لشركة سونابور وعضواً في جمعية تُجَّار بيروت، وراشد الخوري ابن مغدوشة الذي وُلد في مدينة صيدا في ١٩٠٧، درس في اليسوعية وتَخَصَّصَ في الطبِّ الجراحيِّ، وعبده صعب الذي وُلِدَ في حمَّانا في ١٩١٣، تزوَّجَ من رينيه جورج حيمري، وكان قد درس في الفرير ثم تَخَصَّصَ في العلوم المصرفية والإقتصادية حيث حصل على ديبلوم في التجارة. وقد تولّى صعب إدارةَ «بنك سوريا ولبنان» ونيابةَ رئاسة مجلس إدارة «شركة مواقف بيروت» وعضويَّةَ مجلس إدارة شركة «كونتري كومباني» كما شاركَ صالحة وصمدي بعض أعمالِهما. أمَّا إلياس ربابي الذي قَدِمَ من قرية جديتا المُخْتَلَطَةِ في ريف زحلة، فدرس بدوره في الجامعة اليسوعية في بيروت، ثم عَمِلَ موظَّفاً في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين، ومن ثم مُدَرِّساً لِلُّغاتِ في مدرسة حلب للروم الكاثوليك ومن بعدها في الجامعة اليسوعية. ومنذ ١٩٥٨ عَمِلَ ربابي في السِّلك الديبلوماسي فَمَثَّلَ لبنان بصفته سفيراً في بلدان عِدَّة. أمَّا لويس أبو شرف وهو من حمّانا، (أو بحسب رواية أخرى من معلّقة زحلة)، فَدَرَس في الحكمة وعَمِلَ في تدريس الأدب العربي في القسم الفرنسي للجامعة الأميركية وفي اليسوعية وغيرِها من المدارس والكليّات الإرسالية، وقد اقترنت كريمتُه بنجلِ نائب مرجعيون اللاحق رائف سمارة. ومن جزين انتقلَ بازيل عبّود إلى الجامعة اليسوعية حيث درس الطب، فيما درس انطوان جزّار، نجل التاجر مارون جزّار،

(١٢) سعادة، **أعداء العرب أعداء لبنان**، (طبعة حزبية لم يحدد تاريخها ولا دار نشرها، بل اكتفي بتوقيع «لجنة النشر» في آخر مقدمتها)، ص ١٢١.

(١٣) المعلومات الواردة عن سير أفراد الرعيل الكتائبي الأول من أرشيف جريدة السفير والـ *Who's who in Lebanon?*

الذي وُلد في طرابلس في ١٩٢١، الحقوقَ في اليسوعية وأصبحَ محامياً لبلديّةِ بيروت وعضواً في نقابة مُحاميِّها. وفي بكفيا وُلِدَ جورج عميره الذي دَرَسَ في مدرسة الآباء اليسوعيين في بلدته واقترنَ بمي طانيوس سابا كما أصبح نائباً لرئيسِ مجلس إدارة «بنك أدكوم».

على الصَّعيدِ القاعِديِّ، شَرَعَتِ الكتائب تغرفُ من نتائجِ التَّحوُّلاتِ الإقتصاديّةِ والماليّةِ التي حَضَنَتْها مدينة بيروت في العشرينات، مع نشأةِ لبنان الكبير، والتي راحت تتعاظمُ في صورةٍ متواصلةٍ على مدى العقودِ الأربعةِ التالية. فالمدينةُ التي كان بيار الجميل، في ١٩٢٩، يعملُ في إحدى صيدليّاتها ذاتِ الملكيّةِ العائلية، حوت آنذاك ٦٢ فندقاً و٣٢ مطعماً و٢٦ مقهى و١٠ وكالاتِ سفرٍ و١١ مخزناً سياحياً و٧ وكالاتٍ إعلانية و٤٥ شركةَ تأمين و٥٢ مصرفاً و٤٣ مركزاً للاعتماد وتبديل العملات و٢٧ مطبعةً صحافية و١٠ سينماتٍ، كما عاش فيها ١١١ محامياً و٢١ مضارباً عقارياً و٢٣٩ طبيباً و٥٧ مهندساً معمارياً و٣٢٤ مفاوضاً صناعياً و١٩٤ مفاوضَ عمولاتٍ(١٤). أي أنَّ الفترةَ التي سبقت نُموَّ الكتائب سجّلت تَوَسُّعاً نسبياً للبورجوازيةِ الصغرى الحديثةِ بموظّفيها ومُسْتَخْدَميها وكَتَبَتِها وإداريّيها ومُحَاسِبيها وبعضِ أصحابِ مِهَنِها الحُرَّةِ، فيما كانت التطوراتُ الاقتصاديَّةُ إيّاها تؤولُ إلى ضمورٍ تدريجيٍّ مديدٍ للبورجوازيةِ الصغرى القديمةِ بصغارِ مُزارعيها وصغارِ تُجّارها وحِرَفيِّيها. وشيئاً فشيئاً راحَ تَوَسُّعُ التعليمِ وتَوَسُّعُ أجهزةِ الدولةِ الناشئةِ، بعد الانتدابِ كما بعد الإستقلال، يصُبّانِ في هذه الوُجهةِ، الأمرُ الذي ترتبت عليه نتائج عدّة:

• فقد تجاوزت الكتائبُ التنظيماتِ المسيحيَّةَ العديدةَ ذاتَ الطابعِ الحِرَفيِّ والتي تأسَّسَ الكثيرُ منها في المَهَاجِرِ مع بداياتِ القرنِ أي خارجَ أيَّةِ دورةِ حياةٍ مَعْيُوشةٍ، ذلك أنَّ انتسابَ الكتائب للبورجوازيةِ الصغرى الحديثةِ جعلها، مِثْلَهَا، «لا تعيشُ في عالمِ التراب والأشجار واللحمِ والخضارِ والنَّعلِ والجلدِ والشحمِ والحديد. إنّها تعيشُ في عالم قِوَامُهُ الحبرُ والورقُ»(١٥). كما تجاوزت الكتائبُ للسَّبَبِ نفسه تنظيماتٍ إسلاميةً مشابهةً شاطرتها الأربعينات وبعض الخمسينات، لكنّها عاشت دائماً ضعيفةً ضَعْفَ القطاعِ الإقتصادي والتعليمي الأكثرِ ركوداً الذي نهضت لِتَمْثيلِه ومحاكاتِه.

بَيْدَ أنَّ ما سَبَقَ لا يَفُكُّ اللغزَ الكتائبيَّ بأكمله، خصوصاً حين نتذكّر أنَّ المُدُنَ العربيّةَ بما فيها بيروت لا تتغلَّبُ على أحيائها وحاراتها، أي على ما هو ريف و«أرض» فيها.

(١٤) Marwan Buheiry, *Beirut's role...*, *op. cit.*, p. 10.

(١٥) احمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ٩٩.

فأسطورةُ «الأرض» الآخذةُ بِخِناقِ المسيحيين الجبليين، لا تندحِرُ تماماً أمامَ «عالمِ الحبر والورق» إلّا بعد انقضاءِ سنواتٍ مديدةٍ من الاستقرار الذي يطرُدُ الخوفَ الأقلّيَّ ويتركُ الأساطيرَ ترتاحُ فضلاً عن الإزدهار الذي يعملُ تدريجاً على إحلال الاعتبارات الإقتصاديّة والمِهَنيَّة في موقع الصدارة.

بهذا المعنى لم ينطوِ الطابعُ المدينيُّ الذي أُشير إليه، على قطيعةٍ كاملةٍ مع ريفه اللصيقِ به جغرافياً، الشيءُ الذي نجده عند مَدِينيٍّ كميشال شيحا أعلى كعباً من الكتائبِ في التَّمدين البورجوازي وأضعفِ منها صلةً بعالم الريف. فإذا كان شيحا ذو الأصل العراقي والمنظِّرُ الأبرزُ للرأسماليةِ اللبنانيةِ الحديثةِ، قد نَدَّدَ بما اعتبرَهُ إفسادَ الجبل، وهو ما دفع احمد بيضون إلى أنْ يستخلصَ من نصوصه «صورةً مُرَكَّبَةً عن عقل التاجر وطبع الجبليّ»(١٦)، جازت للكتائبِ دعواتُها شِبْهُ القوميّةِ واهتماماتُها شِبْهُ العسكريّةِ وتعويلُها على النَّزْعَتَيْن العائليةِ والأخلاقية، مِمّا تحتويه رواسبُ الفكر الريفي.

واقعُ الأمر أنَّ المصدرَ الريفيَّ البعيدَ، والذي ربّما شَكَّلَ قاسماً مشتركاً للإنتاج السياسي ـ الفكري عند مسيحيي لبنان، هو المسؤولُ في حالةِ الكتائب عن التَّصَوُّراتِ البسيطةِ وشبهِ الصوفية التي رافقتها، بحيث ظلّت الكتائبُ موضوعَ تجاذبٍ بين عنصر مدينيٍّ مُلِحٍّ وآخرَ ريفيٍّ متفاوتِ الإلحاح، حتى أنَّ العنصرين كثيراً ما تَدَاخلا وتشابكا في الظاهرةِ الواحدة. وأخطرُ ما آلت إليه تلك التَّصَوُّراتُ امتناعُ إمكانيّةِ النظرِ إلى السياسةِ بصفتِها المستقلّة عن الأخلاق، مع ما يُفضي إليه ذلك من استنكافٍ أخلاقيٍّ عن السياسةِ وإحالةِ الأخيرةِ إلى الدولةِ «الحاميةِ» للأقَلِّيَّةِ الخائفة.

فَعَمَلُ الكتائب، بحسب الخرافةِ الإيديولوجيّةِ الأولى، يتحقّقُ في المجتمع، ويكونُ «في خدمة لبنان» بما يُزيحُ عن «الخدمة» تجريدَهَا السياسيَّ المتروكَ للدولة، كما يُزيحُ مردوداتها العامَّةَ التي لا تظهرُ نتائجُها إلّا على المدى البعيد. فالكتائبُ في سنواتها الأولى «وَزَّعَتِ الطحينَ على الفقير. كانت أبا الفقير. حملت الثَّلجَ على أكتافها لبيعه بأسعارٍ أدنى من المعمل عندما لم يَسْتَطِعْ الشعبُ أنْ يَتَحَمَّلَ غلاءَ سعرِ الثَّلج. وعندما ضربتْ لبنان موجةُ التيفوئيد تحوَّلَتِ الكتائبُ مُمَرِّضَةً حملت الإبرةَ ودارت لتطعيم الناس ضدَّ هذا المرض». ويمضي الكتائبيُّ المتحمسُ والمُثَبِّتُ عند مجتمعٍ بسيطٍ وأَوَّليّ الخدمات: «كان الشبابُ يدورون على المنازل ليجلبوا التبرعاتِ مِنْ سمن وطحين وحليب وعدس وحمص وفول وحنطة وحلويات وصابون، ثم قبل الميلاد بيومين نجمَعُ هذه الأشياء ونُوَزِّعُها على الفُقَرَاء»(١٧).

(١٦) احمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان، او الهوية والزمن في اعمال مؤرخينا المعاصرين**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، بيروت ١٩٨٩، ص ٩٨ و٩٨ هـ.

(١٧) انظر العدد الخاص من **العمل** الصادر في ١٩٨٦/١١/٢٣ بعنوان «خمسون سنة في خدمة لبنان» وفيه

والواقعُ أنَّ سائر النشاطاتِ على تَعَدُّدِهَا، أمْكَنَ في العُرْفِ الكتائبي إدراجُهَا في خانةِ «الخدمة»، إذْ «قَضَت الظروفُ في الماضي أنْ نخدمَ اجتماعياً ففعلنا، ولمّا قضَتْ الظروفُ بعد ١٩٥٨ أنْ نخدمَ سياسياً دخلَ الشيخ بيار الجميل المجلس النيابي...»[١٨]. وباستثناءِ وجهِ العنفِ (الذي طرأ على «الخدمة» منذ ١٩٧٥) يُقَدِّمُ الكتائبيون وَجْهَهُم الخدماتي الجامعَ إلى دَوْرَي التطبيب والتمريض، دَوْرَيْ البنوّة المتلهفةِ إلى خدمة الأهل والأبوَّةِ المُحْسِنَةِ إلى الأبناء. أي، ذاك الوجه المضاد لِمَا هو شائعٌ شعبياً عن «الزعامات التقليدية» بوصفها طُفَيْلِيَّةً تأخذُ كلَّ شيء من دون أنْ تُعطي شيئاً، فيما «البديلُ» الكتائبي يخدمُ جماعَتَه ويُكَمِّلُ الدولةَ في الوقت عينه، من دون أنْ يُخِلَّ بمبدأ إحالةِ السياسة إليها كما تدلُّ موالاةُ الكتائب الدائمةُ لرؤساء الجمهورية، وشخصيّةُ بيار الجميل الزاهدةُ بالسلطة وشِبْهُ الصوفيّةِ.

وإغراءُ إحالةِ السياسة إلى الدولة وتوفيرِ الحماية تالياً من طريقها، هو ما يُمْكِنُ أنْ تُؤَجِّجَهُ عند الجماعةِ الأقَلِّيَّةِ ظروفُ السكن في مدينة انتقاليةٍ مُتَغَيِّرَةٍ بناسِها وأطوارِها، من غير أنْ تبرأ، شأنَ كلِّ المدن الشرقية، من انقسامِها وانقسامِ سكّانها طوائفَ وجماعاتٍ مذهبية.

هذه العواملُ جعلَتْ الدخولَ في المدينة مزيجاً من الإقبال والإدبار في آن واحد، فإذا كانت البيروتيّةُ أو القربُ من بيروت عنصراً داعياً إلى التفاؤل ومُسَهِّلاً للإندماج، فإنَّ بيروت هي «أحياء» و«حارات» أولاً بأول. ثم إنّ مارونيَّةَ البيروتي أو القريب من بيروت لا تفعلُ غير تجديدِ الخوفِ وتعقيدِ الاندماج، بحيثُ يَبقى الولاءُ العصبيُّ حَذِراً مستنفِراً على إيقاع تسارعٍ سكّانيٍّ واختلاطٍ يصعبُ هضمُهُ بسهولة. وهذا ليس بحالةٍ غريبة أو استثنائيةٍ حيث سبق لبعض السوسيولوجيين الذين درسوا أوضاعَ الهجرةِ الريفية العربية إلى المدن والإقامةِ فيها، أنْ وجدوا فئاتٍ تُقْبِلُ على الإندماج والتَّمدين من دون أنْ يَتَخَلَّصَ أصحابُها «من بعض التقاليدِ المزروعة في أعماقهم، كما لا تعني (علاماتُ الإندماج والتّمدين) انعدامَ الضغوطِ عليهم لكي يُصبحوا «انغلاقيين» في مسائلِ القرابةِ والدينِ والسُّلالة»[١٩].

فما بين ١٩٢١ و١٩٣٢ تَضَاعَفَ عددُ سكّان بيروت، من دون أنْ يتجاوز عَدَدُ الموارنة في هذا العام الأخير ٢٨٩٩٥ نسمة من أصل نَيِّف و١٦١ ألفاً[٢٠]. إلَّا أنَّ تزايدَهُم اللّاحقَ وتزايدَ تمدينهم لم يُؤَدِّيا إلى تأسيس وُجهَةٍ معاكسةٍ، حيث تضافرَ التوترُ

شهادات عدد من أوائل الكتائبيين. [من الآن فصاعداً يُشار إلى العدد المذكور بـ: العمل - خمسون سنة...].

(١٨) من مقابلة مع جورج سعادة في **المسيرة** ٢٨/١١/١٩٨٧.

(١٩) عن سعد الدين إبراهيم، «مُدن العالم العربي» في دراسات عربية، العدد ٦، نيسان/أبريل ١٩٧٥.

(٢٠) Marwan Buheiry, *Beirut's role...*, op. cit., p. 9 &11.

في المنطقة العربية بتداخُلِه مع التركيب السُّكّانيِّ والأهليِّ، مع تَخَلُّفِ القانون الإنتخابي الذي يُرْجِعُ الموارنةَ البيروتيين إلى أريافهم لحظةَ التصويت. فموارنةُ المدن لم تتجاوز نسبةُ عددهم «الرسمي» ٦٫٧ بالمئة من سكّان المدن[٢١]، فيما حَظِيَتْ بيروت بنائبٍ مارونيٍّ واحدٍ لم تَحْظَ بمثله صيدا أو طرابلس.

ولَئِنْ لازم التوتُّرُ والإحباطُ بيئةً كهذه، فإنَّ القانونَ الذي أرْجَعَ أبناءَهَا إلى الأرياف لحظةَ اتِّخَاذِهِم قرارَهُم السياسيَّ، حَكَمَ على «سياستِهِم» بالبقاءِ مُتَخَلِّفَةً عن هموم المدينة وتشابكِ علاقاتها الحديثة.

بدايات «السياسة»

سيطر هذا الإزدواجُ على المرحلة الكتائبية الأولى ما بين ١٩٣٦ و١٩٤٣، بحيثُ رأى فيها أنتليس مرحلةً يطغى عليها «ارتباطٌ قويٌّ جداً، إن لم نَقُلْ مُتَعَصِّبٌ، بمفهومِ لبنان المستقل الذي تُكَوِّنُ القوميةُ المارونيةُ قوميَّتَهُ الدافعةَ المُمَيِّزَةَ»[٢٢]. لكنَّ تناقضَ الموقعِ الديني والذهنيّةِ المسكونةِ بالريفيّةِ هو ما خرج إلى العلن مع حقبة الإستقلال التي يعتبرُها التأريخُ الرسميُّ للحزب بدايةَ التحوُّلِ إلى حزبٍ سياسي ونشوءِ «الظاهرة الكتائبية». فهذا التَّحْقِيبُ يُسَمّي مرحلةَ ١٩٣٦ - ١٩٤٥ مرحلةَ «الإعداد والتنظيم لخلق توجيهٍ لبنانيٍّ صَرْفٍ» تليها مرحلةُ «اللجوءِ إلى ما تواطأ العُرفُ والعادةُ على تسميته «سياسةً» كوسيلةٍ من وسائلِ الخدمةِ الوطنية»[٢٣]. وعَمَلاً بـ «السياسة» هذه خاض الكتائبيون معركَتَهُم الانتخابيةَ الأولى في ١٩٤٥ وكانت معركةً فرعيّةً في جبل لبنان حيث لا يكتم الإختيارُ تعيين مناطقِ القوّةِ النسبيةِ للحزب. أمَّا طَرَفَا المعركةِ فكان أحدُهُما فيليب تقلا «التقليدي» الذي سعى إلى الحلول محلَّ شقيقه سليم، القطبِ الاستقلاليِّ المتوفي لِتَوِّهِ، والآخرُ الكتائبي إلياس ربابي الذي جَمَعَ إلى عدمِ الإنتماء إلى جبل لبنان كونَهُ أحدَ خطباء حزب الكتائب.

ولم يكن اختيارُ ربابي الذي نال ١٣٣٠٠ صوت في مقابل ٢٣ ألفاً نالها منافسُهُ الفائزُ، بلا دلالاتٍ رمزيّة وفعليّة. فقد اختارت الكتائبُ لتمثيلِ الجبل وجهاً صادراً عن منطقةٍ أقلَّ تقدماً منه، وكأنّها تلجأ إلى قانون ثأريٍّ متخلِّفٍ في الردِّ على القانون

(٢١) عن غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٠.

(٢٢) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 74.

(٢٣) فيما أعتبر أنطوان معربس أنّ مرحلة التحول إلى حزب سياسي هي «نتيجة تطور طبيعي وجدت الحركة نفسها فيه تساهم بفعالية في بناء الدولة الحديثة»، ذهب كريم بقرادوني، وبطريقته، إلى أنَّ العام ١٩٤٥ هو الذي سجل الإنتقال من «الحركة السياسية» إلى «الحزب السياسي» أو «حزب الجماهير»، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٩. وكذلك الجزء الثاني ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

الإنتخابي المتخلفِ بدوره لجهةِ إرجاعه أبناء المدنِ إلى مناطقهم الأصليّةِ في الريف. أمّا الذي تَصَدَّت لخصومته، فيليب تقلا، فكان أحدَ وجوهِ «الطبقة السياسية» بِقَدْرِ ما كان، حتى تلك اللحظة على الأقلّ، وسيطَ ثقافةٍ وتجربةٍ مَدينيّتين مُتقدِّمَتَيْن على الحصيلةِ الجبليّةِ أو المُتَوَسِّطِ الجبلي.

من ناحيتها مثّلت الخطابيةُ الكتائبيةُ التي كان ربابي (الريفي الزحلاوي) ولويس أبو شرف (الحمّاني) مُؤسِّسَيْها، صلةَ وصلٍ وظيفيةٍ بين عُنْصُرَيْ الإزدواج الكتائبي مع انحيازٍ مؤكّدٍ للعُنْصُر الريفي. فقد استعارت من المدينية الهادئة والحَداثية البورجوازية الصغيرة الحدَّ الأدنى الإقناعيَ الذي تُمَثِّلُهُ الخَطابةُ، وفصاحةُ الكلام ونخبويَّتُهُ في مُجْتَمَعٍ لا يزالُ شفويَّ الثقافة، عامِّيَّها. لكنّها استعارت من الريفية مخاطبةَ الجمهور على نحو يستعجلُ العمليةَ المؤسَّسِيَّةَ ويستبقُ إيقاعها التدريجي. وفي الخُلاصة صِيَر عبر الخِطابة وقِيَمِهَا إلى طردِ الخوفِ الأقَلّيِّ تَوَهُّمِيّاً، وإلى التَوَحُّدِ الديماغوجي مع الأهل، أو في هذه الحالة، الطائفةِ التي التَبَسَت بالعشيرةِ حينَ أُريدَ دفعُها إلى التَّراص والتَّجَمُّع.

في ١٩٤٧ رشَّح الحزبُ أربعةً من وجوهه هم جوزف شادر عن بيروت، والياس ربابي وجوزيف سعادة عن جبل لبنان، وجاك شديد عن لبنان الشمالي، من دون أنْ يُسْعِفَ الحظُّ أيّاً منهم. أمّا في ١٩٥١ فتقدّم خمسة مرشحين هم بيار الجميل عن المتن وجوزيف شادر عن بيروت وَضاهر مطر عن كسروان وجان سكاف عن زحلة والبقاع وألبير الحاج عن عكار، ونجح الحزبُ في إيصال ثلاثة من مُرَشَّحِيه هم شادر وسكاف والحاج. ولئن دلَّ اختيارُ المناطق على الإغراء الكتائبي المبكرِ بالتمدد إلى ما يتعدّى الرقعةَ الأصليّةَ في بيروت والجبل، فإنَّ هزيمة بيار الجميل المدعومِ من الدستوريين بفارق ١٤٩ صوتاً كانت غَنِيَّةَ الدلالات، خصوصاً لجهةِ الخصم، بيار إدّه، الذي دعمه حزبُه، حزبُ الكتلة الوطنية ومعه كميل شمعون وكمال جنبلاط فضلاً عن السوريين القوميين الإجتماعيين[٢٤]. وإذا ما قرانا هذا الإصطفافَ من زاوية التطوراتِ التي ستحصلُ بعد أشهر، وجدنا أنَّ القوى الصاعدةَ سياسياً (شمعون وجنبلاط) هي التي أيَّدت أحدَ رموز السياسةِ اللبنانية (بيار إدّه) في مواجهة الترشيح العامِّيِّ المَرْعِيِّ من الشيخ بشارة الخوري عشِيَّةَ سقوطِهِ.

في ١٩٥٣ أمكن إيصالُ شادر وحده إلى البرلمان، أمّا المرشحُ الآخر الذي قدمته الكتائب عن بيروت فكان موريس الجميل الذي حالفه الفشلُ في مواجهة أحد الرموز السياسيين ورئيسِ الجمهورية السابق ألفرد نقاش، وقد اقتصر الترشيحُ عامذاك على كتائبيين اثنين فقط نظراً إلى خفض عدد المقاعد النيابية إلى ٤٤.

(٢٤) انظر، بين مراجع أخرى، Michael. W. Suleiman, *Political parties in Lebanon — The challenge of a fragmented national culture*, Ithaca, New york, 1967, p. 214 & 234.

بعد أربع سنوات، ومع رفع عدد النواب مجدداً إلى ٦٦، تقدَّم خمسة مرشحين من الكتائب هم جان سكاف الذي خانه هذه المرة حظُّه السابقُ، وجوزيف شادر الذي فاز وَحْدَهُ عن بيروت الثانية، وعبده صعب الذي انسحب في المتن الجنوبي، وموريس الجميل الذي هُزِمَ بفارق ضئيل في المتن الشمالي، ووليم حاوي الذي لم يَنَلْ كمرشح أرثوذكسي أصواتاً تُذكر في بيروت الأولى.

يتّضح ممّا تقدّم أنّ المرحلةَ «السياسية» السابقة على ١٩٥٨ تميَّزت بالإتجاهات المتضاربة التالية:

١ ـ كان فوزُ جوزيف شادر المُتَكَرِّر يشي باستمرارِ الأرْجَحِيَّةِ البيروتيّةِ ـ الجبليّةِ للحزب ويدلُّ على إمكاناتٍ لنموٍّ تدريجي هادىء وغيرِ انقلابيٍّ في هذا الحيِّز.

٢ ـ وكانت المحاولاتُ الفاشلةُ لإطاحة السياسيين (تقلا، نقّاش، إدّه) تنمُّ عن وجهة متعجلةٍ للحلول محلَّ زعاماتٍ لم تتجاوزها السَّوِيَّةُ العامَّةُ للمجتمع اللبناني، ولا استطاعَ حزبُ الكتائبِ أنْ يستوعِبَهَا ليكونَ حزبَ أعيانٍ على الطراز المسيحي الديمقراطي. وربَّما كان من تعابير الفشلِ في هذا الميدان الإنسحابُ المبكرُ للمؤسِّسِيْنَ الأوائلِ (حلو، نقاش إلخ.) الأكثرِ انشداداً إلى المدينةِ والبورجوازيّةِ و«الصفِّ الأوّل»، من الحزب الذي تُرِكَتْ قيادتُهُ لبيارِ الجميل وحده.

٣ ـ تواضعُ التقدُّم في اتجاه الأطراف ومَحْدُودِيَّةُ النتائجِ التي أحرزها هذا التقدُّم، خصوصاً أنَّ النائبين جان سكاف وألبير الحاج، وكما سنرى لاحقاً، وَصَلا إلى البرلمان لاعتباراتٍ عائلية وشخصيةٍ أكثرَ منها حزبية.

بَيْدَ أنَّ التَّوَسُّعَ الذي أعقب ١٩٥٨ هو ما شَرَعَ يشدُّ الحزبَ في وُجهةٍ مختلفة. فحينذاك التقت مناطقُ الإحباطِ المسيحي، الكاملةُ الريفية وذاتُ الذاكرة المريرةِ عن التعايش، مع التحديثِ الذي أضفاه العهْدُ الشهابيُّ على الحياةِ اللبنانية وأفادت منه الكتائب بطرق شتّى. فمعظمُ مناطق الإمتداد يقعُ ضِمْنَ دوائر أعرضَ للسَّكَنِ الإسلاميِّ حيثُ العلاقاتُ الأهليّةُ السائدةُ والمُتَوَارَثَةُ يصعبُ ضبطُها بأعرافٍ و«قوانين» التعايش والميثاق (فكيف حين نُضيف، منذ أواخر الستينات، عُنْصُرَ السلاحِ الفلسطيني المنتشرِ بكثافةٍ، والمنظورَ إليه كأداةِ تقويةٍ للمسلمين ومواقعهم؟).

هكذا كان للتكوينات المحلية أنْ ابتعلت التَّوَسُّعَ الوطنيَّ للشهابية ولوَّنَتْهُ بلونها، بحيثُ تَكَرَّرَ مرَّة أخرى ما تحدَّث عنه دومينيك شيفالييه حول لبنان ما بعد ١٩٢٠، إذْ أسهم تجاورُ الطوائف «في المحافظةِ بقوّةٍ، وداخلَ كلٍّ منها، على الخصائصِ الجوهريةِ للحياةِ العائليةِ والطائفيةِ»[٢٥].

(٢٥) عن سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٣.

لا يقتصرُ أمر تلك الطوائف على هذا الجانب، إذ إنَّ ما عزَّزَ المَيْلَ إلى ترجمة الواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي فيها وعياً ولغةً تناحُريَّيْن، هو بالضبط رسوخُ التكوين العشائريِّ الجامع، حيث حالت محدوديَّةُ التقدّم دون ظهور النُّوى الطائفية على ما عَهِدْناه في الجبل. فالزعاماتُ الأهليَّةُ ـ السياسيَّةُ المُتَصَدِّرَةُ، إسلامية كانت أم مسيحية، تضرب جذرها في ملْكِيَّات الأرض الواسعة والعلاقات الدموية المُوَسَّعَةِ، وبعضها متوارَثٌ عن «نظام الإلتزام» العثماني، كما يُمكننا أن نرى في بشري وزغرتا وتنورين وعكار وغيرها.

بهذا المعنى عَمِلَ التَّقَدُّمُ الذي طَرَأَ على المعارف والمواصلات، وتقديسُ النزعةِ التكنوقراطيةِ والكفاءةِ التنظيميةِ، على توفيرِ الأدواتِ الحديثةِ التي تَصُبُّ فيها ولاءاتٌ حادةٌ وانقلابيةٌ تتَّجِهُ شفرتُها نحو الآخر الطائفي بِقَدْرِ ما تتجه، تحويراً، نحو زعاماتٍ تآكَلَتْ المقدّماتُ الإقتصاديةُ والتعليميةُ لِتَصدُّرِها، من دون أن يكون الجمهورُ الطائفيُّ قادراً على الحلولِ مَحَلَّها. وفي وَسَطٍ كهذا راحَتْ كتائبيةُ الأطرافِ تُشَابِهُ البيئاتِ التي نما فيها السوريون القوميون والشيوعيون من حيث الحِدَّة التَّوْكيديَّة والتعصُّب العقائديّ[٢٦]، فراح ينفجرُ الإزدواجُ الذي ظلَّ هادئاً متعايشاً في المدينةِ لا تُهَدِّدُهُ الفولكلورية العُنْفِيَّةِ لشبَّان الكتائبِ حينذاك.

قياديّ الجيل الثاني

كانت من العلاماتِ المبكرة على النَّقْلَةِ التي حَقَّقَتْها الكتائبُ في ١٩٥٨ وكَرَّسَتها الشهابية لاحقاً، الإنتخاباتُ الفرعيةُ التي جَرَتْ في جزين في ١٩٥٩ بسبب وفاة نائبها فريد قوزما. فقد استطاعَ مرشَّحُ الكتائب الدكتور بازيل عبود أن ينتزعَ المقعدَ من مارون كنعان «التقليدي» وذي الهوى الشمعوني، ليصبحَ مُمَثِّلاً للموارنة مِمَّنْ يُشَكِّلون ثُلُثَيْ مقترعي البلدة المجاورة للشوف، مهدِ الشوكةِ العسكريّةِ الجنبلاطية.

وفي موازاةِ ذلك، وربما لضبطِ النموِّ العشوائي في الأطراف، شهد العامُ ١٩٦٠ عمليةَ تجديدٍ للبطاقاتِ بحيث صُفِّيَتْ عضويةُ حوالي ١٥ ألف منتسب جديد، الكثيرون منهم جنوبيون[٢٧]. وهكذا، فإلى حضورِ الحزب في ١٩٦٢، في معظم المناطقِ المسيحية من بيروت و٤٥ بالمئة من قرى الجبل، وُجِدَ مُمَثِّلين له في ٢٥ بالمئة من قُرى وبلدات الشمال و٢٨ بالمئة من قُرى وبلدات الجنوب و٢٢ بالمئة من قُرى وبلدات البقاع[٢٨].

(٢٦) بدأت أواخر الستينات تسجل ظهور أصوات مارونية ريفية تتحدث أيضاً عن «الحرمان» و«البؤس» وتطالب بـ «الاصلاح»، وكانت «حركة الوعي» الطلابية أحد ابرز أصوات هذه النزعة الشعبوية البورجوازية الصغيرة.

(٢٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 109.

(٢٨) *Ibid.*, p. 109-110.

بدورها لم تَتْرُكْ سِماتُ كتائبيي الجيلِ الثاني مِمَّنْ انتقلوا إلى الصدارة الحزبية مع ١٩٥٨ وبُعَيْدَها، مجالاً للشكِّ بصددِ اختلافِ الهوية، أو بالأحرى الإفصاحِ عن تناقضات هويةِ الجيلِ الأَوَّلِ، والتمهيدِ لهويةِ جيلٍ ثالثٍ سيظهرُ مع حرب السنتين.

فالسِّماتُ التي نجدها مبعثرةً أو جزئيةً في جورج سعادة وجوزيف الهاشم وإدمون رزق وغيث خوري وغيرهم ممن سيتُمُّ التَّطَرُّقُ إليهم، نَجِدُها كاملةً ونموذجيةً في حالة جوزيف أبو خليل[٢٩] ابن بلدةِ بيتِ الدِّين الشوفيَّةِ الواقعة جنوبيّ الجبل المسيحي، وعلى الحدودِ بين شمال الشوف وجنوبه، وهي رقعةٌ تصطبغُ باللون الحادِّ للإختلاط الماروني ـ الدرزي الداعي للتشاؤم برغم كُلِّ الإحتفاليّات الساذجةِ حولَ التعايش، خصوصاً وقد عانت منطقةُ الشوف فِصاماً حاداً بين التَّصَدُّرِ الإجتماعي والإقتصادي والتعليمي للمسيحيين وبين السُّطْوة الدرزية ومن ثَمَّ الزعامةِ السياسيةِ الجنبلاطية كما كَرَّسَتْها الشهابية. بكلمة، اختلف «التعايش» في العمق الشوفيّ عنه في الرُّقْعَةِ الممتدة ما بين الجبل الشماليّ وشماليّ الجبل الجنوبي بحيث بَدَتْ الهويةُ الدينيةُ والطائفية أقربَ ما تكونُ إلى هويَّةٍ وطنية، وهذا، على الاقل، ما يَصِفُ به أبو خليل طفولَتَهُ إذ «إنَّ انتمائيَ الوطنيَّ كان يمتزجُ بانتمائي الطائفي. فأنا مارونيُّ الدينِ والمذهب، ومن الذين نشأوا وترعرعوا حول كنيسةِ الضيعة ودَرَجوا على «خدمة القدّاس» وخدمة كاهن الرعية. ولم أكن لأميِّزَ بين الإنتماءين أو أفرِّقَ بينهما كما المواطنُ الكاثوليكي في إسبانيا مثلاً، أو كما المواطنُ المسلم في مصر أو باكستان»[٣٠].

كان والد أبو خليل «مُعَلِّمَ عمار» «لم تُسْعِفْهُ أحوالُهُ الماديَّة لِتَعليم نَجْلِهِ الذي توقف عند مرحلة السرتيفيكا وجاء يعمل في صيدلية الشيخ يوسف الجميل، عمِّ الشيخ بيار، في بيروت. وفي العاصمة تَأَثَّرَ بالجوِّ الكتائبي النظامي والعمل الإستقلالي عشيَّةَ الحرب العالمية الثانية تَأَثُّرَهُ بأجواء الصيدلية التي تَسَلَّمَ أَمْرَها الشيخ بيار المتعاطفُ مع الإستقلاليين. ومع أن الوَسَطَ العائلي لأبو خليل ومسيحِيِّي قريته كان يتعاطفُ مع التيّار السياسي الذي رَمَزَ إليه وقادَهُ إميل إدّه، فهو راح يُشارك في النشاطاتِ الوطنيةِ للكتائب إلى أن انتسبَ «رسمياً» في ١٩٤١، أو كما يصفُ في مذكراته: «كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عندما بدأتُ أمشي في صفوفِ الكتائب مأخوذاً بشعاراتها، وفي السادسة عشرة عندما طَلَبْتُ الإنتماءَ إليها وهي لمَّا تَزَلْ حركةَ شبابٍ فَتِيَّةً. ولم أصبح «عضواً عاملاً» إلَّا بَعْدَ سنتين تقريباً»[٣١].

شَرَعَ أبو خليل يتدرَّجُ في السُّلَّمِ التنظيمي المعْمُول به آنذاك من «النقطة»

(٢٩) المعلومات الواردة عن جوزيف ابو خليل من مقابلة معه في بيروت ١٩٨٦ إلّا حين يُشار إلى مرجع آخر.

(٣٠) جوزيف أبو خليل، «حرب لبنان ـ مراجعة ونقد ذاتي»، الحلقة ٥٩، **الحياة** ١٥/٩/١٩٨٩.

(٣١) المرجع السابق.

فـ «القِسْم» وصـولاً إلى مسؤولية المنطقـة بحسب الوحـدات التنظيمية الكتـائبيـة. وفي غضون ذلك بات يُجيدُ تحضيرَ الأدوية في الصيـدلية إلى جـانب عَمَلِهِ كمنـاضلٍ حـزبي، ليجـد أنَّ هذه المهـارةَ هي أعلى ما يُمْكن أن يَبْلُغَـهُ في الصيدليـة. ومـا لَبِثَ الحـزبُ أن أصبح طريقَهُ إلى توسيع أفق ثقافتِهِ الحزبية والسياسية، فيما كان السِّجالُ المتواصلُ مع «الحزب السوري القومي الاجتماعي» يَشْحَذُ بَحْثَهُ عن مدارك أوسع وحججٍ أكثر إقناعاً.

في ١٩٥٢ انتقل أبو خليل إلى العمل في مصلحةِ الكهرباء وراح يدرسُ على نفسه فَقَرَاً برنامجَ البكالوريا التي أحرزَها إحرازه القسم الثاني منها بـالطريقـة نَفسها، وهـو ما فَتَحَ الباب أمامهُ، لاحقاً، للإنتسابِ إلى الجامعة اللبنانية حيث دَرَسَ، في أوائلِ الستينات، ثلاث سنواتٍ في كليَّة الحقوق.

لكنَّ الدراسةَ الليليةَ والعملَ الحزبيَّ واعتقادَهُ أنَّ شهادةَ المحامـاة لن تُفيدَهُ في مـا اختارَهُ لحياتـه، فضلاً عن اقتنـاعه بـأنَّ ما تُقـدِّمُهُ لـهُ الثقافـةُ الحزبيـةُ أجْدى وأهَمُّ من الشهادة الجامعية، كلُّ هذه العوامل حَدَتْ به إلى إيقاف الدراسة.

قبل ذلك، وخلال أحداث ١٩٥٨، حَصَلَ التحوُّلُ البارزُ في حياة أبو خليل الذي أنشأ إذاعـةً كتائبيـةً بسيطةَ الأدوات بمُسـاعدة رفيقٍ وصـديقٍ له كـان على إلمامٍ بـالجـوانب اللاسلكية والكهربائية، وقد كان لهذه البادرةِ التي بَدَأَتْ تَطَوُّعِيَّةً أثَرُها البـارزُ، خصوصـاً مع تقوية البثّ الإذاعي ممَّا جعلَ صاحِبَهَا «ذا اسمٍ «في الحزب، كمـا عَمِلَ على تـأسيس علاقتِهِ اللاحقةِ بالشيخ بيار.

أمّا الخبرةُ الحزبيةُ التي استعملها في عمله الإذاعي، فكان قد بـدأ بإنمـائها من خلال نشاطه التنظيمي في مصلحة الكهرباء. فهناك بنى خليةً كتائبيةً وأصـدر نشرةً تنطق باسمها، ويبدو أنَّ النشرةَ وصلت إلى الشيخ بيار فأعجبته وأحَبَّ التعرُّفَ على مصدرِها.

بدوره أثَّر هذا التعارف في توليتِهِ «مصلحة الدعايةِ» في الحزب، ومن بعدِها منصبَ «معاونِ الأمين العام» حيث راح أبو خليل يعملُ قبلَ الظهـر في مصلحة الكهـرباء لـتأمين معيشته، وبعد الظهر في بيت الحزب المركزي. وحين وَجَـدَ أنَّهُ لن يقـوى على الجمع بين النشاطَيْن، طلب أن يَتَفَرَّغَ في الحزب فكان له ذلك. ويبدو أنَّ جوزيف أبو خليل ومن بعده جـوزيف الهاشم، الكتـائبي الشـوفي هـو أيضـاً، كـانـا أول كتـائبيين يعـرفـان التفـرُّغَ الحزبي[٣٢].

فَرَضَ التفرغُ على صاحبه «التَّعَمُّق بعلم الأحزاب» من الناحية التنظيمية خصوصـاً، وهكذا انْكَبَّ على دراسة دساتيرِ الأحزابِ الأوروبيةِ وبُناها، وشَرَعَ يحاول، على ضوء هذه

(٣٢) هذه المعلومة الأخيرة وردت على لسان كريم بقرادوني في مقابلة معه في بيروت ١٩٨٦.

المعارف الجديدة، إحداثَ لونٍ من التجديد التنظيمي، جاعلاً «الأمانـة العامـة» أكثرَ دقـةً وجديةً في عملها، ومُشْرفاً على إجراء أول إحصاءٍ تفصيليٍّ للحزبيين، مَطالِعَ الستينـات، وهو الذي يتناولُ المواقعَ والأعمارَ والأجناسَ والطَّوائفَ والمِهَن والمناطق.

كذلك أنشأ أبو خليل دوراتٍ تدريبيةً لرؤساء الأقسام، ووضع دليلاً جامعاً لـلأقسام كلِّها يَطالُ الجوانبَ التنظيميةَ والفنيةَ، وراح يضع جدولَ أعمالٍ مـوحَّداً لهـا بما يُجـانِسُ بين عملها وطرُقِ تفكيرِها وتَنَاوُلِها الأمورَ المطروحةَ، كما يُمْعِنُ في رَبْطِها بالمركز الحـزبي في بيروت، إذ المعروف أنَّ علاقةَ هـذا الأخير بـأطراف الحـزب لم تَكُنْ قبلَ ذلـك تتعدى زياراتِ الوفود الرسمية والخطابات الحماسية في المهرجانات الحزبية والوطنية.

مع أوائل الستينات بدأ أبو خليل يكتب تصريحاتِ الشيـخ بيار السيـاسيةَ، ومن ثم بياناتِهِ للمؤتمرات الحزبية السنوية، إلى أنْ تَسَلَّمَ في أيار ١٩٦٨ رئاسـةَ تحرير صحيفة «العمل» فصار يكتبُ افتتاحيّاتِها الرئيسيّـةَ التي كان يكْتُبُهـا إدمون رزق ورشـاد سلامـة. وهنا أيضاً عَمِلَ على تَحْديثِ الصحيفة التي لم تَكُنْ أكثَرَ من نشرةٍ حزبيـةٍ، فراحت تظهـرُ على صفحتها الأولى صُورٌ لجمال عبد الناصر أو كمال جنبلاط ممَّا أثار بعض الإمتعـاض عند مُتَزَمِّتي الحـزب، كما دَرَجَ على أن يُـوَجِّهَ، من ضمن استفتـاءاتٍ للأحـزاب الأخرى، أسئلةً لشيوعيين وسوريين قوميين لا يَتَرَدَّدُ في نشر إجاباتهم عنها.

من الـواضح أنَّ مـا تحملُهُ تجـربة أبـو خليل، كَعَيِّنَـةٍ تَمثيليَّةٍ على الجيل القيادي الثاني، يربط بين عناصر متعددة. فهناك الأصـول الريفيـة حديثـةُ العهد بـالمدينـة حيث وَجَـدَتْ حِراكَهـا (Mobility) السياسيَّ الـذي لَعِبَ العملُ في صيـدلية الجميـل دَوْراً فيه، وهناك درجةُ الإنقطاعِ الجزئي والعابر (حيال الإستقلال) عن «سياسة» الأهل في القريـة من مؤيدي إميل إده، والتَّصالُحِ تالياً معهـا في كلِّ كتـائبيِّ ـ طائفيِّ أكبـر، وهناك عمليـةُ إنتاجِ طاقمٍ نضاليٍّ صادرٍ عن منبتٍ اجتماعيٍّ شديـدِ التواضـع، صَنَعَهُ الحـزبُ صناعـةً شبهَ كاملةٍ، وذلك في مناخِ تَحْديثٍ حزبيٍّ يُواكِبُ التحـديثَ الشهابيَّ الـذي نما في كَنَفِـهِ، جاعلاً الفولكلورياتِ الكتائبيةَ الأولى، بما فيها الفولكلور العسكري، جزءاً من ماضٍ بسيطٍ ومُرشّحٍ للموت.

وعلى عكس الرعيل الأول جـاء أفرادُ هـذا الطاقم من مـوقع يَنْتَظِر كلَّ شيءٍ من الحزب الصانع. فالفردُ يَتَشَكَّلُ وَعْيُهُ وتَجْرِبَتُهُ وعِلْمُهُ على ضـوء وَعْيِهِ وتَجْـربتِهِ وعِلْمِـهِ في الحزب وللحزب، وتتداخل مِهْنَتُهُ مع موقعِهِ الحزبي، فيما يـرتبط دورُهُ الشخصي، ومكانَتُـهُ الاجتماعية تالياً، بالدور الذي يوكِلُهُ إليه الحزب، فإذا مـا تَعَارَضَ أيُّ نشـاطٍ مع النشـاط الحزبي تَمَّ ترجيحُ الثاني من دون كبيرِ عناءٍ. وهذا كلُّه يمنحُ قياديَّ الجيـلِ المذكـورِ ولاءً مطلقاً للحزب أو رئيسِهِ المؤسس الذي «له فضل كبير عليّ» بحسب قول أبو خليل. وبقـدر ما تتداخلُ في صورة الحـزب كَوْنُهُ مؤسَّسَةً سيـاسيةً وبيتـاً ومختبراً لـلأفكار ومَصْـدَراً

للعلاقات الإجتماعية، يتداخل في صورة القائد المؤسس كَوْنُهُ زعيماً سياسياً وأباً وربَّ عمل. أي أنَّ التَّحْديثَ التنظيميَّ الذي يُسَهِّلُ للحزب امتدادَهُ إلى الأطراف ويُقَوِّي قُدْرَتَهُ على مُجاراةِ التحوّلِ الشهابيِّ والإفادةِ منه وعلى المواجهةِ مع أحزاب وعقائدَ منافسة، يَفْعَلُ في اتجاهات مختلفة بل متضاربة: فمن ناحية يُؤَدْلِجُ الحزبَ القَليلَ الأَدْلَجَةِ أصلاً ويُحيلُهُ مجتمعاً مُضاداً شاملاً وقائماً بذاته وبيئةً فِرَقِيَّةً (secterian) مُكْتَمِلَةً، من ناحية أخرى، وانطلاقاً من التكوين المجتمعي اللبناني المعروف، يُدْمِجُ الحزبَ بالمحيطِ الأهلي الماروني واللبناني تالياً، بما في ذلك قيمة الإرتباط بمرجع زعامي، مُقَلِّماً قُدْرتَهُ على الإحتفاظ بلون من النِخبَوِيَّةِ التي عرفها في البداية.

أبعد من ذلك كلِّه، إذا كانت التوتاليتارية، في تعريفها الأشدِّ تكراراً، هي تَسْييسُ النشاط الإنساني بِرُمَّتِهِ وإلغاءُ «الفارق بين الإنتماءِ إلى مملكة الله والمُواطنية في دولةٍ أرضيّة»[٣٣]، فإنّ حياة أبو خليل التي لا تلبث أبعادُها المُفْتَرَضَةُ أن تنضمَّ في بُعْدٍ واحدٍ أحَدٍ، هي شهادةٌ غنيةٌ على تكوين الجيل الثاني ومَلامِحِه، أو، على الأقل، إشارةٌ إلى مَسارٍ مُحْتَمَلٍ.

الانتخابات الشهابية

لقد نَمَتْ الكتائبُ في امتدادِها الريفي ضِمْنَ البيئاتِ الإجتماعية الأشدِّ إصراراً على اختراق الحياةِ السياسيةِ اللبنانية من خارجها، وذلك من دون أن يتوافر من مقدمات الرِّيادة المدنية ما توافر في بيروت والجبل. وقد يكونُ بليغَ الدلالة الوصفُ اللاحقُ الذي كَتَبَهُ الصحافي الراحل سليم اللوزي في معرض التعليق على انفجار النزاع الكتائبي - الزغرتاوي في ١٩٧٨، حيث «في كل قرية يتجمع الناس الذين لا عائلات سياسية لديهم، والذين يُعَدُّون من العائلاتِ المُسْتَضْعَفَةِ أو المغلوبةِ على أمرها، حولَ الكتائب. فيجعلون من هذا الحزب عائلتَهُمْ ويحاولون أن يَحْتَموا به من طغيان أبناء وأزلام العائلات»[٣٤].

هذا النمو خَضَعَ، في العهد الشهابي، لِتَحَوُّلاتٍ ذات نِسَبٍ وأعداد ملحوظة، إذ فيما انخفضَتْ نسبةُ العضوية الكتائبية في جبل لبنان بين ١٩٣٦ و١٩٦٨ من ٨٠ إلى ٥٠ بالمئة، ارتفعت النسبةُ في الشمال من ٦ إلى ١٥ بالمئة، خصوصاً منذ ١٩٥٨ حيث كانت النسبة ٩ بالمئة فقط، وفي الجنوب من ٤ إلى ١١ بالمئة مروراً بنسبة ٦ بالمئة في ١٩٥٨، وفي البقاع من ٢ إلى ٤ بالمئة. أمّا في بيروت فارتفعت أيضاً من ٨ إلى ٢٠ بالمئة لأسباب إمّا غير بيروتية، أيْ كامنةٍ في تَوَسُّعِ الهجرة الريفية إلى العاصمة خلال

(٣٣) راجع J.L.Talmon, *The origins of totalitarian democracy*, Sphere books ltd., 1970, p. 1-24.

(٣٤) **الحوادث** في ١٩٧٨/٨/١١.

الستينات، وإمَّا غير مارونية مَرَدُّها «إقبالُ غير الموارنة، من روم وكاثوليك وأرمن على الدخول بعد ١٩٥٨ إلى الكتائب، وللمرة الأولى في حياة الحزب»[٣٥].

وفيما انخفضَتْ نسبة «البيروقراطيين وذوي الياقات البيضاء» بين ١٩٣٦ و١٩٦٨ من ٤٠ إلى ٢٩ بالمئة، ارتفعَتْ نسبة «مُزارعي الطبقة الوسطى» من ٨ إلى ١٥ بالمئة، و«مزارعي الطبقة الدنيا» من ٢ إلى ٦ بالمئة[٣٦]، مما يُشير إلى تنامي البورجوازية الصُغْرى القديمة عل حساب الحديثة و«جِبْرِها وَوَرَقِها»، وهي وجهةٌ سُرْعانَ ما عَبَّرَ عنها تَوَقُّفُ المجلة الكتائبية الناطقة بالفرنسية «أكسيون»، والمُوَجَّهَةِ إلى «النخبة الثقافية في المجتمع» عن الصدور بدواعي العجز المالي[٣٧].

وبينما يُلاحِظُ أنتليس أنَّهُ «غالباً ما كان التمثيلُ الكتائبيُّ في الأرياف يَتَعَدَّى النفوذَ العادي للحزب، ولم يكن من غير المألوف أن يبقى (التمثيلُ) لَصيقاً بعواملَ عاطفيةٍ أو شخصيةٍ بَحْتَة»[٣٨] يتذكّر منح الصلح تَحَوُّلاً شَهِدَتْهُ مدينةُ بيروت يومذاك لِصالِحِ انبعاثِ أنماطٍ في التجمّع والتحرُّك يصعب إسباغ النعتِ السياسي عليها. فقبل ١٩٥٨ كان «الشارعُ» كمصطلح، يَعْني التأثيرَ على سوق الخضار في النورية والمَسْلَخ، ومَنْ يَتَحَكَّمُ به يَتَحَكَّمُ ببيروت وإضراباتها، «ولم يظهرْ في بيروت رأيٌ آخر إلا بعد حوادث ١٩٥٨ التي نَقَلَتْ بعض الأسواق الشعبية إلى المناطق المسيحية» فَأَضْحى هناك شارعٌ مسيحيٌّ يُضاهي مثيلَهُ المسلمَ[٣٩].

لقد بدا لكتائبيِّ الأرياف، ومعهم، منذ ١٩٥٨، قِطاعٌ مُتَعاظِمٌ من كتائبيّي المدن، أنَّ الوصولَ إلى «جنَّة» الدولة وشرعيتها، والعملَ على تَحْديثِهما، هُما الخيارُ الوحيدُ المتاحُ لِجَمْهَرةٍ مسيحيةٍ صادرةٍ أصلاً عن تراكيبَ اجتماعيةٍ «غيرِ حديثةٍ»، وغارقةٍ في عَيْشِ أو استِذْكارِ نزاعاتها الأهلية مع جوارٍ أو «شارعٍ» مسلم.

ولَئِن جمعَتْ هذه الجَمْهَرَةُ إلى إحالة السياسة إلى الدولةِ والمُوالاةِ النِّظاميّة، رغباتٍ تحديثيّةً معلنةً وانسداداً سياسياً وإحباطاً اجتماعياً وشعوراً بالحاجة إلى الحماية، فهي استطاعت أنْ تُحَوِّر عداءَهَا للمسلم عداءً لزعامتها التقليدية، أو العكس. فـ «العدو» في شَكْلَيْهِ هو العائقُ دون جَنَّةِ الدولة والحداثة، فيما الشهابِيَّةُ الشعبية المُعاديةُ للتقليديين،

(٣٥) من المقابلة مع كريم بقرادوني، سبق الاستشهاد.

(٣٦) عن عدد **العمل** الخاص في ذكرى التأسيس في ١٩٨١/١١/٢٩ والأرقام منشورة أيضاً في John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 114. وفي: وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٤٩ هـ.

(٣٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 117.

(٣٨) *Ibid.*, p. 118.

(٣٩) من مقابلة معه أجرتها **المسيرة**، العدد ١٦، نيسان/أبريل ١٩٨١.

طريقُ هذه الجَنَّة[٤٠].

لم تكن هذه المُسْتَجِدَّات، من تَوَسُّع ١٩٥٨ والتحالف مع الشهابية، إلى التعديل الذي طرأ على صورة الحزب وجَعْلِهِ حزباً شعبياً، ومن التراجع في النواة المارونية - الجبلية إلى التَّرْييفِ الذي أصاب مَسيحِيِّي المدينةِ أنْفُسَهُمْ، لم تكن بعيدةً عن النتائج التي أظْهَرَتْها الإنتخابات النيابية الثلاثة التي أجراها العهدان الشهابيان في ١٩٦٠ و١٩٦٤ و١٩٦٨.

فمع انتخاباتِ ١٩٦٠ العامَّةِ انفتح البابُ واسعاً أمام القوة الكتائبية كي تعكس مساهَمَتَها في ١٩٥٨ على الصعيد السياسي. وإلى هذا اجتمعَتْ «الماكينةُ» الكتائبيةُ الشهيرة والتحديثُ الزعاميُّ النسبيُّ الذي طرأ على العهد الشهابي ومعه، وهما من تعابير نزعةِ تقديسِ التّنظيم التي ظهرت حينذاك، وأُضِيفَتْ إليهما المرونةُ الإيديولوجية الكتائبية قياساً بالماضي. والراهنُ أنّ هذه المرونةَ التي شرع الكتائبيون يُبْدُونَها على إثْرِ مشاركتهم في السلطة عبر «الحكومة الرباعية»، كانت بالغةَ الدلالة في تعبيرِها عن الحالةِ النفسية العامة للمسيحيين حتى ١٩٦٠، تاريخِ اتّضاح الميولِ العامة للعهد الجديد[٤١]. فقد ظهر استعدادٌ كتائبيٌّ للإعتدال في ظِلِّ الإجماعِ الوطنيِّ على الحياة السياسية وأساليبها الدستورية، وفي ظل تَوَهُّمِ اختفاء الخطر الخارجي. وكان مِثْلُ هذا الاستعدادِ مُقابلاً ومُتَمِّماً لاستعدادٍ آخر إلى التطرّف والعنف لَحْظَةَ تَعَرُّضِ الحياةِ السياسية للتصدُّعِ وشعورِ الأقلية باستحالة تَجَنُّبِ التهديدِ الأكْثَريِّ المُسَلَّحِ والراديكالي. أي أنَّ الإستعدادَ للإعتدال، الذي عَزَّزَهُ إقبالُ مسيحيين غير موارنة على الكتائب، لم ينفصل في آخر المطاف عن قوة الدولة والمحيطِ الذي يتيحُ لها القوة.

بهذه العوامل مُجْتَمِعَةً تمكَّنَتْ الكتائبُ في ١٩٦٠ من تحقيقِ قفزتها الكُبرى بإيصالها كتلةً نيابيةً إلى البرلمان تَضُمُّ إلى بيار الجميل وجوزيف شادر على رأس اللائحة التي شَكَّلَها الجميل وفازت كلُّها في دائرة بيروت الأولى، كلًّا من موريس الجميل عن المتن الشمالي ولويس أبو شرف عن كسروان وعبده صعب عن المتن الجنوبي

(٤٠) في وقت لاحق كتبت **المسيرة** الناطقة بلسان «القوات اللبنانية» (لا صلة لها بـ «المسيرة» التي استشهد بها أعلاه) في معرض استعراضها تاريخ الكتائب: «مع فؤاد شهاب كان ينتظر الكتائب عهد جديد. الكتائبيون لم يدعموا الرئيس الجديد فقط بل آمنوا به. وكان يُقال «الكتائبيون شهابيون أكثر من شهاب». وشخصية الرئيس شهاب أسهمت في هذه الموالاة. فالآتي من العسكر والزاهد بصراع المصالح بين القيادات، وجد في الكتائب حزباً غير متورط في الصفقات السياسية التي أوصلت لبنان إلى ثورة ١٩٥٨، ولا ينتمي إلى من يسميهم شهاب أكلة الجبنة». أ. اسكندر، «أي كتائب نريد؟»، **المسيرة** ٢٨/١١/١٩٨٧.

(٤١) مع انتخابات العهد الأول في ذاك العام ظهرت علامات التصدع في العلاقة مع إدّه والمعوشي ظهور العلامات الأولى على تفضيل رشيد كرامي (حليف القاهرة) على صائب سلام الذي راح يُحاول الجمع بين صداقتي القاهرة والرياض. ولئن تأخر استبدال سلام بكرامي في رئاسة الحكومة حتى ١٩٦١، فهذا ما رتّب تغييراً مارونياً آخر هو استبدال سليمان فرنجية برينيه معوض.

وبازيل عبود عن جزين. وقد لا يكون مجرَّدُ تعدادِ أسماء الفائزين كافياً للتدليلِ على حجم الإنتصار البارز الذي أحرزه حزب الكتائب. فالجميل الذي فازت لائحته بأكملها هزم اللائحةَ المعارضةَ التي تَرَأسَها بيار إده، شقيق ريمون إده الذي سبق له أن هزم بيار الجميل في ١٩٥١. ولم يَكُفَّ ريمون إده مُذَّاك، وهو ممثل أحد أبرز التيارات المارونية، عن التذكير بأنَّ الجميل «اختلس» المقعدَ من شقيقه بمعونة شهاب والأجهزة، فيما صَوَّرَتْ الرواية الكتائبية المعركةَ ضد إده كمعركةِ «الشباب» ضد «أهل الصالون». وبحسب ملاحظة قيادي كتائبي لاحِقٍ عاش تلك المرحلة عن قرب كمناضلٍ شابٍّ، فإن تَعْبيرَيْ «الشباب» و«الصالون» كانا لإخفاء التحديدات الطبقية والاجتماعية الدقيقة، فضلاً عن إخفاء العلاقة بين الحزب ومراكز السلطة والقرار[٤٢].

ويَظْهَرُ حجمُ «التحوّل الثوري» الذي اندفع إليه الموارنة بعد ١٩٥٨، وأرادَ جهازُ الدولة الشهابيُّ تشجيعَهُ واستثمارَهُ، وهو تَحَوُّلٌ يتضمَّنُ تحويرَ الطائفي اجتماعياً وسياسياً، في أنَّ لائحة الجميل التي أطاحت أحد «التقليديين» الموارنة (بيار إده) ضَمَّتْ عن الطائفة الأرثوذكسية محامياً وثيقَ الصِّلَةِ بالمراتب التقليدية في طائفته هو فؤاد بطرس، ومليونيراً كاثوليكياً هو أنطوان صحناوي.

ولَئِنْ كَرَّرَ بازيل عبود فوزَهُ عن جزين بعد أقلِّ من عامٍ على انتخابات ١٩٥٩ الفرعية فقد استطاع موريس الجميل المتحالفُ مع اللواء المتقاعد في الجيش جميل لحود، أن يتحدّى لائحة الرئيس كميل شمعون في المتن الشمالي التي ضَمَّتْ القومي السوري أسد الأشقر، والطبيب الأرثوذكسي والقطب الكُتْلَوي تاريخياً ألبير مخيبر. ولم يَصِلْ من أعضاءِ هذه الأخيرة إلى البرلمان غيرُ اثنين هما شمعون ومخيبر فيما وصل من اللائحة الأخرى كلٌّ من لحود والجميل ومرشح الأرمن الطاشناق. وهكذا لم يكن عديمَ الدلالةِ أن يذهبَ ثلثُ التمثيلِ الماروني إلى شمعون والثلثان إلى اللائحة المقابلة، وأن تَحْظَى الكتائبُ من خلال موريس الجميل بثلثِ مُجْمَلِ هذا التمثيل.

بلغةٍ أخرى، بَدَتْ الكتائب أوثقَ صلةً بالشرعية المارونية، إذا صحَّ التعبيرُ، في إحدى أبرز قِلاعها (المتن الشمالي) من أيِّ تيّارٍ مارونيٍّ آخر، وذلك من دون أن تفقد الاعترافَ بها كتيار أساسي في القلاع والمعاقلِ الأخرى للمارونية (أبو شرف في كسروان وصعب في المتن الجنوبي).

وربما كان أهمّ من ذلك كلِّه أنَّ بيار الجميل تَكَرَّسَ منذ ذلك الحين، رئيساً للائحة نيابية تفوز كلُّها في دائرة بيروت الأولى، وهو ما حصل تباعاً في انتخابات ١٩٦٤ و١٩٦٨ و١٩٧٢، مع استثناءٍ واحدٍ يؤكد القاعدةَ حصل في ١٩٦٨ حين رَسَبَ فؤاد بطرس

(٤٢) من المقابلة مع كريم بقرادوني، سبق الاستشهاد.

وانطوان صحناوي لِصالحِ المرشَّحَيْنِ المنفردَيْنِ ميشال ساسين ونصري المعلوف المُقَرَّبَيْنِ من شمعون. ولمَّا كانت دائرة بيروت الأولى هي، ظاهراً فقط، خارجَ الإتفاقِ الإنتخابي بين أحزاب «الحلف الثلاثي» اعْتُبِرَ أنَّ فشل بطرس وصحناوي، وهما شهابيان غير كتائبيَيْن، من نتائج حجب أصوات الكتائب والطاشناق عنهما. وفي انتخاباتِ ١٩٧٢ انضمَّ ساسين والمعلوف إلى لائحة الجميل وفازا بصفتهما عُضوَيْنِ فيها.

وتكريسُ الجميل زعيماً بلا منافس لبيروت الأولى يعني تَزْعِيمَهُ، منذ ١٩٦٠، على إحدى أكبر دائرتين انتخابيتين في لبنان، إذ تشترك الدائرةُ المذكورة والشوفُ وَحْدَهُما في احتلال ثمانية مقاعد في البرلمان اللبناني تبعاً للعدد المعمولِ به من ١٩٦٠ (وحتى ١٩٩٠) وهو ٩٩ نائباً. لكن لِأنَّ نواب الشوف يتوزعون بين الزعامة الجنبلاطية الدرزية والزعامة المارونية، الشمعونية منذ ١٩٦٤، فضلًا عن تَوَزُّعِهم الطائفي، وفيهم السُّنَّة والروم الكاثوليك أيضاً، فإنَّ بيروت الأولى، وكلُّ نوّابها مسيحيون على تعدُّدِ مذاهبهم، تبقى كُتْلَتُها أشدَّ تجانساً، وبالتالي أكثرَ فاعليةً وتأثيراً وتعبيراً عن «واجهة» التقدم المسيحي.

هكذا تحقَّقَتْ نقلةٌ مهمةٌ في تحويل الشيخ بيار الجميل زعيماً مارونياً على نطاق وطني، بالإستناد إلى دائرة انتخابية كبيرة في العاصمة نفسها. أيْ أنَّها، استطراداً، دائرةٌ تفوق مثيلاتها قدرةً في التأثير على القرار السياسي المركزي، كما تَفُوقُها إفصاحاً عن حاجات مدينيةٍ برغم تعرُّضِها للهجرة الريفية المُتَعاظِمَة.

واقعُ الأمر أنَّ تبوُّءَ الجميل زعامة بيروت المسيحية لم يكن بعيداً عن تضافر ظروفٍ سياسية واجتماعية نموذجية. صحيحٌ أنَّ الشهابيةَ لم يُزْعِجْها اختيارُ حليفها الجميل هذه الدائرةَ قاطعاً الطريقَ على القطب المنافسِ بيار إدّه، لكنَّ الصحيحَ أيضاً أنَّ التحوُّلَ الذي أحْدَثَتْهُ الهجرة الريفية للموارنة[٤٣] إلى بيروت وقيامَ «شارع» مسيحيٍّ فيها عَمِلا على تَزْكِيَةِ هذا الاختيار. وإذا كان قانونُ الانتخاب اللبناني قد حَدَّ من الآثار السياسية للهجرة بسبب الإقتراع في مكان الولادة لا في مكان السكن والعمل، فهذا ما عَوَّضَهُ المناخُ الجديد الذي لم يُعْدَمْ أشكالَهُ التعبيرية. وكان من هذه الأشكال ظهورُ الحماسة الأرمنية لاستقبال الظاهرة الكتائبية إيجاباً، الشيءُ الذي لم تَغِبْ عنه توجيهاتٌ خفيةٌ من الأجهزة، وفي المقابل، احتدامُ العصبيّةِ الأرثوذكسية في الأشرفية التي يَعْتَبِرُ أصحابُها أنَّهم السكانُ «الأصليون» و«الأصلاء» برغم إقدام بعضِ الأفرادِ الأرثوذكسيينَ على الإنضواءِ في الكتائب[٤٤].

(٤٣) انظر نتائج المسح التي قامت به مؤسسة «ماس» لحساب مجلس الانماء والأعمار ومديرية التنظيم المدني في منطقة بيروت المدينية وتعليق ميشال مرقص عليه في **النهار** ١٩٨٧/١١/٢.

(٤٤) من مقابلة مع جبران جايك (١٩٨٣) في بيروت.

في انتخابات ١٩٦٤ بدأت تظهرُ آثارُ التحولات التي نشأت في ١٩٥٨ على نطاق آخر. صحيح أنَّ الحزب تَكَرَّسَ قوةً انتخابيةً وسياسيةً مارونيةً لا يُمْكِنُ تجاهُلُها. إلّا أنَّ انتخابات العام المذكور شكَّلَتْ تنبيهاً للكتائب إلى أنَّها مُرشَّحةٌ لخسارةِ بعض مواقعِها التقليدية في مناطق الجبل. ففيما نجح الدكتور راشد الخوري في قضاء الزهراني الجنوبي، مُلْحِقاً الهزيمة بالمرشَّح «التقليدي» يوسف سالم المتحالفِ مع الرئيس عادل عسيران والذي سَجَّلَ في مذكَّراته أنَّ المقدَّم توفيق جلبوط، أحد عُتاة الأجهزة الشهابية، أجابه بعد ظهور النتائج: «يا سيدي لديَّ أوامر من المراجع التي هي أعلى مني. فاذهب إليها ولا تسألْني»[٤٥]، كان الفشلُ من نصيب لويس أبو شرف المرشح عن كسروان، وعبده صعب عن المتن الجنوبي.

ولَئِنْ أعاد أحد القياديين الكتائب أسباب هذا التراجع إلى مواكبةِ الحزب لسياسة فؤاد شهاب، والذهابِ بعيداً في هذه المواكبة[٤٦]، عِلْماً أنَّ السياسة المذكورة مرفوضةٌ من قبل موارنة الجبل الأكثر تقدماً والأشدّ شعوراً بِمُصادَرَتِهم السياسية، فإنَّ هذا التفسير لا يلْبثُ أنْ يندرج ضمن نطاقٍ أعرض.

فالتَّحْديث الشهابي الذي ضغطَ الفوارقَ بين المُرَشَّحين للنيابة، لم يَحُلْ دون يقظة الوُجَهاءِ والأعيان الصِّغار ويقظة مصالحهم المحلية الضيقة، بحسب ملاحظة أنتليس[٤٧] التي تَنمُّ عن حَقْلِ التَّفَتُّتِ المجتمعي الخصب الذي لم يعجزْ التوحيدُ السلطوي عن مَحْلِهِ فحسب، بل زادَهُ نَماءً. وفي هذه الحدود فإنَّ الكتائب وقد أضْحَتْ شَعْبِيَّةً تتجه إلى الأطراف و«حَزازاتِها» كما سنرى لاحقاً. وهنا يُمْكن أنْ نَقَعَ على بعض الحصاد الرديء من جرّاء التحالف مع الشهابية بما هو لقاءُ الطرفين على تغليب «الإنماء» على «السياسة»، و«المناطق» على «العاصمة».

في ١٩٦٨ تضافر عنصران جعلا حزب الكتائب يُوْصِل إلى البرلمان أكبرَ كتلة برلمانية وأكبرَ الكُتَلِ في تاريخ الحزب البرلماني، بحيث ارتفع عدد نوّابه من ٤ في ١٩٦٤ إلى ٩ نواب.

كان العنصر الأول أنَّ التحوُّلَ الشعبيَّ نحو الأطراف قد أتى ثمارَهُ التي زُرِعَتْ خلال السنوات الماضية، فوصل إلى البرلمان جورج عقل عن زحلة وإدمون رزق عن جزين وجورج سعادة عن البترون، والعدَدُ نفسُهُ، مع بعض التعديلات، عاود الوصولَ إلى برلمان ١٩٧٢ حيث حلَّ إدمون رزق عن جزين وراشد الخوري عن الزهراني وجورج سعادة عن البترون.

(٤٥) يوسف سالم، **٥٠ سنة مع الناس**، دار النهار للنشر، ١٩٧٥، ص ٤٢.

(٤٦) من المقابلة مع جوزيف أبو خليل، سبق الاستشهاد.

(٤٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 142-143.

وكان العنصر الثاني أنّ الكتائب، التي استجابَتْ لحملة الإحراج والمُزايَدة الشمعونيين مارونياً[٤٨]، استجابتَها لِتَراجُع الشهابيَّة ولا سيّما بعد هزيمة الناصرية في ١٩٦٧، اتَّبَعَتْ في الجبل نوعاً من إعادة النَّظر التي قادَتْها إلى المشاركة في «الحلف الثلاثي» الشهير. بهذا المعنى أمْكَنَ للكتائب أن تحصُدَ ما حَصَدَتْهُ في ظلِّ أزْمَةِ خوفٍ أنتَجَتْها البندقيَّةُ الفلسطينيةُ، وأرْجَعَتِ الجبليين إلى سلوكٍ سياسيٍّ سابقٍ لما كان قد بدأ يستقر عليه السلوك الجبلي، أيْ سابق عَمَّا أسْمَاهُ دوبار ونصر «تقاليد الجبل» ذي «التَّعَلُّقِ الثَّقافيِّ بالغرب»[٤٩]. ومن هنا بدا «البرنامج» الكتائبي في ١٩٦٨ مُسْتَلْهَماً من روحيّةِ الأطراف وميلِ العشيرة إلى التضامن، الأمر الذي بات يتجاوب معه جيلٌ طائفيٌّ رأسمالي أخذَتْهُ طفرةُ الهوجِ والتَّطَرُّفِ كَرَدِّ فِعْلٍ أقَلّيٍّ.

يبقى من اللافت للنظر أنَّ التقدُّم الانتخابيَّ الذي حصل في الجبل؛ حصل من ضمن «الحلف الثلاثي» ذي اللوائحِ المُوَحَّدَة، بما نَمَّ عن تجانس التيار العريض لـ «الطائفة» كوحدة رأسمالية تعيشُ مأزقَها الذي يَشُدُّها إلى السلوك العشائري، أمَّا في الأطراف حيث لم تَتَشَكَّل لوائحُ مُوَحَّدَةٌ لـ «الحلف الثلاثي»، بل تَصَارَعَ بعضُ مرشحي أحزابه الواحدُ ضد الآخر محكومين بمواصفاتهم العائلية والعصبية[٥٠]، فكان واضحاً أنَّ المعركة تدور في سَوِيَّةٍ «ما دون» طائفية ورأسمالية.

وفي معزلٍ عن الكلام السَّهل الذي دَرَجَ لاحقاً عن «الحرب الطائفية» و«الطائفية البغيضة»، ظَلَّ التطرّفُ الجبلي الذي اندرجت فيه الكتائب وقطفت ثمارَهُ في ١٩٦٨ تَطَرّفاً قابلاً لأن تَسْتَوْعِبَهُ اللعبةُ البرلمانيةُ، في ما لو أُتِيحَ عَزْلُهُ (المستحيل طبعاً) عن سائر المناطق اللبنانية وتناقضاتها. وفي المقابل لاح التطرُّفُ الطَّرَفيُّ تَتْويجاً لعمليةٍ نضاليةٍ مديدةٍ تَتَّجِهُ نحو السلطة، وهي مُشْبَعَةٌ بالإحتقان، مُسْتَعْصِيَةٌ على البرنامج السياسي و«لائحَتِهِ المُوَحَّدَة»، ومتقاطعةٌ مع التراكيب العشائرية وحساسيات العصبيّات. وبُرهان ذلك أنَّ الأطراف هي التي خاضت نزاع الطوائف في صورة مسلحة، فَرَفَدَتْ الأحزاب الطائفية بمقاتليها الذين انتهى الأمر على أيديهم بتفجير الأحزاب نفسها. وحالة الكتائب مع جيلها القيادي الأخير (إيلي حبيقة، سمير جعجع) لا تَتْرُكُ حاجةً لإيضاح مفارقةٍ مُرَّةٍ: فالتوحيد الحزبي في كَنَفِ التوحيد الوطني الشهابي آل إلى الكبت الذي أفْضى بدوره إلى انفجاراتٍ وتذرراتٍ لا تُحْصى.

(٤٨) راجع وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣١ و٧٤ وما يلي.
(٤٩) سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٤٥.
(٥٠) ففي البترون مثلاً خاض الكتائبي جورج سعادة معركته ضد لائحة ضمت الشمعوني جان حرب والكتلوي سايد عقل، وفي جزين خاض إدمون رزق معركته ضد تحالف الشمعوني مارون كنعان والشهابي جان عزيز.

بيئة الكتائب في الأطراف

أ ـ الجبل الطرفي:

خلال الثلاثينات والأربعينات والخمسينات[٥١]، لم يَنْمُ حزب الكتائب نُمُوّاً يُذْكَرُ في الشوف، وهو جنوب الجبل حيث تختلط مواصفاتٌ مركزيةٌ وأخرى طَرَفِيَّة، لا بالمعنى الجغرافي فقط، بل بالمعنى التاريخي والإجتماعي الذي عَبَّرَ عنه عهد القائمقاميتين.

وكما هو معروفٌ تَنَازَعَ القضاءَ المذكورَ انْقِسامٌ يزبكيٌّ ـ جنبلاطيٌّ انضوى فيه الموارنةُ مَثَلُهُمْ مَثَلُ الدروز. وما كاد هذا الإنقسام يَضْمُرُ ويَتَراجَعُ حتى أُعِيدَ إنتاجُهُ في الإنقسام الدُّستوري ـ الكُتْلَوي الحادِّ حيث كان الشوفُ أحدَ أشرسِ ميادينه. والواقع أنَّ دورَ المحامي الدستوري كميل شمعون أطَلَّ من ثقوب هذا الإنقسام فيما كانت النُّوى الرأسمالية والتحديثية والصِّلَةُ بالمدينة وانكِسارُ العائلة الموسَّعَة، تَنْقُلُ النزاعاتِ من سَوِيَّتِها العشائرية إلى سَوِيَّتِها الطائفية.

وفي أواخر الأربعينات وبينما كان شمعون يَسْحَرُ الشوفيين الموارنة ويُشْعِرهم للمرة الأولى بوجود زعامةٍ قويَّة لهم تُعادِلُ الزعامةَ الدرزيةَ المقابلةَ وتتفوَّقُ عليها، انتسب فيليب البستاني إلى حزب الكتائب، وهو ابن العائلة الديرية التي ساءَهَا صعود نجم شمعون، محاولاً عن طريق الحزب أن ينافس ويَحِدَّ من صعوده.

لكنَّ هذا الوجودَ الجنيني لم يُعَمِّرْ طويلاً، إذ لم يَطُلْ بقاءُ البستاني في الكتائب، وهو البقاء الذي يَصْعُبُ افتراض أيَّةِ أسباب أو حوافز قويّة وراءه. وهكذا لم تظهرْ الكتائبُ في الشوف إلا في الستينات كقوّة ملحوظة، وكان ذلك بجهودِ الحزبيين المقيمين في المدن وأبرزهم جوزيف الهاشم ابن الموظف في سلكِ الشرطة وسليلِ العائلة الصغيرة في قرية البُرْجَيْن، الصغيرة بدورها، من أعمال أقليم الخروب. ولئن أبدى الهاشم، المعروف بِحِرْصِهِ على عقد أوسع شبكة من العلاقات الاجتماعية والصلات الشخصية، إعجابَهُ وتَمَسُّكَهُ بأرومةٍ هاشميةٍ تَرُدُّهُ إلى قريش، فهذا لا يفعل غير توكيد الطبيعة البورجوازية الصغيرة التي سَلَكَها صعودُهُ: من الدراسة في الحكمة ثم دراسة الأدب العربي والتعليم في المدارس الرسمية والخاصة، إلى الصحافةِ عبر جريدة «العمل» الحزبية وصولاً إلى تسلم أمانة سرِّ المكتب السياسي في الحزب.

(٥١) المعلومات الواردة عن الشوف استُقي بعضها من المقابلة المشار إليها مع جوزيف أبو خليل والبعض الآخر من مقابلتين أجريتا مع جوزيف الهاشم وغابي لحود واستخدمت مادتهما في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٢٧ ـ ٣٥٢.

لم يكن من دون دلالةٍ أنَّ ابن قرية البُرْجَيْن كان نَجْمَ الكتائب في الشوف، أي أنَّ الرِّيادةَ لم تنعقِدْ لِواحدٍ من أبناء القرى المارونية الكبرى كدير القمر ومنها شمعون وفؤاد الطحيني وفؤاد عمّون وبعض البساتنة، أو الجِيَّة ومنها آل قزي، أو الدِّبِيَّة ومنها الفرعُ الآخر من البساتنة مِمَّن كان إميل البستاني أبرزَ رجالاتهم، أو الدامور ومنها عزيز عون.

وهكذا، فالنُّمو الكتائبي النِّسْبِيُّ بين موارنة البُرْجَيْن لم ينفصلْ، في الأصل، عن محاولة الوقوع على تعبيرٍ سياسي مستقل عن البلدات الكبرى، استقلاله عن بيوتات السياسيين ولا سيّما منهم فرع بساتنة الدبية المجاورة للبرجين. يضاف إلى ذلك أنَّ إقليم الخروب برُمَّتِهِ، ومنه البرجين، يعاني شعوراً مديداً بالهامشية حيال سائر الشوف الذي انشطرَتْ زعامَتُهُ بين المختارة الدرزية (جنبلاط) ودير القمر المارونية (شمعون).

من هنا بدا ترشيحُ جوزيف الهاشم عن الشوف في انتخابات ١٩٧٢ تَجَرُّؤاً كتائبياً غير مقبول على الزعامة الشمعونية، بحيث حَمِلَ الشيخ الجميل على سَحْبِهِ، لِيُعَيَّنَ بعد عامين رئيساً لديوان الوزير الكتائبي إدمون رزق.

ولئن لم يُعْرَفْ للكتائب أيُّ نموٍّ في جرود كسروان بين عائلة صفَيْر الكبيرة أو العناصر التي حاولَتْ تجديدَ شباب آل الخازن، بحيث استوردَ الحزبُ مرشحَه التقليدي عن القضاء المذكور (لويس أبو شرف) من خارجِه، فإنَّ النشوءَ الكتائبيَّ في جرود جبيل يضرب جَذْرَهُ في بعض صراعات القرن الماضي[٥٢]. فمع «عامية لِحْفِد» في الثلث الأول من ذلك القرن، حَظِيَ آل الهاشم بلقب «المشيخة» تبعاً لمشاركتهم في العامية. وبدأت القرية مُذَّاك تعيش انشطاراً نِصْفِيّاً يَبْحَثُ عن تعبيراته وأوعِيَتِهِ: آل الهاشم أو «المشايخ» من جهة والعائلات الصغرى للأهالي من جهة ثانية.

ولمّا كانت هذه الأخيرةُ (عائلات ياغي وعرب وأبي يونس ومهنا وأجبابُها) قد انْحَدَرَتْ إلى مصاف «الأهالي» بعد تبوُّئها مُقَدَّمِيَّةَ العاقورة السابقة على عامِّيَّةِ لِحْفِد، مَثَّل إقبالها على حزب الكتائب وسيطاً «حديثاً» لاستعادةِ ماضٍ قديم. لكنَّ إنهيار ذلك الماضي واتِّساعَ الحَيِّزِ الزَّمنيِّ الذي يفصل وَرَثَتَهُ عنه، وصِغَرَ العائلات بما يَحْرِمُ العَضَدَ الذي ظلَّتْ تتمتع ببعضِهِ عائلةُ الخازن الكسروانية مثلاً، كلُّ هذه العوامل رَفَدَت الاقبالَ على الكتائب بطاقةٍ راديكاليةٍ مُحْتَقِنَة.

كان أبرزُ الوجوه الكتائبية في جرود جبيل المحامي غيث خوري من قَرْطبا، وهو من أسرة متواضعة حيث عمل أبوه قِنْدلَفْتاً. لكنَّ خوري هو ابن خال المرشّح والنائب الشهابي الطبيب أنطون سعيد[٥٣]. وخلال المعارك الإنتخابية للأخير في مواجهة العميد ريمون

(٥٢) المعلومات الواردة عن العاقورة وقرطبا من مقابلة مع ماري كلود سعيد أجريت في بيروت، سبق الاستشهاد.

(٥٣) هذا التجاور الكتائبي ـ الشهابي، مرة بالقرابة ومرة بالأفكار، هو ما يتكرر بصورة لافتة. فإلى قرابة خوري

إدّه، لم يتلكَّأ خوري عن الوقوفِ بحماسةٍ إلى جانب قريبِهِ الشعبوي ومحاولةِ التأثيرِ على حزبه لتكريس هذه الوجهة. وفي ١٩٦٨، ومع استثناء جبيل مثلها مثل دوائر الأطراف من التحالف الانتخابي الذي عقدَتْهُ أحزاب «الحلف الثلاثي»، خاض غيث خوري الانتخابات منفرداً فنال جزءاً من الأصوات التي كانت تقترع تقليدياً لصالح المرشَّح الشهابي، مما ساهم في إضعاف نهاد سعيد، أرملة انطون التي آثرت المضي في تحدي الزعامة الإدّية.

قبل سنوات قليلة كان قد بدأ ينشأُ قَدْرٌ من الالتباس الانتخابي بين السعيدية الشهابية والكتائبية بما هما في الترجمة المحلية تيّاران مناوئان لإدّه. ففي ١٩٦٥ وقبل أن يَقِرَّ الاختيار على ترشيح نهاد سعيد لمواجهة عميد «الكتلة الوطنية» في الانتخابات الفرعية لذاك العام، «رُشِّحَ، بين مَنْ رُشِّحَ، مسؤولُ فرعِ حزبِ الكتائب في المنطقة غيث خوري. وسعى الحزبُ إلى حَمْلِ كُلِّ الأطراف غير الكتلوية، وفي طليعتها أنصار سعيد الدستوريين تقليدياً على تأييد مسؤولِ فَرْعِهِ. لكنَّ ظروفَ المنافسة طَوَتْ سريعاً المحاولة»[٥٤].

إلى العاقورة وقرطبا في أعلى الجرد، وُجِدَتْ الكتائب في قرى الوسط الجردي، كإهمج وجوارها. ذلك أنَّ تلك القرى لم تظهر فيها أيَّةُ زعامةٍ محلية تبعاً لانحصارِها بين مدينتي جبيل وعمشيت في الساحل وبين عائلات الجرد المُؤَثِّرة، خصوصاً صقر في قرطبا والهاشم في العاقورة وجرمانوس في مجدل العاقورة. ولما كانت «الحزبيةُ» المؤيِّدةُ لريمون إده في هذه القرى الوَسَطِيَّة قد حَقَّقَتْ اكتفاءً «سياسياً» ما من طريق تأييدها هذا، بحثَتْ «الحزبياتُ» المناوئة لها عن مدخلها الخاص إلى الحياة والتعبير «السياسِيَّيْن».

ففي إهمج[٥٥]، وهي قريةٌ كبيرةٌ نسبياً ليست بعيدةً عن قرية علمات الشيعية، نَمَا حزبُ الكتائب في عائلة مَتَّى المتوسطةِ عددياً، وبالأخص في فرع أبي خليل الذي عُرِفَ أفرادُهُ بـ «القَبْضَنَة» وممارسة حِرْفةٍ مُتَراجعة هي «العَمَار»، كذلك في فرع زَخْيا من عائلة

وسعيد، كان قطب شهابي آخر هو عبد العزيز شهاب أوّل أمين صندوق لمنظمة الكتائب. راجع: **تاريخ حزب الكتائب**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٧٥ هـ. أمّا جوزيف مغيزل الذي كان من قياديي الكتائب وانشقّ عنها، فبات في ١٩٦٩ أبرز مؤسسي «الحزب الديمقراطي» الذي اتخذ من الشهابية «أساساً لمبادئه». أنظر: فضل شرورو، **الأحزاب والتنظيمات والقوى السياسية في لبنان، ١٩٣٠ ـ ١٩٨٠**، دار المسيرة، ١٩٨١، ص ٤٢٧. وأمّا القيادي الكتائبي اللاحق إيلي حبيقة، فهو «نسيب» القطب الشهابي رينيه معوض بحسب ميشال أبو جودة في **النهار** ١٩٨٧/٧/٩. وفضلاً عن التعاون الشهابي ـ الكتائبي على صعيد الحكم ككل، والدوائر الإنتخابية دائرة دائرة، تبقى تجربة تعاون الرئيس الشهابي الياس سركيس وأجهزته مع الشيخ بشير الجميل غنية الدلالات. راجع في هذا الصدد: كريم بقرادوني، **السلام المفقود ـ عهد الياس سركيس ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢**، عبر الشرق للمنشورات، ص ٢١٥ فصاعداً.

(٥٤) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٥٤. وفي الانتخابات الأخيرة، ١٩٧٢، خاضت الكتائب مجدداً معركة جبيل بغيث خوري منفرداً فنال ٢٠٧٢ صوتاً.

(٥٥) المعلومات الواردة عن إهمج من مقابلة مع جان بيار قسطنطين (من إهمج) أجريت معه في بيروت ١٩٨٦.

خليفة وهو أفقرُ فروع العائلة وأقلُّها تَعلُّماً، يعمل أبناؤه فلاحين في ملكياتهم الصغيرة أو بالأجرة عند الآخرين، كما يعملون «شَغِّيلة عَمَار» عند «مُعَلِّمي» العائلات الأخرى لعدم وجود «معلمين» في عائلتهم. ولَئِنْ بَقِيَتْ عائلةُ التقليدِ السياسيِّ المحليِّ في القرية، أي بَكَوات آل الخوري ممن احتلَّ بعضُهُم مناصبَ إدارية في العهد العثماني ورَبَطَتْهُمْ صِلة قرابة بآل الخوري في عمشيت، بمنأى عن الكتائب وتأثيراتها، فهذا ما لم يَحُلْ دون تَصَدُّرِ أحدهم وهو جورج خوري، المُوَظَّف في الهاتف، لِكَتائبيي أهمج.

وَيَنْعَكِسُ الحضور الكتائبيُّ في عائلات إهمج وأجْبابِها على خريطة السَّكن وتوزّع الحارات، إذ بينما تُقيمُ عائلة آل الخوري في «حي الكنيسة» القريبِ من ساحة القرية، تَسْكُنُ الأسَرُ التي نَمَا فيها حزبُ الكتائب في حي «مرج بونا» الطرفي، المجاور لخراج غير مستثمر يفصل القرية عن قرية مشمش. ويبدو أنَّ الملامحَ الذكورية الحادة هي التي تَسِمُ هذا الحي الذي يُكْثِرُ أبناؤه التغني بالقوة والرجولة، أو «القَبْضَنَة» و«المَرْجَلَة» بحسب اللغة الشعبية لِتَجمعاتٍ لم يَنَلْ التقدم منها قسطاً يذكر.

ب ـ البقاع:

خاض جان سكاف، أحد نواب الكتائب الأوائل، معاركَهُ الانتخابية محكوماً بعواملَ واعتباراتٍ عائليةٍ رافقها استِنْهاضٌ للولاء الزَحْلِيِّ «الأصلي»، أي لمرحلة انقضت من تطوّر المدينة البقاعية. ومن ضمن هذا السياق انْدَرَجَ البُعْدُ الكتائبيُّ المحدود لمعاركه ولوصوله تالياً إلى البرلمان، فلم تكن كتائبيته أكثر جديةً وتَجَذُّراً من كتائبية فيليب البستاني في الشوف[٥٦].

ففي عَقْدَي الأربعينات والخمسينات[٥٧]، تماثَلَتْ مصالحُ الحزبِ الصغير في زحلة والباحثِ عن غطاء تقليدي له وسط الأكثرية واللون الكاثوليكيَّيْن، مع رغبة جان سكاف في التَّصَدُّرِ و«استعادة» الزعامة المحلية من قريبه البعيد جوزيف سكاف الذي سبق لوالده إلياس طعمه أنْ أسَّسَ لها في بيته. وجان سكاف هو، بالمعايير التقليدية الخام، أشدُّ «أصالةً» من جوزيف الذي وفدت عائلَتُهُ من البقاع الغربي إلى المدينة، وعمل والدُه في البداية «مدير أعمال» العائلات الأرثوذكسية البيروتية المُتَمَلِّكَةِ في البقاع. واستناداً إلى هذا الموقع وما يَسْتَجِرُّهُ من تَمَلُّكٍ وصلاتٍ حديثةٍ ومَدِينِيَّةٍ أُتيح لإلياس طعمه أن ينتزعَ الزعامةَ من «العائلات السبع» كآل بريدي وآل أبو خاطر وغيرهما، وينشىء الزعامةَ السكافية التي قُيِّضَتْ لها حياةٌ مديدةٌ في ما بعد.

(٥٦) بحسب جوزيف أبو خليل، في المقابلة المشار إليها أعلاه، تَحَمَّلَ بيار الجميل «بصعوبة» جان سكاف، ولم يفت أبو خليل أنْ يُذَكِّر برفض الجميل قبول طلبي انتساب من صلاح لبكي والشيخ بهيج تقي الدين إذ «برغم محبته لهما كان يخشى النظر إلى الحزب كوسيلة للزعامة».

(٥٧) المعلومات الواردة عن زحلة من مقابلة مع نجيب خزّاقة (من زحلة) أُجريت في بيروت ١٩٨٦، إلا حين يشار إلى مرجع آخر.

وفي سيناريو لا يَعْدَم الشَّبهَ بسيناريوهات البعث من الماضي، تَحالفَ جان سكاف مع آل بريدي وآل أبو خاطر وسائر الخصوم التقليديين لجوزف سكاف[٥٨] وانضوى في الكتائب ضد زعامة الأخير التي باتت «الزعامةَ التقليديَّةَ». وكان لهذين التحالف والإنضواء أن أدَّيا إلى مصالحةِ الولاء الزَّحْلِيِّ الكاثوليكي وعائلاتِه مع حزب الكتائب ذي اللون الماروني الجبلي والبيروتي. بَيْدَ أنَّهُ منذ أن غادر جان سكاف الحزب في أواسط الخمسينات، انقشعَتْ الطبيعة العابرة وذات المُرْتكزات الهشّة للمصالحة المذكورة، وانكفأ كاثوليك زحلة عن الكتائب التي ظلَّت تُوَفِّرُ «الماكينةَ الإنتخابيةَ» لمن يخوضون المعركة ضد جوزيف سكاف.

لكنَّ الوجه الكتائبي الأبرز في ذاك القضاء، بالمعنى التنظيمي والحَرَكِيِّ للكلمة، كان دائماً الياس ربابي الذي ينتمي ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى قرية جديتا الصغيرة المجاورة لمدينة زحلة. ولأنّ ربابي كان في واقع الحال وجهاً حِزْبِيّاً بيروتياً، أو مركزيّاً بحسب اللغة الفنية للأحزاب، فإنَّهُ بات همزةَ الوصل بين المركز الحزبي في العاصمة وبين جان سكاف، ومن ثم سائر الكتائبيين الزحليين ممن اقتصرت الحِزْبِيَّةُ في عُرْفِهِمْ على كونها حركةً شبابيّةً استقلاليةً تُناهض جوزيف سكاف ويَشوبُ مقاصِدَها شيءٌ من الغموض[٥٩].

مع تحوّل الكتائب في زحلة إلى حزب ماروني منذ أواسط الخمسينات، بدأت تُثار غربة الكتائب عن «الواقع الزحلي». وفي تشريحٍ للانتخابات النيابية الفرعية التي حصلت في ٣٠ أيار ١٩٦٥ لمَلْءِ المقعد الماروني الذي شَغَرَ بوفاة النائب يوسف الهراوي، لُوحِظَ أنّ المرشَّح سعيد عقل حصل «على معظم الأصوات التي حملت اسمه في عنجر حيث يشكِّل الأرمن الكثرة الغالبة، وفي المعلّقة وعلي النهري حيث المسلمون هم الكثرة، وفي الأحياء والأقلام التي تجمعُ أصواتَ المقترعين الكتائبيين»[٦٠].

هذه الغربةُ عن «الواقع الزحلي» وثيقةُ الصلة بحقيقة أنّ العائلاتِ المارونيةَ قَدِمَ معظمُها من الجبل إلى المدينة البقاعية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، ومن تعداد عيسى اسكندر المعلوف للأخَوِيّات والجمعيات المذهبية والأهلية في زحلة

(٥٨) وهو التحالف الذي أثمر في وقت لاحق زعامة الموظف الشهابي جوزيف أبو خاطر، وليس من دون معنى أنْ يُسمي الزحليون هذه العائلات «حزب الضد» أي المضاد لجوزيف سكاف.

(٥٩) كرَّرَ هذا الإنقسام واستأنف، بشروط مغايرة، انقسامات زحلية قديمة أشار عيسى اسكندر المعلوف إلى أحد مصادرها حين تحدّث عن انقسام الزحليين منذ أواسط القرن الماضي «إلى حزبين، البعلبكي، نسبة إلى الأسر التي أصلها من بعلبك، والراسي نسبة إلى الأسر التي منبتها رأس بعلبك». عيسى اسكندر المعلوف، **تاريخ زحلة**، طبعة ثانية منقحة ومزاده مع صور ووثائق، ١٩٧٧، منشورات زحلة الفتاة، ص ١٧٨.

(٦٠) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٥٣. هذا وقد نال عقل المدعوم من الأجهزة الشهابية يومذاك ٨٨٣٣ صوتاً فيما نال جوزيف الهراوي المدعوم من جوزيف سكاف ١٥٣٥١ صوتاً.

يُلاحَظ أنّ الموارنة تلكَّأوا في هذا المضمار عن الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس[٦١]. وعملًا بالتراتب المُقَرِّ بِهِ أهليّاً، كانت أبرزُ العائلات المارونية الزحلية عائلةُ الهراوي تَتْلُوها عائلتا أبو طقَّة وعقل.

ولا يَكْتُمُ الزحليون الكاثوليك من «الأصَلاء» تعالياً تقليدياً حيالَ الموارنة الذين «قَدِمُوا مُتَأَخِّرين» والذين، باستثناء حي «مار مطانوس» الصغير في الجنوب، قطنوا أطراف زحلة الجنوبية الشرقية. وهذه الأطراف تمتدُّ من حوش الأمراء في الجنوب الشرقي حيث تُقيم أقليةٌ شيعية ضَخَّمَتْ الهجراتُ المتتابعةُ عددَها، إلى المعلقة المجاورة للكرك المُسْلِمَةِ في الشمال الشرقي، مروراً بالمدينة الصناعية[٦٢]. أي أنّ الموارنة، شأنُهم شأن الشيعة لاحقاً، أقاموا لدى وفادتهم إلى زحلة في الأنحاء الطَرَفية، ومن ثَمَّ الأقل تعرضاً للتحولات العمرانية والرأسمالية. فهذه المنطقة (الجنوب الشرقي) ليست فقط طَرَفِيَّةً، بل تنتهي على مقربةٍ منها حدودُ متصرفية جبل لبنان وذلك عند الصخرةِ التي تفصل المعلقة عن زحلة. كذلك فالشِّقُّ الجنوبي القريبُ من حوش الأمراء حيث مدرسةُ الراهبات المارونية، هو جزءٌ من نصف زحلة العتيق الذي صبَّتْ فيه الهجراتُ السكانية وأُنشئت السراي القديمة. لهذا كتب عيسى اسكندر المعلوف أنّ «البردوني يَقْسم المدينة إلى قسمين، القسم الجنوبي منهما أكثر عمراناً من الشمالي ولكن هذا أحدث بنيةً من ذاك»، مُذَكِّراً بأنّ «الأمير بشير الشهابي الكبير لما جاء زحلة سنة ١٨١٤ ورأى معظمَ أبنيتها في الجانب الجنوبي وليس في الشمال [...] تأسَّفَ لذلك وقال إنَّ البِنَاء سيتكاثرُ في هذه الجهة الشمالية وترتفعُ أثمانُ الأرض، فحقَّقَتْ الأيام صِدْقَ قوله هذا ولا سيَّما اليوم»[٦٣].

والمعروفُ أنّ المُتَوَسِّطَ العامَ للكتلة المارونية التي يعمل الكثيرون من أبنائها في الوظائف والمهن الصغيرة منخفضٌ عن ذاك الذي يتمتعُ به الكاثوليك حيث تلعب ملكِيَّات الأرض والمهن الحرة دوراً ملحوظاً. أمّا عشراتُ الكتائبيين الذين عرفتهم المدينة حتى اندلاع حرب السنتين فكانوا يتراوحون بين بورجوازيين صِغار مرتبطين بنطاق عملٍ متراجعٍ، وهامشيين لا تخلو هامشيَّتُهم من علامات الرَّثَاثَةِ الاجتماعية (قبضايات، حُماة مواقف سيارات، إلخ.). ففيما لم تُقْبِل عائلةُ خزَّاقة، مثلاً، على الكتائب، وهي التي يملك أفرادها مُلْكيّات زراعية متوسطة ومصالحَ خاصة، ظهر الحزبُ بين فرع العائلة المقيم في

(٦١) أنظر عيسى اسكندر المعلوف، **تاريخ زحلة**، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٣.
(٦٢) في حرب السنتين تحولت هذه المناطق المتجاورة ساحات احتكاك صدامي ومسلح. وفي البحث عن خلفية شعبوية لذاك النزاع، كتبت جريدة **السفير** عن «حزام بؤس حول زحلة» وعن «اعتداءات يومية» من كتائبيي زحلة تواجهها «مقاومة دائمة» من قبل المعلقة والكرك وحوش الأمراء التي تشكل «حزام البؤس» على غرار التسمية البيروتية الأم. انظر **السفير** ١٩٧٥/١٢/١١.
(٦٣) عيسى اسكندر المعلوف، **تاريخ زحلة**، سبق الاستشهاد، ص ١٧ ـ ١٨.

جديتا، وأفرادُه هم فقراءُ العائلة مِمَّن يعملون في الفلاحة والمهن الصغيرة، عِلماً أنّ جديتا «مزرعةٌ» لا يتعدى عددُ بيوتها أصابعَ اليدين. ومن هؤلاء بَرَزَ فوزي خزَّاقة الذي يملك مطحنةً بدائية لطحن البرغل.

أما جورج عقل الوجه الكتائبي الماروني في ١٩٦٨، فَنَجْلُ أحد صغار ملاكي الدبّاغات الذي ينتمي إلى عائلة صغيرة أصلُها من بسكنتا ومقيمة في حوش الأمراء حيث الوجاهة التقليدية لآل الهراوي. وعقل لم يصل إلى البرلمان في ١٩٦٨ إلا على اللائحة الشهابية التي شَكَّلَها يومذاك جوزيف أبو خاطر بهدف إطاحة جوزيف سكاف. إلا أنّ الإنتقالَ من الكتائبية السّطحية (الكاثوليكية) ممثَّلَةً بجان سكاف إلى الكتائبية الشعبية والعضوية (المارونية) ممثَّلَةً بعقل، لم يكن انتقالاً قليلَ الدلالات عَشِيَّةَ الإعداد اللبناني الفلسطيني للحرب الأهلية ـ الإقليمية.

ج ـ الشمال:

في زغرتا[٦٤]، حيث اتَّصَفَ النمو الكتائبي بدرجةٍ نسبيةٍ من التعقيد، فإنّه لم ينفصلْ عن التَّهْميش المديد الذي عانَتْهُ قرى «الزاوية» المحيطةُ بمركز القضاء والذي بدأه يوسف بك كرم وأتَمَّهُ زعماء آل فرنجية. وقد أتى هذا التهميش ثمارَهُ المؤسَّسية مع المجلس النيابي السادس، وهو المجلس الإستقلالي الأول في ١٩٤٧، إذ اختفى تمثيلُ قرى الزاوية ليعودَ عودةً عابرةً مع وصول أنطوان اسطفان في ١٩٥١ إلى البرلمان.

منذ ذلك الحين انتقلت الزعامةُ بصورةٍ حصريةٍ إلى حميد فرنجية عِلماً أنّ العمليةَ شابَها قَدْرٌ من التَّعَرُّج. فبعد فترةٍ طويلةٍ نسبياً على وفاة يوسف بك كرم استطاعَتْ قرى الزاوية أنْ تستعيدَ شيئاً من زخمها السياسي الذي أفْقَدَها إيّاه. فأُخْتِير يوسف اسطفان في ١٩٢٩ عضواً في مجلس الشيوخ، الأمر الذي تكرر بانتخاب وديع طربيه، وهو من الزاوية أيضاً، عن محافظة الشمال في المجلس النيابي الأول في ١٩٢٧، فيما عُيِّنَ في المجلس نفسه يوسف اسطفان نائباً. منذ ذلك الحين بدأ تمثيلُ الزاويةِ السياسيُّ يشهدُ انحسارَهُ التدريجي: ففي ١٩٢٩ انتُخِبَ قبلان فرنجية نائباً وتُرِكَ لاسطفان مقعدُه الذي سبق أنْ حصل عليه بالتعيين، وفي ١٩٣٣ انتُخِبَ حميد فرنجية وحدَهُ حتى إذا ما توفِّيَ شبل عيسى الخوري من بشري أمكن لنجيب الضاهر من الزاوية الفوزُ بمقعده البرلماني عن محافظة الشمال. وبقصد الحَدِّ من نفوذ حميد فرنجية على يد الإنتداب الفرنسي سَجَّلَ المجلس الرابع في ١٩٣٧ دخولَهُ إليه مصحوباً بنجيب الضاهر ويوسف اسطفان معاً كما عُيِّن زغرتاوي آخر هو جواد بولس. وكذلك كان حالُ المجلس الخامس المنتخب

(٦٤) المعلومات الواردة عن زغرتا من مقابلتين أجريتا مع شوقي دويهي وسمير فرنجية، ١٩٨٦، في بيروت، إلّا حين يشار إلى مرجع آخر.

في ١٩٤٣ حيث حقَّقَ مُؤَيِّدو الانتداب انتصاراتٍ ملحوظةً في الوسط الماروني إذ في مقابل اختيار حميد فرنجية اخْتِيرَ يوسف اسطفان وبطرس الخوري من الزاوية. وعندما قُتِلَ وهيب جعجع، من بشري، حَلَّ يوسف كرم، الزغرتاوي، محلَّهُ.

على أيَّةِ حال، فمن حميد انتقلت الزعامة إلى شقيقه سليمان، كما انتقلَتْ النيابة لِمَنْ يأتي به حميد، ومن ثَمَّ سليمان، على لائحتهما، علماً بأنَّ تاريخَ التمثيلِ البرلماني لزغرتا منذ ذاك العام لم يُسَجِّلْ سوى دخول أربعة زغرتاويين غيرهما إلى البرلمان، هم رينيه معوض ويوسف كرم وسمعان الدويهي وتوني سليمان فرنجية.

قبل ذلك وبرغم الضربة التي وجهها إليها يوسف بك كرم، حافظت عائلات الزاوية على كونها عائلاتِ التقليد السياسي، الأمر الذي سَمَحَ للإنتداب الفرنسي بإنعاشها كما بَرَّرَهُ. ومن علامات هذه المحافظة، كما يُشيرُ كتابُ تاريخ محليّ، أنّه في ١٩٠٣، وحين كان المتصرف مظفر باشا يزور زغرتا كان يَحِلُّ «ضيفاً في دار المرحوم أمين بك طربيه»[٦٥] وأمين طربيه أحد مشايخ عائلته ممن كانت، في القرن التاسع عشر، أراضيهم «الواسعة سليخاً وفيها القليل من أشجار الزيتون»[٦٦].

إذا كان انهيارُ العالم العثماني وعلاقاتِه هو ما شكَّل الخلفيةَ البعيدةَ لانهيار موقع الزاوية، فإنَّ المقاومةَ التي أبدتها خلالَ الانتداب، ومدعومةً به، لم تُعْفَ من ممارسة العنف الزغرتاوي. ومن ناحيته لم يَنْجُمْ تَصَدُّرُ زغرتا عن تَحَوّلاتٍ داخلية عَرَفَتْها، بِقَدْرِ صدوره عن فَرْضِ الأمر الواقع بالعنف والقوة. فحين نُقِلَتْ في ١٩٢٥ الدوائرُ الحكوميةُ القائمةُ يومذاك من زغرتا إلى البترون، تَمَّ هذا النَّقْل وسط معارضةٍ زغرتاويةٍ حادةٍ تَرْجَمَتْ نفسها بمصادرة الوثائق والأوراق الحكومية والإقدام على ارتكاباتٍ عُنْفية. وما لبث أنْ استقرَّ واقعُ الحال على تسمية زغرتا «مركزاً لقائمقامية قضاء زغرتا ـ الزاوية ومركزاً لمحكمة صُلْحيةٍ تابعةٍ لها»[٦٧].

بدوره رَسَمَ العهدُ الاستقلالي النهايةَ السياسيةَ للزاوية وعائلاتِ مشايخِها الضاهر واسطفان وطربيه، من دون أن تُحْرِزَ النجاحَ محاولاتٌ انتخابيةٌ لاحقةٌ ارتبطت باسميْ الشيخين بطرس الخوري وطانيوس الشِّمْر. وزاد في حِدَّة التهميش السياسي أنَّ سكان الزاوية يفوقون سكان زغرتا عدداً فيما يتمثَّلُ القضاءُ كُلُّهُ، منذ ١٩٦٠، بثلاثة نواب كلُّهم زغرتاويون.

إلّا أنّ هذا البعد لا يستنفدُ العلاقةَ في سائر جوانبها. فأبناءُ الزاوية الذين دفعوا

(٦٥) سمعان خازن، **تاريخ زغرتا القديم والحديث**، مطبعة أديب، طرابلس، ١٩٦٦، ص ٨٥.

(٦٦) المرجع السابق، ص ٥٥.

(٦٧) انظر المرجع السابق، ص ١٤٤ ـ ١٥٩.

كلفة الإنهيار العثماني في منطقتهم، بادروا سريعاً إلى التعايش مع المُعْطيات الجديدة ومُقْتَضَياتِها، فكانوا الأسبقَ في الانفتاح على بيروت عَبْرَ قنواتِ المصارفِ والشركاتِ والتجارةِ والتعليمِ وأموالِ الهجرةِ خصوصاً أموال قرية مزيارة.

وبرغم انكسار نظامهم العائلي الموسَّع الذي وَجَدَ ملاذَهُ في زغرتا، ظل أهل الزاوية موضوعاً للإستبداد الزغرتاوي الذي يلقى حمايَتَهُ في زعيم العائلة، لا سيّما حين يكون مُقَرَّباً من النافذين في السلطة أو يكون هو نفسُهُ جزءاً منها. وقد اتّخذَ هذا الاستبدادُ عدداً من الأشكال الفجَّة التي تَرْقى بداياتُها إلى أواخر القرن الماضي، متفاوتةً بين فَرْضِ «الخوّات» على عامّة الناس والأديرة والمَلّاكين في سهل الجديدة، ومن بعدهم المهاجرين، وبين التزوير و«البَلْص» في علاقات التبادل التجاري وتسجيل الأملاك واغتصاب الفتيات أو الزواج منهن غصباً عن أهلهن وأحياناً كثيرةً عَنْهُنَّ أيضاً.

لقد صدَرَتْ الكتائبية الزغرتاوية عن قرى الزاوية تحديداً، وهي التي يميلُ بعض الزغرتاويين إلى تسميتها بـ «المَزارع». وهكذا لبِسَتْ هي أيضاً لُبوسَ «البعث» و«العودة» الشعَبويَّيْن اللذين تخلَّتْ عنهما «بورجوازية» الزاوية التي وضعَتْ السياسةَ جانباً، لِتَسْتَقِرَّ في المدن وتنصرفَ إلى أعمالها، مذعورةً دائماً. وهكذا ففي مقابل «شيخٍ» كيوسف الضاهر، امتلأ الجسمُ الكتائبي بعناصر خلَّفَتْهُمْ بورجوازيَّتُهُمْ وراءها في القرى، ومعهم عددٌ من التلامذة الإبتدائيين والتكميليين مِمَّن انعكست عليهم آثار الشهابية و/أو آثار الاحتكاك بمدينة طرابلس المسلمة.

لقد كان الشيخ يوسف الضاهر أبرزَ هؤلاء الكتائبيين تقليدياً، وهو من قرية عرجس الصغيرة، تَبَوَّأَ في حزبه منصبَ «رئيس أقاليم الشمال» وربطَتْهُ بآل فرنجية صلة قرابية من ناحية أمه التي هي خالة حميد وسليمان. ولَئِنْ انتمى الضاهر إلى عائلة ذَوَى دورُها السياسيّ، فإنَّ الوجهَ الكتائبيَّ الآخر، جود البايع، كان مُدرِّساً في مدرسة الطليان في طرابلس[٦٨] جامعاً إلى احتقان المنطقة والطبقة الاجتماعية، موقعاً طائفياً لم تَكُفَّ أحداث الستينات عن شَحْذِ شفرتِهِ النِّضالية المسكونةِ بالسلوك العشائري حيالَ الإحساس بحصارٍ مطبق. ففي منتصف آذار ١٩٦٥، مثلاً، سارت تظاهرةٌ شهيرة في طرابلس تندِّدُ بتصريحات الرئيس التونسي بورقيبة وبسياسة ألمانيا الغربية المُمالِئَة لإسرائيل، وعندما حاذت التظاهرة «مدرسة الآباء الكرمليين التي تُعْرَفُ بالمدرسة الايطالية رَشَقَ متظاهرون نوافذ المدرسة بالحجارة. ولم تكن المدرسة، وتلامِذَتُها من القرى الجبلية المسيحية التي تحيط بطرابلس، قد أوْقَفَتْ الدراسة. ثم عَمَدَ المتظاهرون إلى تحطيم باب المعهد، واندفع قسمٌ منهم إلى الداخل فحطموا النوافذ وأوقعوا أضراراً في المختبر الذي تملكُهُ المدرسة

(٦٨) مع أنَّ أمين الجميل يتحدث عنه لاحقاً بصفته مديراً لأحد مصارف الشمال. أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، **الحياة** ١٥/١٢/١٩٩٠.

ونهبوا بعض محتوياته. وعندما حاول مدير المدرسة الأب جان طنب المقاومة تعرض للضرب وسقط مغمياً عليه. وجُرِحَ في المناوشة بين الطلبة والمتظاهرين ستة عشر طالباً (تلميذاً). وتعرضت مدرسة الفرير (الأخوة المريميين) إلى القَذْفِ بالحجارة واعْتُدِيَ على كنيسة مار مخايل فأُقْفِلَتْ المحلاتُ التجاريةُ وأُطْلِقَ الرصاصُ ونُهِبَ محلٌ يبيع أسلحة صيد. انتشر خبر التظاهرة فهاجَ أهالي زغرتا وحاول بعضُهُمْ التَّجمع والنزول إلى طرابلس»(٦٩).

والحقُّ أنّ الستينات، وخاصة أوائلها، سجّلَتْ في الزاوية بدايةَ وعيٍ طائفي نضالي يُواكب الوعيَ العائليَّ الموسَّع الذي ظلَّ مستولياً على الزغرتاويين، ويُجافِيهِ في آن معاً. وبطبيعة الحال لعبَتْ عوامل كثيرة لصالحِ نماء الوعي المذكور هناك، بينها الانتقالُ المتأخرُ لمؤسساتِ الطائفةِ إلى الأطراف بحيث عَرَفَ قضاء زغرتا تِسْعَ مدارس للطائفة المارونية يُرَجّحُ أنّها ابتدائية كلُّها(٧٠) ولم يَعرف هذا القضاءُ المدرسةَ الثانويةَ الرسميةَ إلا في السنة الأخيرة من العهد الشهابي الأول (١٩٦٤)، أما مديرُ هذه المدرسة التي يَؤُمُّها أبناء قرى الزاوية، فكان أنطوان نجم، عضو المكتب السياسي الكتائبي المعروف باسمه الحزبي أمين ناجي(٧١).

وهكذا لم يكن غريباً أنْ تسعى الزاوية إلى مناهضة زغرتا التي تحتكرُ الحياةَ «السياسيةَ» وتُمَارِسُ استبداداً قاسياً، فيما يتحالف زعماؤها في حالاتٍ كثيرة مع زعماء طرابلس وساسةَ المسلمين وحُكّام دمشق بما يجافي المنحى العام للمزاج الشعبي الماروني. أي أنّ المنطق نفسَه حَكَمَ عَمَلَ الطرفين لجهة ضعف الصِّلَة بين السياسة ومصادرها المُجْتَمَعِيّة والميل إلى إجابة العنف بالعنف. ولم يكن مفاجئاً، تبعاً لهذه الخلفية، أن تختار الخلايا الكتائبيةُ الأولى في زغرتا «مداخلَ مطلبيَّة لعملها السياسي (المطالبة بمدارس، مستوصفات، تعميم المياه التي يبيعها الزغرتاويون صيفاً!)»(٧٢)، وهي بالتأكيد ليست مطالبَ أغنياءِ الزاوية ولا مداخلَهُمْ.

بدوره وَفَّرَ قضاء الكورة الشمالي ذو الأكثرية الاثوذكسية الساحقة عَيِّنَةً بسيطة قياساً بالعَيِّنَةِ الزغرتاوية. ويروي أحد الكورانيين الأوائل(٧٣) مِمَّنْ انتسبوا مبكراً إلى الكتائب أنّ الحزب لم يَلْقَ إقبالاً ملحوظاً إلا في قريتي دربعشتار المارونية وبزيزا المختلطة الأرثوذكسية ـ المارونية، علماً أنّ الأقليةَ المارونية في الكورة والتي تحتلّ في

(٦٩) عن وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٨٦.

(٧٠) انظر بطرس لبكي، «من العائلة الامتدادية إلى الطائفة في لبنان»، **الواقع**، العدد ٧ و٨، تشرين الثاني ١٩٨٤.

(٧١) انظر جوزيف سماحة، «خلاف الكتائب ـ فرنجية»، في **السفير** ٢٢/٣/١٩٨٣.

(٧٢) المرجع السابق.

(٧٣) المعلومات الواردة عن الكورة من مقابلة مع ادمون شماس ١٩٨٧ في اميون ـ الكورة.

الهرم الاجتماعي للقضاء موقعاً أدنى من المُتَوَسِّطِ الأرثوذكسي لا تحظى بأيِّ تمثيلٍ سياسيٍّ نيابي.

أما الأرثوذكسيون الذين انتسبوا في بلدة أميون، مركز القضاء ذي الوجه الأرثوذكسي، وفي القرى المحيطة بها، فلم يَبْقَ منهم في حزب الكتائب إلا القليلون جداً. وبين الذين انتسبوا من أميون ألفريد يزبك الذي أصبح «رئيس قسم» وهو مغتربٌ ينتمي إلى أسرة صغيرة، أمّا نائبُهُ في رئاسة القسم الذي ما لبث أنْ ترك الحزب لشعوره أنَّه «حزبٌ مارونيٌّ جدّاً وإن يَكُنْ لبنانياً»، فهو إدمون شمّاس الذي أدْخَلَ معه في البداية بعضَ أفراد عائلته الكبيرة عَدَدِيّاً. وتُعاني هذه الأخيرة، وهي عائلةُ الوجاهةِ والتقليدِ السياسيّ في أميون، معضلةَ التركيبِ العائلي، ومِنْ ثَمَّ السياسيِّ المُفَتّتِ لبلدتها، بما يَحْرِمُها تَبَوُّءَ زعامة قضاء الكورَة التي انعقدَتْ للقرية الثانية الأقلّ تقدماً، كوسبا، ولعائلتها التقليدية آل غصن.

على أيَّة حال، فَمَعْ مرور الزُّمن مضَتْ الكتائب تنمو في قرى الكورة المارونية كبرحليون ورشدبين وعين عكرين، وهي كلّها ذات لونٍ مذهبيٍّ واحدٍ وتحتلُّ موقعَها في النِّصف الأدنى من هرم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية. كذلك نَمَتْ الكتائبُ في القرى التي تفصلُ الكورة عن جبل لبنان مُنْجَذِبَةً إلى قطب في خارجِ قضائِها الأرثوذكسي، نَمُوُّها في القرى التي تقعُ على الطريق المؤدية إلى زَغرتا والتي ما لبثَتْ أنْ نُقِلَتْ إدارياً وانتخابياً إلى منطقة الزاوية في ذاك القضاء، حاملةً معها شحنةَ لا مبالاةٍ أضافيَّةً بزعامة آل فرنجية.

في عكار، في أقصى الشمال، تَرَقى الصِّلةُ بالكتائب إلى مطالع الخمسينات، حيث تَمَكَّنَ الكتائبي ألبير الحاج من الوصول إلى البرلمان عن المقعد الماروني في ١٩٥٣. بَيْدَ أنَّ تجربةَ الحاج مع الكتائب تُشْبِهُ تجربةَ جان سكاف لِجهةِ سطحيَّتِها وعدم ارتباطِها بدلالاتٍ أبعدَ أثراً. فقد تخلّى الحاج عن الكتائب وتخلّت الأخيرة عنه لدى ظهور أوّل تعارضٍ بين الحزب ورئيس الكتلة النيابية العكارية سليمان العلي. والحقُّ أنَّ اختيار الحاج على لائحة العلي في عكار لم يكن يتَّصلُ من قريبٍ أو بعيد بكتائبيته التي لم تكُنْ تحظى بأيّ انتشارٍ يُذْكَرُ في هذا القضاء يومذاك.

لقد نبع الاختيارُ من انتساب الحاج، وهو أحد المحامين القِلّة في عكار أوائل الخمسينات، إلى أكبر عائلات قريته بيت ملّات الطامحة إلى انتزاع الزعامةِ المارونية العكّارية من القبيات، كبرى قرى عكار التي تعود زعامتُها إلى آل الضاهر.

وعلى أيّة حال، فالنموُّ الكتائبي اللاحقُ في عكار ارتدى ملامحَ مشابهة لتلك التي رأيناها في أقضية أخرى. ففي انتخابات ١٩٧٢ النيابية العامة، لوحظ أنَّ المرشَّحَ الكتائبي المحامي خليل نادر خاضَ «على مستوى قريته بيت ملّات معركةَ العائلة الثانوية

ضدّ العائلتين التقليديتين في القرية: آل الحاج التي صَدَرَ عنها المحامي ألبير الحاج. وآل الصّيفي. كما خاض نادر على مستوى عكار كَكُلّ معركة احتكارِ التمثيل السياسي للموارنة»(٧٤). بلُغةٍ أخرى، فإنَّ التحوُّلَ من الكتائبيِّ المنقوصِ ألبير الحاج إلى الكتائبي الفعلي خليل نادر عَنَى أموراً عدّةً بينها تراجعُ التمثيلِ العائلي، وتالياً تراجع حظّ العثورِ على شركاء لائحة والوصول إلى البرلمان، بدلالة خوض نادر معركتَهُ منفرداً.

وفي استعراضٍ لخريطةِ الحضور الكتائبي في عكار، حتى أواخر السبعينات، يتبيَّنُ أنَّ الحزب إبّانَ انتشاره النسبي، لم يَحْظَ بِأيّ وجودٍ يُذكر في بلدة حلبا مركز القضاء، وربّما كان من أسباب ذلك خلوّ القرية المذكورة من الموارنة واقتصارُها على المسلمين السنة والروم الأرثوذكس. أمّا في منياره، وهي إحدى أكبر القرى الأرثوذكسية، فظهرت الكتائبُ في وسط «الشعبية» المناوئة لآل الصرّاف التي هي عائلة التقليد السياسي في القرية حيث تزعَّمَهُمْ مُدَرِّسٌ ابتدائي هو يوسف الكفروني. وبينما كَثُرَ الكتائبيون في الجديدة والزواريب، وهما قريتان صغيرتان، خصوصاً بين أفراد الجيش، كان أبرز كتائبيي القريتين المدرّس الابتدائي حنّا سعد. وفي الشيخ محمد، وهي قريةٌ أرثوذكسية ـ كاثوليكية، وُجِدَتْ الكتائبُ في أوساطِ العسكريين وسائقي السَّيارات والعاطلين عن العمل، وعُرِفَ منهم «القبضاي» عبدالله عاصي. كذلك تزعَّمَهُمْ في قرية عدبل الصغيرة المدرّس الابتدائيّ إميل عيد الذي ينتسب إلى عائلةٍ تُخاصِمُ عائلةَ دياب الأكبر عدداً بقليل في القريَة، والمعروفة تقليدياً بالإقبال على «الحزب السوري القومي الاجتماعي». وفي رحبه عمل المهاجر الكتائبي إدمون بلال على تشكيل محور يقف خارج الوَجاهَتَيْن التقليديتين للقرية، آل حنا وآل خوري، فكانت عائلةُ البايع عمادَ هذا المحور، فيما شكَّلَتْ قِيَمُ «القَبْضَنَة» و«المَرَاجِل» مادَّةَ التّبادل بين الكتائبيين والقوميين والشيوعيين من أبناء القرية. وما حاولَهُ إدمون بلال في رحبه حاوله في بزبينا موظّفُ القائمقامية عبود منصور ساعياً إلى الخروج عن وجاهتَيْ آل كوسا وآل هزيم اللتين تتنازعان القرية.

وفي بينو، إحدى أغنى قرى عكار وأكثرها إقبالاً على الهجرة واهتماماً بالتعليم، لوحظ كيف أنّ الكتائبِيِّيْنَ مَثَلُهُمْ مَثَلُ القومِيِّيْنَ والشيوعيِّيْنَ، بَقوا على هامش دورة الحياة في القرية. أمّا الكتائبي الذي ينتسب إلى «الجناح المعتدل» في عائلة عطية الأكبرَ عدداً والأبكرَ ثراءً وتعليماً، فكان مَثَلُهُ مَثَلُ سائرِ الحزبيين الذين «استنكفوا دائماً عن لعب أيّ دور في «سياسات» القرية ولم يُحْدِثوا أيّ تأثيرٍ في وَسَطِهم المباشر»، مع الإشارة إلى أنّ القرية المذكورة «لا تنظر بكبيرِ تقديرٍ إلى العملِ الحزبي» بِفِعْل سطوةِ القيمِ الرأسمالية عليها(٧٥).

(٧٤) من تحقيق غير مُوَقَّع أعدّه كاتب هذه الأسطر ونشرته يومها **الوطن** ١٩٧٨/٧/١٢ والمعلومات الواردة عن عكار مستقاة من هذا التحقيق إلا عند الإشارة إلى مرجع آخر.

(٧٥) يوسف بشير، «الهجرة والسياسةفي بينو ـ عكار»، في **الواقع**، العدد التاسع، نيسان ١٩٨٦.

أبعد من ذلك أنَّ الكتائبَ لم تظهر في القبيات، أكبر القرى العكارية لا المارونية فحسب. فالمرشح خليل نادر لم يَنَلْ في انتخابات ١٩٧٢ العامّة غير ٢٢ صوتاً قبياتياً، لكنه نجح برغم كونه منفرداً، في أن يحصلَ على ما مجموعُهُ ٢٠٥٠ صوتاً جمعها من القرى المسيحية الصغرى، وبالأخص عائلاتها الصغرى(٧٦).

تسمح الأسطر السابقة بالقول إنّ حزبيّة المناطق الأشد طَرَفِيَّةً وبُعْداً عن المركز، كعكار، تبقى الأكثرَ انطواءً على مهنٍ مُتَدَنِّيَةِ الدُّخول وأصنافٍ من البطالة المُقَنَّعَة التي تقترب أحياناً من الرَّثاثة الاجتماعية. ونظراً لانفصال عكّار عن النزاعات التقليدية للجبل التي أعادَتْ صَوْغَ نفسِها في أشكالَ حزبيةٍ جديدةٍ نسبياً، خَلَتْ الكتائبيةُ العكاريةُ من كلّ تراثٍ أو حصانةٍ كالتي رأيناها جزئياً جدّاً في بعض جرود جبيل.

بدورها مَثَّلَتْ منطقة البترون خليطاً من الحالتين الطَرَفِيّةِ والجبليةِ، مع تَغَلُّبِ السِّمَةِ الأولى أيضاً. ففي قضاء البترون(٧٧) الذي يفصلُ محافظةَ جبل لبنان عن محافة الشمال، ظهرَتْ الكتائبيةُ ظهورَها الأوَّلَ في ١٩٤٢ على يد شرطي في سِلك البوليس، الفرنسي يومذاك، أسمُهُ يوسف سلوم، مقيمٍ في بيروت. فقد حمل سلوم إلى قريته الساحلية الصغيرة على الساحل، كفرعبيدا، ما حملَهُ إلى قرية سلعاتا الصغيرة أيضاً والتي تَزَوَّجَ إحدى فتياتِها. وكان المحمولُ كلاماً جديداً لم يَكُنْ سكّانُ القريَتَيْنِ قد سمعوه قبلاً.

وليس من غير دلالةٍ، في البترون وعكار وغيرهما، أن تبدأ الكتائبيةُ بِدْءَها الأول في بعض القرى على أيدي موظفين رسميين صغار وعسكريين صغار، يجمعون بين رغبتهم في نَقْلِ «النظام» الذي تعلَّموه في السِّلْكِ والمدينة إلى مناطقهم التي تفتقر إلى أدنى نظام، وبين استِقْوائِهِم بهذا النظام ودولته وأجهزته لطرد الخوف الأقلّيّ المزمن والمقيم في مناطقهم تلك.

بَيْدَ أنّ النبتةَ التي زرعها سلوم كبرَتْ وتَفَرَّعَتْ بعد عَقْدَيْنِ من الزّمن محامين وأطباء وموظفين يبحثون عن موقعٍ لهم في الحياة السياسية، ومهاجرين غادروا بلادَهُمْ مُفْقَرين وعادوا ميسورين يعيشون همَّ التناقُضِ بين واقعَيْهِم القديم والجديد.

مع هذا: فالنُّمُوّ في قضاء البترون جانَبَ الدائرتَيْنِ الفاعِلتَيْنِ في الحياة السياسية للمنطقة، فبقي على هامش المركز الساحلي للقضاء، ممثَّلاً بمدينة البترون، بقاءَهُ على

(٧٦) في سبيل توزع هذه الأصوات، انظر جان معلوف وجوزيف أبي فرحات، **الموسوعة الانتخابية المصورة في لبنان، ١٩٦١ ـ ١٩٧٢**، ص ٥٧٠ ـ ٥٧٣.

(٧٧) المعلومات الواردة عن البترون مستقاة من تحقيق غير موقع أعدّه كاتب هذه الأسطر ونشرته **الوطن** ١٩٧٨/٦/٢٩، ومن مقابلات أجريت مع منويل يونس وبطرس حرب وجورج سعادة واستخدمت مادتها في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٠١ ـ ١٣٦، إلاّ حين يشار إلى غير هذين المرجعين.

هامِشِ مركزِها الجرديّ أيْ بلدة تنورين، وخصوصاً على هامش عائلَتِها التي تُشَكِّلُ قُرابةَ نصف القريَة، آل حرب(٧٨).

بهذا المعنى تَرَكَّزَ النموُّ الكتائبي أساساً في قرى الساحل الصغرى ككفر عبيدا وسلعاتا وبعض قرى الوسط التي لم تنعم عائلاتُها بدورٍ سياسيٍّ منذ أن ضَمَرَتْ الزعامة التي مَثَّلَها آل البيطار، حيث شغل يواكيم البيطار أحَد المقاعد النيابية للشمال في البرلمان اللبناني الرابع (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩)، وهي النيابة التي لم تتكرر.

لكنْ لَئِنْ لم يشهد حزبُ الكتائبِ نموّاً ملحوظاً في تنورين، وفي آل حرب تحديداً، فإنّهُ عرف مثل هذا النمو في قرية دربلّا التي تبعد ربع ساعة عن تنورين ويشكل آل حرب ٨٠ في المئة من سكانها. ففي هذه القريةِ الصغيرة، الملحقةِ قروياً وعائلياً بتنورين، استطاع الكتائبُ تأسيسَ وجودٍ لهم على قاعدة خدماتِ وزاراتِ الأشغال التي شغلها كتائبيون خلال السنوات الشهابية.

أمّا في داخل تنورين نفسها فاستطاع الحزب إيجاد مَوْطِىءِ أقدامٍ له وسط العائلات الصغرى كمطر ويعقوب وداغر وبكاسيني التي ظهر فيها أيضاً قوميون سوريون وعروبيون ويساريون. ذلك أنّ هذه العائلات تَتَّسِمُ بأنّها لم تتشكَّلْ كوحداتٍ «سياسية عائلية لها زعامتَهُا ومواقعُ سُلْطَتِها كما هي الحالُ عند العائلاتِ الأساسية»(٧٩). وقد بَرَزَ من هذه العائلات عددٌ من المتعلمين الطامحين كالمحامي صلاح مطر، أو كدياب يونس الذي لا تُعَدُّ عائلتُهُ صغيرةً إلا أنَّهُ ينتمي إلى واحد من أجْبَابِها البعيدة والثانوية (حيث عادَتْ زعامةُ العائلة إلى جُبِّ مسعود بك، النائب في برلماني ١٩٢٧ و١٩٢٩ ومنه إلى جُبِّ قريبه جرجس والد منويل يونس).

وفيما تَمَكَّنَ أمثالُ هؤلاء من إحرازِ مواقعَ قيادية في حزبهما، اقتصرَتْ العلاقةُ مع الكتائب في داخل عائلةِ حرب التنورية على «مُسايَرَةٍ» من جانب المحامي الطامح جان مرعب حرب الذي تولّى نقابةَ المحامين في الشمال. فجان مرعب ينتمي إلى جبّ بو مرعب الذي استعاضَ بالتعليم عن هامشيّةِ دورِهِ السياسي في العائلة الكبيرة. والراهنُ أنَّ هذا التحفُّظَ التنوريَّ ـ الحربيَّ استمرَّ مع حرب السنتين دافعاً النائب بطرس حرب إلى تأسيس «لواء تنورين»(٨٠) ليكون إطاراً لشبيبة العائلة مِمَّنْ استهواهم حمل السلاح،

(٧٨) أو ٤٠٪ منها بحسب: محمد حسين دكروب، **السلطة والقرابة والطائفة عند موارنة لبنان ـ استناداً إلى دراسة انتروبولوجية للنموذج الماروني الشمالي في بلدة تنورين**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص ٤٧، برغم ذكر المؤلف أن الأرقام «تقديرات استخلصت من خلال لوائح الشطب الانتخابية المتواجدة لدى مختارية تنورين حتى العام ١٩٧٢». ص ٤٩ هـ.

(٧٩) المرجع السابق، ص ١٣١.

(٨٠) ليس قليل الدلالة أنّ نديم حرب، ابن عم بطرس وشقيق وسيم الذي نافسه على لائحة ثالثة في انتخابات

بحيث لا يُشَكِّلُ حزبُ الكتائب أيَّ إغراءٍ وجَذْبٍ لهم، حتى إذا حُلَّ اللواء واستجدَّتْ تطوّراتٌ ناشئةٌ انخرَطَ أعدادٌ من هؤلاء الشبان فيٍ «القوات اللبنانية» لا في الكتائب.

ويلتقي أبرزُ أصحابِ الأسماءِ الكتائبيةِ في قضاء البترون عِنْدَ سِمَةِ الهامشيةِ السياسيّةِ والرَّغبةِ الحادّةِ في اختراق المُعْطياتِ القائمةِ والمُعِيقَةِ التي يتمتَّعُ بها نظامٌ سياسيٌّ لا يزالُ طرِيَّ العود. فالدكتور إميل حكيّم الذي عُرِفَ بخدماته الطبية من قرية الفتيحات وهي «مزرعة» في وسط البترون، وجاك شديد، المحامي، من قرية إده الصغيرة، عَمُّهُ المطران الياس شديد وأبوه نسيب أفندي شديد، وَجَدَ في الكتائب استعاضةً عن التفسُّخِ المتنامي لعائلته وتراجُعِ دورها. كذلك تزوّجَ شديد فتاةً من آل الجلخ الأثرياء في بيروت ليصبح نجماً اجتماعياً بيروتياً ويَغُضَّ النظرَ عن كلّ نشاطٍ حزبيّ. بدَوْرِهِ فلويس منعم هو مختار قريته الصغيرة أجدبره في الساحل، أمّا هيكل رعيدي فمُتَفَرِّغٌ من عائلةٍ هامشيّةٍ في تنورين، هاجر إلى تشيلي ثم عاد لِيعملَ في الوظيفة الرسمية. وفيما يتماثل صلاح مطر ورعيدي لجهة الخلفيّة العائليّة، ينتمي شكري لحود إلى عبرين وهي قريةٌ ساحليةٌ صغيرةٌ يتربَّعُ هو في وجاهتها، ويُعدّ أنيس حرب من دربلّا ملّاكاً صغيراً حَوَّلَتْهُ خَدَماتُ وزاراتِ الأشغال الكتائبية ـ الشهابية وجيهاً في قريته الصغيرة.

لم يكن هذا الدَّأبُ النضاليُّ البادىءُ في الأربعينات والذي تكلَّلَ بالنجاح في ١٩٦٨، مع وصولِ جورج سعادة إلى البرلمان، غريباً عن العمل الانتخابيّ الكتائبيّ في قضاء البترون والذي بلغ ذروتَهُ في الستّينات. فبالإفادةِ من سياسةِ العَزْلِ التي تَعَرَّضَ لها التيّار الشمعوني بِدْءاً من ١٩٦٠، تراءَتْ الإمكانيّةُ مُتاحةً لِمواجهةِ جان حرب المُقَرَّب من شمعون. هكذا خاضَ جاك شديد، الذي سَبَقَ للكتائب أنْ رَشَّحَتْهُ في ١٩٤٧، لمعركة على لائحة منويل يونس الشهابية في وجه الزعامتين التقليديتين، مشايخ آل حرب في تنورين والجرد البتروني، وآل عقل الكتلويين في مدينة البترون. وفي المقابل انْسَحَبَ المرشّحُ التقليديّ يوسف ضَوْ لِمُرَشّحِ الكتائب، وهو وَجْهُ العائلة البترونية المنافسة تقليدياً لعائلة عقل. فضو، المتحالفُ تقليديّاً مع آل فرنجية في زغرتا، كان موقعُهُ امتداداً لموقعهم في ١٩٦٠: لا هم في الموالاةِ لشهاب بحيث يُؤخَذُ يوسف ضو على اللائحة الموالية فَيَحِلُّ محلَّ جاك شديد على لائحة منويل يونس، ولا هم في المعارضة بحيث يَحِلُّ مَحَلَّ الشمعوني جان حرب أو الكتلوي كميل عقل. وهناك روايةٌ شعبيةٌ سائدةٌ في البترون مُؤَدَّاها أنَّ يوسف ضو اشترط لانسحابِهِ أنْ تقف الكتائبُ في الانتخاباتِ النيابية التّالية إلى جانبه، فعندما أقبل العام ١٩٦٤ رفضَتْ الكتائب الإنسحابَ ورشَّحَتْ إميل حكيّم الذي نال ٢٩٠٠ صوت. وفي ١٩٦٨ كان للحزب ما أراده إذ نجح في إيصال مدير

١٩٧٢، انتمى آنذاك إلى «حراس الأرز» وعمل على تنسيب شباب عائلته إلى التنظيم المذكور، أما شقيقه الآخر حبيب، فانضوى بعد سنوات في حركة العماد ميشال عون.

مصلحة التعليم الخاص الدكتور جورج سعادة إلى الندوة النيابية.

يبقى أنَّ حالةَ جورج سعادة نموذجيّةٌ في التعبير عن الصعود الكتائبي وكَيْفِيَّاتِهِ(٨١). فهو ابن قرية شبطين في الوسط، ينتمي إلى عائلة كانت تعمل بالأرض عند آل نجم البترونية وإلى أب عَمِلَ في سِلك الدّرك. في ١٩٦٢ انضم سعادة، الذي درس في معهد الرسل في جونيه ثم تخرَّجَ حاملاً شهادة دكتوراه في الفلسفة والآداب، إلى «رابطة أبناء البترون في بيروت» والتي ما لبث أنْ تَرَأسَها. وكانت هذه الرابطة، التي ضمَّتْ أيضاً الكتائبي إميل أبي نادر، كنايةً عن عدد من الطلاب والمتعلمين الذي يَدْرسون ويعيشون في بيروت باحثين عن مسرحٍ لطموحِهِمْ إلى الدور السياسي والتَّرقّي الاجتماعي. وقد قادَتْهُمْ أحلام «غزو» البترون من بيروت إلى رَفْعِ شعار «خدمة المنطقة وتطويرها»، فكان من ثمار هذه الخدمة تأسيس «البيت البتروني»، التسميةُ التي تِذَكِّرُ بفولكلورٍ كلاميٍّ شهابيٍّ كامل.

عُيِّنَ سعادة مديراً لمصلحةِ التّعليمِ الخاص حيث عمل ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٨ وقَدَّمَ خدماتٍ لأبناء منطقته. وفي ١٩٦٨ تقدَّمَ للانتخابات النيابية فَدَرَجَتْ على يَدِه زيارةُ البيوتِ بَيْتاً بَيْتاً إبَّان الحملةِ الانتخابية، كما كان يدخل إلى المجموعات والقرى الهامشيّة أو التي لم تَحْظَ بدرجةٍ من التطوّر، فَيُؤَكِدُ صورتَهُ كواحدٍ من «أبناء الشعب». وإلى المبالغة في استعمالِهِ مناسباتِ المآتم والأعراس استعملَ أصْلَهُ أيضاً، مشيراً إلى أنَّ أجدادَهُ قَدِموا من قريةِ بِجِّه في جبيل مِمّا جعله يكسب أصواتَ بترونيين من ذوي أصلٍ جُبَيْلِيّ.

ولئن أفاد سعادة من صِلَةٍ خاصة بوزير الداخلية يومذاك سليمان فرنجية، فإنَّ اقترانَهُ بكريمة الشيخ كسروان الخازن، أحد أبرز المشايخ الخازنيين الراحلين، أعطى اندفاعَهُ إلى الصَّدارةِ شَكْلَ الانبعاثِ، في البحث عن مرجعيةٍ تاريخيةٍ.

د ـ الجنوب:

لم يَنْمُ حزب الكتائب نُمُوّاً يُذْكَرُ في قرية مغدوشة(٨٢)، إحدى أكبر قرى قضاء الزهراني برغم انتساب الدكتور راشد الخوري إليها، حتى أنَّ هذا الأخير افتتح بيتاً في ١٩٦٠ ما لبثَتْ أن أُغْلِقَتْ أبوابُهُ في ١٩٦٢. وربما كان من أسباب تَأَخُّرِ الوعي النضالي عند مسيحيي قضاء الزهراني أنَّ الجمهور الشيعي في القضاء نفسه، مِثْلَهُ مِثْلَ الجمهورِ السني في صيدا، كان بعيداً عن المواجهات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في ما يُعرَفُ اليوم بأقضية صور ومرجعيون وبنت جبيل. ففيما انشطرَتْ الزعامةُ الشيعية في

(٨١) أنظر أيضاً المقابلة معه في **الأنوار** في ١٩٨٦/٩/٢٢.

(٨٢) المعلومات عن قضائي الزهراني وصيدا من مقابلات ثلاث أجريتها مع محمد علي فرحات وبسّام حجار وبيار شلهوب في بيروت (١٩٨٦)، إلاّ عند الإشارة إلى مرجع آخر.

الزهراني بين وجوهٍ معتدلة من عائلتَيْ عسيران والزين، كان الكثيرون من شيعة القضاء، الذين تأخَّرَ تَبَلْوُرُ وَعْيِهِمْ الطائفي بصفته هذه، يقترعون لراشد الخوري لأسباب لا صلةَ لها بكتائبيته من دون أن تكون كتائبيَّتُهُ عنصرَ تَنْفيرٍ لهم. على العكس، بَدَتْ «المسيحية» من زاوية نظرٍ شيعيّةٍ عشائريّةٍ ألْصَقَ بآل سالم «الأرستقراطيين» في العرف الأهلي، منها بخصمهم الطّبيب الشعبي راشد الخوري. ولأنّ الجمهور الشيعي هناك كان يفتقد العصبيات القوية المُوَسَّعَة كما يعرفها أقصى الجنوب (الأسعد، العبدالله، الفاعور)، بقي «الخوفُ» عنصراً مستَبْعَداً في إحداث الحِراك الحزبيّ عند المسيحيين، خصوصاً أنَّ التسليم بالدولة والاعتمادَ على خدماتِها وفُرَصِ عَمَلِها كانا جزءاً من «الإيديولوجيا الضمنية» لشيعة تلك المنطقة.

قُصارى القول إنّ الكتائب بَقيت ضعيفةً في قرى الخط المُمْتَدِّ من شرق صيدا مروراً بمغدوشة وعنقون حتى جباع وجزين وهي قرى تنطوي على وجود شيعي ـ كاثوليكي تتخلَّلُهُ أقلِّيَّةٌ مارونية. ومع أنّ الحزبَ وُجِدَ تقليدياً في قرية صربا المارونية الصغيرة الواقعة على هذا الخط، إلا أنَّ وجودَهُ اقتصر على شكلياتِ حَمْلِ البطاقة وتعليقِ زرِّ الكتائب على الصدر من دون أيّة حَرَكيّةٍ نضاليّة ملحوظةٍ(٨٣). شمال هذا الخط ثمَّة خطٌّ آخر يربط صيدا بجزين انطلاقاً من حارة صيدا حتى عين الدلب والقريّة وجنسنايا وصولاً إلى باتر، وهو أيضاً خط قرى صغيرة ومتوسطة، مسيحية ـ شيعية. ولئن بدأت الكتائبية في الظهور هناك منذ أوائل الخمسينات كما تَجَلّى في بناء بيوت قليلة للحزب، فإنَّ الحضورَ الجدِّيَّ، وفي حدوده النسبية أيضاً، هو ما شرع يَشُقُّ طريقَهُ في أواسط الستينات بِقدْرٍ أكبر من ذلك الذي عرفَتْهُ قرى الخط الأول.

فقد احتضنت قريةُ عين الدلب المتوسطةُ الحجم وجوداً كتائبياً بَرَزَ منه عشيَّةَ اندلاعِ الحرب الأهلية المدرِّسُ والمحامي الياس كسّاب الذي ينتمي إلى عائلةٍ صغيرةِ الحجمِ ومتواضعةٍ في مَنْبَتِها الاجتماعي. وفي وجهٍ عام كان الجمهور الكتائبي، منذ بدايات ظهورِهِ، من البورجوازيين الصِّغار ولا سيّما بين المزارعين وأصحاب الحِرَف المُتَراجِعَة. كذلك ارتبط النموُّ الكتائبيُّ في القرى المسيحية لهذا الخط بمحاولاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ لاحتلالِ مواقِعَ في المجالس البلدية والاختيارية، فكانت هذه المحاولاتُ تُؤَدِّي بين الحين

(٨٣) الواقع أنَّ الكتائب تبعاً لنشأته الأولى، كان يتسع في تكوينه لهذا النمط من العضوية. في سبيل التمييز بين «الحزب الجماهيري» كالكتائب وأحزاب الكوادر، وهو المصطلح المستعار من موريس دوفروجييه أنظر: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 101. مع العلم أنَّ أنتليس يتبنى وجهة نظر كريم بقرادوني في رسالته عن الكتائب والقائلة إنه لم يكن حزباً جماهيرياً كاملاً بل كان «حزب الجماهير حسنة التنظيم» وهو ما يضعه في خانة وسطى بين خانتي الأحزاب المذكورتين. وبدوره رأى فرانك ستوكس أنَّ حزب الكتائب هو «النموذج الأهم في العالم العربي عن الحزب الجماهيري المنظم ذي القاعدة والتنافس على نطاق وطني».
Frank Stoakes, «The Supervigilantes...», *in: Middle Eastern Studies*, *op. cit.*

والآخر إلى منازعاتٍ وعراكٍ بالسكاكين والعصيّ بين عائلات البلدة الواحدة من روم كاثوليك وموارنة. إلا أنَّ الخط الثالث الذي يربط بين صيدا وجزين والذي يمكن وَصْفُهُ بأنَّهُ شريطُ قرًى مسيحيّةٍ صافية، باستثناء عبرا الجديدة وهي أولّهُ من جهة الغرب، فكان دائرةَ التواجُدِ الكتائبيّ الفعليّ في تلك المنطقة.

فالخطُّ المذكور الواقعُ شمالَ الخَطَّيْنِ اللذين سبقَتْ الإشارةُ إليهما، مارّاً بِعَبرا ومجدليون والصالحية ووادي بعنقودين ولِبْعا وعين المير وكفرفالوس، سَجَّل إقبالاً تقليديّاً على الكتائب ولا سيّما في القرى المارونية منه كوادي بعنقودين ولبعا الصغيرتين. وفي أثناء الاحتلال الاسرائيلي لصيدا وانتقال المركز التجاري منها إلى عبرا، لوحظ تنامي وجود «القوات اللبنانية» في تلك القرى والماروني منها خصوصاً. لكن بينما لم تَنْمُ الكتائب في عبرا الجديدة مثلاً، وُجِدَ الكتائبيون في عبرا القديمة التي وَضَعَها نشوءُ الشَّطْر الحديث على هامش العلاقات التجاريّة النامية والمُتَّسِعَة. وقد عُرِفَ من كتائبيي عبرا القديمة، المتوسطة الحجم، طبيبُ الأسنان نخلة قهوجي الذي ينتسبُ إلى عائلةٍ فقيرةٍ وصغيرةِ العدد.

وبرغم أنَّ الكتائبَ لم تَعْدَمْ الوجودَ بين كاثوليك تلك القرى(٨٤)، إلا أنَّ لَوْنَها الماروني الغالبَ جَعَلَها تَرِثُ ملامحَ الصورةِ المارونيّةِ كما هي في عَيْنِ التَّشاوُف الكاثوليكي. فالموارنة، المزارعون في غالبيتهم، أفْقَرُ حالاً من كاثوليك تلك المنطقة ممَّنْ يملكون قِطَعَ أرض متوسطةٍ أو كبيرةٍ نسبيّاً، أو يعملون أصحابَ مِهَنٍ حرّة أو يشغلون مَواقعَ متقدمةً وأحياناً رفيعةً في سِلْكِ الوظيفة، كما لا تَكْتُمُ الكنائسُ الكاثوليكيّةُ غِناها قياساً بالمارونية، وتَفَوُّقَها عليها في النشاط الرِّعائي ومتابعة شؤونِ أبناء المِلَّة.

إلى ذلك، فالكاثوليك هناك هم «الأصَلاءُ» الأقدمُ عهداً كما هي حالُهُمْ في زحلة، وهم ذوو الصِّلة الوثيقة بمدينة صيدا وجمهورها المسلم السنيّ(٨٥)، وهي صِلَةٌ ناجمة، بَيْنَ أمور أخرى، عن نِسْبَتِهم المُرْتَفِعَة بين كبار تِجّار المدينة(٨٦)، ومنهم مجيد الخوري الذي

(٨٤) بحسب الأرقام الرسمية الكتائبية عن الأعضاء في ١٩٦٢، في لبنان ككل، كان ٨٠٪ منهم موارنة و١٠٪ من المسيحيين غير الموارنة و١٠٪ من غير المسيحيين. أنظر John. P. Entelis, *Pluralism..., op. cit.*, p. 110.

(٨٥) تقليدياً يفوق الروم الكاثوليك سائر المسيحيين عدداً في مدينة صيدا. ففي تقدرات تعود إلى ١٩١٤ ـ ١٩١٥ كان الكاثوليك ٩٦٣ شخصاً والموارنة ٦٥٠ والأرثوذكس ١٣١. عن الدكتور طلال ماجد المجذوب، **تاريخ صيدا الاجتماعي، ١٨٤٠ ـ ١٩١٤**، المكتبة العصريّة، بيروت ـ صيدا، ١٩٨٣، ص ٣٤٦. وينقل المجذوب عن «الرسالة المخلصية» أنّه «في القرن الثامن عشر استطاع المطران أفتيموس الصيفي مطران الروم الكاثوليك (١٦٨٢ ـ ١٧٢٣) أنْ يحصل على إذْن من السلطات الشرعية المحلية بأن يكتب لمن أراد من النصارى خارج صيدا يدعوهم إليها للعمل والإقامة فيها. وبحضور وجهاء الطائفة في صيدا استكتب المطران القاضي الشرعي عهداً بذلك ليكون حجة بيده وأشهد الحضور على ما فيه».

(٨٦) عن التقليد التجاري للكاثوليك في صيدا، خصوصاً جهة علاقة العائلات التجارية بالقنصليات الأوروبية، أنظر المرجع السابق، ص ٣٥٢ وما يلي.

لُقِّبَ بـ «مخزن صيدا»، وهذا كُلُّهُ ما لا صِلة لِموارنةِ المنطقةِ به، الشيء الذي تدُلُّ عليه حداثةُ عهدِ الكنيسة المارونية في المدينة الجنوبية الأولى، حتّى إذا عُرِفَ من كتائبيي صيدا صاحب دكّان الأدواتِ الرياضيّة أدمون خوري، تبيَّنَ أنَّ أصلَهُ القريب قرية الصالحيّة.

أما جزين فقد مَثَّلَتْ فيها زعامةُ إدمون رزق لحظةَ تقاطعٍ بين العصامية الكتائبية كما عهدناها في جورج سعادة وآخرين، وبين الانتساب إلى عائلةٍ ومدينةٍ كبيرتين نسبيّاً، الشيء الذي مَنَحَ رزق، في وقت لاحق، القدرةَ على الخروجِ عن الكتائب بينما كان الكتائبيُّ أمين الجميل رئيساً للجمهورية(٨٧).

وُلِد إدمون رزق في جزين، والده أمين رزق(٨٨) الذي أسَّسَ في ١٩٣٦ جريدة «الحديث» اليومية وتَوَلّى رئاسة تحريرها فيما عادت ملكِيَّتُها إلى إلياس حرفوش. وفي هذه النشرة عمل الصحافي الراحل سعيد فريحة العائد آنذاك من حلب. وفي مدرسة «سيدة مشموشي» الأهلية درس رزق حتى البريفيه لِيَنتقلَ إلى الحكمة في بيروت ومنها إلى اليسوعية، حيث تخرَّجَ حاملاً شهادةَ الحقوق من الأكاديمية اللبنانية في ١٩٥٧. وبعد فترةِ التَّدَرُّجِ في مكتب النائب البيروتي الراحل شفيق ناصيف، انتقل رزق إلى العمل المستقل كمحام جزائي. لكنه في طريقه إلى تلك المحطة مارس أعمالاً كثيرة بينها التعليم ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٨ ثم الانتساب إلى نقابة المحامين، كما شَغَلَ رئاسة لجنة الدفاع عن حقوق معلمي المدارس المجانية. وإلى التعليم عمل رزق منذ ١٩٥١ في الصحافة منتسباً أيضاً إلى نقابة المحررين فتنقّلَ ما بين «البيرق» و«الجريدة» و«العمل» و«السياسة» التي تَوَلّى المسؤولية عن صفحتين للسياسة الخارجية فيها في ١٩٥٦. وفي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ عَمِلَ في «الأنوار» الناصرية يومذاك برغم كتائبيته ومعها في الإذاعة اللبنانية حيث بقي حتى ١٩٦٨ فكتب التعليقَ السياسيَّ اليوميّ، وهو ما كَتَبَهُ كذلك للتلفزيون أواخر الفترة المذكورة.

في «العمل» كتب إدمون رزق افتتاحية «حصاد الأيام» وهو ما واظب عليه حتى ١٩٦٨، أي طوال مرحلةِ التحالفِ الشهابي ـ الكتائبي حيث امتزج وَعْيُ رزق الكتائبي بما يُمكن أن نُسَمِّيَهُ الإيديولوجيا الرسميَّة للدولة التي كان أحد العاملين في أجهزتها من خلال وظيفته في الإذاعة والتلفزيون. وتحت وطأة هذا المزيج طغت على كتائبية رزق

(٨٧) ليس من دون دلالة أنَّ الكتائبي الآخر الذي خرج عن الحزب فأخرجه الحزب عنه كان لويس أبو شرف نائب كسروان الذي لا تربطه، من حيث الأصل، صلة بكسروان، كأنما الارتباط بموقع ثابت كحالة رزق في جزين، أو انعدام الصلة بأي موقع كحالة أبو شرف في كسروان، يتعادلان عند اضعاف الصلة بالكتائب.

(٨٨) المعلومات الواردة عن جزين وأدمون رزق من مقابلة مع الأخير استعملت مادتها في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٩١ ـ ٢٠٠

دعواتُ التعايش والمبالغةُ في الإقتراب من بيئاتٍ سياسيةٍ وعقائديةٍ مُغايِرَةٍ للكتائب مع تَوْكيدٍ خاصٍّ على العَلْمنة.

وما لبث رزق أن أصبح «خطيب الحزب» إلى جانب الياس ربابي ولويس أبو شرف، لكنَّه كان أيضاً أحد خطباءِ المناسباتِ الدينيةِ الإسلاميّةِ في بيروت والجنوب، ولا سيّما منها مناسبات عاشوراء التي شكَّلَتْ لديه فُرَصاً لِتَكرارِ شعاراته في التعايش بين الطوائف والأديان. وفي أوائل الستينات دخل المكتب السياسي لِحِزْبِهِ. وذلك قبل سنوات على وصوله إلى النيابة، حيث جرى العُرْفُ الكتائبيُّ على أن يكونَ النائبُ الحزبي، وبصورة تلقائية، عضواً في هذا المكتب.

في ١٩٦٨ نجح المحامي الصَّاعد في أنْ يخترق اللائحةَ التي أنشأها ائتِلاف القطبَيْنِ مارون كنعان وجان عزيز من دون أن تكون دائرةُ جزين مشمولةً باتفاقِ «الحلف الثلاثي». إلا أنّ هذا النجاح سبقَتْهُ مقدمات نموذجِيَّةٌ بدورها.

فَعَلى النِّطاقِ الجزيني شارك رزق منذ ١٩٥٦ في تأسيس «نادي فتيان الشلّال في جزين» و«رابطة شباب منطقة جزين ومغدوشة»، تماماً كما فَعَلَ جورج سعادة الذي انتسب إلى جمعياتٍ بترونيةٍ في بيروت.

واقعُ الحال، إنَّ دخول رزق حلبة العمل البرلماني لم يَعْدَمْ صِلَتَهُ بالتركيب العائليِّ الجزينيِّ وما يَتَرَتَّبُ عليه، فقد انقسم الجزينيون تقليديّاً إلى حِزْبيَّتَيْن، القَطّارِيّيْن نسبةً إلى عائلة قطّار، بزعامة أحد أجبابها آل كنعان، وحِلْفِ العائلات غير الكبيرة عدديّاً (المعوشي، ناصيف، عازار، عزيز) التي رأت أنَّ أسْبَقِيَّتَها في العَرَاقَةِ تُعْطِيها أحَقِّيَةَ التمثيل وأرْجَحِيَّةَ الصّدارة على القطّاريّيْن. والراهنُ أنَّ هذه العائلات التي تَكْثُرُ المصاهراتُ في ما بينها، كانت سبقَتْ القَطّارِيّيْن في العلم والثراء ولم تَسْتَسِغْ الصعودَ الشعبيَّ لسليمان كنعان، الوجهِ الجديدِ للعامة والفلاحين. فمنصور يوسف المعوشي وفرحات ناصيف شَغَلا عضوية مجلسِ إدارةِ جبل لبنان قبل كنعان بسنوات، فيما كان سليم ضاهر المعوشي قائمقامَ جزين في عهد المتصرفية ويوسف ناصيف قائدَ الفرسان في العهد نفسه وسليمان المعوشي واحداً من ضباطه.

على أنَّ محاولةَ التَّخَلُّصِ من الحِزْبِيَّتَيْن ومن تَلْخيصِ الحياة السياسية فيهما، كانَتْ تَصْدُرُ دائماً عن خارج جزين: في البداية عبرَ آل عازوري، من قرية عازور، والتي بَرَزَ منها نصري ومن بعده كلود ممن اقْتَصَرَ طموحُهُمْ السياسيُّ على ضرورةِ أَخْذِهِم في عين الاعتبار إلى جانب القطب الجزيني. وبعد ذلك صَدَرَتْ محاولةُ التغيير عن حزب الكتائب في قرى الوسط والساحل والذي بَرَزَ منه رشاد سلامة ابن الشاعر بولس سلامة من قرية بتدين اللقش الصغيرة، والدكتور بازيل عبود من قرية القنّاية الأقرب إلى صيدا

والذي نجح، كما رأينا، في أنْ يُلْحِقَ الهزيمة بمارون كنعان، ابن سليمان في الانتخابات الفرعية التي أُجْرِيَتْ في ١٩٥٩.

ولم يَتَردَّدْ عبود تعقيباً على انتصاره الذي كرَّرَهُ في ١٩٦٠ عَبْرَ تحالفه مع جان عزيز، الخصم التقليدي لكنعان، في أنْ يَعْتَبِرَ فوزَهُ الانتخابي تَدْليلاً على حداثةِ سياسيةٍ أنْزَلَتْ الهزيمة بـ «الإقطاع القديم»[٨٩]، أما «الإقطاعُ» هذا فكان في حقيقة الأمر تسميةً شعبويةً سهلةً للدور السياسيّ الذي لَعِبَتْهُ تقليديّاً عائلاتُ بلدةِ جزين، خصوصاً أنَّ الأخيرة تشكِّلُ في آخر المَطافِ أقَلَّ من ثلث القضاء المُسَمَّى باسمها فيما تَسْتَأثِرُ بِحِصَّةِ الأسد في التمثيل السياسي للقضاء، فارضةً مَنْ تَقْبَلُهُ، وبشروطها، شريكاً ثانويّاً إلى جانبِ الزعيمِ الجزيني الذي نَمَتْ الكتائبُ خارجَ دائرةِ تأثيرِهِ.

ومع إدمون رزق، الكتائبي منذ حداثة أظافره[٩٠] طرأ جديدان على الحياة السياسية لجزين: من ناحية بدأتْ عائلاتُ البورجوازية الصغرى، الكبرى نسبياً في عددها (عون، الأسمر، حلو، رزق، كرم) والتي كانت موزَّعَةَ الولاءِ بين القطّاريين والحِلْفِ المُنَاهِضِ لهم، (كانَتْ عائلةُ رزق في عِدادِ هذا الحلف) تَشُقُّ طريقَها الخاصَّة بها. وقد اقترَنَ الطموحُ الجديدُ بِتَحوُّلاتٍ ديموغرافية وأخرى اجتماعيةٍ أوْسع.

فديموغرافيّاً، وبعد أنْ طالَ انحصارُ جزين في «الضيعة» الواقعة شرقاً، راح التَّزايُدُ السكانيُّ يُوجِدُ مناطقَ سكنٍ جديدةً ومُتَوَسِّعَةً، أكانَ في الجنوب المُطِلِّ على قرية كفرحونة أم في الشخاريب ومار يوسف غرباً، الشيءُ الذي جعل المدينة الأصلية وعاءً لأعدادٍ متعاظمةٍ من الريفيين الوافدين.

واجتماعياً، شرعَتْ المشاكلُ الناجمةُ عن تحوّلِ جزين إلى مدينةٍ تَسْتَعْصِي على الزّعامات التقليدية وقُدْرَتِها على ابتكارِ الحلولِ واستشرافِها، يَنْطَبِقُ ذلك على زعامة العائلاتِ القديمةِ (جان عزيز) المُرَاهِنَةِ على الإنبعاث عبر الشهابية، انطباقَهُ على الزعامة القَطّاريَّة (مارون كنعان) التي شاخت ولم تستطع مواجهةَ مسائلِ الإنتقالِ إلى الحالةِ المدينيّةِ[٩١]. ولم يَكُنْ بلا دلالةٍ أنَّ القفزةَ التي حقَّقَها إدمون رزق في اتجاهِ الإقرارِ به

(٨٩) John. P. Entelis, *Pluralism*..., *op. cit.*, p. 139.

(٩٠) بحسب منح الصلح في مقابلة معه (سبق الاستشهاد) انتمى رزق إلى «الحزب التقدمي الاشتراكي» قبل انتسابه إلى الكتائب، الواقعة التي نفاها رزق.

(٩١) كان التحدي الذي واجهته الزعامات التقليدية في جزين أكبر منه في مناطق الأطراف الأخرى، ليس فقط بفعل توسع جزين، بل أيضاً - ومن جهة أخرى - لأن مشكلة الأرض حلّت فيها منذ حلّت في الجبل أواخر القرن الماضي بحيث تملّك الفلاحون الأرض وكان هذا بمثابة جرم جبلي في التجربة الجزينية. والمعروف أنّ سليمان كنعان، والد مارون، بنى زعامته انطلاقاً من قيادته الفلاحين آنذاك، إلاّ أنَّ «السلالة» غلبت السياسة الحديثة وأمسكت بخناقها على عكس الحالة الجبلية حيث اتسعت قاعدة العمل السياسي، سلمياً وتدريجياً، لعائلات متنامية العدد.

كزعامـةٍ ناشئـةٍ، جاءت مـع تفاقم مشكلـةِ المياه في أطـراف البلدة والتي أصـابَتْ بعض عائلاتِها الهامشية مِمَّنْ لم تَجِدْ آذاناً صاغيةً عند زعماءِ التقليدِ السياسيِّ، فقادَهـا إدمون رزق في تظاهـرةٍ مطلبيّـةٍ يقـولُ الجـزينيـون إنَّهـا لعبَتْ نصف الـدور في إيصـالِـهِ إلى البرلمان[٩٢].

من ناحية أخـرى، تحقَّقَ للكتائب عَبْـرَ إدمون رزق مـا لم يَتَحَقَّق لها في الكثيـر من مناطق نموِّها الأخرى خارج المركز البيروتي ـ الجبلي. فقـد عثرَتْ في جـزين على مُمَثِّلٍ ينتسب إلى البلدة الكبيرة لا إلى القرى الهامشية، واستطراداً إلى واحدة من عائلات هذه البلدة وإن طغى عليها الانتماءُ إلى البورجـوازية الصغيـرة. وبهذا المعنى حمـل رزق معه إلى حزبه مصدَرَ قُوَّةٍ خاصّاً به تَمَثَّلَ بالعائلةِ والبلدةِ، بما منحه قوّةً تفاوضيَّةً حيالَ حـزبه، الشيءُ الذي لم يتوافر للكثيرين من الريفيين أصحابِ الحالاتِ المشابهةِ.

أما دِرْدْغَيّا[٩٣]، أكبـر القرى المسيحيـة في قضاء صـور والواقعـة قرابـة ١٧ كلم شمال شرقي المدينة، فَتُقَـدِّمُ عيِّنَةً مختلفـةً في تفاصيلهـا من دون أنْ تختلفَ في المنحى العام.

فقـد اقتصر سكـانُ القريـةِ، التي تتوسَّطُ قـريتَيْ العبـاسيـة وصـريفـا الشيعيتين الكبيـرتين، على الروم الكـاثوليـك، في استثناء بيتٍ واحـدٍ مارونيٍّ وآخـرَ شيعي. وبُعَيْدَ الحرب العالمية الأولى هوجِمَتْ دِرْدْغَيّـا من قبل العصـابات، لكنهـا لم تُحْرَقْ، كمـا حصل لمرجعيون، وذلك لِوجُودِ حاميـةٍ فرنسيّـةٍ في صور. بَيْـدَ أنَّ ابناءهـا تسلحوا وسقط منهم ـ بحسب رواية أهل القـرية ـ ٧ قتلى، الشيء الـذي زَكّى الإعتداد بـالبأس بين أبنـائها. يُضاف إلى ذلك أنَّ توزُّعَ الوجاهةِ المحليـة للقريـة بين فرعين من آل بـدوي لم يَحُلْ دون تنافُسٍ كان يَتَّخِذُ بين الفينة والأخرى شَكْلَ الاشتباكاتِ ذات الكلفة الدمويّة.

لقد أقْبَلَ شبان دردغيا الكاثوليك على الكتائب في الخمسينـات فأنشـأوا فيها بيتـاً للحزب، ثم تعاظم عددُهُمْ في الستينات، إلا أنَّ العائلة التي حَضَنَتْ هذا النمو كانت عائلـة الخوري التي تُعتبرُ «أقـدَم» و«أوْجَه» من عـائلة بـدوي. ولم يكن تراجـعُ آل الخوري غيـرَ واحـدٍ من تعابيـرِ التراجُـعِ الذي طَـرَأ مع الاستقـلالِ على القريـة ككلّ، بعـد أنْ حاول الإنتدابُ الفرنسيُّ جَعْلَ وُجَهائِها وُجَهَاءَ على المنطقة الشيعيّة المحيطة بها.

فَقَبْل أنْ تزولَ تأثيراتُ تجربةِ العصاباتِ، تكاثر العدَدُ الشيعي في الجوار، واتّسعَتْ

(٩٢) وبهذا المعنى كان في ادمون رزق جرم حوراني (نسبة إلى أكرم حوراني) صغير: زعامة بورجـوازية صغيـرة تواجه عائلات التقليد السياسي، مستفيدة من تزايد ثقل الأرياف في حياة المدينة وتقرير شؤونها.

(٩٣) المعلومات عن دردغيا من أحد ابنائها الذي رفض ذكر اسمه.

حـركةُ الهجـرة المسيحيّة إلى بيـروت وصور[٩٤] والمُغْتَـرَبات، معطـوفةً على عـدم وجودِ تمثيلٍ انتخابيٍّ للمسيحيين هناك[٩٥]. كلّ هذه العوامل قَلَّصت حَجْمَ وأهمِّيَةَ القـرية التي عُرِفَتْ بالزراعةِ وعَمِلَ أبناؤها «معلمي عمار» في سائر القرى الجنوبيـة، من دون أنْ يَكُفُّوا عَن ممارسة تقليد في البناء يُجيـدُه أهل دردغيـا يقوم على تَسْـوِيرِ البيـوت التي يبنونهـا لأنفسهم وكأنَّهم مهجوسون بالحمايةِ والبحْثِ عنها.

(٩٤) في مدينة صور نفسها ظهر حزب الكتائب منذ ١٩٣٨ في الوسط المسيحي، وذلك «بعـد أن قام اليـاس ربابي بتأسيس فريق رياضي من عشرين لاعباً تحولوا فيما بعد إلى أعضاء فاعلين في حزب الكتائب». حسن دياب، **تاريخ صور الاجتماعي، ١٩٢٠ ـ ١٩٤٣**، دار الفارابي، ١٩٨٨، ص ١٧٩.

(٩٥) خصوصاً بعدما فصلت دردغيا عن قضاء الزهراني الذي يحظى بمقعد للـروم الكاثـوليك، وضُمَّتْ إلى قضـاء صور.

الفصل الثالث

بيار الجميل «الفاشي»؟

معَ الشَّهابيةِ، إذن، بدأتِ الأطرافُ تُنافسُ المركزَ على الصَّدارةِ الكتائبيَّةِ، كما نافستِ القرى والبلداتُ الصُغرى ومعها التعليمُ الأهليُّ والإنتاجُ الهامشيُّ المتراجعُ، المدنَ والبلداتِ الكبرى والإنتاجَ المُتوسِّعَ والتعليمَ الأجنبيَّ والموقعَ البارزَ في التَّراتبِ الأهليِّ. كذلك شرعتِ العِصاميةُ والطموحُ البورجوازيانِ الصغيرانِ يَحُلانِ في القيادةِ وتحلُّ معهما نبرةُ «التعايش» الشعبويةِ الّتي لم تَعُزْ الشَّطارةُ الأنتهازيةُ بعضَ حامليها والمفيدينَ منها. ولم تكن النبرةُ المذكورةُ غير واجهةٍ تنطَوي وراءها بيئاتُ المناطقِ على إحباطاتِها الإجتماعيةِ وميولها إلى العنفِ وتجاربها المريرةِ في... التَّعايش.

ولم يكن حزبُ الكتائب في هذا غيرَ عيِّنةٍ على حالاتٍ حزبيَّةٍ «حَداثيَّةٍ» لعبت أدواراً أشدَّ خطورةً وأكثر راديكاليَّةً في العالمِ العربيِّ، بحيث تَرافقَ تركيزُها المبالغُ فيهِ على «الشَّعب» و«الوَحْدَة» مع تفسُّخٍ وسيطرةٍ فئويَّةٍ لم يكن الحزبُ الوحدويُّ نفسُهُ بمنأى عنهما[1].

بهذا المعنى اندمجَ في الكتائب، إبَّان العهد الشَّهابي، مُستويانِ من الوعي الأيديولوجي والقِيميّ يتّصف كلّ منهما بعددٍ من الملامحِ وإن تقاطعا عند بعضِ النقاط والمنعطفات كما سنرى لاحقاً.

أما المستوى الأول، الطائفيّ والبيروتيّ ـ الجبليّ، فكان صريحاً في إعلانِ اللبنانيينَ طوائفَ، مَرناً ـ برغم تطرفه الفولكلوري ـ في إبداء رغبته بالتوصل إلى تسويةٍ بينها. كذلك فهو لم يَكن قومياً بل بدا أقربَ إلى وعيٍ مسيحيٍّ ديمقراطيّ معاقٍ تندمجُ فيه أبرشيةٌ كَنَسِيَّةٌ ضيقةٌ، وإبقاءٌ لُلعنفِ كاحتمالٍ يَرتبطُ ظهورُه بانهيارِ التسويةِ واضطرار المسيحيينَ إلى حمايةٍ تعجزُ الدولةُ عن توفيرها. ولم يكن وعيٌ كهذا لِيتعارضَ مع مقدِّماته المُجْتَمَعِيَّةِ في الجبلِ وبيروت، حيثُ قاعدةُ اقتصادِ الخدماتِ الكوزموبوليتي، ولا مع احتمالِ الإقتراب من مِنَصَّةِ الدولةِ المرنةِ شِبْهِ الفيدرالةِ بصفتِهِ التمثيليةِ المذكورةِ.

ومع تفاؤلِهِ هذا، فإنَّ عنصرينِ في هذا الوعي، هُما الإرث الرّيفيُّ والخوفُ، جعلا

---

(١) في سبيل حالة حزب البعث في سورية، انظر Nikolaos Van Dam, *The struggle for power in Syria*, Croom Helm, London.

طائفيَّتَهُ الرأسماليةَ مسكونةً بتضامنٍ عشائريّ أو مشرعةً عليهِ كاحتمالٍ دائمٍ، الشيءُ الَّذي قرَّبهُ في أزمنةِ الفوضى والقلقِ من المستوى الثَّاني.

وأما الأخير الَّذي تزايدتِ العلاماتُ على نفوذِهِ في المختبرِ والتجربةِ الشّهابيين، ففي كنفِهِ نمت مفاهيمُ ومصطلحاتُ «العلم» و«الحداثة» و«العصر» و«الإيمان» (؟)(٢).

لقد قامَ الوعيُ هذا على تزويرِ تَعَصُّبِ البيئاتِ الطرفيةِ ذاتِ النَّمطِ شبهِ العشائريّ وسَكْبِ إحباطاتِها في قَالَبٍ دمجيّ، قَوميّ لبنانيّ، مرةً، وعلمانيّ مرَّةً أخرى. كلُّ هذا فيما كان انفتاحُ أبوابِ الدولةِ أمامَ النُّخَبِ الكتائبيةِ في الأطرافِ يُفاقم الطابَعَ الانتهازيَّ لعمليةِ التزويرِ كما تجلوها تجاربُ الكثيرينَ من الكتائبيين مِمَّن صعدوا إلى القيادةِ بعد ١٩٥٨(٣).

الراهنُ أنَّ الكتائبَ اتسَّعت بتكوينِها وإيديولوجيتِها الأصليين، كحزبٍ مقبلٍ على الدَّولةِ التَّعايشيةِ ونظامِهَا، وكحامٍ للجماعةِ في آن، لِمرونةٍ تتيحُ لها أن تُلبّيَ غرضينِ غيرَ مُتكافئينِ أو حتّى متنافرينِ أحياناً. ولَئِن نجمَ ذلكَ عنِ التعارضِ الكامنِ في مقدِّماتِ الحزبِ نفسِها، فذلك لا يعدو كونَهُ صدىً وتعبيراً عن استحالةِ إنماءِ تجربةٍ تعايشيَّةٍ بين الطوائفِ أو الجماعاتِ، على الغرارِ السّويسريّ، في العالمِ العربي الذي يبقى الخوفُ سَيِّدَ «السياسةِ» عند أقليَّاته الخائفةِ، والمستقويةِ على خوفِها بذاكرةِ الأرضِ التي لا تموت.

إزدواجُ الوطنيَّة

مِن البديهي أنَّ الَّذين أطلقوا تسميةَ «فاشيّ» على الكتائب، فاتتهم المعرفةُ الفعليةُ بالفاشيَّةِ والتي ينهضُ شرطُ وجودِها الأوَّل على تحقق درجةٍ بعيدةٍ من الوَحْدَةِ في المجتمعِ - الأمَّةِ (الصيغةُ الألمانيةُ) أو عبر الدَّولةِ القوميةِ (الصيغةُ الإيطاليةُ). ولا يُغَيِّرُ كثيراً، في ذلك، أن يكونَ توكيدُ هذه الوحدةِ، الدّينية أو العرقية أو القومية، علامةً على التلكوءِ عن إنجازِ التوحيدِ السياسي والتغلب على المسألةِ الزِّراعيةِ كما كانت حالتا المانيا وإيطاليا.

والحقُّ أنَّ هذه السِّمةَ، أي الجمعَ بين تحقق الوَحدَةِ والتَّوكيدِ المبالغِ فيهِ عليها، هي سِمةُ الرأسماليّاتِ الَّتي تأخر تشكيلُها وقيامُ وحداتها السياسيةِ إلى النصفِ الثَّاني مِن القرنِ الماضي. بمعنى آخر فإنَّ تعابيرَ الإعجابِ بالقوةِ ورموزِها، وهي موجودةٌ حتماً في الكتائبِ، لا تسمحُ وحدَها بإطلاقِ مثلِ هذا الوصفِ على تنظيمٍ لعبَ التكسرُ

(٢) وجد «الإيمان» في المستوى الأوّل كنسياً ولاهوتياً وإلى حد ما صوفياً، اكثر منه دعوة وحضّاً سياسيين.
(٣) راجع في الفصل السابق تجارب جورج سعادة وجوزيف الهاشم وأدمون رزق وغيرهم.

المُجْتَمَعِيُّ الدينيُّ دوراً أساسيّاً في إطلاقِه.

وقد لاحظَ مبكراً ألبرت حوراني بصددِ معظم تلكَ الحركاتِ شبهِ العسكريةِ التي عرفها المشرقُ العربي في الثَّلاثيناتِ، وهي كثيرةٌ، أنَّه «حتّى حينَ كانتِ الحركاتُ الشَّبابيةُ تتخذُ شكلاً شِبهَ عسكري، فهذا لم يعنِ بالضَّرورة أنَّها كانت فاشية. لقد كانت فقط تحاولُ أن تلبّي بعضَ الحاجاتِ الإنسانيةِ الّتي تتمُ تلبيتُها في بُلدانٍ أغنى عبرَ أيامِ الاحتفالاتِ الوطنيةِ وعبر الخدمةِ العسكريةِ ومنظَّماتِ التَّطوعِ»(٤).

وفي حالَةِ الكَتَائِبِ تحديداً كانت الحاجَةُ إلى حمايةِ الطَّائفةِ معطوفةً على هذا التَّوقِ العامِ إلى الشَّكلِ الحديثِ والنظامي. بَيدَ أنَّ «الطائفةَ» تنتمي، بتعريفِها، إلى صعيدٍ اجتماعي - تاريخي يصعُبُ ربطُه بذاك الَّذي تنجُمُ عنهُ الأزماتُ الوطنيّةُ الشَّاملةُ كتلكَ التي أوصلت الفاشيَّاتِ الإيطاليَّةَ والألمانيَّةَ والأسبانيَّةَ إلى حُكم بلدانِها في العشريناتِ والثَّلاثيناتِ. وأبرزُ تلك الأزمات التي لا يوفِّر التَّاريخُ اللبناني الحديث إلاَّ هياكلَ عَظْميَّةً عنها، ذاك الإحتقان الضَّاغطُ الَّذي أصابَ الطبقاتِ الوسطى الأوروبية بعد أحداثٍ جسامٍ كالرُّكودِ المالي وما سبَقَه من خروجِ روسيا من السوقِ العالميةِ إثر قيامِ الثورةِ البلشفيةِ في ١٩١٧، نَاهيكَ عن الحربِ العالميةِ الأولى وما أمْلَتْهُ من دُيُونٍ وصلحِ فرساي المُذِلِ لألمانيا، فضلاً عن عجزِ المانيا وإيطاليا عن إيجادِ مستعمراتٍ تليقُ بمصالِحِهما ومزاعِمِهما القومية.

لهذا كانت النبرةُ الكتائبيةُ التي تصور الإنقسامَ المُجْتَمَعِيَّ وتُثير ضرورةَ «حمايةِ» المسيحيينَ أو تقترحُ التَّعايشَ علاجاً، عديمةَ الصلةِ بالنبرةِ الفاشيَّةِ الهجوميَّةِ التي تستندُ إلى «وَحدةٍ» مبالغٍ في توكيدِها(٥). بحيث يرى انتليس أنَّ الكتائبَ «على عكسِ مثيلاتِها في مِصرَ وسورية والعراق، إفتقرت إلى المواصفاتِ الهجاسيةِ واللاَّعقلانيةِ التي اتَّجهت تلك الحركاتُ الفاشيَّةُ الجديدةُ لأن تتسمَ بها. فلم يكن هناكَ توكيدٌ على التفوقِ العُرقيّ كما أنطوت عليه عقيدةُ أنطون سعادة في القوميَّةِ السُّوريةِ ولا على طلب السُّلطةِ أو الحكم التوتاليتاري [...] وحتى جهازها شبهِ العسكري عكسَ سعياً وراءَ النظامِ أكثر ممَّا وراء السلطة»(٦). بدورِهِ فإنَّ أنطونَ سعادة نفسَه إتّهم الكتائبَ بأنَّها في اهتماماتِها العسكريةِ لا تفعل غيرَ محاولَةِ تقليدِ حزبِه(٧)، وهي تبقى اهتماماتٍ سطحيَّةً وسخيفةً في آخرِ الأمرِ كما تدلُّ إلى ذلك وثائقُ الشرقِ الأوسطِ البريطانية عن تلكَ الفترة. ففي نظرِ سبيرز، مثلاً،

(٤) Albert H. Hourani, *Syria and Lebanon. A political Essay*, Librairie du Liban and Lebanese Bookshop, 1968, p. 196. المعروف أن الكتائب اعتمدت منذ ١٩٥٢ تسمية «الحزب الديمقراطي الاجتماعي» لكن الاسم الأصلي ظلّ الغالب.
(٥) راجع: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p 45.
(٦) *Ibid.*, p. 51.
(٧) انظر: سعادة، أعداء العرب اعداء لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٢٠.

أمكن تشبيهُ الكتائب والنَّجَّادة بـ «منظماتِ الكشَّافةِ في الإمبراطوريةِ البريطانية». إنهم يتميَّزون بالصدقِ وبالنزاهةِ في المسائلِ الماليةِ (في بلدٍ تعمُّ فيهِ الرشوةُ) وبالحرصِ على خدمةِ بلدِهم»، ومع أنَّ المنظمتينِ «ليستا معاديتينِ للدستورِ والديمقراطيةِ، ولكن حيث أنّهما تتكونانِ من الشَّبيبةِ المتحمِّسةِ فإنَّه لا يمكن استبعادُ التطرفِ والطَّيشِ من سلوكِهمَا»[٨].

أبعد مِن ذلك، رتَّب البُعدُ الإنقسامِيُّ للتَّشكيلِ الطائفيِّ اللبنانيِّ ميلاً كتائبيّاً لا تنقُصه الواقعيةُ إلى إغفالِ البُعدِ التوحيديِّ المزعوم لـ «الأمة» و«القوميَّة»[٩]، علماً أنَّ البعدَ المذكورَ هو عمادُ الفاشيةِ الأيديولوجية لجهةِ استنجادِها بالأسطورةِ والتاريخِ وما قبلَ التاريخِ لاستخلاصِ وجهةٍ واحدةٍ من ذلك كلِّه. وفي مقابلِ الصورةِ الفاشيةِ الورديةِ عن الأمةِ والوطنِ، لم يكتمِ الكتائبيونَ، مباشرةً أو مداورةً، قلَّةَ ثقتِهم بالتكوينِ المُجْتَمَعيِّ اللبنانيّ وحاجتَهُم المهووسةَ أحياناً للحصولِ على الإطمئنانِ حيالَ انقلابِ هذا التكوينِ إلى مصدرٍ دائمٍ للخطرِ. أي أنهم في هذا، ابتعدوا كثيراً عن الصورةِ السوريةِ للأمةِ والشَّعبِ اللّذَينِ ينطويانِ على «كل الحقِّ والخيرِ والجمال»، فلا تشذُّ فيهما غيرُ حفنةٍ من «يهود الداخل». وبرغمِ العناصرِ الجسديةِ والحمائيةِ والرمزيةِ وشبهِ القوميةِ الّتي عبَّرت عن نفسِها بأشكالٍ متفاوتةٍ في التاريخِ الكتائبيّ، ظَلَّ التوكيدُ الطاغي في «العقيدةِ» الكتائبيةِ ينصَبُّ على ما هو مُجافٍ لتلك العناصر[١٠]. فقد رأى أمين ناجي، برغمِ إشاراتٍ قليلةٍ مغايرةٍ، أنهُ «ليس في الشّعورِ القوميِّ ما يناقضُ في طبيعتِهِ النظرةَ والقيمةَ الإنسانيَّتين. ولكنَّ الشعورَ القوميَّ متى خرجَ عن سياقهِ الإنسانيِّ جرَّ القوميينَ إلى مهاوي التعصب فالإنزلاقِ في مفاهيمَ خاطئةٍ [...] أنَّ الشعورَ القوميَّ يتَأنسنُ أكثرَ فأكثرَ مع تقدُّمِ البشريةِ العام [...و] الإنسجامُ المنشودُ لا ينتجُ فقط عن الإنتماءِ إلى مجتمعٍ قوميّ واحد. قد تقومُ دوافعُ أخرى لها وقعُها الأقوى في نفوسِ النَّاسِ فتتخطّى الشُّعورَ القوميَّ»[١١].

ويرى كتائبيٌّ آخر نيطَ بِهِ التعريفُ بحزبِهِ خلالَ الفترةِ نفسِها، أنه «من جهةٍ مبدئيَّةٍ نعتبرُ أن القوميَّةَ اللُّبنانية هي واقعٌ طبيعيّ. ومن جهةٍ علميةٍ نعتبرُ أن العلمَ قد تخطّى نظريةَ القومياتِ كلِّها. هذا الأمرُ أمرٌ عاطفيٌّ لا يتناسبُ مع تطوراتِ العلمِ الحديثِ». ويُضيف الشارحُ الكتائبيُّ بلغةٍ أكثر انشِداداً إلى المنطلقاتِ منها إلى العناصرِ المستجدَّةِ

(٨) «وثائق الشرق الأوسط»، عربها ونشرها رغيد الصلح في مجلة **التضامن** في ١٩٨٣/١٠/٨.

(٩) سبق لمنفرد هالبرن، بين آخرين، ملاحظة أنّ لبنان هو «بين عدد من الدول في الشرق الأوسط التي هي مستقلة من دون أن تصبح، حتى الآن، قومية»، والدليل على ذلك قيامه على «تعايش الجماعات الأثنية والدينية». Manfered Halpern, *The Politics of social change in the Middle East and North Africa*, Princeton University press, 1965, p. 203.

(١٠) شهدت الستينات الشهابية محاولة وضع «عقيدة» للحزب بما تثيره الكلمة من أصداء لجوجة شبه توتاليتارية.

(١١) أمين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتائبية**، منشورات الكتائب اللبنانية ١٩٦٩، ص ٤٦ ـ ٤٧.

في الصراعِ السياسيّ: «فالحديثُ عن القوميةِ اللبنانيةِ، أو عن أيَّةِ قوميةٍ أخرى إذا اقتضاهُ واقعُ الحالِ أحياناً، فإنه حديثٌ لم يعد يحمِلُ الإيمانَ الكافي، لأننا نعتبرُ أن العصرَ قد تجاوزَ هذه النظرةَ البدائيةَ للأمة»[١٢].

بدورِهِ كان الفهمُ الكتائبيُّ لـ «الشَّعب»، ومنذُ البدايةِ، موضوعاً لتشوُّشٍ عملت الأفكارُ وتركيبةُ الواقعِ اللبنانيّ وحساسيّاتُهُ على إنتاجِهِ:

ناحيةٍ «الشعبُ اللبنانيُّ» المُقيمُ في الوطن والمؤلّفُ من طوائفَ ينبغي لها أن تتعايشَ، لكنَّ «الشعب» من الناحيةِ الثانيةِ كتلٌ لكلٍّ واحدةٍ منها معاييرُها شبهُ المطلقةِ بما يستدعي التضامنَ داخلَ الكتلةِ، وبحثَ الكتلةِ عن امتداداتِها في «المَهَاجرِ» للإستقواءِ بها على الكتلِ الأخرى وضمانِ الحِمَايةِ الذّاتيةِ لها.

فقد أوكِلَ للمهاجرينَ ذوي الأكثريةِ المسيحيةِ، تقليديّاً وعددياً، تخفيفُ حدَّةِ «الشَّعب» من جهة، وتوكيدُها من جهةٍ أخرى. وجرياً على نزعةِ تدخُّلُ دينيتُها ومذهبيَّتُها في صنعِ قوميَّتِها، وهي النزعةُ التاريخيةُ التي لا تزال الحركةُ الصهيونيةُ نمطَها البدئيَّ وأهمَّ تعابيرِها، لَحَظَ حزبُ الكتائب على الدَّوامِ دوراً بارزاً للمهاجرينَ في صَوغِ الحياةِ السياسيةِ اللبنانيةِ، خصوصاً لدى طرحِ مسائلِ الاقتراعِ والإستفتاءِ وتحديدِ الأكثريةِ والأقليةِ وغيرِ ذلك من قضايا خِلافيةٍ مع المسلمين.

وفي تضافرٍ لافتٍ لنزوعٍ رأسماليّ كونيّ يتعدّى القومية، ومنافسةٍ مع المسلمينَ، عصبيَّةٍ عشائريَّةٍ ضاريةٍ، تهبط إلى «ما دونها»، كان للحزبِ مساهماتُه الملحوظةُ في الحقلِ الإغترابيّ، بما يحاولُ استكمالَ جَهدِ الدَّولةِ التي شاركته أيديولوجيا الإغترابِ واتُّهِمَت بالتقصيرِ في تأمينِ مستلزماتِها. هكذا عقدت الكتائبُ باشتراكٍ مع «نادي المهاجرينَ» مؤتمرَ «لبنان المغترب» الأولَ في زحلة وبهذا دَشَّنَ الحزبُ لوناً من النَّشاطِ «المجتمعيّ» كان محصوراً في الحكومةِ حتى حينِه[١٣]. وفي ١٩٤٩ توجَّه إلى مغترباتِ أفريقيا وأميركا الشَّماليَّةِ والجنوبيَّة وفدٌ كتائبيٌّ قضى في تلك الأقطارِ أكثرَ من أربعةِ أشهر، وعندَ عودتِهِ حاضرَ أحدُ أعضائه في «النَّدوةِ اللُّبنانية» فرأى أنَّه «لا يَألَمُ المُغتربون لشيءٍ مثلهم للمداولاتِ الرَّاميةِ إلى التنكر لهم أو الإفتئاتِ على حق من حقوقِهم، وفي مقدِّمتها الرغبةُ في الحيلولةِ دونَ تمتُّعهم بجنسيَّتِهم اللبنانيةِ، تلك الجنسية الّتي ضحُّوا بالغالي والرخيص في سبيلِ الاحتفاظِ بها والإبقاءِ عليها»[١٤].

(١٢) رشاد سلامة، «حزب الكتائب اللبنانية»، محاضرة منشورة في: النادي الثقافي العربي، **القوى السياسية في لبنان**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٧.

(١٣) انظر إلياس ربابي، «من وحي رحلة الكتائب إلى المغتربين»، محاضرة في **الندوة اللبنانية**، ٢٥ آذار ١٩٤٩، ص ٨١.

(١٤) المرجع السابق، ص ٧١ ـ ٧٢.

واقع الأمر أنَّ التركيزَ الكتائبيّ على الهجرة، مَثَّلَ في أحدِ وجوهِهِ، عنصرَ تخفيفٍ لـ «أيديولوجيةِ الأرض»، و«قوميةِ الأرض» بذاتِهما، كما يحضرانِ في متوسِّطِ الأدبِ السِّياسيّ والاجتماعيّ المسيحيّ. وغالبُ الظنِّ أنَّ النبض المدينيّ في الكتائب جعلَ «الأرضَ»، وهي قيمةٌ زراعيةٌ معطاةٌ وجاهزة، تواكبُ قيماً حديثه واختياريةً، كـ «الحريةِ» مثلاً، فلا تتقدم وحدها كما ظهرت مع أنطون سعادة[١٥]. فإذا كان التيَّار المسيحيّ العريض قد جعلَ أرضَ الجبلِ «محكّاً للتّمييز»[١٦] بما يستبعدُ الإختيارَ الإنساني، فإنَّ الكتائبيةَ مارست هذا التّمييزَ انطلاقاً من كونِ «الأرض» قاعدة لخياراتٍ أخرى (بلدُ جميع الأديان، الملاذُ، الحريةُ، المبادرةُ الفردية، البرلمان) تتعدّى المُعطى الجغرافي.

ومن قبيلِ حلِّ التناقض بين اللبنانيةِ شبهِ القوميةِ وبين التعويل على الهجرة، كان لا بدَّ من استدخالِ الهجرةِ، والإصرار، تالياً، على دورِ للمهاجرينَ اللبنانيينَ في لبنانَ نفسِهِ، بما حملَ أحَدَ دارسي الأحزابِ اللبنانيةِ على القولِ إنَّ الكتائبَ «تواجهها مفارقةٌ لا تبدو على بينةٍ منها، إن لم تكن رافضةً الإعترافَ بها. والمفارقةُ ناجمةٌ عن زعمِها أنَّ كلَّ الناسِ الذينَ يعيشونَ في لبنان الحاضرِ قد فقدوا طابَعَهم الأصلي ليصيروا جزءاً من الأمَّةِ اللبنانية. ومع هذا فعندما يهاجرُ أيٌّ منهم للعيشِ في بلدٍ آخرَ فلسوف يستحيلُ عليه أن يفقدَ طابَعَه اللُّبناني»[١٧]. ولا يَنْتَقِصُ من تسجيل مايكل سليمان هذه الملاحظة أنهُ يُبالغُ قليلاً حينَ ينسبُ إلى الكتائبِ اعتبارَها «كلَّ من يعيشونَ في لبنان الحاضرِ قد فقدوا طابَعَهُم الأصليّ».

وفي تفسيرٍ أيديولوجيّ كتائبيّ يُحاول أن يتجاهلَ مسألةَ التوازناتِ العدديةِ ويلتفَّ عليها، كتبت «العمَل» في شرحِ الإهتمامِ الكتائبيّ بالاغتراب: «تبنَّت الكتائبُ اللبنانيةُ قضيةَ المغتربين لأسبابَ ثلاثة: الأول أهمية المغتربينَ في إنجاحِ القضيةِ اللبنانيةِ، والثّاني أنَّ مستقبلَ «اللبنانيةِ» في المَهاجر يبدو كالِحاً، والثالث أنَّ المغتربينَ هُم الإمتدادُ العالميّ للبنان المقيم»[١٨].

من ناحيتها فإنَّ الصهيونيةَ كحالةٍ سياسيةٍ ـ إيديولوجيّةٍ لم تخلُ هي أيضاً من تناقضٍ تعجزُ عن حلِّه تبعاً لاندماج طابعيها «ما دونَ» القوميّ و«ما بعدَه». فتأويلُها للتّاريخِ انطلاقاً من تجربتِها (ورغبتها) يقودُها إلى اعتبارِ «التجمُّعِ خارجَ الوطنِ أمراً سائراً في العصورِ القديمةِ: فالفينيقيونَ واليونان أقاموا مستعمراتٍ تربطُها بالوطنِ الأمِ وحدةُ اللسانِ والعاداتِ والدينِ. وكان اليهودُ في بابل ومصر وآسيا الصغرى يُشبهونهم

(١٥) انظر بصدد أنطون سعادة و«قومية الأرض» عنده، وكذلك بصدد جواد بولس: أحمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان**، سبق الاستشهاد ص ٢٥، ٣٠، ١٠١ ـ ١١١.

(١٦) انظر المرجع السابق، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(١٧) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 242-243.

(١٨) **العمل** عدد خاص عن الكتائب في ١٩٨٥/١١/٢٧.

في ذلك، على فارقٍ جوهريّ هو التعلقُ بأرضِ إسرائيل»[١٩]. إلَّا أنَّ هذهِ الثبوتيةَ النَّازعةَ إلى قوميةٍ صارمةٍ اشتهرت بها الصهيونيةُ، لا تنفي تبعاً للسب نفسِه، إقامةَ كيانٍ شديدِ التعدُّد في مصادرهِ القوميةِ، أي قليل القوميةِ بالمعنى الكلاسيكيّ للكلمةِ بما يجعلُه نوعاً من «ولاياتٍ متَّحدة» مصغَّرة.

على أيةِ حالٍ، فلئن أكَّد التَّركيزُ على دورِ المغتربينَ في الوطنِ الأم على الخصوصيةِ المبالغِ فيها للحالةِ اللبنانيةِ، من حيثُ تعدديةِ الطوائفِ والنظرِ إلى المسائلِ المُجْتَمَعِيَّةِ والفكريةِ مخففةً من حدَّةِ لونِها القوميّ، فهذا لا يُلغي أنَّ مسألةً خلافيةً تطالُ جانباً من جوانبِ تقريرِ الوجودِ نفسِه، أي الإحصاء، كانت قابلةً دائماً لإضفاء شحناتٍ من التوترِ على النزاعاتِ، خصوصاً أنَّ المسائلَ الخلافيةَ عموماً لم ينضبط تناولُها ضمنَ القنواتِ السياسيةِ والدستوريةِ كما انضبَطَ في إسرائيل.

«على يَسَارِ» الطائفة

صحيحٌ أنَّ الفاشيَّتينِ الإيطاليَّةَ والألمانيَّةَ وصلتا إلى السلطةِ في بلدَيهما عبرَ توسُّلِ الحياةِ الدستوريةِ البرلمانيةِ، لكنَّ شكلَ التعايشِ التَّجَمُّعِيِّ في العهدِ الشهابيّ معطوفاً على أفكارِ التحديثِ، (وليس قيادةَ «الأمةِ» في حالتِها الموحَّدةِ) هو ما لعبَ الدورَ التقريريّ في مشاركةِ الكتائبِ في الحياةِ السياسيةِ وصولاً إلى الإذعانِ لدورتِها ومنطِقِها بعيداً عن العنفِ ومراكمتِهِ والتلويحِ بهِ. وينعكسُ هذا الفارق غيرُ البسيطِ على التفاصيلِ التنظيميةِ، إذ في حين أنَّ الميليشيا هي الأساسُ التنظيميّ في الأحزابِ الفاشيَّةِ الكلاسيكية، تبقى «الفرقةُ» شبهُ العسكريةِ على هامشِ التنظيمِ الكتائبيّ الذي يشكِّل «القِسمُ» وحدتَه الأساسية[٢٠]، أي أنَّ الأشكالَ الموازيةَ للدولةِ وأجهزتها لا تحتل في الكتائبِ إلا أهمية نسبية جداً، واستثنائية الطابع، إذا ما قِيسَت بالأهمية التي تحتلها في التنظيماتِ الفاشية.

لقد كانَ هذا الإذعان لدورةِ الحياةِ السياسية تعبيراً عن الإلتزامِ بعقدِ «الصيغةِ والميثاق» الذي بدأتِ الكتائبُ معَهُ تتحولُ إلى «السياسةِ» بحسبِ التحقيبِ الرسميّ الذي اتبعتهُ من دونِ أن تعني «السياسة» حتى تلكَ اللَّحظة، أيّ تجاوزٍ لمبدأ الإحالةِ إلى الدَّولة

(١٩) شمويل أتينغر، «الشعب اليهودي وأرض إسرائيل»، في: **من الفكر الصهيوني المعاصر**، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٨، ص ٣٧.

(٢٠) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 236-238.
وهو ينقل رأياً كتائبياً (سابقاً على الحرب الأهلية طبعاً) مفاده أنَّ «الفرق» العسكرية لم تكن دائماً موجودة في حياة الكتائب. أنظر، كذلك، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، و«العمق البشري والإداري في الكتائب» في: **العمل**، في ذكرى التأسيس ١٩٨١/١١/٢٩، وJohn. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p 94.

والضغطِ عليها مِن خارجها ومن موقعِ التَّحالف معها.

أما العقدُ في عُرفِ الكتائب، فيقبلُ الاختلافَ والتنوعَ شريطةَ أن لا يذهبا بصاحبيهما إلى حدودِ الطعنِ في مرتكزاتِ الوطنِ اللبنانيّ، وفي صدارةِ المرتكزاتِ نهائيَّةُ الكيانِ والدولةِ. ففي مثلِ هذا الذهابِ إنكارٌ على اللبنانيّ» حقَّه بالسيادة» واستكثارٌ عليه «أن يكونَ له كيانٌ مستقلٌ ودولةٌ تمارسُ واجباتِ وحقوقَ السيادةِ في نطاقِ المصلحةِ العليا»[٢١].

وما ينبغي تسجيلُهُ هنا، وعلى الضِّد من الخرافةِ السائدةِ التي تعزو كلَّ تطرُّفٍ مارونيّ إلى الكتائب[٢٢]، أن الأخيرةَ غالباً ما ساقها الوفاءُ بالتزامِها هذا إلى مواقفَ «على يَسار» الموقفِ الجماهيريّ للطائفةِ المارونية[٢٣]، خصوصاً في الأطراف، حيالَ مسألةِ الوحدةِ اللبنانية. وهذا ما حَاول كَريم بقرادُوني أن يقولَه، بطريقتِه، حينَ رأى من خلالِ معاينتِه لسنواتِ ما بعد ١٩٦٠، أنَّ بيار الجميل الَّذي لم تقلقْهُ أيُّ معارضةٍ مارونيةٍ «على يساره» كانَ يتخوفُ «من كلِّ راديكاليةٍ على يمينِه لئلا تُفقده مكانَتَه. وهكذا كانتِ المنافسةُ مع كَميل شمعون دائمةً»[٢٤]، نظراً لأنَّ «يمينيَّة» هذا اليمينيّ الراديكاليّ تَقَعُ على أرضٍ خصبةٍ في مجموعِ الطائفةِ المارونيةِ، موضعِ التنافسِ.

فالحوارُ بين المسيحيةِ والإسلام، وبين المسيحيينَ والمسلمينَ، ظلَّ على الدَّوامِ هاجساً كتائبياً وإن تعدَّدت تعبيراتُه وصورُه. وحتى إبانَ الحربِ الأهليةِ بوصفِها أعلى درجاتِ انقطاعِ الحوار، والإحتكامِ تالياً إلى العنف، كان التصريحُ اليوميّ لبيار الجميل نوعاً من ديالوغ مملٍّ يتمحورُ حولَ أسئلةٍ ثابتةٍ موجَّهةٍ للمسلمين («أيُّ لبنانَ نُريد؟») مرفقةٍ بمراجعاتٍ تطالُ الماضي والحاضرَ والمستقبلَ («هل نكفُر بالصيغةِ والميثاق؟»)، («أما من رياض صلح آخر؟» إلخ). ذلك أنَّ لبنان في العرفِ الكتائبيّ «لم يكن يوماً حِمى لأبناءِ دينٍ معيَّنٍ، ولا أرادهُ المحتمونَ بجِبَالِهِ وطناً مذهبياً أو عنصرياً، لأنهم لم يكونوا

(٢١) بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، الكتاب الأوّل، سبق الاستشهاد، ص ٦١.
(٢٢) أغلب الظن أن مصدر هذه الخرافة كامن في الرفض الإسلامي التقليدي لفكرتي «الحزب» و«التسوية»، أو على الأقل استغرابهما، وهو رفض سبق له أن تزامل مع انهيار التجارب التنظيمية التي ولدت في وقت واحد تقريباً مع الكتائب كـ «النجادة» السنية، وبدرجة أقل، «النهضة» و«الطلائع» الشيعيتين. إنعكس هذا الواقع في التمثيل البرلماني إذْ لو اكتفينا بما تقوله الأرقام، وصل إلى البرلمان اللبناني في ١٩٥١ و١٩٦٠ و١٩٧٢ عشرة نواب مسيحيون حزبيون مقابل خمسة مسلمين حزبيين، و٢٣ مقابل ٨، و٢٥ مقابل ٩ على التوالي. عن: Ghassane Salamé, *Lebanon's injured identities*, Centre for Lebanese studies, Oxford, 1986, p. 14.
(٢٣) في سبيل تعقّب الجذور التاريخية لهذا الموقف الجماهيري، راجع: وضّاح شرارة، **في أصول لبنان الطائفي ـ خط اليمين الجماهيري**، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٥.
(٢٤) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١٣.

يوماً من عرقٍ واحدٍ أو دينٍ واحدٍ، بل مجموعة أعراقٍ وأديان القاسمُ المشتركُ بينهما هو الحريّة»[٢٥].

طبعاً لم تزعم الكتائبُ، تبعاً لمقدّماتِها الأيديولوجية، أنَّ اللبنانيينَ متَّفقون دينياً وطائفياً، ولا هي قالت أنَّ الاختلافَ الدينيَّ والطائفيَّ عارضٌ تفصيليّ على غِرارِ اليسارِ التقليديّ أو القوميين العرب والسوريين. لكنَّها، وهي تعملُ في الوسَطِ المسيحيّ والمارونيّ خصوصاً، عمدت إلى التَّمسكِ بحوارٍ يستبعدُ الصورةَ الإيديولوجيَّةَ القاطعةَ عن لبنان، تاركةً لعمليةِ التعايشِ نفسهَا وما يوازيها ويعبّرُ عنها من صيَغٍ دستوريةٍ ومؤسَّسيةٍ، تشكيلَ الحياةِ الاجتماعيةِ والسياسيَّةِ اللُّبنانية.

في الوقتِ نفسِه، فإنَّ «يمينيَّة» الكتائب، بما هي مسارعةٌ في دمجٍ وطنيّ لا مُقَدَّماتٍ مُجْتَمَعِيَّةً لَهُ، بقيت ضامرةً ونسبيةً، ما خلا حالاتِ التوتُّرِ والنزاعِ المفتوح. ففي صياغةٍ متأخِّرةٍ للممارسةِ الكتائبيةِ إبَّان الطورِ التأسيسيّ، حُدِدَ المجتمعُ اللبنانيُّ بوصفِهِ «لم يزل يُعاني من تمزُّقِ وحدتِهِ الوطنيةِ وتطلعاتِه القوميةِ كتعبيرٍ عمليّ عن ثنائيةِ الولاءِ السياسيّ والإنتماءِ الحضاري»[٢٦]، ذلك أنَّ «الثنائيَّة، بكلِّ أبعادِها في لبنان، هيَ المحورُ الذي استقطبَ النشاطَ السياسيّ وموقعَ الحزبِ في بيئاتٍ لم تزل تتحكَّمُ فيها قيَمٌ ومفاهيمُ موروثةٌ [...] فبدلاً من أن تكونَ نشأةُ الأحزابِ محاولةً لِتخطّي هذه الثنائيةِ جاءت تدعيماً لها وتنظيماً لقواها المتصارعة»[٢٧].

وفي محاولةٍ لتَعدادِ أسبابِ النزوعِ الكتائبيّ إلى التسوية، رُبَّما جازَ أن نضيفَ إلى المقدماتِ الإيديولوجيّة، الأثرَ الذي خلَّفَه الموقعُ المدينيّ وشِبهُ المدينيّ للرعيلِ الأول. فالنزاعُ يعني، والحالُ على ما هي عليه، تدميرَ ما حقَّقه لبنان من جرَّاءِ صِلَتِهِ بالغرب، ومن جرَّاءِ مقاطعةِ العرب لإسرائيل (ولميناءِ حيفا) منذ ١٩٤٨، وهَرَبِ الرَّساميلِ العربيةِ منذ ١٩٥٢ إليه، واتجاهِ الكثيرِ مِنَ العائداتِ النفطيةِ العربيةِ نحوَه، مباشرةً أم مداورةً، وفوقَها تحويلاتُ المهاجرينَ اللبنانيين. ولم يكن الكتائبيونَ، على تعدُّدِ مواقعِهم المهنيةِ البورجوازيةِ والبورجوازيةِ الصَّغيرةِ الحديثة، بعيدين عن الدورةِ الإقتصاديّةِ الَّتي أطلقتها العواملُ المذكورةُ ولا عن المؤسساتِ الَّتي نشأت تبعاً لها.

في هذا الإطار رأينا الكتائب، بعد محاولةِ توفيقٍ صعب بين الرئيسينِ إميل إدّه وبشارة الخوري، تنحازُ إلى الثَّاني في رهانِهِ الإستقلاليّ بالتعاونِ مع رياض الصلح، علماً بأنَّ المزاجَ الشعبيّ المارونيّ لم يكن مُؤيِّداً للدستوريين ولا كانَ منحازاً لمطلبِ إنهاءِ الانتدابِ الفرنسيّ ونيلِ الإستقلالِ. فمن أصلِ ١٧ نائباً عن المحافظةِ المذكورةِ نَجَحَ

(٢٥) بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، سبق الاستشهاد، ص ٩.
(٢٦) **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، الجزء الأول، سبق الاستشهاد، ص ٥ ـ ٦.
(٢٧) المرجع السابق، ص ٦ ـ ٧.

أميل إدّه في أنْ يوسسَ تكتُّلًا برلمانياً مُؤَيِّداً لَهُ يضمُّ ١٢ نائباً على الأقل[٢٨]. وفي مقابلِ ذلك كان كميل شمعون «الدستوريّ الوحيد الَّذي نجحَ في الدورةِ الأولى بأصواتٍ فاقت أصواتَ جميعِ النَّاخبين»[٢٩].

هكذا بدَا الموقفُ الكتائبيّ متقدِّماً عن محصّلةِ الموقفِ المارونيّ، في أنَّهُ تجاوَزَ الخوفَ الذي ضَرَبَ الطائفةَ في مركزها الجبليّ الأشدّ تطوُّراً، فضلاً عن أطرافِها، يومَ كانَ الانتدابُ الفرنسيّ إغراءً قائماً ومشاريعُ الوحداتِ السُّوريةِ والعربيَّةِ تهديداً قائماً أيضاً، وذلك قبلَ أن تضمرَ عناصِرُ التشنُّجِ الَّتي أثارتها الحربُ العالميَّةُ الثانيةُ بِما فيها انكشافُ التعاطفِ العربيّ ـ الإسلاميّ الواسع مع ألمانيا النَّازيَّة.

ولم تغِب عن هذا الموقفِ المتقدّمِ فرضيّةٌ واضحةٌ مؤدّاها أنَّ المحاولةَ الإستقلاليةَ تبقى «مجازفةً كبرى بعدَ سلسلةِ المصائِبِ والاضطهاداتِ التي عاناها اللبنانيون عبر تاريخهم الطويل. وكان يترتَّبُ علينا أنَ نحملَ اللبنانيينَ جميعاً على القبولِ بهذِهِ المجازفةِ، وإلَّا كانت زحزحةُ الإنتداب أمراً مُستحيلاً»[٣٠]. وبحسبِ رأيٍ منقول عن الشَّيخ بيار الجميل، فإنَّ ما حسمَ الخَيَارُ الكتائبيّ لمصلحةِ الإقدامِ على «المجازفَةِ» الاستقلاليةِ والانخراطِ فيها، هو معرفةُ الجميل برياض الصُّلح ودورُ الأخير في طمأنتِهِ تبعاً لإدراكِهِ مشكلةَ المسيحيين وخوفِهِم[٣١].

طبعاً كان من ضِمنياتِ الخَيارِ الإستقلاليّ، والتعايشي تالياً، وجودُ درجةٍ من التنافُر مع الإنتدابِ الفرنسيّ، بِرَغمِ ما مثله من حمايةٍ للجمهورِ المسيحيّ العريضِ وما شاب علاقَتَهُ مع الكتائبِ من تعاونٍ ومساعدةٍ. ولقد عبَّر هذا التنافرُ عن نفسِهِ غيرَ مرةٍ، ربَّما كان أبرزُها صدامَ العام ١٩٣٧ من دون أن تختفي طبيعةُ الطرفِ الَّذي يتنافرُ مع الإنتدابِ، أي «الكتائب». فالأخيرة رأت في نفسِهَا مشروعَ «طليعةٍ» للطائفةِ المارونيةِ ولبداياتٍ نُخْبَويَّة بورجوازيةٍ تأنفُ المضيَّ في الخضوعِ لقوةٍ خارجية. وشيئاً فشيئاً راحت الحربُ العالميةُ الثانيةُ، التي تقترِبُ بخطى مسرعةٍ، تُعَجِّلُ في هذهِ الوُجْهةِ، مُطْلقةً عجلةً اقتصاديةً لبنانيةً تنوبُ منابَ الرساميلِ والسِّلَعِ الفرنسيةِ التي حالت الحربُ دونَ وصولِهَا إلى السُّوقِ الصغيرةِ، وتُبَلْورُ مقدماتٍ بورجوازيةً ليست قليلةَ الحضّ على النُخبويةِ والإعتدادِ بالذّاتِ. أضِف إلى ذلك مناخاً عريضاً من الوعودِ والتوقُّعاتِ في صددِ أسواق عربيةٍ جديدةٍ تحملها الإستقلالات، كما في صَدَدِ غربٍ أنغلو ـ أميركي أوسع

(٢٨) انظر: منير تقي الدين، **ولادة استقلال**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣، ص ٤٩.
(٢٩) جوزف نصر، «كميل نمر شمعون»، **النهار** ١٩٨٧/٨/٨.
(٣٠) **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ٢، ص ١٠٧.
(٣١) من المقابلة مع جوزيف أبو خليل.
(٣٢) حول المراكمة المالية وأرباح الحرب الثانية في لبنان، أنظر، بين مراجع أخرى، سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد ص ٧٢ ـ ٧٣.

كثيراً من فرنسا التي كان للحرب بما في ذلك نجاح الألمان في احتلالها «أن أعطت حريةً أكبر للعملِ السياسيّ جاعلة من المُتاحِ لعناصرَ سبقَ أن استُبعِدَت عنِ النِّظامِ السياسيّ، أن تنضمَّ إليه»[٣٣].

وبدورهِ بدا الحِسُّ النخبويُّ الكتائبيُّ المُفْعَم بالشَّبابيةِ، مرشَّحاً لأن يتمردَ على الإمّحاءِ الكاملِ في جسمِ الدولةِ المنتدبةِ والمتزايدةِ الضّعف، فلا يتحالفُ معها التحاقاً ومن موقِعِ العُري الكامل.

وهذا ما يقولُهُ، بطريقتِهِ، أحدُ كتائبيّ الرعيل الأولِ حينَ يتذكَّرُ نزاعَ حزبِهِ مع الانتداب: «كنَّا نعرفُ تاريخَ نابوليون بونابرت ولويس الرابع عشر وجان دارك أكثر ممّا نعرفُ تاريخَ فخرِ الدينِ وبشير الشّهابيّ. وكنّا نعرِفُ التاريخَ الوطنيّ الفرنسيّ أكثرَ مما نعرفُ النشيدَ الوطنيّ اللبنانيّ»[٣٤].

وهكذا، ففيما بين ١٩٣٧ و١٩٤٣ تعرَّضت الكتائبُ للحلِّ ثلاث مرَّات على يدِ الإنتداب. وفي ١٩٣٧ وأثناء التَّصدّي لاحتفالٍ كتائبيّ غير عابىء بالحلّ الأول قتلَ الجنودُ السنغاليونَ كتائبيَّيْنَ وجرحوا ٧٠ بينَهم الشَّيخ بيار نفسُهُ الذي أودِعَ سِجنَ الرمل. وإبَّان العمل الاستقلاليّ اعتُقِلَ الجميل ثانيةً ومعَهُ الياس ربابي و٢٣ كتائبياً، وجُرحَ في التظاهُرةِ ٣٠ كتائبياً آخر. وقد هُدِّدَ الجميل وربابي بالنَّفي إلى برازافيل[٣٥]. إلَّا أنَّ ذاك التمردَ على الإنتداب لم يندرج، بطبيعةِ الحالِ، في نِطاقِ العملِ القوميّ الرَّاديكاليّ المناهضِ للاستعمارِ كما هُدِّدَ سائرُ «العالمِ الثَّالثِ». فالإنجذابُ العاطفيُّ المارونيُّ، النخبويُّ منهُ والجماهيريّ على السّواء، لم يكن الشَّرقُ قِبلَتَه بل الغربُ، فإذا صدَّه الأخيرُ في اندفاعِهِ إلى التَّطابقِ مَعَه، مالَ نخبويُّوهُ إلى وصفِ الصدّ بلغةٍ لا يجانِبُها الإعتدادُ المطلّ على احتمالٍ عنصريّ. فبحسبِ صياغةٍ كتائبيةٍ للنِّزاعِ يومذاك، كان «الجنديُّ السنغاليّ الذي حضَرَ من مجاهلِ أفريقيا [...] يقولُ لنا: أنا جئتُ إلى هنا لأمدِّنَكُمْ»[٣٦].

ولا يسعُنا أن نقدرَ حجمَ الإفتراقِ الكتائبيّ (النخبوي) عن الموقفِ الجماهيريّ للطائفةِ، من غيرِ العودةِ إلى الحادثةِ الشَّهيرةِ في ١٩٤٤ بُعيدَ انتخاباتِ الشَّمالِ الفرعيةِ في ٢٧ نيسان حينَما انتُخِبَ الزغرتاويُّ يوسف كرم قَبلَ أن تجلوَ الجيوش الفرنسيةُ عن لبنان. فبوصولِ كرم إلى بيروت «على رأسِ تظاهُرةٍ مسيحيةٍ مارونيةٍ لم يُسْتَثْنَ البرلمانُ والعلمُ اللبنانيانِ من الاستفزازِ كعلامةِ رفضٍ للاستقلالِ الجديدِ وتمسُّكٍ بالوجودِ

(٣٣) Albert Hourani, *Political society in Lebanon, op. cit.*, p. 13.
(٣٤) من مقابلة مع اسكندر غصن، في **العمل ـ خمسون سنة في خدمة لبنان**، عدد خاص، ١٩٨٦/١١/٢٣.
(٣٥) انظر، بين مراجع أخرى، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية** بجزئيه، سبق الاستشهاد و John. P. Entelis, *Pluralism..., op. cit.*, p. 53-59.
(٣٦) من مقابلة مع اسكندر هاشم (أحد رجالات الرعيل الأول) في: **العمل ـ خمسون سنة...**، سبق الاستشهاد.

الفرنسيّ»[٣٧]. وليسَ بحالٍ عديمَ الدلالةِ، ولو في حدودِ الرمزِ، أن يتمَّ استهدافُ البرلمانِ والعَلَم الجديدِ، أي المكانِ الذي اتُّخِذَ فيهِ القرارُ الاستقلاليُّ والنتاجِ الأولِ لهذا القرار.

وبينما لم يعدم مَن ينسب إلى «الدوائر الفرنسيةِ» تشجيعَها «كرم وأنصاره على اقتحامِ المجلسِ النيابيّ، فأمدَّتهم بالسِّلاحِ والأموال لعلَّهم ينجحونَ في السيطرةِ على الحكمِ. [وقد] رُفِعَ في مقدمةِ التظاهرةِ العلمُ الفرنسيّ والعلمُ اللبنانيُّ القديمُ ثمَّ أراد المتظاهرونَ الدخولَ عنوةً إلى المجلسِ النيابيّ فبدأتِ الإشتباكاتُ»، علَّقَ رياض الصلح وسَامَي استحقاقٍ مذهَّبينِ على صدرِ بيار الجميل «مُشيداً بالخدماتِ التي أدتها الكتائبُ في أحداث تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣»[٣٨]. وبدورها لم تمر الكتائبُ مرورَ الكرامِ على الحادثَةِ التي أثارها يوسف كرم وتظاهرته، فسارعت إلى أن تصدرَ مع النجادةِ «بياناً إلى الشعبِ اللبنانيّ جدَّدتا فيهِ العهدَ أمامَ اللّهِ والضميرِ أن تظلَّا جنديّ استقلالِ لبنان وسورَ كرامَتِه»[٣٩].

إلتزاماً بالصّيغة والميثاقِ

في ما يتَّصلُ بالمسألتين العربيةِ والفلسطينيةِ، كامتدادٍ للإتفاقِ الميثاقيّ، حافظتِ الكتائبُ عموماً على موقِف وسطيّ يتلاءمُ مع الإتفاقِ المذكورِ، وإن كانت بينَ الفينةِ والأخرى تجنح قليلاً في كِلَي الاتجاهينِ اللذينِ يتعدَّيانِ هذا الموقف. وقد اتخذَ الجنوحُ النسبيّ في غالبِ الأحيانِ شكلَ التنبيهِ والتحذيرِ والضَّغطِ القاعديّ بما يُتيحُهُ نظامٌ برلمانيّ تعاقديّ.

ففي ١٩٤٤ أعرب حزبُ الكتائبِ «عن رفضهِ لتحقيقِ أيةِ وحدةٍ أو اتحادٍ، وقد طالب بيار الجميل الحكومةَ اللبنانيةَ بتوضيحِ حقيقةِ المشاوراتِ العربيّةِ»[٤٠]. لكنَّ الحزبَ لم يتردّد، العام نفسه، في الانخراطِ في «اتحادِ الأحزابِ اللبنانيةِ لمكافَحَةِ الصهيونيةِ» إلى جانبِ الحزبِ الشيوعيّ والكتلة الإسلامية وعصبةِ العملِ القوميّ وغيرها من القوى

(٣٧) انظر، مثلاً لا حصراً، حسّان حلاق، **التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣ ـ ١٩٥٢ ـ مع دراسة للعلاقات اللبنانية العربية واللبنانية الدولية**، معهد الانماء العربي، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٨١ هـ.

(٣٩) المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٤٠) المرجع السابق، ص ١٩٧. في إشارة إلى تراجع الدعوة إلى الوطن القومي المسيحي بعد الاستقلال، يتحدث أنتليس عن ريمون إده بوصفه «الممثل التقليدي لهذا الموقف» مستشهداً ببيان أصدره حزب الكتلة الوطنية في ١٩٤٧. انظر: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 35 & 35 n.36 n. وأما بصدد الكتائب فردّ أنتليس سياستها «الإنعزالية» لحظتذاك، خصوصاً لجهة رفض بروتوكول الاسكندرية، إلى الضباب الفكري الذي أحاق بالكتائب بُعيد الاستقلال والذي يسميه «أزمة هوية» وإلى استمرار سيادة الذهنية «الحمائية» في النظر إلى استقلال لبنان الوليد. *Ibid.*, p. 60.

والأحزاب[٤١]. وإذا كانَ الحزب قد عارضَ «مقاطعةَ» الحركةِ الصهيونيةِ، لأنَّ هذه المقاطعةَ «تجلُبُ على لبنان أضراراً بالِغةً»[٤٢]، إذ تبقى «مَصلحةُ لبنان»، في العرفِ الكتائبيّ، المرجعَ والمحكَ، فهذا ما لم يمنعهُ في ١٩٤٧ من الدّفاعِ عن «مطلبِ العرب» بوصفِهِ «مطلَبَ حقّ» محذّراً من تأليفِ حكومةٍ عربيّةٍ في فلسطين» في الوقتِ الذي يعالِجُ الصهيونيونَ مشكلةَ إنشاءِ حكومةٍ يهوديةٍ مـ «ما يُسَوِّغ المطالبةَ بتقسيمِ فلسطين وإقامةِ دولةٍ يهودية. وقد دعا الحزبُ، في المقابلِ، «إلى إنشاءِ حكومةٍ عربيةٍ واحدةٍ تشملُ سلطتها كلَّ فلسطين كوحدةٍ لا تتجزأ»[٤٣].

وكي نُحيطَ بالمناخاتِ اللبنانيةِ السائدةِ آنذاك، لا بأسَ بالعودةِ إلى صورةٍ خرافيةٍ نسجها مثقَّفٌ سنيٌّ عروبيُّ الهوى عن الكتائبِ، والموارنةِ تالياً. فعندَ مصطفى خالدي يلوحُ «الشرُّ الكتائبيّ» جوهرياً متأصلاً لا سبيلَ إلى ردِّهِ:

«١ ـ إنَّ الطائفةَ المارونيَّة وبعضَ المجموعاتِ المسيحيَّةِ الأخرى في بلادِنا، لا تتعاطفُ مع الروحِ الوطنيَّةِ العربيَّةِ، بل إنَّها عكسَ ذلك مستعدةٌ لمحاربتِها بأيةِ وسيلةٍ ممكنةٍ لكي تفرضَ بالقوةِ حضارتَها المسيحيةَ على كامِل لبنان وتفصلَ بالعنفِ لبنان عن سائرِ العالمِ العربيّ. ٢ ـ على المسلمين في لبنان أن يفهموا أنَّ «الكتائبَ الفاشستيّةَ اللبنانيَّة» ليست سوى «هاغانا جديدة هدفُها إلباسُ لبنان بالقوة الثوبَ المارونيَّ وحَمْلُهُ على التَّعاونِ مع الصهاينةِ ضد مسلمي لبنان وسوريا. إنَّ هذا الخطرَ ينبغي أن يكونَ إنذاراً لنا كي ننظمَ أنفسَنَا للمقاومةِ مستخدمينَ جميعِ الوسائل القانونيةِ التي بحوزتِنا وإلَّا فإنَّنا سنواجِهُ مصيرَ عرب فلسطين نفسَهُ. ٣ ـ على الشعوبِ العربيَّةِ من حولِ لبنان أن يُدركوا أنَّ هذا الخطرَ يتهدَّد أمنهم في المستقبل كما يتهدَّد سلامةَ أراضيهم، فيجبُ عليهم أن يُنسِّقوا سياستَهم الدفاعيةَ لمواجهة هذه التحركاتِ. وسوريا نفسُها قد تجد نفسَها في وضعٍ عسكري خطير جداً [...]. ٤ ـ إنَّ معركةَ فلسطين الأولى والوضعَ الحاضرَ في لبنان يجبُ أن يكونا مؤشراً خطراً للمسلمين في الشرقِ الأوسطِ وفي العالم، وإنذاراً للاستعداد وإدراكِ المسؤوليةِ الملقاةِ على عاتقهم للدفاعِ عن مسلمي لبنان. وإلَّا علينا كلُّنا أن نتوقَّعَ الهزيمةَ والقضاءَ علينا شيئاً فشيئاً كما وقعَ لإخوانِنَا الفلسطينيين. وهذا الخطرُ غيرُ ماثلٍ من الصهاينةِ وأصدقائِهم الموارنةِ فحسب، وإنَّما كذلك من حماتِهم الأجانب...»[٤٤].

(٤١) انظر: **العمل**، العدد الخاص عن الكتائب في ٢٥/١٢/١٩٨٥، وكذلك Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under french mandate*, Oxford university press, 1968, p. 342-343.

(٤٢) حسّان حلاق، **موقف لبنان من القضية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٥٢ (عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال)**، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٢، ص ٨٠.

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٤٤) عن المرجع السابق، ص ١٩٥. ولم يتردد الخالدي في اتهام الكتائب مبكراً بالتدرب على أيدي الهاغانا، المرجع نفسه، ص ٣٤٣.

لَدَى وقوعِ التقسيمِ في ١٩٤٧ والّذي لم يتَّخذ حزبُ الكتائب موقفاً حاداً منهُ، رأى أنَّ الحركةَ الصهيونيَّةَ «حركةٌ ثوريَّةٌ ينبغي أن تنتهي بتدميرِها وليس عبرَ المفاوضاتِ السياسيَّةِ معها»[٤٥]. وفي مقابلِ إدانةٍ مخفَّفةٍ من بيارِ الجميلِ لمواقفِ المطرانِ المارونيِّ مُبَارك المحبِّذَةِ للحركةِ الصهيونية[٤٦]، فحينما نشرت مجلَّةُ «الديار» في كانون الأول ١٩٤٦ «مذكرة الخوري أنطون عقل إلى الأمم المتحدة والتي طالبَ فيها بحمايةِ المسيحيينَ من المسلمين» صَرَّح بيار الجميّل «مُنْكِراً على عقل ممارساته»، وقال إنَّ «تصريحاتِهِ وحركاتِهِ تغذّيها مصادرُ أجنبية. ورأى أنَّ لبنان ليسَ لطائفةٍ دون أخرى. فهو للمسلمين كما هو للمسيحيين. وأخيراً استنكر الجميّل تقديمَ المذكرة للأمم المتحدة والمغالطاتِ التي وردت فيها»[٤٧].

أما اتهاماتُ «الحزبِ السوريّ القوميّ» للكتائبِ بالتعاونِ مع الصهيونيَّة[٤٨]، فَبقيت بحاجةٍ كبيرةٍ إلى الإثباتِ، بما يُوحي أنَّ التنافسَ التقليديَّ الضاري بين الحزبين في الجبل يومذاك، هو ما أملى الاتهاماتِ المذكورة، أو على الأقل، عملَ على تضخيمِها إلى حدٍّ بعيد. ذلك أنَّه بالمعنى نفسِه، واستناداً على «الوثيقةِ» نفسِها، والَّتي هي رسالةٌ من محمد جميل يونس منفّذ الحربِ القومي في عكّا إلى أنطون سعادة زعيمِ الحزب، إتهمت السلطاتُ اللبنانيّة انطون سعادة أيضاً بالتعاملِ مع إسرائيل.

قُصارى القول إنَّ الكتائبَ أهتمت بالشَّأنِ الفلسطينيّ في حدودِ امتدادِه للشَّأن اللبنانيّ وانعكاسه عليه، فلم تذهب بطبيعةِ الحالِ مذهباً نضالياً في التعاملِ معه ولم تقبل أن تكونَ له آثار سيئةٌ على التركيبِ اللبنانيّ ودولته، لكنَّها في الآنِ نفسه تضامنت إلى حدٍّ بعيدٍ في مواجهةِ الصهيونيةِ بما لا يرتّب، أيضاً، آثاراً ضارةً على التعايش.

وفي ما يتَّصل بـ «التعايش» تحديداً، تمثَّلت الحالةُ الكتائبيَّةُ النَّموذجيَّةُ بحصولِ درجةٍ مُطمئِنَةٍ من الإجماعِ المسيحيّ ـ الإسلاميّ يُناطُ بالكتائب أن يكونَ أحد المعبّرين عنها في المجتمعِ، أو في الشقِّ المسيحيِّ منهُ على الأقل. فإذا كانت اللَّحظةُ الاستقلالية والعملُ المشترك مع «النَّجادة»[٤٩]، قد دلَّا على استعدادِ الكتائب لتجاوزِ الكتلةِ المارونيّةِ في اتجاهِ الكتلةِ المسلمةِ والعملِ لجرِّ الأولى نحو مواقعَ أقربَ إلى الثانية، فإنَّ أحداث

(٤٥) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 249.

(٤٦) *Ibid.*, p. 212 وكذلك مصطفى الخالدي وعمر فروخ، **التبشير والإستعمار في البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار العربي**، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٠، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٤٧) حسان حلاق، **التيارات السياسية...**، سبق الاستشهاد، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٤٨) انظر Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 279 & 281.

(٤٩) انظر، مثلاً لا حصراً، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، الجزء الثاني في غير موضع وكذلك Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 202 &·234.

العام ١٩٤٩ كانت أوفى تَعبيراً عن تلك الدرجةِ من اللّقاء. فحينذاك سقطَ المشروعُ الصَّاخبُ الَّذي رعاهُ أنطون سعادة في وَهدةِ الانقلابيَّةِ الساذجةِ التي ميَّزت فهمَه للتكوينِ الطائفيّ اللبنانيّ المرشّح، في عرفِهِ، لـ «الإلغاء» الإجرائيّ. وبهذا المعنى نشأ لقاءٌ سلبيٌّ إسلاميّ ـ مسيحيّ قوامُهُ العداءُ للمشروعِ التوحيديّ الَّذي يتجاوزُ لبنانَ من دون أن يطابقَ «الأمة» العربيَّةَ أو الإسلامية، مهدّداً في آنٍ معاً، التشكيلاتِ الإجتماعيَّةَ القائمةَ والفعليَّةَ بالدَّمجِ القسريّ في قالب حديديّ القوميَّةِ والدولتيّة. وهكذا ففي مقابل استعمالِ حسني الزعيم، وهو الَّذي قادَ في دمشق أولَ انقلابٍ عسكريّ ناجحٍ في المشرق، أنطون سعادة لقلبِ الحكومةِ اللبنانيةِ كحدّ أدنى من الإنْجاز، اجتمعَ شملُ جناحَي السلطةِ اللبنانية في استعمالِ الكتائبِ ضدَّ الأداةِ المحليَّةِ للحاكمِ العسكريّ السُّوريّ[٥٠].

بلغةٍ أخرى، فإنَّ هذا التضافرَ بما ينطوي عليه من تسليمٍ بواقعِ الكيانِ، إن لم يكن بإيديولوجيَّته، هو الذي يبلورُ صورةَ الكتائب عن دورها «في خدمةِ» لبنان «موحَّداً» وحمايتِهِ حَيَالَ خطرٍ يتهدَّده من الخارجِ، هذا مع العلمِ أنَّ «الخدمة» تمتدُّ لتشملَ التعاونَ الأمنيَّ مع أجهزةِ الدولةِ للإيقاعِ بحزبٍ كالحزب القوميّ وزعيمه، كما دَلَّت حادثةُ الجميّزةِ التي مهدت لانقلاب أنطون سعادة وإعدامِه[٥١]. وفي الوسعِ، أساساً، تصويرُ الحزبِ القوميّ المتعاونِ مع دمشق، والذي لا يقعُ، تعريفاً، تحتَ خانةِ هذهِ الطائفةِ أو تلكَ، طرفاً «خارجيّاً» بامتياز إذا ما قيسَ بالتكوينِ الطائفيّ اللبنانيّ وفهمِ الكتائبِ لهُ.

والصورةُ هذِه هي التي سعى بيار الجميّل إلى تكرارِ استيلادِها في حرب ١٩٥٨ الأهلية، علماً بصعوبةِ التكرارِ في ظلّ التعقيدِ المحليّ والإقليميّ الذي طرأ حينذاك. فعشيَّةَ تلك الحرب بدا الجميّل منزعجاً من نتائجِ انتخاباتِ ١٩٥٧ حيث اتهمت الكتائبُ الرئيس شمعون بممارسةِ التزويرِ ضدَّ مرشحيها، خصوصاً الشَّيخ موريس الجميّل في المتن لصالحِ رئيس الحزبِ السوريّ القوميّ آنذاك، أسد الأشقر[٥٢]. ومن دون أن يتحوَّل هذا الإتهامُ إلى حملةٍ على الدولةِ. فإنَّه أجازَ للجميّل، ومن داخلِ اللعبةِ السّياسيَّةِ المحليَّة، الإنضمامَ إلى ما عُرفَ بـ «القوّةِ الثالثة» التي طالبت الرئيسَ شمعون بالإمتناعِ المعلنِ عن التجديدِ ساعيةً إلى الوساطةِ بين الحكمِ والمعارضة. وقد ضمَّت هذه القوة، فضلاً عن الجميّل، هنري فرعون وغسَّان تويني ويوسف الحتّي وبهيج تقيّ الدين وجورج نقّاش وشارل حلو ويوسف سالم ومحمّد شقير وجان سكاف وغبريال المرّ ونجيب صالحة. لكنَّ التَّدهورَ اللَّاحقَ المصحوبَ بطرحِ المسألةِ الوَطَنيةِ ومصيرِ الدَّولةِ والمجتمعِ، وفي

(٥٠) *Ibid.*, p. 96.

(٥١) انظر L.Zuwiyya Yamak, *The Syrian social nationalist party. An ideological analysis*, Harvard middle eastern monagraph series, 1966, p. 66-67.

(٥٢) المقابلة مع جوزيف أبو خليل.

غالب الظَّنّ حركةَ المزايدةِ داخل الطَّائفةِ المارونيةِ، استدعيًا خروجَ الجميّل وحلو منها[٥٣]، وذلك فيمَا كانَ يتزايَدُ تدخُّلُ «الجمهوريَّةِ العربيةِ المتَّحدة» في الشَّأنِ اللبنانيّ الداخليّ ومدُّ المعارضينَ بالسِّلاح. وهكذا لم يَفُت أحَدَ غلاةِ الشَّمعونيينَ أن يُسَجِّلَ - برغم وقوف الكتائب لاحقاً مع الحكم الشمعوني - أنَّهُ «يمكنُ القولُ بأنَّ حزبَ الكتائبِ اللبنانيةِ قد اتَّخَذَ موقفاً معتدلاً أثناء الحوادثِ فلم ينجرف لا في المُوالاةِ المطلَقَةِ للرئيس شمعون ولا في المعارضةِ المطالِبَةِ باستقالتِهِ، وبقيَ مراقِباً تطوراتِ الوضع»[٥٤].

وتكادُ تجربةُ الكتائب مع شمعون في ١٩٥٨ تكونُ تكراراً مضخَّماً لتجربتِها مع الرئيس بشارة الخوري في ١٩٥٢. فيومذاك ضمَّت «الجبهةُ الإشتراكيَّةُ الوطنيَّةُ» المعارضةُ كُلّاً من الحزبِ التقدميّ الاشتراكيّ وحزب النِّداءِ القوميّ والهيئَةِ الوطنيَّةِ والكتلَةِ الوطنيةِ والكتائبِ اللُّبنانيةِ وعبدالله اليَافي وكميل شمعون وغسَّان تويني وعبدالله الحَاج وعادل عُسيران وديكران توسباط، لكن «في اللَّحظةِ الأخيرةِ» انسَحَبَ حزبُ الكتائبِ منها طالباً وقفَ الإضرابِ الشَّاملِ ضدَّ العهدِ[٥٥]، برَغمِ أنَّ ذلك خلَّف عند بشارة الخُوري عَتَباً كبيراً على تلكُّوِ الكتائبِ في إنجادِهِ وعدمِ اسراعِهَا في الإنفكاكِ عَن المُعارَضَةِ[٥٦].

وفيما تُشيرُ التَّجربتانِ في ١٩٥٢ و١٩٥٨ إلى حساسيَّةِ الحِزبِ الفائقةِ حَيَالَ المسِّ برئاسةِ الجمهوريَّةِ، الحصنِ الأهمّ للموقعِ السياسيّ المارونيّ ومؤسسةِ الدَّولةِ الأولى وشرطِ إدارةِ الحوارِ في المجتمعِ، فإنَّ الفارقَ بينَ اللَّونِ المسيحيّ الَّذي طغى على معارضةِ الخوري وذاك الإسلاميّ الذي طغى على معارضةِ شمعون، يَبين أنَّ الثَّابتَ في السِّياسةِ الكتائبيَّةِ هو «الدَّولةُ» بوصفِها عنصرَ ضمانِ استمرارِ الوَحدةِ وطَردِ الخوفِ.

يترتَّبُ على هذهِ الإحالةِ إلى الدولةِ، من ضِمنِ الظُّروفِ الَّتي عَملت فيها، اعتبارانِ لازَمَا الكتائبَ طوالَ حياتِهَا وكانَ العهدُ الشِّهابيُّ مسرحَ حوارِهِمَا المتوتِّر: الأول أنَّ الإحالةَ معطوفةٌ على الرَّغبةِ الكتائبيَّةِ في تهميشِ السِّياسيينَ واستبدالِهم[٥٧]، لا تفعلُ سِوى تفريغِ السِّياسةِ والمساهمةِ في تعزيزِ الدولتيةِ. والثَّاني أنَّ الارتياحَ إلى وحدةِ السُّلطةِ السياسيةِ، وتوهُّمِ وحدةِ المجتمعِ تبعاً لذلك، أو على الأقلّ توهُّم نزعِ عناصرِ توتُّرِه، هما مَا ميَّزا نظرةَ حزبِ بيار الجميل «الحديثِ» عن نظرةِ العائلاتِ والعشائرِ إلى «الوطنِ» و«الوَحدَةِ الوطنيَّة».

(٥٣) انظر يوسف سالم، **٥٠ سنة مع الناس**، سبق الاستشهاد، ص ٣٩١.

(٥٤) انطوان خويري، **كميل شمعون**...، سبق الاستشهاد، ض ١١٦.

(٥٥) حسان حلاق، **التيارات السياسية**...، سبق الاستشهاد، ص ٦٢١ و٦١٥ هـ.

(٥٦) أنظر وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٠٩ هـ.

(٥٧) راجع الفصل الثاني.

هُنا يكمنُ أحد أوجه الدراما الكتائبيَّة التي راحت تتجلّى واضحةً صريحةً في ١٩٧٥ وصاعداً. فحتّى الشِّهابيةُ الّتي أقامت السِّلمَ والإستقرارَ من فوق، وبمساهمةٍ نشطةٍ من الكتائب، أسست لعناصر نزاعٍ أهليّ أشدّ استفحالاً مما كان متوافراً قبلاً. فبدعمِ السلطةِ المذكورةِ نجحَ القطب الدرزيّ كمال جُنبلاط في أن يبني «زعامةً تجمعُ إلى العائليةِ الإسلاميةِ النزوعَ الذي لازمَ الزعامةَ المارونيَّةَ إلى الإستقطاب التجمعيّ، وتعملُ على إرساءِ استقطابها على مؤسساتِ المجتمع الأهلي»[٥٨]، الأمر الذي يصفُ الكتائبيُّ آنذاك رَشاد سلامة بعضَ مخاطرِهِ بلغةٍ تعبويَّةٍ حين يسجِّلُ هزالَ «هيبةِ الحكم حتى الهوان»، فقد «نشطتِ الدعاوةُ للأحزابِ الممنوعةِ، بل شاركتِ الدولةُ بقصدٍ منها أو بدون قصد للترويجِ لهذهِ الأحزاب»[٥٩]. وقد كان عميدُ الكتلةِ الوطنيةِ ريمون إدّه ثاقبَ النظر حينَ أصَّر على تعديلِ المرسومِ القاضي بتأليفِ الحكومةِ الكَراميَّةِ في ١٩٦١، والَّذي تَسَلَّمَ بموجبِهِ كمال جنبلاط وبيار الجميل حقيبتَي «وزارة الدولة». وتمسُّكاً بهذا الإصرارِ استقالَ من الحكومةِ وزيرُ الكتلةِ الوطنيةِ إدوار حنين، وما لبثَ أن انضافَ إلى صوتِ «الكتلةِ الوطنيةِ» صوتا النَّائبينِ ألبير مخيبر الَّذي أتهم جنبلاط والجميل بـ «الديكتاتوريةِ»، وفضل الله تلحوق الذي أطلق على الحكومةِ وصفاً موفَّقاً هو أنَّها «حكومة المتراسَين»[٦٠].

بمعنى آخر حملَ التحالفُ مع الشِّهابية كلَّ تعقيداتِ التكوينِ الكتائبيّ وعبَّر عنها، وهي تعقيداتٌ ما كان للشِّهابيَّةِ نفسِها سوى العمل على مفاقَمَتِها بطبيعةِ تعاملِها شبهِ الإنقلابيّ مع ثنائيةِ التكوين اللبنانيّ ومع محاولةِ توحيده، كما بطبيعَةِ استجابتِها للنِّظام العسكريّ العربيّ في الجوار. إذ لا يعقَلُ أن تفضي الشِّهابيَّةُ إلى إطلاق انقلابيَّةٍ وحيدةِ الجانب، هي الكتائبيّة، من دون اطلاق الإنقلابيَّةِ الإسلاميّةِ الموازيةِ، فيما هي تُلِحُّ على «الوحدةِ الوطنيّة» في بلدٍ مركَّب؟ ولا يُعقَلُ تالياً - وهي مشكلةٌ ثقافيةٌ أبعدُ أثراً - أنْ لا تصطدمَ الإنقلابيةُ الأخيرةُ بالدَّولةِ وبالكيانِ اللبنانيينِ كحالةِ تمايزٍ في المنطقةِ.

بيدَ أن خروج الكتائب عن الشهابيةِ في ١٩٦٨ لم ينجم عن مهارةٍ شيطانيةٍ ينسبُها خصومُ الحزب إليهِ وإلى نزعتِهِ التآمريةِ المفترَضَةِ، بقدر ما نجم عن أسبابٍ أخرى مصدرُها في العلاقاتِ التَّجَمُّعيَّةِ اللبنانية[٦١]، خصوصاً وقد وجدَ النزاعُ الداخليّ مُكمِّلَهُ في انتقالِ السياسَةِ المصريَّةِ في لبنان، وهي حليفَةُ الشهابيَّةِ، إلى طورٍ يجمعُ بين الهجوميةِ وتجاوزِ أشكالِ العملِ الَّتي تتيحها الحياةُ الدستوريَّةُ. في هذه الحدودِ جاءَ

(٥٨) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٦٧.

(٥٩) رشاد سلامة، «حزب الكتائب اللبنانية»، سبق الاستشهاد، ص ٥٤.

(٦٠) عن: فارس حمود اشتي، **الحزب التقدمي الاشتراكي ودوره في السياسة اللبنانية**، رسالة لنيل دكتوراه دولة في العلوم السياسية، الجامعة اللبنانية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية، ص ٧٦٨ هـ و٧٦٩ هـ.

(٦١) راجع الفصل الثاني.

اغتيالُ الصحافيّ اللبنانيّ كاملِ مروّة في ١٩٦٦، وقبلَ أن تصابَ القاهرةُ بنكستِها الموجعةِ في العامِ التّالي، ليشكّلَ واحداً من الأسبابِ «التي حملت الجميل وحزبَهُ على الإنضمامِ إلى الحلفِ الماروني الثلاثيّ»[٦٢].

إلى ذلك لم تَنفَصِل مبارحةُ الشهابيَّةِ عن معاناةٍ متعدِّدةِ التعابيرِ، حتّى بدا الجميّل ليس فقط الأكثر اعتدالاً بين الأقطابِ الثلاثةِ لِـ «الحلفِ الثُّلاثيّ» بل الأشدَّ تَردُّداً أيضاً. وفي لوحةٍ يرسمُها أحدُ الصحافيين لتناقضَاتِ الحلفِ، كان «كلَّما أدلى عميدُ الكتلةِ الوطنيةِ بتصريحٍ ينتقدُ الرئيس شهاب وجماعتَه، يستنجدُ الشهابيُّون بحليفِه في الحلفِ الثلاثيّ رئيس الكتائِب، فتصدُرُ الصُّحف في اليومِ التالي مزيِّنةً صفحاتِها بتصريحٍ للشَّيخِ بيار كلُّه مدحٌ بمن قَدَحَ بِهم العميدُ إده»[٦٣]. وإذا كان الأخير قد اتَّهم الجميّل بوضعِ «رجلٍ في البورِ ورجلٍ في الفلاحة»[٦٤]، فما كادَ الحِلفُ ينجزُ الهدفَ الانتخابيّ المرسوم لَه، وهو إنهاءُ الشهابيةِ في الجبلِ، حتّى كانت الكتائبُ أوّلَ المُرْتَدِّينَ عليهِ، مساهمةً هِي ونوّابُها، إلى جانبِ عواملَ أخرى بالطبعِ، في إبقاءِ النزاعِ ضمنَ حدودِ المؤسساتِ فلا يتعدَّاها إلى الشَّارعِ والمواجَهَاتِ المفتوحَةِ[٦٥]. ولقد بدأ هذا الارتدادُ في «مهرجانِ القطين» حيثُ صدر في اليومِ التالي مقالٌ في جريدةِ «العملِ» يضع شهاب «في مصافِ الأنبياء»[٦٦]، وتلاهُ تصويتُ نوَّاب الكتائب في معركةِ رئاسةِ المجلسِ لصالحِ الشّهابيّ صبري حمادة بينما وقفَ شمعون وإدّه إلى جانب كامل الأسعد[٦٧]. وبدورِه لم يتردد العميد ريمون إدّه في أتّهامِ الكتائبِ والجميل «بفرط الحلفِ الثلاثيّ وتفكيكِه ووقفِ زخمه»، وأنَّ الكتائبَ «تفرَّدت في اتخاذِ موقفٍ في انتخاباتِ رئاسةِ المجلسِ ثمَّ دخلت الحكمَ ووافقت على اتفاقِ القاهرةِ فانفرط الحلف»[٦٨].

وعلى طريقَتِهِ، وصفَ إده عملَهُ المشترك مع الجميّل إبَّان الحلفِ، بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ حول الفارقِ بين تردُّد الثاني وحيرتِه والميل الحاسم عند الأول: «نقترحُ القيامَ بخطوةٍ عمليةٍ ضدَّ الأمرِ الواقعِ. يُوَافِق. بعدَ قليل نسمعُ أنه اجتمعَ برشيد كرامي ونقرأ عن لسانِه تصريحاً لا يصدر مثلُه حتى عن غُلاةِ الشَّهابيين»[٦٩]. وفعلاً، ففي ١٩٦٩ لم تحجم الكتائب عن «تغطيةِ» سياسةِ الأمرِ الواقعِ بموافقِتها على «اتفاقِ القاهرة» الّذي

(٦٢) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٦٣) الياس الديري، **من يصنع الرئيس**؟، سبق الاستشهاد، ص ٣٥٥.
(٦٤) المرجع السابق، ص ٣٥٣.
(٦٥) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٠٨.
(٦٦) الياس الديري، **من يصنع الرئيس**؟، سبق الاستشهاد، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٦٧) المرجع السابق، ص ٣٢٦.
(٦٨) المرجع السابق، ص ٣٢٥.
(٦٩) المرجع السابق، ص ٣٥٥.

عارضَهُ العميد إدّه معارضةً شديدةً، وكان ما حَكَمَ مواقفَ الشيخ بيار الجميل آنذاك بحسبِ أحدِ القياديينَ الكتائب، تحاشي المزيد من الإضعافِ للجيشِ خصوصاً في ظلِّ القوَّةِ الفلسطينيةِ المسلَّحةِ[٧٠].

هنا اتخذت الدراما الكتائبيّة التي رأينا في السَّابق عَيِّناتٍ جزئيةً عنها، شكلاً ساطعاً. فمشاركةُ الكتائبِ في «الحلفِ الثلاثيّ» أدَّت إلى تحريرِ التمثيلِ المارونيّ الجبليّ من وصايةِ الدولةِ، لكنَّ هذا التحريرَ لم يُفضِ إلى تأسيسِ قوَّة ضَغطٍ معادِلَةٍ وموازِنَةٍ للقوَّة الإسلاميةِ (فضلاً عن مِصر ومن بعدِها المقاومة الفلسطينية) بما يُعزِّز العمليةَ السياسية والدولةَ تالياً بل قَذَفَ الوضعَ برمَّته خطوةً أخرى نحو الإحتراب الأهليّ ولا سيَّما مع وجودِ مقاومةٍ فلسطينيةٍ مسلَّحةٍ وناميةٍ. والحقُّ أنَّ الدراما الكتائبيَّة التي تمثَّلت في محاولَةِ اطلاقِ ضغطِ المجتمعِ في حدودٍ لا تُخِلُّ بقوَّةِ الدولةِ، وإحالةِ السياسةِ إلى الدولة القويةِ من دونِ تأثيرَاتٍ سلبيّةٍ على المجتمعِ، وهي الدراما التي لازمت التاريخَ الكتائبيَّ طويلاً، لم يُكن الحزبُ دائماً قادراً على ضبطِها والسيطرةِ عليهَا.

قيادةُ بيار الجميّل

إذا صحَّ أنَّ مفهومَ الفاشيَّة لا يقدّم الكثيرَ في فهمِ الظاهرةِ الكتائبيةِ ومسارِها، فالواضحُ أنَّ صلةَ الدولةِ بالمجتمعِ الأهلي (الثقافة وعلاقات الريف والعروبة الدمويّة) هي المصدرُ الذي يُمكن من خلاله الاطلال على هذَين الظاهرةِ والمَسار. فمراعاةُ المجتمعِ الأهليّ من دونِ إضعافِ الدولةِ مُعَادَلَةٌ كتائبيةٌ مبكرةٌ يعكسُ شقُّها الأول (المراعاة) التكوينَ الطائفيَّ ـ الرأسماليَّ شبهَ الديمقراطيّ، ويدلُّ شقُّها الثَّاني (عَدمُ إضعافِ الدولةِ) على بيئة الصّراعاتِ والحساسياتِ والمخاوفِ المَشرقيَّة حيثُ نمت التجربةُ الكتائبيَّةُ باحثةً عن العضدِ الماديّ في الدَّولةِ، بعدَ العضدِ الأيديولوجي في «الكيان».

ولئن برهَنَت الأحداثُ منذ ١٩٧٥ عن صعوباتِ المعادلةِ المذكورةِ، وصعوباتِ الرِّهانِ الكتائبيّ الأصليّ بالتَّالي، فهي أعادت الإعتبارَ إلى الحالاتِ النفسيةِ الجمعيةِ في تفسيرِ الظاهرةِ الحزبيةِ قَيْدِ التناولِ والمسارِ الَّذي اتَّخذتهُ. فالخوفُ[٧١] النَّاجمُ عن تاريخِ الجماعاتِ المشرقيةِ وثقافاتِها، و«الزعيمُ» الذي يُنتجُهُ الخوفُ» «مُخَلِّصاً» لجماعةٍ صُغرى تقبعُ في ريفِها الجبليّ وتستمدُّ منه القوة، يُعبِّرانِ بطبيعتِهما غيرِ السياسيَّة، عن استعدادِ الأقلية إلى استيرادِ قيم الطغيانِ الأكثريّ والعملِ «سياسياً» بموجِبها، أي جعلِ

(٧٠) من المقابلة مع جوزيف أبو خليل.
(٧١) بين العبارات المتكررة التي اشتهر بها بيار الجميل تلك التي تقول: لا تطلب من الخائف أن لا يخاف بل أمنع عنه أسباب الخوف.

«السياسةِ» تتحركُ في نطاقِ الخوفِ وردّ الخوفِ، مُحاطةً بكثيرٍ من الرموزِ ومُطِلَّةً باستمرار على الإحباطِ الصوفيّ.

وحَيَال وضعٍ كهذا، غالباً ما يترافقُ مع ضَعفِ الدولةِ وانكشافِ التعصّب، تضيعُ الفوارقُ بين مستوياتِ التطور الاجتماعيّ ضمنَ الجماعةِ الخائفةِ، فيغلبُ المستوى العشائريُّ، من حيث هو تضامنٌ لُحْمَتُهُ الدَّم، على المستوى الطائفيّ الرأسماليّ المتقدّم.

والراهنُ أنَّ تجربةَ بيار الجميل منذ بداياتها الأولى، زاوجت بينَ تَوْقٍ إلى الحداثةِ وتمثيلٍ لمصالحِ وتطلعاتِ المستفيدينَ منها، وبينَ خوفٍ يُهَدّدها على الدوامِ كلّما لاح ضعفُ الدولةِ صريحاً، باحتمالِ النُّكوصِ إلى ما قبل السياسة وما قبل الاجتماعِ الحديث. وهذا ما يُفَسِّرُ كيفَ أنَّ الجميليَّة، وقبلَ أن تضَعَ الحربُ الأهليةُ ـ الاقليميةُ أوزارَهَا، شرعت تخسَر حزبَهَا لصالحِ البيئةِ الطرفية الريفية التي بدأت تُقبل عليه في ١٩٥٨، إذ أنَّ هذه الأخيرةَ تبقى أكفأ مِن الأولى في خوضِ حربٍ كالَّتي خِيضت وتُخاض منذ ١٩٧٥[٧٢].

ولا بأسَ بالعودةِ إلى تجربةِ المؤسسِ بيار الجميل والتأشيرِ على عناصرِ المزاوجَةِ والإزدواج المبكرة، وصولاً إلى تعيينِ الوُجهةِ التي اتَّخذتها في ما بعد، مع اندلاعِ الحربِ وانهيارِ النّصابِ السياسيّ ودولتِه، إثر تعاظمِ الجيب الطرفيّ في الحزب. ففي الحركاتِ السياسيةِ التي تعكِس حالاتٍ شعوريةً حادةً كالخوفِ، تلعبُ شخصيةُ القائدِ دوراً أساسياً وطاغياً يكادُ يُعادلُ الحزبَ نفسَهُ في تكوينِه وأفكارِه وممارساتِه. وهذا ما لا يكتُمُهُ رجالُ الرَّعيلِ الأول في الحزبِ ممَّن عاشوا لحظاتِ التأسيسِ إلى جانبِ الشَّيخ بيار الجميل.

فحينَ يُسألُ جوزيف سعادة يَستشهدُ بما ورد في أحدِ كتبِ الحزبِ من أنَّ «التأكيدَ على شخصيةِ بيار الجميّل في استمرارِ المنظَّمةِ ونجاحِها، هو بمثابةِ التحدّي الَّذي طُرِحَ في الحياةِ السياسيَّةِ اللبنانية». واختيارُ الجميّل رئيساً هو في رأيِهِ ما «انقذ المنظَّمة من التَّفَكُّك» وأمَّنَ لها «عاملَ الاستمرار». أمَّا المبادىءُ الكتائبيةُ التي دفعت أنطوان خضرا إلى الإستمرارِ في الحزبِ فهي وطنيَّتُه و«اسم بيار الجميّل»، فهذا الإسم كان «وحدَهُ رصيدَ الكتائب»[٧٣].

ولأنَّ الدينَ، منذُ الإنسانِ البدائيّ، هو في أحدِ وجوهِهِ الأساسيّة، نتاجُ المشاعرِ

(٧٢) من ضمن عملية واحدة، برغم الفوارق في الأحجام، خسرت الكتائب نفسها للريف، وخسرت الأحزاب اليسارية والعلمانية الكثير من مواقعها لأصحاب الوعي الإسلامي النضالي، بعد طول مشاركة منها في التعبير عن هذا الوعي وفي تسويقه والاستقطاب على أساسه.

(٧٣) انظر المقابلات في **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

الحادةِ، والخوفِ منها بصورةٍ خاصةٍ، درجت حركاتُ الخوفِ وردّ الخوفِ على أن ترسمَ نفسَها في أشكال تُقَرِّبُهَا من الأديان، فيما تُعلنُ مُنْشِئِيها وروادَها أشباهَ آلهةٍ أو رجالَ عنايةٍ آلهية. ولم تُخفِ الكتائبُ التي أطلقت على بيار الجميل تسمية «الصخرة»، نسجاً على لقبِ القدّيس بطرس الّذي يحملُ بيار (بطرس) اسمَهُ، معاني الإطمئنانِ والثِّقةِ التي يُشيعها القائدُ ويوحي بها لجمهورٍ يسكنه الخوف ويعوزُه مرتكزٌ صلبٌ يستندُ إليهِ. فعلى رَغمِ أن الحزبَ «تبنّى فلسفةَ مونييه كعقيدة»، كما يقول جورج سعادة، «كان المرجعُ هو تصرفاتِ بيار الجميل وأقوالَه وحياتَه، تماماً كما حصلَ في الديانة المسيحية»[٧٤].

هذِه السمةُ، التي سيتمُّ التطرقُ إليها في ما بعد، اتخذت فِي وقتٍ لاحقٍ أبعاداً مُطْلَقَةً مع بشير الجميل، الكفيلِ بطردِ الخوفِ ونقلِه كليّاً إلى جبهةِ الخصم. لكنَّها، قبل ذلك، جمعت إلى الشقّ العقلانيّ الذي لم تضبطه الحياةُ السياسية ومعاييرُها، شقاً آخر لم يغِب عن التكوينِ الشخصيّ للمؤسس بيار الجميل. وقوامُ هذا الشقّ لا عقلانيةُ الزَّعيم، أيِّ زعيم، التي تؤذن بوضعِ السلوكِ السياسيّ برمَّته على تخومِ العاطفيَّةِ المحضة[٧٥].

يَبقى أنَّ الإفتتانِ بالقوةِ والَّذي، كما سبقَ القولُ، لا يجعلُ صاحِبَه فاشيّاً بالضَّرورة، كان من ثوابتِ التكوينِ الشخصيّ للجميل الذي أسس حزبَه في مناخِ التوتُّر المحليّ المحيطِ بتوقيعِ المعاهدِة اللبنانيةِ ـ الفرنسية. وفي وصفٍ إجماليّ لهذا الملمحِ من شخصِهِ، كان بيار الجميل «يؤمنُ بالقوة وبمظاهرِ القوة: العرضُ العسكريّ، الحفلاتُ الشعبيةُ المنظَّمة، الموسيقى والأناشيد الحماسيَّة»[٧٦]، أي بكلِّ ما يمعنُ في توكيدِ النظاميةِ الشكليَّة على حسابِ «المضمون» السياسيّ. ومنذُ البداياتِ الحزبية الأولى في ١٩٣٦، وحينَ كانَ الفرنسيّ هو الحامي ولم تكن العلاقاتُ الكتائبيةُ معهُ أصابها التدهورُ،

(٧٤) من مقابلة معه أجرتها **العمل** (ملحق) ١٩٨٦/١١/٢٣.

(٧٥) عن هذه العاطفية قد ينجم فساد يجاور الإيمان والنزاهة في صورة تبدو، لوهلة، ملتبسة وغير مفهومة. مثلاً، تتسلل الاعتبارات العائلية التي لا تنضبط بالمعايير الصارمة إلى مراكز صنع القرار في الحزب والسياسة الحزبية أو إلى مراكز التأثير عموماً، خصوصاً أنَّ القائد المؤسس هو واضع المعايير بحيث تتقلّص الفوارق بين التراكيب «الحزبيّة» والتركيبة المافياويّة للجنوب الايطالي حيث تسود رابطة الدم وما يترتّب عليها من شرف وأخلاق. هكذا نجد، بحسب ما تكتب نشرة **الوطن** المعادية للكتائب في ١٩٧٨/٦/٢٥، وفي وقت واحد، خمسة أشخاص من آل الجميل في المكتب السياسي للحزب: بيار وأمين وبشير وأسكندر ولور، فضلاً عن بول الجميل «عضو المجلس الحربي وابن شقيق بيار الجميل»، وفادي الجميل «المسؤول العسكري في منطقة الصيفي»، وسامي الجميل «نائب مسؤول منطقة بكفيا»، وجميل الجميل «مندوب الكتائب في اللجنة المالية المشتركة مع الأحرار وهو من مسؤولي التموين والمحروقات».
تتكرر الظاهرة نفسها في كلّ مكان تقريباً يتراجع فيه الإحتكام للدستور لصالح مُرَكَّب العقيدة ـ الزعيم وإنْ اتخذت في بلدان الأنظمة التوتاليتارية أشكالاً أفدح، من العراق وسورية وكوبا ونيكاراغوا الساندينية (الشقيق) إلى الاتحاد السوفياتي البريجنيفي وكوريا الشمالية (النجل) إلى الصين الماوية ورومانيا تشاوشيسكو وحتى تونس البورقيبية (الزوجة).

(٧٦) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١٢.

إتصل الحزبيونَ بالجنرال هنتزيغر لأجل تدريبِهم، الأمرُ الذي استهجنَتهُ وهاجمته صحيفةُ «بيروت» الإسلاميةُ النزعةِ والتمثيل(٧٧). وفي وصفِ لأولى نتائج التمارين كما أظهرها حفلٌ رياضيّ أقامته الكتائبُ في ١٠ كانون الثاني ١٩٣٧، يلوح مناخٌ لا يفوقُه في جِدَّةِ الإلحاح على النظامِ إلَّا ذاك الَّذي أحاطَ بنشاطاتِ أنطون سعادة وحزبِه السّوريّ القوميّ(٧٨): «بعد أن قام نحو ألف من شبّانها بتمريناتٍ رياضيةٍ، مَشَوا بملابِسِهم الرسميةِ إلى المدينةِ في طريقِ دمشق فِرَقاً منظَّمةً، وأمام كلِّ فرقةٍ قائدُها. وقد تقدَّمَ الجميعَ العلمُ اللبنانيُّ يحيطُ بهِ ثلاثونَ شاباً من القوّاد، فموسيقى الحزبِ تعزف ألحانَها الشجيّة، فعدةُ أعلام... وكانت جماهيرُ الأهلينَ تقابلهم بالهتافِ والتصفيقِ. ولما بلغ الموكبُ ساحةَ الشُّهداءِ وضع أكليلاً من الأزهار على تمثالِ شهداءِ الوطنِ بعد أن هتفَ للبنان ورئيسِه»(٧٩). وفي إطار اهتمامِ الكتائب بـ «تربيةِ النشء اللبنانيّ ثقافياً وجسدياً «كُرِّسَ للتربيةِ البدنيةِ الإهتمامُ الأول «لأنَّ أكثر أعضاء الكتائب بحاجةٍ إلى تهذيبِ أجسامِهم»(٨٠).

لكن فيما بلغت جسديَّةُ الحزبِ السوريّ القوميّ حدَّ إعلانِ الإعجابِ الصَّريحِ بالسِّلاحِ والسَّعي إلى الحصولِ عليهِ حينَ يتاحُ ذلك، فإنَّ تركيبَ الكتائبِ المدينيّ ولبنانيتَها الموازيةَ لدولةٍ قائمةٍ في الواقعِ الفعليّ، حملاها على تجنُّب مثلِ هذا الإعجابِ المباشر. وفي غالبِ الأحيانِ بدت نزعةُ القوةِ عندَ الكتائب مُتصالحةً تمامَ التَّصالحِ مع الدولةِ وأجهزتِها من المدرسةِ إلى الجيشِ، كما تشيرُ مصطلحاتُ القاموسِ الكتائبيّ: تربيةُ النشء، التربيةُ المدنيةُ، الهتافُ للبنان ورئيسِه(٨١). فالجسديّةُ القوميّةُ السُّوريّةُ كانت أقربَ إلى المِثال الفاشيِّ لجهة هجوميَّتِها وانقلابِيَّتها، في مقابل الجسديّة الكتائبيّة الدفاعية والمُتصالحة مع الواقع.

(٧٧) انظر: **تاريخ حزب الكتائب**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٧١ هـ.
(٧٨) وهو في الواقع يفوقه كثيراً، إذ قياساً بسعادة يبدو التوكيد الكتائبي على القوة والنظام تمرينات بدنية لشبيبة المدن. وربما كان هذا من مصادر الفكرة الشعبية التي شاعت طويلاً واستمرت حتى ١٩٧٥ حول الشجاعة المنسوبة إلى القوميين والرقة المنسوبة إلى الكتائبيين.
(٧٩) **تاريخ حزب الكتائب**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٧٢.
(٨٠) المرجع السابق، ص ٧٤.
(٨١) على أن المقارنة مع قوميي سعادة، في هذا الجانب على الأقل، أغرت الكثيرين من الكتّاب والمؤرخين والباحثين، فكتب أحدهم وهو بريطاني بشيء من القسوة وعدم الدقة: «كانت الكتائب اللبنانية تشبه [السوريين القوميين] في التنظيم، لكنها كانت علانية، غير سياسة. ومنذ نشأتها شكّلت الكتائب واحداً من فروع الحزبية القائلة بالوحدة اللبنانية، فوقفت منذ أواخر ١٩٣٦ فصاعداً إلى جانب المصلحة اللبنانية ذات الأرجحية المارونية بصورة محضة، وأعطت الملابس النظامية وأعمال التدريب والتظيم شبه العسكري لاحتفالات الكتائب وفرقها مكانةً تتعدى تلك المعروفة في عالم الخدمات الاجتماعية والرياضيّة، كما ادعت هي. وبقيادة شاب ماروني نشط وكفوء هو بيار الجميل، أصبحوا قوة محترمة في المجتمع والسياسة، وحظي التنظيم بدعم المفوض السامي في خريف ١٩٣٩ فضلاً عن آخرين. أمّا ما كان يضاهيها في المدن اللبنانية فتمثل في النجادة...». Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon...*, *op. cit.*, p. 226.

وعلى أية حالٍ، فالقوةُ ورموزُها هي التي يُناط بها ردُّ الخوفِ في آخر الأمر، والجميل الشَّاب الذي كان رئيساً لاتحادِ كرةِ القدمِ في لبنان وفَّرت له رياضيتُهُ نقطةَ التقاطعِ بينَ القوةِ الخامِ وضبطِها في أشكالَ وقنواتٍ تجعلُها «ألعاباً» تقبلُ الإستيعابَ والإدراجَ في المناسباتِ العامَّةِ والوطنية. لكنَّه أيضاً بدأ حياتَه متراوحاً بين الخوفِ والقوةِ على نحوٍ لم يشذ عنهُ أيٌّ من منعطفاتِ هذه الحياةِ اللاحقةِ. لا بل ورِث تركةَ الخوفِ والقوةِ بنتيجةِ تحدُّرهِ عن والدٍ «هاجر إلى مصر هرباً من السلطاتِ العثمانيةِ التي كانت تَتَعَقَّبُهُ لتُنزلَ بهِ عقوبةَ الإعدام «مُمَهِّداً للحاقِ العائلةِ به(٨٢). وبحسبِ أحدِهم صدرَ هذا الحكمُ في ١٩٠٥ أي سنة ولادة بيار مما حالَ دون رجوعِ العائلةِ إلى لبنان حتى انتهاءِ الحربِ العالميَّةِ الأولى(٨٣).

وفي لَحاقِ العائلةِ بربِّ الأسرةِ يستعيدُ بيار الجميّل فصلاً شهيراً في تواريخِ العبورِ الملحميةِ، حيث يختلطُ الخوف بالذاكرةِ والرمزِ اختلاطاً يعرفُهُ كلُّ تجاورٍ وثيقٍ بينَ الواقعِ والخرافة. ومما شاهدَهُ بيار الصغير، بحسبِ روايتِهِ اللاحقةِ للكاتِبِ الفرنسيّ جاك نانتيه، أنَّهُ «في صالونٍ على ظهرِ الباخرةِ [وَجَدْتُ] مغارةً مضاءةً نصلّي أمامها. كنَّا، إذاً، حقّاً في فترةِ الميلادِ، وكانت أُمُّنا لإدخالِ الطمأنينةِ إلى قلبينَا، تروي لَنَا أنَّ الطِّفلَ يسوع أُجْبِرَ هو أيضاً على التوجُّه إلى مصر مع أبويهِ للنَّجاةِ من مُضطهديه»(٨٤).

وإذا كانت البيئةُ المهجريةِ بيئةً صالحةً لإثارةِ ردودِ الفعلِ الشعوريةِ الصارخةِ، نظراً لفقدانِ الإحتكاكِ المباشِرِ بواقعٍ معيَّنٍ، فإنَّ إضفاء النفي وحكمِ الإعدامِ على الهجرةِ لا يفعلُ غير إسباغِ شحنةٍ شعوريَّةٍ إضافيةٍ تجمعُ إلى الكراهيةِ والحقدِ حنيناً إلى عودةٍ مقموعةٍ واستذكاراً لماضٍ تمَّت مصادرتُه.

البيئة المهجريَّة

في رسمِ البيئةِ التي وُجدت في مصر قبلَ قدومِ الجميّل، والتي ما لبِثت أن رعتهُ فتىً صغيراً، يتحدَّثُ فيليب حتّي عن اللبنانيينَ (والسوريين) بوصفِهِم «يقومونَ بخدماتٍ جلّى في حقولِ الطبِّ والصَّيدلةِ والادارةِ الحكوميةِ، المدينةِ منها والعسكرية، حتّى أنَّ بعضَ الموظفينَ الإنكليز كانوا يقولون: «لقد كان باستطاعَتِنَا احتلالَ البِلادِ، ولم يكن باستطاعَتِنَا الإحتفاظَ بهما لولا هؤلاء السّوريونَ واللبنانيونَ». أمَّا أولئك المهاجرونَ منهم

(٨٢) جوزيف قصيفي، ملف «حكم آل الجميل»، في صحيفة **الجمهورية** ١٩٨٥/١٢/٢٤ ضمن سلسلة تحقيقات صحافية حملت عنوان: «الجمهورية تفتح ملفات لبنان السياسية والاقتصادية والاجتماعية».
(٨٣) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 233 n.
(٨٤) راجع **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

الّذين اشتغلوا في الأدب والصّحافة والعِلم «فلم يقتصر أثرُهم على مصر وحدها بل تعدّاها إلى سائر الأقطار العربية»[٨٥]. وبدوره يُشير ألبرت حوراني بقدر أكبر من الإستفاضةِ والتفصيلِ إلى طبيعةِ الهجرةِ اللبنانيةِ السوريةِ إلى مصر، مُلاحظاً أنّ «هجرةَ آلافٍ عدّةٍ من السوريينَ إلى بلدان أخرى، عمِلت على توفيرِ الاستقبالِ للحضارةِ الغربية. وفي الغالبِ كانوا يَفِدُون من لبنان أكثر مما من البلدان الأخرى، وكانوا من المسيحيين أكثر مما من المسلمين»[٨٦]. ويُسَمّي حوراني جرياً على ما دَرَجَ عليه آخرون، بعض أولئك المسيحيينَ اللبنانيين الرواد: «أساتذةُ وشعراءُ عائلتي البستاني واليازجيّ» و«آباءُ الصحافة العربية الشّدياق ونمر وصروف وزيدان وتقلا» و«الشّاعر خليل مطران» و«أفضل الكاتباتِ العربياتِ» مي زيادة و«الرحّالة أمين الريحاني» و«الصّوفي خليل جبران»، ومعهم إسمُ مسلمٍ واحدٌ هو «المصلحُ الدينيُّ» الشّيخ رشيد رضا[٨٧].

فالمعرفةُ باللّغات الأجنبية والمهاراتِ الحديثةِ كانت تحتاجُها مصر بغزارةٍ في النّصف الثّاني من القرنِ الماضي، أي خلال عهدي سعيد واسماعيل. وفيما كانت المدارسُ التبشيريّةُ في سورية ولبنان قد وفّرت أعداداً واسعةً من حَمَلَةِ هذه المعارفِ، معطوفةً عليها معرفةُ اللغةِ العربيّة معرفةً لم يتمتّع بها أبناءُ سائر الجنسياتِ والأقلياتِ في مصر، سجّلت هجرةُ القرن التّاسع عشر على سابقاتِها ارتفاعاً في أعداد الريفيينَ والموارنةِ المهاجرين[٨٨].

ولم يكن الخديوي أقلَّ سخاءً حيالَ المهاجرينَ من الإدارة الإنكليزية، فدَرَجَ على منحِ تسعةِ طلاب لبنانيين وسوريين مِنَحاً سنويةً لدراسةِ الطبّ في القاهرة[٨٩]. أمّا مراجعة بعضِ أسماءِ أوائلِ الأطباءِ والمناطقِ التي جاؤوا منها، فلا تترك مجالاً للشكّ بصددِ اللّونِ الطّائفيّ والمذهبيّ للّذين توخوا دراسةَ الطبّ في مصر حتّى قبل الإحتلالِ الإنكليزيّ لها. فهم بحسبِ الأسماء التي توافرت، إبراهيم نجّار من دير القمر وغالب خوري مِن بعقلين ويوسف جلخ ويوسف مرهج لطيف[٩٠]. وفي ١٨٥٩ حينَ زار سعيد باشا بيروت فإنّهُ «لم يُقِم عند الحاكم العثمانيّ أو أيٍّ من الأعيانِ المسلمينَ، بل عند عائلةِ بُسْترس المسيحيّة التجاريّة» في بيروت. أما إسماعيل فبدورِهِ «قدّم معوناتٍ للصحافيين

(٨٥) فيليب حتي، **لبنان في التاريخ**...، سبق الاستشهاد، ص ٥٧٦.
(٨٦) A.Hourani, *Syria and Lebanon...*, *op. cit.*, p. 34 & 35.
(٨٧) *Ibid.*, p. 37
انظر في صدد النشاط الثقافي ـ الأدبي إلخ: أحمد طاهر حسنين، **دور الشاميين في النهضة الأدبيّة الحديثة**، دار الوثبة، دمشق ١٩٨٣.
(٨٨) انظر A.Hourani, *The Emergence...*, *op. cit.*, p. 114-116
(٨٩) Marwan Buheiry, «Bulus Nujaym...», *op. cit.*, p. 65.
(٩٠) *Ibid.*, p. 65 n.

السّوريينَ» كما ساعد «بطرس البستاني وعائلتَهُ على نشر دائرة معارفهم»[٩١]. وفي أيّةِ حال فبسبب من ارتياحِ الإنكليز والخديوي للمهاجرين «الشّوام» قُدِّرت ثروةُ هؤلاء عام ١٩٠٧ بعُشرِ الثّروةِ القوميةِ المصرية[٩٢].

أما مدينةُ المنصورة التي قصدها آل الجميّل فانقسمَ مهاجروها مبكراً «على أساسٍ طائفيّ» وكان «للطائفيةِ دورٌ كبيرٌ في بروزِ فرق كشافةٍ، خاصةٍ بكلِّ طائفةٍ، كما تأسّست جميعاتٌ خيريةٌ لها منذ القرنِ التاسع عشر»، الشيءُ الذي استمرّ إلى ما بعد الحرب العالميّة الأولى حيث باتت للطوائف «مدارسُها وأنديتُها وكشافُها وفرقُها الموسيقية وجمعياتُها الخيرية»[٩٣].

وبدوْرِهِم، فالمهاجرونَ اللبنانيونَ إلى المنصورةِ كانوا «بشكلٍ أكثرَ تحديداً، من مهاجري متصرّفيةِ جبل لبنان»[٩٤]. هناك وَجَدَتْ عائلةُ الجميل «أنسباء يحضنونها. وكان فرعٌ قريبٌ منهم يملك فبركةً «مصريةً» ألهامة للسجائر»[٩٥]، إذ منذ ١٨٩١ ولآل الجميّل حصّةٌ مرموقةٌ بين «الشخصياتِ المارونيةِ» في المدينةِ المذكورة[٩٦].

وهكذا سرعان ما تمكّن الدكتور أمين الجميّل، والد بيار، من «مزاولةِ الطبِّ داخل حلقةٍ واسعةٍ» ربطته، بحسب نانتيه، بصلةٍ مباشرةٍ بالملك فؤاد[٩٧]، وقوّت علاقته بالدوائر العليا للمجتمعِ المصري الذي اشتهر بتراتُبِه الإجتماعيّ القاطع وحراكِهِ الطبقيّ شبه المعدوم.

تكتملُ لوحةُ الوجودِ المسيحيّ المهاجر في مصر بالإشارة إلى الحقلِ السياسيّ حيثُ لعب بعضُ المهاجرين أدواراً ملحوظةً في توطيدِ الصِّلةِ بين الهاشميين والبريطانيين، إذ انطلاقاً من مصر أمكنَ توسيعُ حلقةِ النشاطِ الوسيطِ المتعددِ الأوجهِ الذي سبقتِ الإشارةُ إليه. والصلة بين الطّرفينِ المذكورَينِ هي بين العناصرِ التي أدّت

(٩١) A.Hourani, *The emergence...*, *op. cit.*, p. 115-116.
(٩٢) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية إلى مصر ـ «هجرة الشوام»**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٦، ص ١٦٥.
(٩٣) المرجع السابق، ص ١٤٧.
(٩٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٩٥) جاك نانتيه، في: **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد. وأغلب الظن أنّ صاحب الشركة هو والد موريس الجميل الذي اقترن بيار بابنته لاحقاً.
(٩٦) يُسمي مسعود ضاهر من هؤلاء الشخصيات: خليل صعب، انطون صالح، ضاهر الجميل، حنا توما، بشارة الزند، موسى حشيمة، كنج والياس الجميل. **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٤٩ ـ ٥٠. هذا ويعود الوجود الماروني هناك إلى «أوائل القرن التاسع عشر» ولاحقاً، وفي ١٩٢٧ كان عدد الموارنة في المنصورة ٥١٦ شخصاً علماً أن سنوات ما بعد الحرب الأولى شهدت عودة الكثيرين إلى لبنان، ص ٤٩ ـ ٥١.
(٩٧) **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

إلى تسريعِ إعلانِ الثَّورةِ الحجازيةِ ضدَّ العثمانيينَ في ١٩١٦، الشيءُ الذي تردَّد شريفُ مكَّة طويلاً في الإقدامِ عليهِ، كما عمِلت هذه الصلةُ على الحدِّ من طغيانِ اللَّونِ الشريفي على الثورةِ إياها.

فبحسبِ ما رواهُ فارس نمر، صاحبُ ومحررُ جريدةِ «المقطَّم»، لزين نور الدّين زين، تمَّت الإجتماعاتُ التي حصلت في مصر في ١٩١٤ بين اللُّورد كتشنر والأمير عبدالله مبعوثِ والدِهِ الحسين بن علي، في مكتبِ نمر «في بعض الغرفِ الخلفيةِ لبنايةِ المقطم»[٩٨]. وبين الحربِ العالميةِ الأولى والإنتدابِ الفرنسيّ على سورية ولبنان، أسَّسَ المهاجرونَ اللبنانيونَ في مصر عدَّةَ أحزاب كان منها «حزبُ الإتحادِ السوريّ» و«الحزبُ الوطنيُّ اللبناني» و«الحزبُ اللبنانيّ» أو «الحزبُ السوريُّ ـ الفرنسيّ في مصر» الذي أسماهُ الوحدويونَ «الحزبَ الفرنسيّ» و«الحزبُ الحرُّ المعتدل» و«جميعةُ الإتحادِ اللبنانيّ» وقد تفاوتت أطروحاتُ هذهِ الأحزابِ والجمعياتِ بين لبنان الكبير في ظلِّ الإنتدابِ الفرنسيّ والدعوةِ الوحدويةِ السوريةِ ذاتِ الهوى البريطانيّ[٩٩].

ومنذ البداية لم تشذّ نقاطُ السكنِ التي استقرَّ فيها المهاجرونَ عن العلاماتِ الأخرى على هذا الخيار «المُتَغرِّب» والأقليّ. ففي رصدِهِ للتجّارِ المسيحيينَ المهاجرينَ الأوائل، سجَّل حوراني أنَّهمُ «عاشوا في أمكنةٍ متعدِّدةٍ: عاشَ البعضُ في القاهرةِ القديمة، لكنَّ الأكثريةَ عاشت في الحيّ الفرنسيّ («حارة الإفرنج») بالقُربِ من التُّجارِ الفرنسيينَ والأوروبيينَ الآخرين [...] وهنا أيضاً سكنوا مُلْتَفِّين حول كنائِسِهم. ففي دمياط كانت هناك كنيسةٌ سوريةٌ وُجِدَت على امتدادِ معظمِ القرنِ الثَّامنِ عشر وكانت للموارنةِ، إلَّا أنَّ المَلَكِيِّينَ كانوا يستعمِلونَهَا أيضاً، أمَّا خِدمتُها فكانت تتمُّ بموجبِ النظامِ المارونيّ كما وضعَهُ الآباءُ اللبنانيونَ منذ ١٧٤٥ وبموجبِ النظامِ الملكيّ لباسيليي المخلص»[١٠٠].

لَئن كانت هذهِ الحالُ، النخبويةُ والأقليةُ والوسيطةُ مع الغربِ، حالَ معظمِ المهاجرينَ المسيحيينَ إلى مصر، فقد ظَهَرَ في طليعةِ هؤلاء، فضلاً عن الدكتور أمين الجميل، نسيبُهُ صاحبُ شركةِ السَّجائرِ، وكنج الجميل «أكبرُ تاجرٍ في مدينة المنصورة [...] ورئيسُ الجمعيَّةِ الخيريةِ المارونية»[١٠١]، والشيخُ أنطون الجميّل[١٠٢]، العمُّ الفذُّ» لبيار[١٠٣] الذي أنشأ في القاهرة في ١٩١٠ مجلَّةً «علميةً أدبيةً شهريةً»

(٩٨) زين نور الدين زين، «أسباب الثورة العربية الكبرى»، في: **دراسات في الثورة العربية الكبرى**، الشركة العالمية الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، ص ٥٧ هـ.
(٩٩) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(١٠٠) A.Hourani, *The emergence*..., *op. cit.*, p. 106-107.
(١٠١) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٣٤٨.
(١٠٢) انظر في الذكرى المئوية لميلاده: **النهار** ١٩٨٧/٧/٢٠.
(١٠٣) بحسب تسمية جاك نانتيه، في **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

أسماها «الزُّهور»[١٠٤]، وإلى جانبِ اهتماماتٍ أخرى اهتمَّت المجلَّةُ المذكورةُ بـ «البحثِ عن مفرداتٍ لما استجدَّ للمخترعاتِ الحديثةِ والإكتشافات»[١٠٥]. وألَّف أنطون الجميّل فصلاً مسرحيّاً بعنوان «أبطالُ الحريّة» سنة ١٩٠٨ لدى إعلان الدُّستورِ العثمانيّ، ووضعَ، عملاً بالمناخِ الفكريّ المسيحيّ يومذاك والذي دَرَجَ على معارضةِ الإسلامِ بالعروبةِ، مسرحيةً عن «السَّموأل أو وفاء العرب»[١٠٦]. كذلك رأسَ الجميل تحريرَ جريدةِ «الأهرام» كما عُيِّنَ عضواً في مجلسِ الشُّيوخ المصريّ ومن ثمَّ مستشاراً للملك فاروق[١٠٧].

بدورِها لم تكن حالُ الأقباطِ المصريينَ في المدنِ، وهُم النطاقُ الأعرضُ المحيطُ بالمهاجرينَ المسيحيينَ، تختلفُ كثيراً في الخُلاصاتِ العامَّة، وإن تمايزت لِجهةِ طغيانِ وطائفِ الفئاتِ غيرِ الأولى تبعاً لمصريَّةِ الأقباطِ وحاجةِ سائرِ مراتبِ الإدارةِ لهم فضلاً عن ضخامةِ عددِهم قياساً بالمهاجرين. فقد اشار، مثلاً، أحد التقاريرِ الإنكليزيّة إلى أنَّهم «كانوا يمثلون في ١٩٠١ أقلّ من ١٠٪ من السكان [و] كانوا يشغلون ٤٥,٢٣٪ من الوظائفِ الإداريةِ ويستأثرونَ بـ ٤٠٪ من رواتبِ الوظيفةِ العامَّة»[١٠٨].

بلغةٍ أخرى، استطاعت البيئةُ المسيحيةُ اللبنانيةُ في مصر المرعيَّةُ بالإنتداب، ومن حولِها المحيطُ القبطيُّ المِصريّ، أن تُوَفِّرَ مناخاً لتَشَكُّلِ وعيَ بيار الجميل الفتى هو في أكثرِ جوانبِهِ امتدادٌ للمناخِ النخبويّ المارونيّ الجبليّ بعد تحريرِهِ من الكبتِ العثماني.

ونجحت هذه البيئةُ في أن تتكفَّلَ بتوفيرِ الرعايةِ والحمايةِ من الخَوفِ تبعاً لِحُسنِ العلاقةِ مع الإنكليز والخديوي، بما عمل على دمجها في البيئةِ الكولونياليَّةِ الأعرض. فجرجس الجميّل «عُيِّنَ ترجماناً للقنصليةِ الفرنسيةِ في الإسكندرية [و] كان فرنسيَّ النَّزعةِ وتوفِّيَ مقتولاً بحرابِ رجالِ الشُّرطةِ ووكلاءِ الأمنِ المِصريّ إبَّان ثورةِ أحمد عُرابي عام ١٨٨٢»[١٠٩] أي أنَّ الخوفَ كان لا يتسلَّلُ إلى متنِ هذِه البيئةِ إلا لحظَةَ تصدُّعِ النِّصابِ الكولونياليّ القائمِ وسطوعِ الفوضى الجماهيريةِ وعنفِها. وفعلاً رجع عددٌ من المهاجرينَ البكفاويينَ الموارنةِ إلى لبنان مع ثورةِ عُرابي باشا ضد الإنكليز[١١٠] التي

(١٠٤) أحمد طاهر حسنين، **دور الشاميين**...، سبق الاستشهاد، ص ٨٤، حيث يورد جدولاً بـ «الشاميين» الذين أسسوا صحفاً ومجلات في مصر.
(١٠٥) المرجع السابق، ص ١١٤.
(١٠٦) المرجع السابق، ص ٢٣٤.
(١٠٧) انظر مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٦١ و٢٧٠ و٣٥٦.
(١٠٨) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، عن: جورج قرم، **تعدد الأديان وانظمة الحكم، دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة**، دار النهار للنشر، ١٩٧٩، ص ٣٠٤ هـ.
(١٠٩) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٣٨٨.
(١١٠) انظر: طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، منشورات مكتبة البستان، الأشرفية، ١٩٦٩ الجزء الأول، قرى ومدن المتن الشمالي، ص ٩٣.

اشتهرت بضيقِ أفُقِها القومي والدينيّ وحِدَّةِ عدائِها للغريب.

وما ينطبقُ على جرجس الجميل ينطبقُ، بنسبةٍ أو أخرى، على معظمِ المهاجرينَ من أفرادِ أسرتِهِ. فيوسف بشير الجميل، عمّ بيار، هرَبَ من لبنان تبعاً لـ «اضطهادِ الأتراكِ له بسببِ ميولِه الفرنسيَّة المعروفة ودعوتِه لاستقلالِ لبنان الكامل»، وكان «من أوائلِ المهاجرينَ اللبنانيينَ العائدينَ إلى بيروت على ظهرِ طرَّادٍ فرنسيّ بناءً على استدعاءِ أوّل مفوَّض سامٍ فرنسيّ، المُسيو فرانسوا جورج بيكو. سَافرَ إلى باريس في العامِ نفسِه، وبمهمَّةٍ ثانيةٍ عام ١٩٢٠ مع الوفدِ اللبنانيّ الثّاني إلى مؤتمرِ الصلح». وغنطوس أنطون الجميل وَجَدَ وظيفَةً له «في قلمِ ماليةِ حكومةِ السودان»، وميشال شاوول الجميّل «ترأس قلمَ الإدارةِ الأولى التابعة لمحكمةِ الإستئنافِ المختلطةِ البدائيةِ في الإسكندرية»، وشارل فيليب الجميل عُيِّنَ «معاوناً لرئيسِ قلمِ المحكمةِ المختلَطَةِ البدائيةِ في الإسكندرية»، والفرد الجميل «كاتباً في المحكمةِ نفسِها»، والدكتور ناصيف الجميّل عُيِّنَ «طبيباً في حكومةِ السُّودان»، وحبيب ويوسف الجميّل تسلّما «وكالةَ بيتِ اللورد كِتشِنِر المشهورِ في مصر والسودان»، وعُيِّنَ جوزيف الجميل «موظَّفاً في قلمِ المحكمةِ المختلطةِ في المنصورة»[١١١].

إلَّا أنَّ عملَ هذهِ البيئةِ يتعدَّى توطيدَ الإستقرارِ وطردَ الخوفِ إلى إثارةِ حِسِّ التفوُّقِ التمدينيّ حيالَ المصريينَ أنفسِهم، وهو حِسٌّ كولونياليّ تعريفاً لجهةِ إفعامِهِ بالقوةِ والتَّوكيدِ الذّاتي و«عبء» الدّورِ والمهمة.

بهذا المعنى، فالخلفيَّةُ السِّياسيةُ التي صدر عنها الشَّيخ بيار الجميل ولازمتهُ في السنواتِ الأولى لإنشاءِ الكتائب، ولو بعدَ تحويرِها، كانت من بعضِ هذهِ العدَّةِ الكولونياليةِ، حيثُ أنَّ «والدَهُ الشيخَ أمين وعمَّه الشيخَ يوسف كانا من أشدِّ المتحمِّسينَ لإميل إدّه، وهذهِ الحماسةُ انتقلت لاحقاً إلى الشَّيخ بيار. وكانت تُرَدَّدُ في البيوتِ والمناطقِ المسيحيةِ جملةٌ شهيرةٌ: الآباءُ كُتْلَوِيُّونَ والأبناءُ كتائب»[١١٢].

وقد تعلَّمَ بيار الجميل من البداياتِ المصريةِ لهذِهِ التَّجربةِ ما تعلَّمَه أنطون سعادة، ابنُ الطَّبيبِ والمثقَّف خليل سعادة، والَّذي تبلورَ وعيُهُ الجنينيُّ في المهجرِ أيضاً. ومؤدَّى ما تعلَّمَه الإثنان، كلٌّ على طريقتِهِ وباختلافٍ في درجتي الحدَّةِ والتوكيدِ، أنَّ «النوعيَّةَ تفوقُ الكمَّ العدديّ أهميةً إذا ما توافرت لها مواصفاتُ قوةٍ ما، خصوصاً أنَّ المنصورةَ التي استقرَّت فيها عائلةُ الجميل هيَ من المُدُنِ التي «لم يُلاحظ [فيها] وجودُ جالياتٍ

(١١١) مسعود ضاهر، الهجرة اللبنانية... سبق الاستشهاد، ص ٣٨٨ ـ ٣٩٠.

(١١٢) ا. اسكندر، «اي كتائب نريد؟» في **المسيرة** في ٢٨/١٠/١٩٨٧، وهو ما يؤكده جوزيف أبو خليل في المقابلة الشخصية معه، سبق الاستشهاد.

كبيرةٍ أوروبية [...] لذلك برزت الجاليةُ السُّوريةُ ـ اللبنانيةُ بقوةٍ»، وفضلاً عن بقاءِ الميدانِ خالياً لهم، قلَّد «شوامُ» المنصورةِ الأجانبَ «في عاداتِهم وتقاليدِهم وتخاطُبِهم بلغةٍ فرنسيةٍ وغناهم المُمَيَّز إذ «لم يكُن بينهم فقراء»[١١٣]. مثلُ هذا الدرسِ بقيَ ضامِراً في النشاطِ النُّخبويّ الذي مثَّلتِ الكتائبُ في وقتٍ لاحقٍ أحدَ تعابيره، من دونِ أن تَخفى صِلَتُه بتجربةِ المهجرِ ونظامِهِ القِيَميّ المميز[١١٤].

بِكفيّا والكَنيسَة

ليست بكفيّا، التي يتُمُّ استذكارُها في وسطِ الأهلِ في مصر، قليلةَ الإثارةِ للشُّعورِ بالتفوُّقِ، وما يصحُّ فيها يصحُّ في المصدرِ الطبقيّ للعائلةِ (آل الجميل) منذُ ظهرت ونمت هناك.

ففي أواخرِ القرنِ السادس عشر وحينَ «امتثَلَ» أبناءُ الجميل للأمير منصور العسَّافيّ «أكرمهُم وأقطعهُم على بكفيّا وضواحيها الشماليةِ، وأوفدهم فوراً إليها ليُحْيُوا أراضيها وليجدِّدوا حضارتَها»[١١٥].

وفي بكفيّا اعتنقَ أمراءُ أبي اللَّمع الدروزُ المذهبَ المارونيَّ تعبيراً عن رُجحَانِ الكفَّةِ الإقتصاديةِ والتَّعليميةِ للموارنةِ[١١٦]، وكانت بكفيّا من البلداتِ اللُّبنانيةِ المبكرةِ التي استقبَلَت التَّعليمَ اليسوعيَّ[١١٧]، كما حضنت الحياكةَ النسيجيَّةَ ومعاملَ الدخانِ[١١٨]، لتعرفَ في أواخرِ القرنِ الماضي نمواً سياحيّاً تمثَّل في «إنشاءِ دُورِ السَّكنِ والفنادقِ والمنتزهاتِ»[١١٩].

(١١٣) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ١٤٧ و٢٥٨.

(١١٤) عندما تحدث في «المؤتمر العربي الأول» في باريس (١٩١٣) الماروني الجبلي نعوم مكرزل باسم المغتربين، حدّد الوجه المعلن لإيديولوجيا الهجرة اللبنانية كما لو كان يحور الإنقسام الطائفي ويصيغه في لغة من الاصطفاف النخبوي الفكري: حيث التطور والتقدم التدريجيان في مكان وقيم التراتب العثماني في مكان آخر. فالمهاجرون على عمومهم يعتقدون، تبعاً لممثليهم، «باللامركزية الحرة المساوية المنصفة، وهم بكتائب تجارهم وعصائب أدبائهم وأسراب محصناتهم معكم على الاصلاح بالشعور الوطني» ليضيف مخاطباً المؤتمر «أيها المصلحون، نحن في المهاجر نعتقد بالحركة لا بالسكون. نعتقد بأن من لا يتقدم يكون بحكم جموده وتقدم غيره متأخراً. نعتقد بالاخلاص في النية والقول والعمل. نعتقد بالحرية والمساواة والعدل، ونعتقد بالثورة، إلا أن اعتقادنا بالثورة مشروط فيه أن تكون أدبية إصلاحية». عن: وجيه كوثراني (تقديم ودراسة)، **وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣**، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(١١٥) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٨٠.

(١١٦) انظر، بين مراجع أخرى، جاك كولان (تعريب نبيل هادي، تقديم جاك بيرك): **الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦**، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥٨.

(١١٧) انظر فيليب حتّي، **لبنان في التاريخ**...، سبق الاستشهاد، ص ٥٥.

(١١٨) انظر جاك كولان، **الحركة النقابية**...، سبق الاستشهاد، ص ٤٣ ـ ٤٤ و٤٥.

(١١٩) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٣.

لقد ساعدَ بكفيّا في ذلك كلِّهِ، وفي توسيعِها العمرانيّ وتدفُّق السكَّان عليها، بقاءُ المواجهاتِ الدَّامية خلالَ القرنِ الماضي بعيدةً نسبيّاً عنها. فكلُّ ما وصلَهَا من تلكَ المواجهاتِ أنَّها كانت «ممرّاً ليوسف بك كرم الَّذي قَدِمَ من الشَّمالِ لنجدةِ أهالي زحلة»[١٢٠] التي لم يبلغْهَا. وهكذا فيما كانتِ الحروبُ الأهليةُ تفتُكُ بالجبليينَ في ١٨٥٨ «كانَ الآباء اليسوعيونَ يقومونَ ببناءِ كنيسةٍ كبيرةٍ مُلاصِقَةٍ لدَيرِهِم في بكفيّا»[١٢١].

في وقتٍ لاحقٍ ارتبطَ اسمُ البلدةِ بنُوى النشاطِ المطلبيّ العمَّاليّ الذي أسفرَ في آخرِ المَطافِ عن ولادةِ حزبٍ شيوعيّ لم ينذُر واصفُوه بالنَّزعةِ الأقليَّةِ. ففي ١٩٢٤ نشأت فيها نقابةُ عمَّالِ التبغِ[١٢٢] وكانت المبادرةُ التأسيسيةُ للعاملِ المارونيّ العائدِ من مصر فؤاد الشمالي، إبن قريةِ سهيلة في كسروان. وفي بكفيّا تُرجِمَ النشيدُ الأمميّ إلى العربية، كما ساهمتِ اللِّقاءاتُ التي تمَّت فيها (وفي الحدث) في إنشاءِ «حزبِ الشَّعب اللُّبناني» نواةِ الحزبِ الشيوعيّ الذي ظلَّت بكفيّا مركَزَهُ[١٢٣]، حتى إذا ما صدرت صحيفةُ «الإنسانيةِ» المُعَبِّرةُ عن هذا الخطِّ الجديدِ كانَ قرارُ الإصدارِ قد اتُّخِذَ هناك[١٢٤].

قُصارى القول إنَّ بكفيّا لم تعدَم ما يؤكِّدُ لأصحابِها حِسَّهم النُّخبويّ، إن لِجهةِ الإرتباطِ بقطاعٍ إقتصاديّ حديثٍ وافدٍ من أوروبا (الصناعة)، أو لجهةِ التَّعبيرِ عن همومٍ ومشكلاتٍ تُجافي الصِّياغةَ التقليديةَ الموروثةَ عن الذِّهنيةِ العثمانيةِ لفكرتَيْ الإجتماعِ والسِّياسةِ. ولم يكن الفضلُ في هذا التعبيرِ بعيداً عن الإنتدابِ الفرنسيّ والمعنى التقدميّ الفوقيّ الَّذي انطوَى عليه. وتحديداً عن جهودِ الحاكمِ الفرنسيّ كايلا الَّذي وصفَهُ شكري بخّاش أحَدُ أوائِلِ الدُّعاةِ الاشتراكيينَ بالتحلّي بـ «مشاعرَ مؤيدةٍ للعمَّالِ والفلاحينَ تجلَّت بإعلانِهِ إقامةَ المصرِفِ الزراعيّ وغرفِ الزراعة»[١٢٥].

وفي معركتِهِ مع اليَسوعيةِ ورجالِ الدّينِ اعتمدَ الحاكمُ الفرنسيُّ الآخر سَرَّاي على «الراديكاليينَ والإشتراكيينَ والماسونيينَ»، كما تَرَكَ بصماتِهِ على نشاطِهم وأفكارِهِم، عِلماً أنَّهُ هو الَّذي قصفَ الدُّروزَ في حوران إبَّان انتفاضَتِهم الأهليةِ في ١٩٢٥ وتحالفِهم مع «الحركةِ الوطنيةِ» للمدنِ السوريةِ السنِّيَّةِ بما استجلبَ عليه حقدَ المسلمينَ وكرهَهُم[١٢٦].

(١٢٠) المرجع السابق، ص ٩٢.
(١٢١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(١٢٢) جاك كولان، **الحركة النقابية**...، سبق الاستشهاد، ص ٣ و١١٣.
(١٢٣) المرجع السابق، ص ١١٧ و١١٩.
(١٢٤) المرجع السابق، ص ١٢٦.
(١٢٥) المرجع السابق، ص ١٢٢. وكايلا هو الذي «أعرب عن تأييده لاشتراك ممثلين عن العمّال في أعمال اللجنة المكلفة بوضع مشروع لتشريع العمل»، ص ١٢٥. وقد يكون ذا معنى رمزي أنَّ مقر «حزب العمال العام في لبنان الكبير» في الصيفي، وهو الحزب الذي تأسس في ١٩٢١ (ص ٩٥ ـ ٩٦) أضحى لاحقاً مقر حزب الكتائب أو بيته المركزي.
(١٢٦) انظر مسعود ضاهر، **تاريخ لبنان الاجتماعي، ١٩١٤ ـ ١٩٢٦**، دار الفارابي ١٩٧٤، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣.

ومن بينِ عمَّالِ التَّبغِ في بكفيّا كان معظمُ أعضاءِ «اللَّجنةِ التنفيذيةِ» لـ «حزبِ الشعبِ اللبنانيّ» وكان أحدُهم هنري الجميل[١٢٧]، من دونِ أن تظهرَ حدودٌ واضحةٌ بين «الاشتراكيَّةِ» التي يقولُ بها هؤلاءُ والبداياتِ «اللّيبراليةِ» الغامضةِ السَّائدةِ عند مثقفينَ مسيحيينَ كخير الله خيرالله وبشارة الخوري وإلياس أبو شبكة ممن جذبتهُم أيضاً الدَّعوة إلى المُسَاواةِ والرَّغبةِ في مُحَاكاةِ الغَربِ[١٢٨].

وكانت لآل الجميل مساهماتُهم في تأسيسِ معاملِ التَّبغِ، إذ في ١٩١٢ «أسَّسَ المشايخُ كنج وإلياس وأمين ويوسف الجميل [...] معملاً في إنطلياس، وفي العامِ نفسِهِ أسَّسَ المشايخُ لويس عون الجميل وفارس عون الجميل معملاً في بكفيّا»[١٢٩].

ومنذُ عهودٍ أسبق يحفِلُ تاريخُ بكفيّا بأحداث تستطيعُ عائلةُ الجميل أن تتغنّى بها، بحسبِ جاك نانتيه. فالعائلةُ أقامت هناكَ نحو العام ١٥٤٥ و«المنزلُ الَّذي ولدَ فيه بيار الجميلَ [...] كان أولَ ما بُنِيَ في ذاك الموقع»، وفي ١٧٩٥ كان البطريركُ المارونيُّ هو فيلبس الجميل ولم تكُن أبواب البطريركيةِ، حينها، قد فُتِحَت لغيرِ المنضوينَ في عليةِ القومِ. أمَّا لقبُ المشيخةِ فحصلَ عليهِ بشير الجميل، جدُّ بيار، في عهدِ الأميرِ بشير الشَّهابيّ الثاني[١٣٠].

بدورِهِ، وفي ١٨٥٥، عمل الخوري يوسف الجميل «بمعاونَةِ رئيسِ اليسوعيينَ» على تأسيسِ رهبَنَةٍ في بكفيّا» «عُرفت براهباتِ قلبِ يسوع ومريم. وقد وَقَفَ الخوري لهذهِ الرَّهبنةِ بيتَهُ وأملاكَهُ»[١٣١]. أمَّا أمين الجميل، والدُ بيار الذي يبدو أنَّهُ كان رئيساً للبلديةِ عند صدورِ الحُكمِ التركيّ عليهِ بالإعدامِ في ١٩٠٤، فإبَّان رئاستِهِ البلديَّةَ «بوشِرَ بشقِّ الطُرُقِ في مختلفِ أنحاءِ بكفيَّا»[١٣٢].

بيدَ أنَّ البلدةَ المذكورةَ الَّتي عاشت في جوارِ النِّزاعاتِ الطَّائفيةِ الدَّمويةِ للقرنِ الماضي، تعرَّضت كلُّهَا لمعاملةٍ عثمانيةٍ ظلَّ بيار الجميل يذكُرُها طويلاً، متحدِّثاً عن جدِّهِ الذي «لم يكن يحقُّ لهُ امتِطاءُ حصانٍ وإنَّما فقط ظهر حمار. وإنَّ نسوةً مسيحياتٍ كثيراتٍ كنَّ لا يزلن محجَّباتٍ»[١٣٣]. والرِّوايةُ البكفاويَّةُ عن دخولِ الجيشِ العثمانيّ في ١٩١٤، والتي رُبَّما سمِعَهَا بيار بعد عودتِهِ من مصر، لن تفعلَ سِوى إذكاءِ هذه المشاعر. فأولئكَ الجنودُ «حضَّروا الإستحكاماتِ في الأراضي، وقطَّعوا الأشجار وجمعُوا الأسلحةَ ونهبُوا

(١٢٧) انظر جاك كولان، **الحركة النقابية**...، سبق الاستشهاد، ص ١١٨ وهامش الصفحة نفسها.
(١٢٨) انظر المرجع السابق، الفصل الثاني.
(١٢٩) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٥.
(١٣٠) انظر **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.
(١٣١) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٤.
(١٣٢) المرجع السابق، ص ٩٥.
(١٣٣) جاك نانتيه، في: **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

موجوداتِ ديرِ الآباءِ اليسوعيّينَ واستولَوا عِنوةً واقتِداراً على منسوجاتِ الدِّيما [...] فأصيبَ أولئِكَ التجّارُ بخسائرَ فادحةٍ واضطرُّوا أن يوقِفُوا أعمالَهُم فضاعت مصالِحُهُم»، ترافقَ ذلكَ مع موجةِ الجَرَادِ الَّذي سمَّ الأشجارَ وأمحل المواسمَ(١٣٤).

وربَّما كان بكفاويُّ آخرُ هاجرَ إلى مصر، هو يوسف السَّودَا، قد عاشَ تجاربَ مماثلةً وسمِعَ قِصَصاً مشابهةً، بمَا دفعَهُ فِي شبابِهِ إلى الإنخراطِ في أحزاب «لبنانيّة» مارونيّة عِدَّة، أسَّسَ هو بعضها، ومن ثَمَّ كتابةِ «تاريخِ لبنان الحضاريّ» حيثُ «يُقيمُ الحُجَّةَ على أنّ لبنان هو لبنان بلا انقطاعٍ وأنَّ الأسماءَ الأخرى الحائِقَةَ بهِ ـ حتّى فينيقيا ـ ليست سوى أعراض عابرة»(١٣٥).

فِي لبنان يبرُزُ الشَّيخُ بيار بينَ عارفيهِ بوصفِهِ «الشّابَّ الرياضيّ الَّذي يحضرُ القداديسَ الكَنَسِيَّةَ كلَّهَا ويتحدَّثُ بلكنةٍ مِصرية»(١٣٦)، أي ذاكَ الذي يَقي نفسَهُ الخوفَ بأداتَينَ لطردِهِ: أداةٍ صوفيّةٍ رمزيّةٍ تَرُدُّ الفردَ الوحيدَ إلى رَحَمٍ وذاكِرَةٍ ومرجعٍ وجماعةٍ، وخاصَّةً الكنيسةِ خلاصةِ هذِهِ العناصرِ كلِّها وأداةٍ ماديّةٍ عضليّةٍ مباشرة هي الرِّياضةُ البدنيةُ وما توفِّره من متنفَّس وأشكال. ويبدو أن الجميل حاولَ الدَّمجَ بين هاتينِ الأداتينِ حينَ قادَهُ إعجابُهُ بطريقةِ تنظيمِ الرهبانياتِ اليسوعيَّةِ للسَّعي «إلى تطبيقِ النَّموذجِ نفسِهِ في رهبانيَّتِهِ المدنيَّةِ أي الكتائب. فاختارَ شعارَهُم المختصَّ بالطَّاعةِ وهو لا ينفكُّ يكرِّرُهُ علناً: إنَّ على الكتائبيّ أن يكونَ كاليسوعيّ جثَّةً بين أيدِي رؤسَائِهِ»(١٣٧). ذلك أنَّ الطاعةَ الَّتي يشيعها التَّنظيمُ الكَنَسيّ، وقِوامُهَا الوَرَعُ، تنتجُ القوَّةَ التي يُنَاط بها تبديدُ الخوف. وبهذا تكونُ الطاعةُ قاسماً مشتركاً أو همزةَ وصلٍ بين الكَنِيسَةِ والقوّة(١٣٨)، فيما هي تنمُّ عن فكرةِ «التَّنظيمِ» أو «النظامِ» النخبويةِ.

لكنَّ ما يتعدَّى الرَّمز أن الكنيسةَ المارونيَّةَ لم تعُد قادرةً، مع مطالعِ هذا القرنِ ووفادَةِ الغربِ الأوروبيّ وعلاقاتِه الرأسماليةِ وانهيارِ العالمِ العثمانيّ الَّذي صِيغَ الكثيرُ من وظائِفِهَا في سياقِ مقارعتِهِ، على أن تكونَ وحدَهَا «التنظيمَ» السياسيَّ والحزبيَّ الَّذي كانتهُ في القرنِ الماضي. وهي العمليةُ الَّتي لاحت تباشيرُها الأولى أواخر ذاك القرنِ كما عبَّرت عن ذلك محاولةُ المتصرِّفِ رستم باشا (١٨٧٣ ـ ١٨٨٣) تحدّي «سلطةَ الأكليروس الماروني ونفوذَهُ المتزايدَين»(١٣٩). وكان هذانِ النفوذُ والسلطةُ بَلَغَا مع الحركاتِ الفلَّاحيةِ

(١٣٤) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٦.

(١٣٥) أحمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٤٢.

(١٣٦) هذا الوصف منسوب للرئيس تقي الدين الصلح، من مقابلة شخصية مع منح الصلح في ١٩٨٦.

(١٣٧) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١١.

(١٣٨) ومثل هذه الصلة قد تكون تحويراً للاتصال، كما برهنه الباحث الألماني وليم رايخ، بين الدين والجنس، أو الهياج الديني والنشوة الجنسية تبعاً لصدور الاثنين عن الخضوع والطاعة، انظر: Wilhelm Reich, *The mass psychology of fascism*, A condor book, 1972, p. 149-151.

(١٣٩) انظر فيليب حتّي، **لبنان في التاريخ**...، سبق الاستشهاد، ص ٥٤١.

والعاميةِ ذروتهما بحيثُ استطاعَ البطريرك المارونيُّ أن يصيرَ «من بين جميعِ رؤساءِ الطوائفِ الروحيين، الرئيسَ الوحيدَ الَّذي يمارسُ سلطَتَهُ على رَعَايَا كنيسَتِهِ بدونِ براءةٍ رسميَّةٍ من السلطان. وقد أصرَّ بطاركَةُ الموارنةِ على رفضِ طلبِ البراءَةِ من البابِ العالي»(١٤٠).

وتحتَ تأثيرِ أفكارِ «الجمهوريَّةِ الثالثةِ» في فرنسا وقبلَ سنواتٍ على قدومِ الحاكِمِ العلمانيّ وخصمِ الكنيسةِ اللَّدودِ سَرَّاي، بدأت تظهرُ في أوساطِ المثقفينَ الموارنَةَ ردةٌ مناهضةٌ للكنيسةِ ودورها، فكتبَ بولس نجيم (جوبلان) يطالبُ بفرضِ الضرائبِ على ممتلكاتِهَا ويُنَبِّهُ إلى الضَّررِ الإقتصاديّ النَّاجمِ عن أوقافها، داعياً إلى إجراءاتٍ جذريةٍ كالمصادرةِ مع التَّعويضِ و«سنِّ قانونٍ يحولُ دون تملُّكِها المزيدَ من الأرض»(١٤١).

وبدورها أفادتِ الجامعةُ الأميركيةُ من هذا التعارضِ بينَ علمانيَّةِ الحاكمِ الفرنسيّ والكنيسةِ المارونيةِ والتعليمِ اليسوعيّ تالياً، فباشرت توسُّعَهَا وأضحت «منافِساً خطيراً لجامعةِ القدّيس يوسف، وملتقى أبناءِ الأغنياءِ العربِ النَّاقمينَ على السِّياسةِ الفرنسيَّةِ في سوريا ولبنان»(١٤٢). ففيما ضمَّت كليةُ الصَّيدلةِ في الجامعةِ اليسوعيةِ لعامي ١٩٢٥ و١٩٢٦، أي حينَ كان بيار الجميل يُنهي دراسَتَهُ، ٣١ طالباً، ضمَّت الكليةُ المقابِلَةُ في الجامعةِ الأميركيةِ ٧٨ طالباً. أمَّا إجماليُّ عددِ الطُّلَّاب فارتَفَعَ في الأميركيةِ من ٤٤٩ طالباً في ١٩٢٣ إلى ٥٩٣ في ١٩٢٤ فيما ارتَفَعَ عددُ طلَّاب اليسوعية في الفترة نفسِهَا من ٣٧٢ إلى ٤٠١. وبينما لم تَكُنْ ميزانيَّةُ اليسوعيَّةِ تتعدى ٤ ملايين فرنك فرنسيّ تجاوزت ميزانِيَّةُ الأميركية ١١ مليوناً. وما لبثت سياسةُ سَرَّاي أن رفعت عَدَدَ المدارسِ الرَّسميةِ من ١١٣ في ١٩٢٥ إلى ١٤٤ في ١٩٢٦ وهو النَّهجُ الذي اتَّبَعَهُ كايلا أيضاً(١٤٣)، مُفضِياً إلى تقليصِ أدوارِ الكنيسَةِ المارونِيَّةِ ووظائِفِهَا وبالتَّالِي تأثيرِها.

ويبدو أنَّ الجميّل إبَّان دراستِهِ الصيدلة في الجامعةِ اليسوعيَّةِ ببيروت (١٩١٩ - ١٩٢٥)، لم يكن بعيداً عن إدراكِ هذه الحقيقة. فسنواتُهُ الأخيرةُ هناكَ كانت سنواتِ احتدامِ النِّزاعِ بينَ الحاكِمِ الفرنسيّ العِلمانيّ من جهة والكنيسةِ المارونيةِ والتعليمِ اليسوعيّ من جهةٍ أخرى(١٤٤). وبهذا المعنى حاولت الكتائبُ أن تحافظَ في ذاتِها على

(١٤٠) المرجع السابق، ص ٥٤٢.

(١٤١) Marwan Buheiry, «Bulus Nujaym..., «*op. cit.* p. 78.

(١٤٢) مسعود ضاهر، **تاريخ لبنان الاجتماعي**...، سبق الاستشهاد، ص ١٦٨.

(١٤٣) عن المرجع السابق، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(١٤٤) انظر المرجع السابق، ص ١٨٠ ـ ١٨٤. ثمّة روايات شفوية غير مؤكدة عن أنَّ الجميّل وثق آنذاك الصلة بواحد من اساتذة الجامعة هو الأب شانتير صاحب التأثير الواسع على الشبيبة المسيحية يومها، والمنضم لاحقاً إلى جماعة الـ «Action Française» الفاشية التي تزعمها شارل موراس. وقد وقف شانتير لاحقاً، في الحرب الثانية، مؤيداً للحكومة الموالية للألمان في فيشي وانتهى نهاية بائسة في أحد الأديرة بفرنسا بعد اتهامه وإدانته بالخيانة.

الرّوح النُّخبويَّةِ للكنيسةِ اليسوعيةِ، وأن تلبِّيَ وظائفَ جديـدةً شرعت الكنيسـةُ تُقصِّرُ عن تلبيتِها مع بزوغِ عناصرَ، سياسيةٍ وثقافيةٍ واجتماعيةٍ، جديدةٍ.

المؤكّدُ، على أيَّةِ حـال، أن بيار الجميـل الَّذي أرادَ الكتـائبيَّ كاليسـوعيّ «جُثَّةً بين أيدي رؤسائِهِ»، كان يكنُّ «احتراماً كبيراً لليسوعيينَ وتنظيمِهم وتـربيتِهم ومستوى التَّعليم على أيدِيهم»[١٤٥]، كما دَرَجَ بحسب شهادةِ شارل مالك على أن «يتناولَ القِربـانَ المقدَّسَ علناً بكلِّ بساطةٍ وتواضعٍ، وبدونِ أيِّ تكلُّفٍ أو تصنّع»[١٤٦].

(١٤٥) من المقابلة مع جوزيف أبو خليل.

(١٤٦) أنظر: رفيق غانم، **بيار الجميل قائد ومؤسسة**، ١٩٨٧، ص ١٦. وهو في عرف جوزيف سعادة «كاهن فـريد في معبد لبنان»، المرجع نفسه، ص ٣٧. أما عقيدته فـ «روحيـة» أمين ناجي، **فلسفـة العقيدة الكتـائبية**، سبق الاستشهاد، ص ٦٧، ويتحدث جـوزيف أبو خليـل عن بيار الجميـل «المؤمن بصمت، الذي يصلي في غرفته وهو راكع بحسب مـا تروي كـريمته»، ويتفق أبـو خليل وكـريم بقرادوني في المقـابلتين الشخصيتين معهما في تصويرهما الصرامة الأبوية في حياة الجميل العائلية، فيتحدث الأول عن بيت والده الشيـخ أمين حين كان كلّ واحد من أفراد العائلة يتلو فصلاً من الأنجيل قبل تناول الطعام، ويتحدّث الثاني عن بيت بيـار الجميل نفسه حيث لا يتحدّث أحد على الطاولة إلّا جـواباً على سؤال منـه، وبمجرد أن ينتهي هـو من تناول الطعام يشعر الجميع (الزوجة والابناء والضيوف) بإلحاح النهوض عن الطاولة. من ناحية أخرى لم يندر بين رجالات الرعيل الأول وجود قياديين يعملون في نطاق وثيق الصلة بالنطاق الكنسي، كعبده صعب الذي كـان نائب رئيس رابطة أبناء الأخوة المسيحيين. من أرشيف جريدة «السفير».

الفصل الرابع

العروبة المضادة أو الدولة دون مجتمعها

بعيداً عن الموقف النظري من الدولة، تُملي مجتمعاتُ الخوفِ والتّخويف التي لم يَنْضُب مصدرُها الديني، أفكاراً وردودَ فعلٍ يصعُبُ ردُّها إلى مجرّد مواقفَ فكريّةٍ، وهذا ما رأيناه في الكتائب لا على شكلٍ فاشيٍّ أو توتاليتاريٍّ، بل كوعاءٍ لحالةٍ شعوريّةٍ مُتَخَلّفةٍ ومذعورة مُعَبَّرٍ عنها نُخْبَوِياً.

والراهنُ أنَّ نظريةَ إحالةِ السياسة إلى الدولة تبقى صالحةً لأن تُشَكِّلَ خلفيّةَ البُعْدَيْنِ المُختلفين والمُلتقِيَيْن في آن. فَلَئِن قُلنا قبلاً إنَّ الإحالةَ المصحوبةَ بمحاولةِ إضعافِ السياسيين تُمهِّدُ لتقويةِ الدولةِ وحصر العمليّة السياسية برُمَّتها في يدها، فإنَّ الإحالةَ بذاتها تَنُمُّ عن إقرارٍ بوجود مستوياتٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ تُغايرُ الدولةَ والسياسةَ وتستقِلُّ عنهما.

ولم تتردَّد الكتائبُ، في أزمنةِ الإستقرار النسبي، عن المُشاركة في التّنظير لاختلافِ المستوياتِ هذا. فالتكوينُ شبه المَدِيني للكتائب الأولى والإقرارُ بتعدُّديةِ الطوائف في لبنان، فضلاً عن زَعْمِ ورغبةِ التطابقِ مع غربٍ باتَ كلُّه منذ الأربعينات ليبرالياً، حمَلَت حزبَ بيار الجميِّل على التمييز بين الإجتماع كمصدرٍ بعيدٍ للسياسة وبين الأخيرةِ التي تصبحُ استبداداً مَحْضاً في حال نَزْعِها عن الاجتماع. فالكتائبُ أكّدت غير مرةٍ على إتّجاه التطوّر «إتّجاهاً اجتماعياً لا سياسياً»، بحيث «يُواكِبُ حركةَ التاريخِ المعاصرِ وهي حركةٌ تتحوّلُ عن السياسةِ إلى الاجتماعِ ولا تهتمّ بالسياسة إلا بمقدار إتّصالِها بالإجتماع»[1] وكان لتأثير أفكارِ مُونْييه الشَّخْصَانيّة على حزب الكتائب أنْ عزَّزَ مَيْلَه المذكورَ إلى الفَصْل بين المستويَات المُخْتلِفة، إذ تُدان «الفلسفةُ ـ المعيارُ» التي «تقضي وتَفْصُل في العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية، في إتّجاهات الفكرِ، في التاريخ، في الآداب، في الفنون»[2].

أمّا «العقيدةُ» الكتائبية فهي، في عُرْف أصحابها وواضِعيها، لا تَمْلُكُ «نظريّةً تفسيريةً تحليليةً للتاريخ» ولا «نظرةً خاصّةً تَفْرِضها على الآداب والفنون»، كما أنّها ليست

(١) رشاد سلامة، «حزب الكتائب اللبنانية»، محاضرة منشورة في **القوى السياسية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٠ ـ ١١.

(٢) أمين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتائبية**، سبق الاستشهاد، ص ٢١.

«عقيدةَ الأمّةِ اللبنانية» وليست «مذهباً كاملاً في الحياة»[٣].

بِدَوْره فإنّ مصير «الشخص»، محور الفلسفةِ التي تعتَنِقُها الكتائب، يتعلّق «بالشخص نفسِه لا بالدولة [و] مهمّة الدولةِ أنْ تُيَسِّر له ما هو في حاجةٍ إليه مادّياً ومعنوياً»[٤] وُصولاً، عبر الإسْتِشْهاد ببيار الجميّل، إلى أنّ «حرّيّةَ الفردِ عندنا أعظمُ من حرّيّة البلد. أعظمُ من القوميّة. أعظمُ من الإستقلال»[٥].

ويرى أمين ناجي، تَلْخيصاً للموقف الكتائبي في الحيِّز السياسي المُباشِر أنّ «إيمانَ الكتائبِ بحرّيّة الشخص وبتنوّع أهدافه ومطالبه، يُبْعِدُها عن النظرة الأبوية للدولة، أيْ النظرة التي تَعْتَبِر الدولة مُلْزَمَةً ـ وَحْدَها ـ بتحقيق كلِّ ما يَصْبو إليه الشخص»[٦].

وإذا كان دارسو التوتاليتارية قد توقّفوا عند التربية ودورها منذ توكيدِ جان جاك رُوسّو على هذا الدور في «صُنْعِ إنسانٍ جديدٍ»، ففي ١٩٧١ حَدّد الكتائبي جورج سعادة أنّ «غايةَ التربية، إذن، هي الشخصُ. فالولد ليس مِلْكَ عائلته ولا مِلْك الدولة ولا مِلك المجتمع ولا مِلك الحزب ولا مِلك أيّة عقائدية أو إيديولوجية كانت. وليس من حقّ التربية أنْ تَصوغَ الولدَ وفاقاً لقالب مُسْبَقٍ مُعَيّن. الولد ذاته، فهو في قيمته الإنسانيّة [...] ذات وعضو في مجتمع، ولكنّه ليس غارقاً فيه كلَّ الغَرَقِ ولا ذائباً فيه كُلَّ الذوبان. إنّه ذاتٌ وعضوٌ في مجتمع ولكنّه ليس عدداً بين أعدادٍ»[٧].

لكنّ انهيارَ الدولةِ لم يكُنْ له إلّا أنْ أحبْطَ الآمالَ المُبالَغ فيها على نِظامها

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٩.
(٥) عن المرجع السابق، ص ٣٥.
(٦) المرجع السابق، ص ٥١. ولم يَفُتْ الكتائب حتى بعد انتخاب الكتائبيين بشير وأمين الجميل لرئاسة الجمهورية وحصول التحولات التي عصفت بالحزب أنْ تُعيد الاعتبار إلى أحد المنطلقات. فأمين الجميل «هو من مؤسسة الكتائبِ ولكنّه رئيس لمؤسسة الدولة. والمؤسستان تتداخلان ولكنهما لا تتعادلان. فلبنان ليس بلد الحزب الواحد، وأكثرُ من يُصِرُّ على هذه الناحية هم القائلون بمبدأ التعددية [...] ولا ينبغي أن يبقى خافياً على أحد أنَّ هناك فوارقَ في الإجتهاد بين السلطة والحزب...». انظر: الكتائب من زمن الرومنسية إلى زمن الواقعية، في **العمل** ١٩٨٢/١٢/٥.
(٧) جورج سعادة، الكتائب وديمقراطية التعليم في لبنان، محاضرة منشورة في **محاضرات جامعة الروح القدس، البرامج اللبنانية والتنشئة الوطنية**، الكسليك، ١٩٧١، ص ١١. ولا يلبث سعادة أنْ يؤكد على الدعم الكتائبي المزدوج للتعليمين الخاص والرسمي، المرجع نفسه، ص ١٤. من دون أن يشذ عن التمسك بفلسفة مونييه الشخصانية الذي تدور أفكاره حول «الإنسان في وضعه الملموس والمميز، في حياته التي تشكل كل تفرّقات وجوده السياسية ـ الإجتماعية ـ الفكرية والدينية. فالإنسان بنظره هو حقل فيه تتفاعل طاقات بشرية ثلاث: الطاقة العقلية، الطاقة الغريزية، الطاقة الإيمانية (الالتزام)». منير سبغيني **الشخصانية الشرق اوسطية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

الديمقراطي، فشَرَع ما هو «نظامٌ» في الكتائب يُحاولُ أن يُوجِد «دولتَه» مُعْتَمِداً على مَدَدٍ بَشريٍّ قادمٍ من الأطراف.

لم تَكُن هذه العمليّةُ بسيطةً أو قليلةَ التعقيدِ في ما يتّصِل بالتكوينات التي تنبثق منها وتُعَبِّر عنها الكتائبُ. فالتضامن الذي ينشأ بين الخائفين في زمن إضطراب الأنصبةِ والمعايير يجعلُ سلوكَ «الطائفةِ»، حاضنةِ النموّ الرأسمالي والموزّعة إلى عائلاتٍ نَواتيةٍ صُغرى، اقربَ إلى سلوكِ «العشيرةِ» التي تُحَرّكها عصبيّةُ الدمّ وسائرُ الحوافزِ غير السياسية، فيما تَتضخّم فَعاليّةُ العناصرِ الإرْتدادية والرجعية داخل التكوين الطائفي وحزبه ـ حزب الكتائب في هذه الحال.

بِلُغَةٍ أخرى تتضامنُ الطائفةُ عشيرياً في مواجهةِ الخصمِ حين تغيبُ السياسة أو تَضْمُر، وحين يضمحلّ الفردُ ككيانٍ مُستَقِلّ، بينما يَحُلُّ النزاع المفتوح مع الآخر المُتَلاحِم بدوره والدامج لأفرادِه في كُلٍّ واحدٍ. وهكذا ينتكسُ الموارنةُ الجبليون، وهم مُمَثِّلو المستوى الرأسمالي ـ الطائفي الأكثر تقدّماً، إلى المستوى الذي حمل آلَ حبيش في الثمانينات، وهم الأرستقراطيون الذين أطاحهم صعودُ الكنيسةِ في القرن الماضي، على نَسْبِ أنفسهم بكُلِّ شجاعةٍ إلى «قبيلة الهَوَازن، وهي فخذٌ من قريش»[٨].

ولأنّ مِثْلَ هذين التضامن والنزاع، المُرْفَقَيْن بإعدامِ الفَرْد والخَيار، ثابتٌ من ثوابت «العروبة» والعالم الذي تُنْشِئه، إمتداداً لها أو ردّاً عليها[٩]، فإنّ الأقليّة لا يُمكن إلّا أنْ يتحكّم بها عقلُ الأكثريّة وطُرُقُ عملِها، بينما يكون هذا التحكّم مُقَدِّمة التعريبِ يصيبُها ويطيحُ عناصرَ تقدّمها الاجتماعي الذي يُمَيِّزها كطائفةٍ وكأقليّةٍ[١٠].

بدوره فإنّ عَقْلَ الأكثريّةِ الذي تُشَكّله الثقافةُ والتصوّراتُ العربيّةُ ـ الإسلاميةُ[١١]،

(٨) عن وضّاح شرارة، **المدينة الموقوفة، بيروت بين القرابة والاقامة**، دار المطبوعات الشرقية، ١٩٨٥، ص ٨٨.
(٩) إذ العرب، منذ تعريفهم الأول، عاربة ومُستعربة ومُتَعَرِّبة يصدر تصنيف كل مجموعة منها عن درجة نقائها الدموي. انظر في سبيل تعريف للمجموعات: H.A.R. Gibb and J.H. Kramers, *Shorter Encyclopaedia of Islam*, E.J. Brill, Leiden, 1974, p. 418 & 420. بدوره يرى أنتليس أنَّ «اللبنانية» يمكن النظر إليها «جزئياً، على الأقل، كردّة فعل إيديولوجية على العروبة». John. P. Entelis, *Pluralism..., op. cit.*, p. 78. وينقل أنتليس عن الياس ربابي الذي كان أشد مباشرةً بكثير في تعريف للكتائب: «خلال تاريخها لم تتغيّر علّة وجود الكتائب: الدفاع عن وحدة لبنان والاستقلال والسيادة ضد الطموحات الوحدوية العربية». p. 78-79 n. بصدد الموقف من العروبة والإسلام، انظر المرجع نفسه p. 80-81.
(١٠) غني عن القول إن توحيد «العشيرة» في هذه الحال يرافقه تفتت داخلي يستحيل رأبه دلت عليه سلسلة طويلة من المواجهات اللاحقة المارونية ـ المارونية. من أجل الصلة بين التوحيد والتفتت، راجع: وضّاح شرارة، **المدينة الموقوفة**، سبق الاستشهاد، خصوصاً الفصول الأخيرة.
(١١) بعد أن يرى مونتغمري وات أنَّ الأديان لا تملك بالضرورة تصورات سياسية، يلاحظ أن الدين «أحياناً يؤثر الأخذ بالمفاهيم السياسية للمنطقة التيْ ولد فيها، وهذه بالتأكيد حالة الإسلام. فبين القبائل البدوية للجزيرة

يَجْمعُ إلى تَسَمُّرِه عند الدمّ ومراتبه وحَضِّه على التضامن المطلق للجماعة والنزاعِ المُطْلق مع خارجها، إستحالةَ النظر إلى الفرْد الحرّ الذي هو مادّةُ السياسةِ والمجتمعِ السياسي بِصِفته هذه. مِنْ هنا اعْتُبِرت المعارضةُ نوعاً من الخروجِ عن الجماعة حيث استأنفَتْ الخَوارجيّةُ في الإسلام صَعْلَكَةَ الجاهليّةِ، بينما بقي إنقسامُ العرب/ غيرِ العرب في العهد الأمَوي، والمسلمين/ غيرِ المسلمين، فضلاً عن العربِ/ الشعوبيّين، في العهد العباسي، عائقاً دونَ المجتمعِ السياسي ونشأتِه[١٢].

تَغَذّى هذا التصوُّرُ، على الدوام، من ضعف مفهومَيْ «الشعب» و«القومِ» اللّذيْن رأى ماسينْيون أنّهما نقيضُ وعكسُ المفهومَيْن الإسلاميين عن «الأمّة» و«الجماعة»[١٣]. أكثر من هذا صِيْرَ، في الثقافة العربية الإسلامية، وبفِعْل ضعْفِ التمييز بين «الأمّةِ الجامِعَةِ» و«المِلّةِ» إلى مماثلةِ الشعبِ بالمِلّة كمفهومٍ جُزْئيٍّ وتناحُريٍّ في آخر المطاف، فجُعِلَت البرلمانات ومُمَثّلوها ناطقين بلسان واحدة مُعَيَّنةٍ من «الملل»[١٤].

كذلك تغذّى التصوّر إيّاه من ماضي النزاعات العصبية حيث أحسَّ المسيحيون في الشرق بأنّ وَفادةَ الإسلامِ هي التي نَقَلَتْهم من موقع السيادة إلى موقع الأقلّيّةِ. وما كانت المنعطفاتُ التاريخيةُ اللاحقةُ، ما بين الحروبِ الصليبية ونشأةِ الكياناتِ الحديثةِ بعد الحرب الأولى، إلّا لِتَصُبَّ الزيتَ على نارِ الإنقسامات التي تُثيرُ خوفَ الطرفِ الأضعفِ والأصغر عدداً. حتى إنشاءُ الكيانِ اللبناني كمشروعٍ حَمَلَهُ المسيحيون لم يَسْتطِع الحَدَّ فِعلياً من آثار هذا التحوُّلِ، إذ انخفضتِ النسبةُ المِئويةُ للمسيحيين في لبنان ما بين ١٩١٣، إبّان «لبنان الصغير»، و١٩٣٢، من ٧٩,٤ بالمئة من السكّان إلى ٤٩,٩ بالمئة[١٥].

العربية وجدت درجة بعيدة من التضامن التجاري كما في كل مكان آخر في العالم. وفي مكة كان الازدهار التجاري، وقبل تبشير محمد (بالإسلام)، يُوالي كسر تضامن القبيلة والعشيرة. ويمكن القول إنَّ الإسلام استعاد تضامن الجماعة إلّا أنّه ألحقه بكامل جماعة المسلمين وليس بأية وحدة أصغر. والقدر الكبير من النمو الذي أحرزه الإسلام في إفريقيا الاستوائيّة في العقود الأخيرة هو ما يمكن إرجاعه إلى احتفاظ بحسٍّ التضامن الجماعي هذا». W.Montgomery Watt, *Islamic political thought. The basic concepts*, Edinburgh University press, 1978, p. 29.

(١٢) عن عدم وجود الفرد الحر (إلا في مقابل «العبد») في الثقافة العربية ـ الإسلامية، انظر المرجع السابق، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(١٣) عن Jacques Berque, *Arab rebirth. Pain and ecstasy*, Al Saqi books, 1983, p. 33-34.

(١٤) Ami Ayalon, *Language and change in the Arab Middle East*, Oxford University press, 1987, P. 19-21.

من أجل مراجعة معاني «أمة» و«ملة» و«شعب» و«قوم»، انظر المرجع نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٢ و٩٨ ـ ٩٩.

(١٥) عن غسّان سلامة، **المجتمع والدولة**...، سبق الاستشهاد، ص ١٠٣.

حصار أواخر الخمسينات

إنَّ الإستعدادَ الهجوميَّ في العروبة والاستعدادَ الدفاعي في الكتائب هما ما انْتَقلا إلى حالةٍ أشدَّ علنيّة وصراحة في أواخر الخمسينات. فقد وَفّرت تلك السنواتُ النمطَ البَدْئي عن هجوم العروبة بِما يفيضُ عن السياسة إلى السلاح، بل بما يُعَطِّل السياسةَ (والدولةَ) قبل أن ينقضي أكثرَ من ١٥ سنة على الاستقلال. وكان طبيعياً في حزب كالكتائب، أيّد الاستقلالَ ودولَتَه و«ملاذَه»، أن يُغَلِّبَ الوجهَ العسكريَّ الصِّداميَّ الطاردَ للخوفِ، بعد أنْ غَلَّبَتْهُ الحركةُ القوميةُ العربيةُ الراديكاليةُ.

وإذا كانت الأخيرة في عُرْفِ «المارونية السياسية» حركةً إسلاميةً قادرةً على محاصرةِ لبنان وتحريكِ الخوف لدى مسيحيِّيه، فإنّ الوَحدَة المصريةَ ـ السورية في ١٩٥٨ أعْطَتْ تلك القدرةَ مزيداً من الإسنادِ والفعالِيّةِ، من دون أن يكونَ ذلك، بالضرورة، حالةً أقلّيّةً لبنانيةً حصريةً. فقد لاحظ، مثلاً، أحدُ الذين درسوا العراقَ الحديثَ كيف أنَّ «الإنْفِجارَيْن الكبيرَيْن لِلّاسامية في السياسة العراقية الحديثة (١٩٤١ و١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) تَصاحَبا على نحوٍ وثيقٍ مع صُعودِ القوميّةِ العربية، إذ الهجماتُ على الطائفة اليهودية لم تأْتِ من الحزب الشيوعي ولا من التيّارات الوطنية العراقية ولا حتى من القادة التقليديين للطوائف»[١٦]. أما في حالة لبنان تحديداً، فإنّ سورية تُحيط به من شماله وشرقه المُمتَدِّ طويلاً ولا تُبْقي له غيرَ البحر والحدود الضيِّقة المُغْلَقَة مع إسرائيل، بما يُضيفُ إلى الإنقسامِ الأهلي، الّذي لا يُمِكنُ من دونه فَهْمُ الكتائبِ أصْلاً، محركاتٍ فَعّالةً في تمتينِ الخوفِ وتوطيد الحصار. فكيف حين يَتَشَكّل من اللبنانيين «وَفْدٌ كبيرٌ» يَذْهَبُ إلى دمشق في شباط ١٩٥٨ لكي «يُطَالِبَ عبد الناصر بِضَمٍّ لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة»؟[١٧] أو حين تنكشف حدودُ التناقُضِ مع الدولة الحديثةِ ذات السيادة والحدود، فيَتَحَدَّث التقريرُ الأوّلُ لمجموعةِ مُراقِبي الأمم المتّحدة في لبنان في ٣ تموز ١٩٥٨ عن «إنتشارِ بُنْيَةٍ عشائرية في المجتمع بما يَخْلُقُ روابطَ ولاءٍ داخل كُلّ مجموعة إثْنية وفي بعض الحالات فإنّ الحقائقَ التي تَتَرتّب على هذا الواقع هي ما لا يُخَفّفُ منه وجودُ حدودٍ سياسيةٍ أو رَسْمُ حدودٍ تكونُ، في بعض الأمكنةِ، موضوعَ خلافٍ أو عدمِ وضوحٍ»؟[١٨].

(١٦) Samir Al-Khalil, *Republic of fear. The politics of Modern Iraq*, Hutchinson Radius, 1989, p. 48.

(١٧) عن غسّان سلامة، **المجتمع والدولة**...، سبق الاستشهاد، ص ٥٨. تلا تأخُّرَ المسلمين حتى ١٩٣٦ في الموافقة على مبدأ الإنفصال عن سوريا، تأخُّرُهُم حتى الخمسينات في التخلي عن فكرة الوحدة الإقتصادية معها. انظر: Marwan Buheiry, *Beirut's role...*, *op. cit.*, p. 18.

(١٨) Manfred Halpern, *The politics of social changė..*, *op. cit.*, p.368

واقع الأمر أنَّ اصرار الأقليات (والدول الصغرى) على ترسيم حدود دولها لا ينفصل عن اصرارها على ترسيم حدود خوفها وبحثها عن حائل يردّ غائلة هذا الخوف الوافد من خارج أقوى.

ما جَعَلَ أواخِرَ الخمسينات تَتَحلى بما تَحَلّت به تَمَثُّل في تحالُفِ السياسةِ الناصرية ما بين ١٩٥٦ و١٩٥٩ مع السياسةِ السوفياتيةِ في مناخِ احتدامِ الحربِ الباردةِ. ولَئِنْ تعرَّضَ ذاك التحالف للاهتزاز بسبب تَبَايُنِ الموقفِ من العراق بُعَيْدَ الإنقلابِ العسكري في ١٤ تموز ١٩٥٨، فهذا ما لم يُغَيِّرْ كثيراً في صورة الشيوعية آنذاك كحليف لحركة القومية العربية الراديكالية، أي في ما يخصُّ لبنان، عمقاً دولياً هائلاً لِخوف الأقليةِ فيه. وما دامت الحركتان المتحالفتان تنطويان على نَبْذِ السياسة الديمقراطية، كما قالَتْ بهما التجربةُ اللبنانية وحاوَلَتْهُما، بدا تحالفُهُما تهديداً مطلقاً للوجود المادي للبنان ولمعنى الوجود في آن معاً(١٩).

وليس بلا دلالة، في هذه الحدود، أنّ الاقترابَ الشيوعيَّ من الشرق الأوسط منذ مطالع الخمسينات كان يستدعي الدورَ الإسرائيلي تبعاً لصلة الكيان العِبْرِيّ بالغرب، فيما كان العَداءُ العربي الإسرائيلي يستدعي بدورِهِ اقتراباً سوفياتياً أكبر، وتوسّعاً، من ثَمَّ، للدعاوة الراديكالية.

ولم تكتُم الكتائب، في وَجْهِهَا الإيديولوجي، حَذَراً عميقاً حيالَ الاشتراكية الماركسية التي «لا بُدَّ أنْ تعملَ لإلغاءِ المِلْكِيّةِ الخاصة، ولا بدّ أنْ تستثيرَ الصِّراعَ الطبقي بُغْيَةَ إقامة ديكتاتورية البروليتاريا. وبذلك تطعَنُ في قيمة الإنسان الذاتيّة فَتَسْحَقُ حريّتَهُ وتدوسُ كرامتَهُ»(٢٠). أمّا سجالُها الاقتصادي مع الشيوعية فلَمْ يُخْفِ، بين أمورٍ أخرى، المصدَرَ البورجوازي الصغيرَ الحادَّ لهذا الحذر، حيث لا تَنْجُمُ المِلْكية الخاصة عنْ فائض القيمة وحده، كما يرى الماركسيون، بل عن «التوفير الذي قد يَفْرِضُهُ المرءُ على نفسه»(٢١).

ولأنَّ الشيوعية، كما رأى بيار الجميل المعادي لها بامتياز، «استغلّتْ النزاعَ العربيَّ - الإسرائيليَّ حولَ قضية فلسطين وتَسَتَّرَتْ به لاقتحامِ منطقةِ الشرقِ الأوسط وإيجادِ موطيءِ قدمٍ لِنفوذها ومبادئها»(٢٢)، فهو لم يتردَّدْ في إطلاق العنان لشكوكِهِ بما يطالُ وجهَيْ هذا النفوذ، المادي المباشر والقيميّ الأشدّ مداورةً وخفاءً. فَلَئِنْ كانَتْ الباحثةُ الفرنسيةُ هيلين كارير دنكوس قد لاحظت «عدمَ انسجامِ سياسةِ التسليح

(١٩) قبل ذاك التحالف لعبت نشأة إسرائيل في ١٩٤٨، واصطباغ هذه النشأة بحرب ودعوى دينيتين، أثراً لا يرقى إليه الشك من حيث تحريك مشاعر الخوف والقلق التي بدأت في ١٩٤٣، والإتفاق التسووي للميثاق والصيغة. آنذاك عبر ميشال شيحا في كتابه الشهير «فلسطين» عن هذه المخاوف محاولاً، انطلاقاً من ثقافة ليبرالية غربية وتمثيل لمصالح وقيم تجارية مدينية، الجمع بين فكرتي المقاطعة الإقتصادية للدولة العبرية الناشئة والهدنة العسكرية معها.

(٢٠) أمين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتائبية**، سبق الاستشهاد، ص ٥٧.

(٢١) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢٢) عن الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٣٧٣.

السوفياتية للدول العربية» وأنّ الإتحاد السوفياتي «لم يَسْعَ لإكساب هذه الدول قوةً عسكريةً فعليّةً [بل] أراد من وراء تزويدها بالأسلحةِ المطلوبةِ، اكتسابَ موقعٍ مميَّزٍ في عدد منها»(٢٣)، فالجميل أخافَهُ الغرضُ من هذا التسليح الذي لا بُدَّ أنْ تَتَّجِهَ شَفْرَتُهُ صَوْبَ كلِّ المواقعِ المُحَافِظَةِ أو شبه الليبرالية أو غير الراديكالية عموماً، وفي الصدارة منها مَسِيحِيّو لبنان. لهذا رأيناه يتساءل في كتاب مُوَجَّهٍ إلى وزير الخارجية السوفياتية في ١٩٥٦، أي مع بدء التمدُّد السوفياتي نحو المنطقة وتَجَمُّعِ الكثيرِ من نُذُر حرب ١٩٥٨: «أنتم تعطون سلاحاً لمصر بيد، وبيدٍ ثانيةٍ تُعطونَ بترولاً لإسرائيل. فلماذا تعطون السلاح لمصر إذن؟ لماذا تَسْتَجِرّونَ دولةً مثل مصر، تريد أن تبني مقوِّماتِ الحياة لشعبها، لِبذْلِ الأموال الهائلة ثمناً لسلاح لن يستعمل؟»(٢٤).

الراهن أنّ أحداثاً عربيةً سابقةً ومواكبةً، كانت بدورها مصداقاً لِذاك المَيْلِ الأقلّي المحافظ إلى الربط بين الراديكالية العروبية، اليسارية أو الشعبوية، المُسَلَّحَة من السوفيات والمُتقاربة إيديولوجياً مع نموذجهم، وبين الخطر على المسيحيين في لبنان. هذا من دون أنْ نَنْسى أنّ السلاحَ، أداةَ الإخافة وعنصرها، هو ما شكَّلَ مضمونَ «الدعمِ» السوفياتي للراديكاليين العرب.

فثَمَّةَ ما يشير، وبغزارة، إلى أنّه كلّما كان النظامُ العربي محافظاً قريباً من الغرب(٢٥)، عاش المسيحيونَ أوضاعاً أفضلَ تبعاً لِصِلَتِهم بالقطاع الخاص ومؤسَّساتِ المال والتعليم وغيرهما، فضلاً عن درجة التسامح في ظل خمود الحركة الغرائزية للجماهير. والعكس صحيحٌ، خصوصاً مع ما يُطلقه التحوّل الراديكالي مِن مَوْجاتٍ شَعبويّةٍ عاصفةٍ ومدمّرةٍ لم يبرأ منها أيٌّ من أقطار المشرق، وما يُقيمُهُ من مساواتيّة بيروقراطية بين الجماعات على صعيد الدولة لا تفعلُ غيرَ كتمانِ الإِجْحَافِ القائمِ والمستمر في المجتمع. ففي سوريا «كان النظامُ المعمولُ به يُمَثِّلُ مختلفَ الطوائف. لكن أُلْغِيَ هذا التمثيل منذ ١٩٥٣ في عهد الشيشكلي [و] في مصر كانت القاعدةُ النسبيّةُ مُطَبَّقةً لغاية ١٩٥٥ [وفي] سنة ١٩٦٤ انتُخبَ قبطيّ واحدٌ [هو] حليم جريس بيضاي (من أسيوط) على مجموع ٣٦٠ نائباً. لإعادة التوازن عَيَّنَ الرئيس عبد الناصر ٨ أقباط في مجلس

(٢٣) هيلين كارير دنكوس (ترجمة عبدالله اسكندر)، **السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط (١٩٥٥ - ١٩٧٥)**، دار الكلمة للنشر، ١٩٨١، ص ١١٧.

(٢٤) بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، الكتاب الأول، سبق الاستشهاد، ص ٢٦٣. وإبّان تفاقم الظاهرة الفلسطينية المسلحة أواخر الستينات لم يتخلّف الجميل عن الربط المتكرر بين التهديد الفلسطيني والميل إلى «مركسة» لبنان، بين أمثلة عدة، انظر المرجع السابق، خصوصاً ص ١٥١.

(٢٥) الشيء الذي يُنقِص عروبته تعريفاً، إذ ليس مصادفاً أن انسحاب الوجود الكولونيالي المباشر من المنطقة وصعود العروبيات الاستقلالية ترافقاً مع ازدهار الانقلاب العسكري وذواء التجارب البرلمانية التي لم تظهر إلا في كنف ذاك الوجود.

الشعب [و] في انتخابات ١٩٧٩ لم يُنْتَخَبْ إلا اثنان فقط من الأقباط فَعَيَّنَ الرئيس السادات ١٠ أقباط، مع العلم أنّ الأقباط هم حوالى ٨ ملايين، وفي المقابل كان قانون الإنتخاب الأردني في ١٩٤٧ يُخصِّصُ ٤ مقاعد للمسيحيين في المجلس التمثيلي في مجالس الأردن بما كان يتعدى أهميَّتهم العددية. في انتخابات ١٥ نيسان ١٩٦٧ كانت ١٠ مقاعد مخصصة لممثلين للطوائف المسيحية و٢ لممثلين مسلمين من الطوائف الشركسية والشاشانية. في العراق كان الدستور الأول لسنة ١٩٢٤ يَنُصُّ على أنَّ النظامَ الانتخابي يؤمِّنُ التمثيل العادِلَ للأقليات العرقية والدّينية واللّغوية [و] كان مجلس الشيوخ المعيّن من الملك يُخَصِّصُ حصّةً للمسيحيين و٤ لليهود. ثم زادَ العَدَدُ بموجَب قانون الانتخاب تاريخ ٢٧ أيار ١٩٤٦ إلى ٦ لكل من الطائفتين، إلى أنْ أَلْغَت الثورةُ العراقية سنة ١٩٥٨ قاعدةَ النسبيّةِ»[٢٦].

هذه الظروف التي سَبَقَتْ الإشارةُ إلى بعضها أعادَتْ تنبيه الكتائب إلى العنصر «الفالانجي» فيها، أي ذاك الذي يمكن أن يدفع ما هو نظامي وشكلي في تكوينها، إلى الاندراج في وضعيّةٍ غيرِ دستوريةٍ إنْ لم تَكُنْ مناهضةً للدستور.

فَلَئِنْ كان حضورُ بيار الجميل الألعاب الأولمبية في برلين في ١٩٣٦ ومشاهَدَتُهُ «المنظماتِ النازية ومنظماتِ الشبيبة الأخرى في القارة الأوروبية»[٢٧]، قد عَزّزا خَيارَهُ بتأسيس حِزْبِهِ في السنة عَيْنِها[٢٨]، فإنّ فكرةَ «الكتائب»، وهي الترجمةُ العربيّةُ عن «الفالانج» الأسبانية[٢٩]، تستحقّ الوقوف عند مضمونها الضِّمْني المُغايِرِ للسياسة أو المُقْتَصِرِ على شكليّتِها.

فالتأثُّرُ بالكتائب الإسبانية التي كانت في العامِ نفسِهِ تَدْخُلُ الحربَ الأهلية ضد

(٢٦) أنطوان مسرة، «قاعدة النسبية وتسييس الطوائف، دراسة مقارنة»، في: **الواقع**، العدد ٧ و٨، تشرين الثاني ١٩٨٤، انظر بحثاً عن شواهد لا تحصى على هذا الإرتباط الذي يتعدّى السياسة والإقتصاد إلى الهجرات الجماعية: Robert Benton Betts, *Christians in the Arab East*, Lycabettus press, Athens.
كذلك انظر: غسان سلامة، **المجتمع والدولة**...، سبق الاستشهاد، ص ١٠٤ ـ ١١٠.

(٢٧) انظر، مثلاً لا حصراً، Michael W. Suleiman, *political parties...*, *op. cit.*, p. 233.

(٢٨) علماً بأن تلك المباريات التي أرادها هتلر مصداقاً لخرافته في «التفوق الآري» انتهت بفضيحة املتها الانتصارات الكاسحة للاعبين والعداءين الأميركيين السود.

(٢٩) برغم وجود رواية أخرى تخفف من أهمية المصدر الاسباني، فقد روى إدوار حنين عن تلك الفترة: «كنت ذات يوم في مكتب الأستاذ فؤاد افرام البستاني [...] فدخل عليه الأمير عبد العزيز شهاب يرافقه شاب وسألا البستاني: ما هي افضل كلمة في العربية تنطبق على كلمة «فالانج» الفرنسية؟ فأخذ البستاني يدفق على السائلين سيلاً من المفردات (...) حتى استقرّ الراي على كلمة «كتائب» التي اعتمدت اسماً للحركة» في: رفيق غانم، **بيار الجميل**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٢ ـ ٢٣. وهذا التفسير (اللغوي والأكثر حيادية) هو ما يذكره بيار الجميل في حديث مع مجلة «روز اليوسف» المصرية في ١٩٦١، حيث «يجب أنْ لا تؤخذ (الكلمة) بمعناها السياسي بل بمعناها اللغوي. فلفظة كتائب جمع كتيبة والكتيبة هي الفرقة»، عن المرجع نفسه، ص ١٧٩.

الجمهوريةِ واليسار الماركسي والفوضوي، ينطوي على إعجاب بنظامٍ وتراتُب كانَ اليَسارُ الأسبانيُّ لا يكُفُّ عن استِفْزازِهِما في سبيل الانتقال إلى حُكمٍ عمّاليّ وجَيْشٍ أحمر. كذلك ينطوي التأثّر قطعاً على مشاركة اليمين الفاشي الأسباني عداءَهُ للشيوعية، الأمر الذي لا يَصْعُبُ رصدُ مصادِرِهِ في التجربة الشخصية النُّخْبَويّة لبيار الجميل وتَحْتَ وطأةِ الأفكارِ الرائجةِ في بيئة المهاجرين في مصر.

لكنّ التأثُّرَ هذا ينطوي على وجهٍ آخرَ يستحيل إغفالُهُ هو ما يمكن الاصطلاحُ على وَصْفِهِ بالاستعداد غير الدستوري، وغير السياسي تالياً. فمبادرةُ اليمينِ الأسباني إلى حَمْلِ السلاح في ١٩٣٦ لم تكنْ مجرّدَ ردٍّ على الاستفزاز اليساري من خارج قنواتِ الحياة السياسية، إذ كانت أيضاً ردّاً على الهزيمة الانتخابية الساحقة التي مُنِيَ بها اليمين في شباط من العام نفسه. وقد تغذَّتْ هذه الحركة المضادة من مخاوف الكنيسة الكاثوليكية التي أحَسَّتْ أنَّ انتصار «الجبهة الشعبية» يُهدِّدُها في امتيازاتِها العظيمة، فانخرطَتْ في الحرب على نطاقٍ لم تبلغْهُ الكنيسة في أيّ بلدٍ آخر في هذا القرن[٣٠].

وهذا الطابعُ المضادُّ لم يَكُنْ عَفْوِيّاً بالمعنى الذي يتضمَّنُهُ ردُّ الفعل البسيط والتلقائي، ولا كان قليلَ التماسكِ في تجربةِ الكتائبِ الأسبانية التي اسْتَقَتْ تَخَلُّفَها السياسي من تَخَلُّفِ القطاعِ الزّراعيّ وعدم تَعَرّض الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الجنوبية لرياح الإصلاح الديني. فواضعُ سيرة فرانكو، إدوارد دو بلاي، يحدِّثُنا كيف أنّ «جوزيه أنطونيو، الابن الأكبر لديكتاتور العشرينات ميغال بريمو دي ريفيرا، وَرِثَ عن أبيه كما في قراءته، مَقْتاً مُعْلَناً للبرلمانية (الذي لم يمنَعْهُ من ترشيحِ نفسِهِ ثلاثَ مرّاتٍ للانتخاباتِ التشريعيةِ ومن الفوز بالنيابَة عن كاديز في ١٩٣٣). وفي الخِطاب التاريخي الذي ألقاه في ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٣ في المسرح الكوميدي بمدريد، واعتُبِرَ البدايةَ الرسميّةَ للكتائب، أكّدَ جوزيه أنطونيو، بصورةٍ طبيعيةٍ، على الحاجة إلى بناءِ دولةٍ تكونُ «قوميّةً، معاديةً للماركسيةِ، معاديةً لليبراليةِ، وتوتاليتارية». وهذا الاهتمام هو ما تنقلُهُ إلى الحلبة كلُّ الكتاباتِ النظريةِ للحركة التي أطْلَقَها.

وبصِفَتِهِ نصيراً علنيّاً للوسائل العُنْفيّة، إذ مَجَّدَ «ديالكتيك القبضات والمسدسات»، راح القائد الذي لا يُنَافَسُ لليمين الأسباني المتطرف، ومنذ ١٩٣٤ فصاعداً، يُحضِّرُ انقلاباً ضد الجمهورية»[٣١].

هذا الخليط الذي أثَّرَ على نحو أو آخر في بيار الجميل الشاب، جمع إلى الكنيسة

(٣٠) من أجل عرض تفصيلي، انظر Edouard de Blaye, *Franco and the politics of Spain*, Penguin books, 1976, p. 36.

(٣١) *Ibid.* p. 90.

المتراجعة والتجربة الأوروبية الجنوبيّة، الإنطلاق من «عصر ذهبي» سابق عمادُهُ المهجر وصورة بكفيا، فأتمّ النَزْعَةَ المَاضَويّة التي يَتَّسِمُ بها الخائفُ من الجديد ومن اضطراباتِهِ وقلقِهِ.

وهذه الماضَويّة، بما تَجِدُهُ من رَفْدٍ وتعزيزٍ في مشيخيّة آلِ الجميل وما تُفْضي إليه من محاولةِ «بعثٍ» و«استعادةٍ» أو «عودة» (restoration)، كانت جسرَ لقاءٍ آخرَ مع الشهابية الأرستقراطية(٣٢) التي تولّتْ عن طريقِ جهازِ الدّولة، إشاعةَ الاطمئنانِ وطردَ الخوفِ.

الشهابية والحذر

أنهَتْ الشهابيّةُ الطّوْرَ الفلانجي في عمر الكتائب الذي كانَتْ أواخر الخمسينات قد أعادَتْ بعثَهُ، ليندرجَ حزبُ بيار الجميل في مسالكَ شتى.

فإذا ما نُظِرَ إلى السلوك الكتائبي إبّانَ ذاك العهد في صورةٍ إجمالية، أمكنَ الإنتباهُ إلى اتّسامِهِ بدرجةٍ بعيدةٍ من التردّد: فالشهابيةُ وُلِدَتْ في ١٩٥٨ ومن رحمِ أحداثِها، وعاشت في جوارِ الصعودِ الراديكالي العروبي كما أوْجدَتْ لوناً من التحالف معه، الشيءِ الذي يستدعي حذَراً مؤكّداً، خصوصاً في ظلِّ تراجعِ قُدرةِ لبنان على ممارسةِ دوْرِهِ الحيادي في الخلافات العربية وإقامةِ علاقاتٍ مباشرةٍ مع الغرب، وهما ما يَرْقَيانِ إلى أثنين أساسيّين من عناصر لبنان كما نَشَدَتْهُ الصيغةُ والميثاقُ(٣٣). فبحسب إميل البستاني، أحد الذين عاشوا تلك المرحلة التعاقديّة كان ما جعل اتفاقَ المسلمين والمسيحيين حول السياسة الخارجية سهلاً «قبولُ الجميعِ في ذلك الوقت بأنْ يتّبِعَ لبنان سياسةَ صداقةٍ مع الجميع وتعاونٍ وثيقٍ مع الغرب ضِمْنَ إطارِ التعاقُديّةِ مع الغرب. كما أنَّ الفريقَ الآخرَ لم يمانعْ في هذه السياسةِ باعتبارِ أنَّ جميعَ الدولِ العربيّةِ دون استثناء كانت آنذاك متعاونةً مع الغرب، ولم تكن فكرةُ الحيادِ أو التعاونِ مع المعسكر الشيوعي واردةً»(٣٤).

إلا أنَّ الشهابية، من ناحية ثانية، أقامَتْ «الدولةَ القويّةَ» القادرةَ، كما تراءى حينها، على تأمينِ الحمايةِ وبثّ الاطمئنان وإشاعةِ الاسترخاء، الأمرُ الذي لم يَعْدَمْ آثارَهُ

(٣٢) راجع الفصل الأول.

(٣٣) في سبيل عرض واف لإشكالات هذه المسألة، راجع J.C. Hurewitz, *Middle East politics. The Military dimension*, praoager publisher, p. 387-398.

كذلك راجع: بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، الكتاب الأول، سبق الاستشهاد، ووضاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، الجزء الأول.

(٣٤) عن: محمد كشلي، **حول النظام الراسمالي واليسار في لبنان**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٣٠.

الواضحة على الكتائب. وعَمَلاً بهذا المناخ لم يبخلْ القادةُ الكتائبيون ممن شَرَعوا يصعدون بُعَيْدَ ١٩٥٨ إلى الواجهة الحزبية في التوكيد على «بناء الدولة» و«تنظيمها» وإقامة «العلمنة» كما لو كانوا «طليعة» المشروع الذي يتوَهَّمُ صَهْرَ المجتمعِ وتَذْليلَ تناقضاتِهِ تدريجاً من خلال شَكْلِيَّةِ الدولةِ ونظامِها.

فإدمون رزق، مثلاً والذي امتزج وعْيُهُ الكتائبي بما يُمكن أن نُسميّهُ الإيديولوجيا الرسمية للدولة، صاحبُ تَوْكيدٍ خاصٍ «على العلْمنة التي يعتقد أنَّهُ كان رائدَ القائلين بها في حزب الكتائب»، وكما تباهى رزق بالعلمنة، تباهى جورج سعادة بـ «التنظيم» الذي ادخله إلى مصلحة التعليم الخاص في وزارة التربية حين تسلَّمَ مديريَّتَها بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٨(٣٥).

في غضون ذلك بَقِيَتْ «الشيوعية» الاسمَ الصريحَ الوحيدَ للخوف، إذ هذا الخوف يُمْكِنُ الجَهْرُ به في مجتمعٍ مركّبٍ، وربّما المغامرةُ باحداث قَدْرٍ من توحيد «الشعب» حولَ العداء له، خلافاً لـ «العروبةِ» و«الإسلام». فالشيوعية، كما ظهرَتْ يومذاك في القاموس الكتائبي، «تُرادِفُ عناصرَ ثلاثة ترابطَتْ في تاريخ المنطقة العربية هي: نزوعُ إحدى فئات المجتمع إلى السيطرةِ الكاملةِ على الدولة، النَزْعَةُ العروبيّةُ الوحدويّةُ، وأخيراً تَوَسُّلُ «الجماهير» أداةً لِتَحقيقِ العنصريْنِ السابقَيْن. فالتأميمُ، في هذا المنظور، شيوعيّةٌ. والتعاونُ مع كتلةِ الدولِ الشرقيةِ شيوعية. والوَحدَويّةُ العربيةُ شيوعيةٌ. والحركات المطلبية شيوعية و«الشارع» شيوعي». وفي هذا الخُوَاف (Phobia)، على تَعَدُّدِ مصادرِهِ وانحصارِ تعبيراته، لا عزو في «أنْ ترى الكتائبُ في المسلمين اللبنانيين حركةً «شيوعيةً» بالقوة أو كامنة»(٣٦).

وما بين حَدَّيْ الحذر والحَضّ على بناء الدولة وتنظيمِها، راح موقفُ الكتائب يترجَّحُ بين طرحِ الأمور «الجوهريّة» التي تطال الكيانَ والوجودَ بصورةٍ لا يَعوزُها الإلحاحُ والعصبية، وبينَ الانخراطِ التِّقَنِيِّ في مشروع «البناء» كما لو أنّ المسائلَ المُجتمعيّة قد بُتَّتْ واستُكْمِلَ وَضْعُ حلولِها، لا سيَّما وأنّ هذا الإنخراطَ أطَلَّ من المِنَصَّة العُلوية للسلطة السياسية. ففي برلمان ١٩٦٠، مثلاً، وبعد أقلّ من عامين على انتهاء حرب ١٩٥٨، سجَّلَ النائبُ الكتائبيّ لويس أبو شرف مآخِذَهُ على خُلُوِّ البيانِ الوزاري من ذِكرِ المغتربين، مؤكداً بخطابيةٍ لا يصعُبُ تبيُّنُها، على الدفاع عن لبنان «تجاه أيٍّ كان»، وعلى السيادة اللبنانية التي ينبغي أن لا ينتقصَ منها النصُّ على «وجهِ لبنانَ العربيّ»(٣٧). أي أنَّ

(٣٥) حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٩٥ و١٢٨.

(٣٦) وضاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٤٥٧.

(٣٧) الدكتور يوسف قزما خوري (إعداد وتحقيق)، **البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشاتها في مجلس النواب ١٩٢٦ ـ ١٩٨٤**، المجلد الأول ١٩٢٦ ـ ١٩٦٦، مؤسسة الدراسات اللبنانية ١٩٨٦، ص ٥٩٢.

البرلمانيّ الذي يُناطُ به أنْ يمثّلَ حزْبَهُ في أعمالِ التّشريع وممارسةِ الرّقابةِ على السلطةِ التنفيذيةِ، كما يقضي العرْفُ والممارسة البرلمانيان، ينتقل في أزمنةِ الغموض إلى طرْحِ الموضوعاتِ العقائدية والتكوينية التي تطالُ التعريفَ الأوّليَّ لمقوّمات البلد تبعاً لواحدٍ أو آخر من السيناريوهات التجمعيّةِ للطوائف. فهو يذهبُ ضمناً مذهبَ التسليمِ بالكيفية التي طُرِحَتْ بها المسائل من قِبَلِ «الخصم» المطعون في ولائِهِ للدولة والمجتمع: فهذه المسائل لا تعبّرُ عن وجودِ يحتاجُ التشريعَ والرقابةَ على صُنْعِ قراراتِ دولتِهِ، بل تعكس مرحلةً سابقةً تفترضُ عدمَ قيامِ الوطنِ والدولةِ وعدم ظهورِ الاجتماعِ الحديثِ على عمومه.

لكنّ النائبَ الكتائبيّ نفسَهُ لا يلبثُ بعدَ أشهرٍ على دوام الاستقرار، وفي تعليقٍ له على بيانٍ وزاري آخر أَدْلَتْ به حكومةُ شارك بيار الجُميل في عضويتها، أنْ يتجاهل الأمورَ «الجوهريّةَ» ويتحدّثَ عن الدراسات والمشاريع ومدى وجودِ الانسجامِ الحكومي وكيفيات حالةِ العملِ المعارِض للحكومة[٣٨].

وسلوكٌ كهذا غنيُّ الدلالةِ لجهةِ صدوره عن مقدّماتٍ أمْنيّةٍ يتجلى فيها الاطمئنانُ الذي يحيلُ المُشتَرِعَ إلى رجلٍ فنيّ تنفيذيّ، كما يتجلى الخوفُ الذي يحيلُهُ هادياً مُخَلِّصاً. إذْ إلى اصطباغِ السياسةِ، والحالُ على ما هي عليه، بتعبيرٍ نفسيّ حاد، فإنّ أريافَ الامتدادِ الكتائبي شَكَّلَتْ دفعاً وتعزيزاً للمفاضلة الخالصة بين مجتمعٍ أهليّ «متخلّف» تنفرُ منه الخطابةُ الأخلاقيّةُ وتَزْدَريه، وبين دولةٍ تحمل إنماءً وتحديثاً من فوق العلاقات السياسةِ، بحيث يتحقّق أداؤها لدورها عن طريق اكتسابها المزيدَ من مواصفاتِ الدولَتيّة.

غير أنَّ الآمال التي عُلِّقَتْ على الشهابية ودولتِها، ما لبثَتْ أن تعرَّضَتْ لانتكاساتٍ مُحْبِطَةٍ مع صعود المقاومة الفلسطينية المسلحة في لبنان وإحاطَتِها بالتفافٍ إسلاميٍّ متعاظم. وهكذا بدا المجتمعُ متصدّعاً لا يقوى «البناء» و«التنظيم» و«العلمنةُ» على صَهْرِهِ وتسويةِ نُتواءاتِهِ، فيما الدولةُ مطلوبةٌ أكثر من ذي قبل كشَكْلٍ يَنْضَحُ بالقوة ويُوَفِّرُ الحماية.

وهذا المَيْلُ الذي تفاقَمَ مع اندلاعِ الحرب واتّخذَ مع بيار الجميّل شَكْلَ التركيزِ المتواصل على «الأمنِ» و«الأمن أولاً» و«الأمن قبل الوفاقِ»، يصوغُ، على نحوٍ معاكس، أهَمَّ معادلاتِ الأنظمةِ العسكريّةِ العروبيّةِ، والبعثيّ منها بخاصة، حيث تَحِلُّ السيطرةُ العسكرية ـ الأمنية طاردةً كلَّ بُعْدٍ آخر لعلاقاتِ المجتمع (التوافق الداخلي، التعليم، الثقافة، التربية، الصحة) إلى خَلْفيّةٍ بعيدةٍ في اعتباراتِ الحكم.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٦٢١.

السياسة «العاهرة»

ترافقَ هذا الموقفُ الجديدُ المُحْبَطُ مع بَعْثِ تصوّرٍ عن السياسة لا يقِلُّ إحباطاً. وكانَتْ السياسةُ المُدانة أو «العاهرة» تُتَوِّجُ البُعدَ الخطيرَ المترتِّبَ على إحالةِ السياسةِ إلى الدولة، ألّا وهو بُعْدُ الحدِّ من نفوذِ السياسيين ودورِهم[٣٩].

هذا الموقف التّطَهُّري من السياسة والذي يُحيلُها إلى الدولة، هو ما يميِّزُ الأخلاقيّةَ الكتائبيّةَ ذات الجذر الرَّجْعي، عن الأخلاقية التوتاليتارية والفاشية المَهْجوسةِ بقضمِ الدولةِ والمجتمع. إلّا أنَّ الموقفَ إيّاهُ واضح القرفِ والعزوف. ففي مطالع ١٩٧٤ وحين كان الوضع الأمني والسياسي يُمْعِنُ في التردّي، لاح للكتائب أنَّ الفساد «الناجمَ عن التخلّف الخُلُقِي قد تَغَلْغَلَ في كلِّ مكان: في مؤسسات الدولة، في الإدارةِ العامة، في المدرسة، في العَيْلة والبيت»، وصولاً إلى التبشير بالامتناع عن «الإستسلام للشرّ، للتياراتِ الفوضويّة والإنحلاليّة التي تجتاحُ عالمَ اليوم»[٤٠].

هذان النّعْيُ للأخلاق والاستسلامُ إلى عاديَّة الكلامِ الشعبي يُرَدّان إلى وصفِ كريم بقرادوني للكتائبية بصفتها «لا تفصلُ المرءَ عن حياتِهِ العاديّة. كنا نحضرُ القداديس كل أحدٍ الساعة التاسعة، وفي العاشرة اجتماعُ كتائبي»[٤١]. بَيْدَ أنّ «سياسةً» بكاملها، هي نفيٌ للسياسة، راحَتْ تتبلورُ مع السبعينات. ففي مذكّرةٍ أرسلها حزبُ الكتائب إلى رئيس الجمهورية في شباط ١٩٧٣، أي مع تَجَمُّعِ الغيوم التي أمطرَتْ اقتتالاً في شهر أيار من العام نفسه، لم يَعُدْ بُدٌّ من رَفْعِ هذه «السياسة» إلى مصافّ الحُكْمِ والمرجع

(٣٩) راجع الفصل الثالث. واقع الأمر أن مؤثرات عدة، منها العنصران الكنسي والشبابي، أسست لَتَطَهُّرِيّة كتائبية حيال السياسة بما عكسه الشعار الأبرشي الشهير الله، الوطن، العائلة». فقد فهم الجميل السياسية «صراحة وصدقاً وامانة وشجاعة [...] أمّا الشائع والمألوف فنوع من الغش يرتدي ثوب الشطارة». **من حصاد الأيام، في القضية اللبنانية ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦**، منشورات دار العمل، ص ١٧ ـ ١٨. وما ونت الكتائب تستعيد هذه الصورة عن نفسها ونشأتها، إذ هي ولدت ضد «سياسة الضيعة والعيلة والمختار والناطور» وسائر المعنيين «بإرواء شهواتهم إلى المال والتزعم والإثراء» من الزعماء والساسة، فكانت ردة فعل قوي ضد ممثلي الشعب «الرسميين (المبُتْلين بداء الخمول والتغافل وضد فساد وخنوع التكتلات القبلية». **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٦٤ ـ ٦٦. وفي سرد جوزيف أبو خليل لتاريخ العلاقة بين السلطة والحزب بصفته هذه وليس كمجرد مرشحين حزبيين إلى الانتخابات، يعود إلى العام ١٩٥٦ حيث قدّم الكتائبي انطوان معربس ورقة تطرح للمرة الأولى علاقة الحزب بالحكم وضرورة المشاركة. ويضيف القيادي الكتائبي أنّ بيار الجميل شخصياً ظلّ العائق الأكبر في وجه هذه الرغبة لأنه كان يؤمن ببقاء الحزب «طليعة» تضغط من الخارج وتحمي المسيحيين، إلى أن اقنَعَتْهُ المشاركةُ في «الحكومة الرباعية» بأنّ قراراً وزارياً واحداً يغني عن مائة تظاهرة من حيث الفعالية والتأثير، من مقابلة شخصية مع جوزيف أبو خليل في ١٩٨٦، سبق الاستشهاد.

(٤٠) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٢.

(٤١) من مقابلة شخصية مع كريم بقرادوني، سبق الاستشهاد.

تعتمدُهما الدولُة في صورةٍ نهائيةٍ وواضحة. فبحسب المذكّرة، تشكُرُ الكتائبُ «اللـهَ على أنَّ الدولة قد قرَّرَتْ اعتمادَ سلوكٍ حازمٍ في مواجهة هذا التحدّي» اليساري، مضيفةً: «إنَّنا ندعمُكُمْ وندعمُ موقِفَكُمْ. لكن إذا ما فشلَتْ الدولةُ في واجبها أو ضَعُفَتْ أو تَرَدَّدَتْ، فعندها سنلجَأ نحن يا فخامة الرئيس إلى العمل، نواجهُ التظاهراتِ بتظاهراتٍ أكبر، والاضراباتِ باضراباتٍ أشمل، والصّلابةَ والقوَّةَ بالقوةِ»[٤٢].

هنا وَجَدَتْ الكتائبُ نفسَها أمام مفارقةٍ مهمةٍ، كان لها أكثرُ من نتيجةٍ على المدى البعيد: من جهة، أطلَقَتْ الصدمةُ بالدولةِ حالةَ العزوفِ عن السياسة والحضِّ الأخلاقي على هذا العزوفِ، وهي حالةٌ لها مُقَدِّمَاتُهَا في الكتائب كما رأيْنا. ومن جهة أخرى، عَمِلَ الإضطرارُ إلى حلِّ المشاكل الأمنية على ضرورة استيلادِ «دولةٍ» ما. ظهرت هذه المفارقة في مناخٍ لا يَقِلُّ إذْكاءً للإحباطِ، إذ بَعْدَ التجربة الشهابية التي فشلت عن طريق «التنظيم» و«التنمية» و«البناء»، بدأتْ تفشلُ تجربةُ سليمان فرنجية الذي وصل إلى الحكم بنتيجةِ فشلِ التجربةِ المذكورة وما ولَّدَتْهُ من احتقانٍ ماروني. بهذا المعنى صدرَتْ رئاسةُ فرنجيّة عن مقدماتٍ أمنية و**عضلية** وثيقة الصلة بطبيعة صاحبها، لكن «حَلَّها» الأمنيّ الموعود ما لبث أنْ واجه نَكْساتِهِ المتلاحقةَ في أيار ١٩٧٣ وفي «دولة المطلوبين» في طرابلس والتحركات الطلابية والعمّالية الواسعة، فضلاً عما شاعَ من تَرَدٍّ أمني إبَّانَ عَهْدِ الحكوماتِ المتعاقبةِ منذ ١٩٧٣.

كان «طبيعيّاً» في حالةٍ كهذه، وبينما لم تتوقّفْ علاماتُ الإلتفافِ الإسلامي حول المقاومة الفلسطينية، أنْ يتبلوَرَ «خلاصٌ» كتائبيٌ لا يجمعُ فقط بين «الدولة القوية» والعزوفَ الطُّهْرانيِّ عن السياسة، أي إقامة الدولة من دون سياسة، بلْ يحمِلُ في ذاته ملامِحَهُ التجمْعِيّةَ الحادة بوصفها «اللبنانيةَ» الوحيدةَ الممكنة.

جاء ذلك بعد أن كانت «اللبنانية» الرسمية، كما تتولى الدولة الشهابية صَوْغَها وإعادةَ إنتاجِها وتعميمَها، قد ضُرِبَتْ وتفسَّخَتْ بفعل تفسّخ الدولة المذكورة. أما «الدولة» في عهد سليمان فرنجية، فهي تعريفاً أضعف من أن تقوم بهذه المهمة الإيديولوجية على نطاقٍ وطني.

بلغةٍ أخرى، جاءت الكتائبية المسلّحة لِتُجيبَ على تَعَطُّشٍ مسيحي مُزْمن لا إلى الأمن فحسب بل إلى الإيديولوجيا أيضاً، فيما الإيديولوجيا الوحيدةُ المطلوبةُ في زمن التَّعَطُّشِ إلى الأمن، إيديولوجيا عامّة شاملة وخلاصيّة لا تَقْرُبُ السياسةَ وجزئيّاتِها، لكنَّها مع هذا، قابلة لأن تنحطَّ إلى السَّويَّةِ الأمنية ـ العسكرية.

واقع الأمر أنّ الكتائبَ كحزبٍ لم تستطعْ، أبداً، أن تتخلّص من أحد ثوابتها ألّا وهو

(٤٢) عن Frank Stoakes, «The supervigilantes...» *in: The Middle Eastern Studies, op. cit.*

النموّ في موازاة الخوف، أو في الحدّ الأدنى، في موازاة الحضِّ والتعبئة، الشيء الذي يكشف أساساً صعوباتِ السياسةِ في الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ أزمة العلاقة بين السياسة والكتائب أو أيّة محاولةٍ حزبيةٍ أخرى. فالخوفُ الذي يقود أصحابَه إلى إحالةِ السياسة إلى الدولة الحامية ثم إلى التعاون معها إلى أبعدِ الحدود، لا يلبث أن ينتهي بهم إلى فكرة الحلول مَحَلَّها حين تَلوحُ عليها أماراتُ الوهنِ والضعف. بهذا يستحيلُ أن تبقى الدولةُ دولةً والحزبُ حزباً، بما يجعلُ الحربَ الأهليةَ في لبنان، حيث لا يُمكنُ دمْجُ الدولة والحزب، مجرّد قفا، أو عكساً مماثلاً، للإستبداد التوتاليتاري في الأنظمة المشرقية التي نهضَتْ على دَمْج الدولة والحزب الحاكم.

وإذا كان نموُّ الكتائب في الأطراف بعد ١٩٥٨ قد عَبَّرَ في أحد وجوهه عن دور الخوف، بعد مَأسَسَتِهِ (institutionalisation) شهابياً، في إحداث التّوَسّع[٤٣]، فذاك لا يُغني عن تفاصيل الدور المذكور ووقائعه في تجربة الكتائب، والوجهِ الذي ارتسم من جرّاء هذه التفاصيل والدقائق.

ففي دراسةٍ إحصائيةٍ وَضَعَها فريد عبود وجان بستاني في ١٩٧٣، تَبَيَّنَ أنّ ٢٤٪ من أعضاء الحزب عامَذاك، انتسبوا إليه خلال ١٩٥٨ وما تلاها من «ثورة مضادة». وفي رسم البروفيل النهائي الذي توصل إليه عبود وبستاني للكتائبي المتوسط في بداية السبعينات ظَهَرَ أنَّهُ «انتسب إلى الحزب أثناءَ إحدى الأزمات التي مرَّتْ بلبنان: لدى انتسابِهِ كان لا يزالُ يافعاً وكان وَضْعُهُ مُتَرَجْرِجاً. [هو] مناضلٌ مَوْسِمِيٌّ نشاطُهُ السياسيُّ محدودٌ في الفتراتِ العادية، مُجَمَّدٌ بين انتخابَيْنْ. أما في الإنتخابات وفي الأزمات فإنَّهُ يفيضُ حيويةً ونشاطاً ويعودُ إلى خَلِيَّتِهِ التي يكون قد أهملَها بعضَ الشيء»[٤٤].

وتُؤكدُ الأرقامُ التي يوردُها الحزب عن نفسه صحّةَ ما سبق ذكرُهُ، خصوصاً لجهة دور الأزمات، وإنْ لم يظهرْ أثرُ الانتخابات على العدد بالقدر نفسه. فبين ١٩٥٦، بدايةِ النزاعِ الشمعوني ـ الناصري وشعورِ المسيحيين بالخطر المُستَجِدّ، و١٩٥٩، ارتفع عددُ الكتائبيين من ٢٦٥٠٠ إلى ٦٢٠٠٠ مِمَّا استَلْزَمَ إعادة ضَبْطِ العُضويّة وتنظيمِها كما سبق أن رأينا. وبين ١٩٦٤، السنة التي انتهى معها عهد شهاب، وأسْماها وضاح شرارة سنة «الدَّبيب» الأوَّل للحرب الأهلية في المفاصل اللبنانية[٤٥]، و١٩٧٠، ارتفع العدد من ٣٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ من دون أن نَغْفَلَ عن الإنخفاضِ الذي سجَّلَتْهُ مرحلةُ الاستقرار الأمنيّ ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤: من ٦٢٠٠٠ إلى ٣٦٠٠٠[٤٦].

(٤٣) راجع الفصل الثاني.

(٤٤) نتائج الدراسة منشورة في مجلة **المستقبل** في ١٩٧٤/٣/٤.

(٤٥) راجع «التقديم» في: وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١.

(٤٦) عن **العمل** في ذكرى التأسيس في ١٩٨١/١١/٢٩. وحين نتذكر أن هذه الحقبة (١٩٥٩ ـ ٦٤) شهدت

تعتمدُهما الدولُة في صورةٍ نهائيةٍ وواضحة. فبحسب المذكّرة، تشكُرُ الكتائبُ «اللـهَ على أنَّ الدولة قد قرَّرَتْ اعتمادَ سلوكٍ حـازمٍ في مواجهـة هذا التحـدّي» اليساري، مضيفـةً: «إنَّنا ندعمُكُمْ وندعمُ موقفَكُمْ. لكن إذا ما فشلَتْ الدولـةُ في واجبها أو ضَعُفَتْ أو تَـرَدَّدَتْ، فعندها سنلجَأ نحن يا فخـامة الـرئيس إلى العمل، نـواجهُ التظـاهراتِ بتظـاهراتٍ أكبـر، والاضراباتِ باضراباتٍ أشمل، والصّلابةَ والقوَّةَ بالقوةِ»(٤٢).

هنا وَجَدَتْ الكتائبُ نفسَها أمام مفارقةٍ مهمةٍ، كـان لها أكثـرُ من نتيجةٍ على المـدى البعيد: من جهة، أطلَقَتْ الصدمةُ بالدولةِ حالـةَ العزوفِ عن السيـاسة والحضِّ الأخـلاقي على هذا العزوفِ، وهي حالةٌ لها مُقَدِّمَاتُها في الكتائب كما رأيْنـا. ومن جهة أخـرى، عَمِلَ الإضطرارُ إلى حلِّ المشاكل الأمنية على ضرورة استيلادِ «دولةٍ» ما. ظهرت هذه المفارقـة في مناخٍ لا يَقِلُّ إذْكاءً للإحباطِ، إذ بَعْدَ التجربة الشهابية التي فشلت عن طريق «التنظيم» و«التنمية» و«البناء»، بدأتْ تفشلُ تجربةُ سليمـان فرنجيـة الذي وصـل إلى الحكم بنتيجةِ فشلِ التجربةِ المذكورة وما ولَّدَتْهُ من احتقانٍ ماروني. بهذا المعنى صدرَتْ رئاسةُ فرنجيّة عن مقدماتٍ أمنية و**عضلية** وثيقة الصلة بطبيعة صاحبها، لكن «حَلَّها» الأمنيّ الموعود مـا لبث أنْ واجـه نَكْساتِـهِ المتلاحقـةَ في أيار ١٩٧٣ وفي «دولـة المطلـوبين» في طـرابلس والتحركات الطلابية والعمّالية الواسعة، فضلاً عما شاعَ من تَرَدٍّ أمني إبَّانَ عَهْدِ الحكوماتِ المتعاقبةِ منذ ١٩٧٣.

كان «طبيعيّاً» في حالةٍ كهـذه، وبينما لم تتـوقّفْ علامـاتُ الإلتفافِ الإسـلامي حول المقـاومة الفلسطينيـة، أنْ يتبلوَرَ «خـلاصٌ» كتائبيٌ لا يجمـعُ فقط بين «الدولـة القـويـة» والعزوفَ الطُّهْرانيّ عن السياسة، أي إقامة الـدولة من دون سيـاسة، بـلْ يحمِلُ في ذاتـه ملامِحَهُ التجمْعِيّةَ الحادة بوصفها «اللبنانيةَ» الوحيدةَ الممكنة.

جاء ذلك بعد أن كانت «اللبنانية» الـرسمية، كمـا تتولى الـدولة الشهـابية صَـوْغَها وإعادةَ إنتاجِها وتعميمَها، قد ضُرِبَتْ وتفسَّخَتْ بفعل تفسّخ الدولة المذكورة. أما «الدولـة» في عهد سليمان فرنجية، فهي تعريفاً أضعف من أن تقوم بهذه المهمة الإيديولوجيـة على نطاقٍ وطني.

بلغةٍ أخرى، جـاءت الكتائبيـة المسلّحة لِتُجيبَ على تَعَطُّشٍ مسيحي مُـزْمن لا إلى الأمنِ فحسب بل إلى الإيديولوجيا أيضاً، فيما الإيديـولوجيـا الوحيـدةُ المطلوبـةُ في زمن التَّعَطُّشِ إلى الأمن، إيديولوجيا عامّة شاملة وخلاصيّة لا تَقْرُبُ السياسةَ وجزئيّاتِها، لكِنَّها مع هذا، قابلة لأن تنحطَّ إلى السَّويَّةِ الأمنية ـ العسكرية.

واقع الأمر أنّ الكتائبَ كحزبٍ لم تستطعْ، أبداً، أن تتخلّص من أحد ثوابتها ألَا وهو

(٤٢) عن Frank Stoakes, «The supervigilantes...» *in: The Middle Eastern Studies, op. cit.*

النموّ في موازاة الخوف، أو في الحدّ الأدنى، في مـوازاة الحضِّ والتعبئة، الشيء الـذي يكشف أساساً صعوباتِ السياسةِ في الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ أزمة العلاقة بين السياسة والكتائب أو أيّة محاولةٍ حزبيةٍ أخرى. فالخوفُ الذي يقود أصحابَـه إلى إحالـةِ السياسـة إلى الـدولة الحـامية ثم إلى التعـاون معها إلى أبعـدِ الحدود، لا يلبث أن ينتهي بهم إلى فكـرة الحلول مَحَلَّهـا حين تَلوحُ عليهـا أماراتُ الـوهنِ والضعف. بهذا يستحيـلُ أن تبقى الدولةُ دولةً والحزبُ حزباً، بما يجعلُ الحربَ الأهليةَ في لبنـان، حيث لا يُمكنُ دمْجُ الـدولة والحزب، مجرّد قفا، أو عكساً مماثلاً، للإستبداد التوتاليتـاري في الأنظمة المشـرقية التي نهضَتْ على دَمْج الدولة والحزب الحاكم.

وإذا كان نموُّ الكتـائب في الأطراف بعـد ١٩٥٨ قد عَبَّـرَ في أحد وجـوهه عن دور الخوف، بعد مَأسَسَتِهِ (institutionalisation) شهـابياً، في إحـداث التَّوَسّـع(٤٣)، فذاك لا يُغني عن تفاصيل الدور المذكـور ووقائعـه في تجربـة الكتائب، والـوجهِ الـذي ارتسم من جرّاء هذه التفاصيل والدقائق.

ففي دراسةٍ إحصائيةٍ وَضَعَها فريد عبود وجان بستـاني في ١٩٧٣، تَبَيَّنَ أنّ ٢٤٪ من أعضاء الحزب عامَذاك، انتسبوا إليه خلال ١٩٥٨ وما تلاها من «ثـورة مضادة». وفي رسم البروفيل النهـائي الذي تـوصل إليـه عبود وبستـاني للكتائبي المتـوسط في بدايـة السبعينـات ظَهَرَ أنَّـهُ «انتسب إلى الحزب أثنـاءَ إحدى الأزمـات التي مرَّتْ بلبنـان: لدى انتسابِهِ كان لا يزالُ يافعاً وكان وَضْعُهُ مُترَجْرجاً. [هو] مناضلٌ مَوْسِمِيٌّ نشاطُـهُ السياسيُّ محدودٌ في الفتراتِ العادية، مُجَمَّدٌ بين انتخابَيْنْ. أمـا في الإنتخابـات وفي الأزمات فـإنَّهُ يفيضُ حيويةً ونشاطاً ويعودُ إلى خَلِيَّتِهِ التي يكون قد أهملَها بعضَ الشيء»(٤٤).

وتُؤكدُ الأرقامُ التي يوردُها الحزب عن نفسه صحّةَ ما سبق ذكـرُهُ، خصوصـاً لجهة دور الأزمات، وإنْ لم يظهرْ أثرُ الانتخابات على العدد بـالقدر نفسـه. فبين ١٩٥٦، بدايـةِ النزاعِ الشمعوني ـ الناصري وشعورِ المسيحيين بالخطر المُستَجِدّ، و١٩٥٩، ارتفع عددُ الكتائبيين من ٢٦٥٠٠ إلى ٦٢٠٠٠ مِمَّا استَلْزَمَ إعادة ضَبْطِ العُضويّة وتنظيمِها كما سبق أن رأينا. وبين ١٩٦٤، السنة التي انتهى معها عهد شهاب، وأسْماها وضاح شـرارة سنة «الـدَّبيب» الأوَّل للحرب الأهليـة في المفاصـل اللبنانيـة(٤٥)، و١٩٧٠، ارتفـع العـدد من ٣٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ من دون أن نَغْفَلَ عن الإنخفاضِ الـذي سجَّلَتْهُ مـرحلةُ الاستقـرار الأمنيّ ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤: من ٦٢٠٠٠ إلى ٣٦٠٠٠(٤٦).

(٤٣) راجع الفصل الثاني.
(٤٤) نتائج الدراسة منشورة في مجلة **المستقبل** في ٤/٣/١٩٧٤.
(٤٥) راجع «التقديم» في: وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١.
(٤٦) عن **العمل** في ذكرى التـأسيس في ٢٩/١١/١٩٨١. وحين نتذكـر أن هذه الحقبـة (١٩٥٩ ـ ٦٤) شهـدت

لقد آلَتْ طبيعةُ الكتائبِ هذه، معطوفةً على حِدَّة الإحباطِ الذي شعرَتْ به مع أواخرِ الستينات، إلى تَزْكِية المطالبةِ بدولةٍ من دون سياسة(٤٧)، دولةٍ أقرب ما تكون إلى الأداةِ القمعيّةِ الخالصة. وكان لهذه القناعة أنْ واكبَتْ وبرَّرَتْ ثلاثَ خطى كبيرة خَطَتْها الكتائبُ في نحوٍ تصاعديٍّ يعكِسُ إحباطَ التَّحْديثِ الشهابي والإحباط به:

١ ـ المشاركة في «الحلف الثلاثي» في ١٩٦٨ بمزيجٍ من الحماسة والتردّدِ والإستجابة للمطالَبَةِ الطائفيّةِ ومُزايداتِ زعماءِ الطوائف، كما رأيْنا قبلاً.

٢ ـ تأييد سليمان فرنجية في وصوله إلى الرئاسة في ١٩٧٠ وموالاة عَهْدِه بالتّالي من دون الكفِّ عن بناءٍ تدريجيٍّ لعناصر «دولة» موازية. ولا يغيبُ عن البال أنَّ المَلْمَحَ الأمْني (التصدّي للمقاومة الفلسطينية وحلفائها في مناخ أيلول ١٩٧٠ الأردني) هو الذي طغى على معركة فرنجية الرئاسية.

٣ ـ الإعدادَ للانخراط المباشر في الحرب الأهلية ـ الإقليمية في ١٩٧٥.

«جوهر» الماضي

لم يَعُدْ من الواضح تماماً، والحالُ على ما هي عليه، أيْنَ ينتهي التمدّدُ الكتائبي المحكوم، افتراضاً، بمنطقِ نموِّ الحزب البرلمانيّ الباحثِ عن تمثيلٍ ورُقعةٍ أوسع، وأيْنَ يبدأ توسيعُ «القلعةِ» الدفاعيّةِ المؤهّلةِ للوقوف في مواجهة التحدّي الخارجي (وتحالفاتِه الداخلية) وَصدِّه.

فالدفاعُ عن النظام القائم إلى حدِّ التماثُلِ معه، ورَفْضُ استعمال أدنى عنف في مُواجهته، كانا يَتَكَشَّفان، عند تراجُعِ الاطمئنان، عن موقف موغلٍ في «نظاميّته»، أي موقفٍ يُخْفي جرثومة بداياتٍ توتاليتارية ناجمة عن التَّصدّي لأداء دورِ الدولةِ التي كفَّتْ عن الوجود، ولم يعُدْ من الممكن بالتالي أن تُحالَ السياسةُ إليها. فإذا كان الإنقسامُ الأهليُّ يُلحِقُ الشَّلَلَ بالجيش والمؤسسات في بلدٍ مُركَّب، فإنّ شطراً من المجتمع كفيلٌ باحتضانِ جيشٍ ومؤسساتٍ يستحيلُ إلحاقُ الشلل بها لامتناعِهما عن التركيب بين مختلفين، وعن السياسةِ استطراداً.

انطلاق الكتائب نحو الأطراف يمكننا أن نقدر حجم تراجعها في الجبل وبيروت كما دلّت انتخابات ١٩٦٤، راجع الفصل الثاني.

(٤٧) وصل الأمر ببيار الجميل وهو يُحيي تصوره القديم عن السياسة في ظروف أشد بعثاً على المرارة والاحباط، أن رأى في ١٩٧٤ أنّ «السياسة في لبنان دعارة والأحزاب عاهرة والمعارضة عاهرة». انظر مجلة **الحوادث** في ١٩٧٤/١/٢٥. وليست مصادفة أنَّ السمةَ الأخلاقية الأبوية هي ما اتّسم بها معظم قادة الطوائف المقاتلة في ١٩٧٥، من بيار الجميل وكمال جنبلاط إلى «الإمام» موسى الصدر، فضلاً عن رئيس الجمهورية وقائد المعسكر الماروني المقاتل يومذاك سليمان فرنجية.

والواقع أنّ حزبَ الكتائب الذي لا يُعْوِزه التبشيرُ بالدولة وبتعزيزها عَبْرَ المدرسة والعائلة والتربية(٤٨)، مرشَّحٌ مبدئياً للسقوط في هذه الشَّكْليّة النظامية، أكان في الإصرار العدالي على سمعة المؤسسات وانتظام عملها وكفاءة مردودها، أمْ في عصبيّة الرّدِّ على أيِّ تلميحٍ يَنِمُّ عن عدمِ احترامٍ كاملٍ للدولة. وجذرُ هذا الموقف قائمٌ تحديداً في تلك المعادلة الأصلية ـ التي يُمْلِيها الخوفُ الأقليُّ ـ بين الوطن والدولة أكانَتْ وظيفتُها «البناء» أو «القمع». ففي لحظات الإنهيار والتصدُّع تظهرُ خطورةُ المعادلةِ المذكورةِ وخطورةِ وطنيّتها المثاليّة، حيث تُرتِّبُ مُماثَلاتٌ كهذه عدداً من المطالب العداليّةِ المأخوذةِ بنموذجٍ كماليٍّ لا يمكنُ لأيّةِ دولةٍ أنْ تبلغَهُ. فكيف بدولةٍ منبثقةٍ عن مجتمعٍ متعدّدٍ في منطقة الشرق الأوسط، ومحاصرةٍ بِقِيَمِ هذه المنطقة وتَأجُّجِها الراديكالي.

إلا أنَّهُ غالباً ما كان يحصل تبادلٌ «طبيعيٌّ» في الأدوار داخل الازدواج الكتائبي، الوطني ـ السياسي، والنظامي ـ الشكلي أو المليشياوي لاحقاً. فاللُّحْمَةُ التي تشدُّ الجمهورَ المسيحي أو بعضَهُ إلى الكتائب، والتي تُنْتِجُها في زمن السِّلْمِ خدماتُ الإدارةِ والوزارات معطوفة طبعاً، على «العقيدة» بوصفها حصيلةً وتعبيراً عن علاقاتٍ اجتماعيّةٍ معقدة، تَرْتَدُّ في أزمنة الحرب أو التوتّر، بما في ذلك من تعطّلِ الخدمات والصِّلةِ بالمركز، إلى لُحمَةٍ «إيديولوجية» صافية تتغذى بذاتها «الجوهرية» لا بما يطرأ عليها من تَحَوّلاتٍ وأحداثٍ ومنافعَ. وقِوَامُ هذه اللُّحْمَةِ، وهو عشائريٌّ حصراً، تعريفُ الذّاتِ التجمعيةِ المطلقة عَبْرَ فَرْزِها عن الذات المُطْلَقَةِ الأخرى.

غنيٌّ عن القول إنَّ اللُّحْمَةَ هذه، وبقدْرِ ما هي عديمةُ التعرّضِ لامتحانِ النفعِ والسياسة، قابلةٌ لأنْ تَسْتَأنِفَ وتُكَرِّرَ النزاعاتِ العصبيةِ السابقة على فكرة الحزبِ السياسي وتجربتِه، وإنْ تَمَّ ذلك بعد إسباغِ «التحديثِ» الحزبي ـ النظامي على تلك النزعاتِ وتعابيرِها، وأدواتِها طبعاً.

في هذا المناخ تؤولُ اللُّحمةُ التي صِيرَ إلى استنهاضِها، إلى طَرْحِ خطرٍ هي أصلاً كنايةٌ عن بداياتِهِ الفعلية أو المُتَوَهَّمَةِ، وهو خطرٌ لا سبيلَ إلى التقليلِ من حجْمِهِ وأثرِهِ على دولةٍ تعاقديّةٍ ومجتمعٍ مُركّبٍ كالدولة والمجتمع اللبنانيَيْنْ. فإذا كان ضعفُ الدولةِ النسبيُّ عاملاً مساعداً على إغناءِ الحياةِ السياسيةِ وإطلاقِ حيويةِ المجتمعِ ومُبادرتِهِ، شريطةَ وجودِ وسط إقليميٍّ مستقرٍّ وبيئةٍ تتفاعل فيها تجاربُ دستورية، فإنَّ هذا الضعف يتحوّلُ هو نفسُهُ، كما أُشيرَ قبلاً، إلى مَأخذٍ على الدولة تَتِمُّ معالجتُهُ بحمايتها من خارجها، أو بحمايتها رغماً عنها، أو حتى بحمايتها من نفسها وأحياناً على حسابها.

ومن دون أن تكون الكتائب «قوميةً» أو «توتاليتارية»، إلا أنّ معادلةَ الوطن ـ الدولة

(٤٨) انظر: Frank Stoakes, «The supervigilantes...», *in: The Middle Eastern Studies, op. cit.*

المحكومةَ بالخوفِ الأقلّي والتي يشوبُها الضِّيقُ الريفي، جعلَتْ التركيزَ الكتائبي لا يتَّجِهُ إلا لِماماً إلى التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفقط من زاوية صِلتها بـ «استقرار الحياة السياسيّة في البلد وحمايةِ المصالحِ المسيحيةِ» كأوْلَويّةِ الأوْلَويّات[٤٩]. والحَقُّ أنّ اهتمامَ الكتائب بأمورِ «التنظيم» و«البناء» في العهد الشهابي، وهو ما اتصلَ خصوصاً باسم الشيخ موريس الجميل، لم يَشُدَّ كثيراً عن هذا الترتيب للأولويات. فالاهتمامُ بَقيَ فنيّاً وتبشيرياً من دون أن يتحوّل موضوعاً إيديولوجياً تَحْدُثُ التعبئةُ حوله ويَتُمُّ الاستقطاب. بلغة أخرى، بقي هذا الجانب، وإن حصدَتْ الكتائبُ بعض الثمار بفعله في العهد المذكور، فَوْقِيّاً ومُلْحَقاً بالدولة وأجهزتها، و فولكلورياً أحياناً، بينما ظلَّتْ الحالُ الطائفية وتوابعُها هي التَّحْتِيّ الفاعل في التجربة الكتائبية.

هذا ما تعدّى في دلالاته مجرّدَ تغليب اعتبارٍ رئيسيٍّ على سائرِ الاعتبارات، إلى القبولِ، مبدئياً وعموماً، بالتراتُبِ الثابت والمُعْطى لتلك الاعتبارات، بحيث يلوح التركيزُ على الاعتبار الرئيس مَصْدَراً أوحدَ للسياسةِ والتفكيرِ، بما فيه التفكير الهجاسي كما هو معهود في الأنماط التوتاليتارية وشبه التوتاليتارية.

بمعنى آخر، هيأ الحزبُ نفسَهُ لأنْ يكونَ أسيرَ «نظامٍ» لا يتّسِعُ كثيراً لإعادةِ نظرٍ ولتجديدٍ يَبْعثان الروحَ في أوصالِ نظاميّةٍ موغلةٍ في شكليّتِها، عاجزةٍ عن احتواءِ تعقيداتِ الحياةِ اللبنانيةِ بما يتجاوزُ الثنائيةَ القُطْبيّةَ بين المسيحية والإسلام إلى الإقتصادي والإجتماعي والثقافي. وفي ظل هذا الإستبعاد للأنشطة والمستويات ذات المصدر المُجْتَمَعِيِّ، ومن ثَمَّ إلحاقها بالتسوية الطائفية في حَيّز السلطة السياسية، غَذَّت الكتائبُ استعدادَها التوتاليتاري الذي رأيْنا معظمَ أدبِها السياسي يُنافيه ويُغايِرُه.

والحقُّ أنَّ الإغراء العقائدي ـ الوطني المؤدي إلى الاستبدادِ كامنٌ بوضوح في النزعةِ الاستبداليةِ التي تَمَّ وصفُ بعضِ أوْجهها. ومن نتائج هذه النزعة أن يغلُبَ الميلُ إلى إهمالِ التعقيدِ المجتمعي الذي تصدُرُ عنه الدولةُ وتعكِسُهُ (في قوّتِها كما في ضعفها)، ويُصارَ تالياً إلى تعريضِ الدولةِ لمناشدةٍ أخلاقيةٍ، إنقاذيةٍ، تعكسُ رغبةً تَجَمُعِيّةً حادّةً هي خِلافيّةٌ (controversial) بالتعريف.

وإذا صَحَّ القولُ بلا فاشيَّة الكتائب، فإنَّ ما قد يجمعُها في أزمنة الحرب أو التعبئة أو التوتّر، بسائر الإتِّجاهات التوتاليتارية هو بالضبط «تَأليهُ الدولة» فعلياً إن لم يكن نظرياً. فَتَأليهٌ كهذا هو الذي يَسْمَحُ لأصحابه بِتَمَثُّلِ الدولة والتَّوَحُّدِ معها من دون وسائطَ شرعيةٍ أكانَ ذلك قَضْماً لها يستندُ إلى مقدّمات إيديولوجياتٍ كما في الحالة الفاشيّة، أم حلولاً محلَّها تَفْرضُهُ ظروفٌ معينةٌ لم يسبقْ أن أُفِيضَ في تَنْظيرِها، كما هي الحالةُ الكتائبية.

(٤٩) أنظر: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 26.

ومن البديهي أنَّ تغييبَ الوسائط التي تضمنُ بقاءَ النزاعاتِ سياسيةً، وتعبّرُ عن سياسِيّتِها، تُرشِّحُ النزاعاتِ إياها للإلتحامِ المباشَرِ خارج المؤسَّسات وتحكيمها فلا يُحيط بترجمتِها إذّاك كلامٌ سياسيٌّ بل كلامُ «عقائديٌّ» بِدْئِيٌّ وتَكْوِينيّ.

في هذا المَسار المُفْضي إلى الحرب الأهلية عَبْرَ تكتيلِ الجماعةِ عشيريّاً وقيادتها في النزاع مع تَكتّلِ عشيريّ آخر «تتخذُ عمليةُ التوحيدِ شكلَ الجمعِ العددي وإضافة كتلةِ مصالحِ إلى كتلةٍ أخرى رغم التنافر الذي يفصلُ بين الكتلتَيْن. ويتَّخذ الجمعُ العددي صوراً كاريكاتورية: مقابل المطالبة بتجنيس عرب وادي خالد وضَمِّهِم إلى الصفّ الإسلامي، يُرفَعُ مطلبُ إحصاءِ المهاجرين»[٥٠].

ولَئِنْ كان تخلّفُ المنطقة المحيطة بلبنان[٥١]، وما ينجمُ عنه من نزعٍ للسياسة وتغليب للعنف وإثارةِ الخوف[٥٢]، هو ما فرض على الكتائب (وغيرها) مناخَ نموِّها وإطارَ عملِها، فإنَّ الأخيرة لم تَنُمّ في لحظات الانعطاف والتحدي إلّا عن استعدادٍ غني للردّ بالسلاح نفسهِ، وعلى النحو الذي يقود إلى العنف المُكَتِّلِ للجماعات أو يتجسدُ في «دولةٍ» موازيةٍ للدولةِ المُسْتَضْعَفَة. وهذا ما يصوغُهُ بيار الجميل بدرجةٍ بعيدةٍ من الدقة في ١٩٥٤ حين يستعرضُ الإستعداداتِ المبدئية للعمل الكتائبي ومنطقَ هذه الاستعداداتِ القائمَ على المقابلة: «مُستعدّون للردِّ على كل «مناورة» مُغْرِضةٍ بما يجب أن يُرَدَّ عليها به، ومستعدّون لِجَبْهِ كلِّ مسعى انْتقِاصيّ بما ينبغي أن يُجْبَهَ به، ومستعدّون لمقابلةِ الإضراب بالإضراب، والتظاهرة بالتظاهرة من أجل ما يدينون به من عقائدَ وطنيّةٍ وسياسيّة، ومُستعدّون عندَ الاقتضاء للتعاون والشيطانَ نفسه في سبيل تحطيم أطماعِ الطمّاعين وإحباط مؤامراتِ المتآمرين والمحافظة على لبنان»[٥٣].

لقد سبق لمونتغمري وات أنْ تناولَ هذه المقابلةَ بين الشيء والشيء، مُلاحظاً أنّ بين أبرز السِّماتِ التي ميَّزَت الحياة القبلية السابقة على الإسلام واستمرَّتْ معه «المحافظة على الأمن عن طريق درجةٍ عُليا من التضامن الاجتماعي. وأكثرُ الأشكالِ المعروفةِ عن هذا «قانون الثأر» (lex talionis) القائل بـ «العين بالعين والسن بالسن

(٥٠) وضّاح شرارة، **حروب الاستتباع أو لبنان الحرب الأهلية الدائمة**، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٥٣.

(٥١) والتّخلف هنا يعني خصوصاً الاستعداد الراديكالي الجامح والقصور السائد عن إدراك نهائيّة الكيانات والمجتمعات وعن احترام خصوصياتها، فضلاً عن الإغفال عن المؤسسات وتوطيدها تحت تأثير مفاعيل الفوضى الثورية.

(٥٢) يعرف اللبنانيون الذين عاشوا حرب السنتين (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) كيف دَرَّجت المقاومة الفلسطينية، «طليعة الثورة العربية» العمل بالقصف العشوائي للمناطق السكنية، أي القصف الذي لا يُمَيِّز بين جماعة واحدة فيما يقود إلى تكتيل هذه الجماعة كلها ولجوئها إلى قصف مماثل مضاد. وليس بلا دلالة أنْ يكون الطرف الذي درّج هذه الممارسة أكثر أطراف الحرب بُعْداً عن دورةِ المجتمع والمؤسسات.

(٥٣) بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، سبق الاستشهاد، ص ٣٢.

والحياة بالحياة»». وبعد أنْ يُشيرَ وات إلى أنَّ الروادعَ عن القتل، بحسب هذا النظام، لا تتعدى حساباتِ الحلفِ مع القبيلة الأخرى أو الخوف من درجةِ بَأسِها وقُوَّتِها وإمكان لجوئها إلى الثأر، يَرى أنَّ الصلةَ بين فعاليةِ هذا النظام وبين التضامن أو العصبية فرضيةٌ أساسيةٌ من فرضياتِ النظام هذا، وذلك يعني أنَّهُ «إذا ما قُتِلَ أحدُ أفراد الجماعة، فإنَّ الآخرين سيبادرون فوراً للثأر له، وإذا ما هوجم فسوف يَهُبّون لنُصرتِه من دون تساؤلٍ عن جوانب الحق والخطأ في التّصرف»(٥٤).

إنَّ الاستجابةَ الثأريّةَ الكتائبيةَ التي تُقدِّمُ عبارةُ بيار الجميل عَيِّنةً عنها، وهي ليست استثنائيةً في خطابِه، هي العنصرُ الذي من دونِهِ تبقى اللوحةُ الإنفجاريةُ ناقصةً. فهذه «السياسةُ» الناهضةُ على المُقابلَة لا يمكنُها تعريفاً أنْ توفر مدخلاً إلى السياسة إذ تبقى أسيرةَ ضغطٍ شعوريٍّ ـ نفسيٍّ حادٍّ يُمْليهِ الخوف وَرَدُّ الخوف، بإخافة المُخيفِ الفعلي أو المُتَوَهَّم.

هنا تندرجُ عُقَدُ الماضي وذكرياتُه المتناقَلَةُ والحرصُ على «الكيان» الذي تراءى على صورة خلاصٍ من ذاك الماضي وعُقَدِه، كما يتشكّلُ مُركَّبٌ شعوريٌّ يصيرُ معه أصغرُ عارضٍ سياسيّ، وغالباً أمني، كفيلاً بأن يَطْرَحَ المخاوفَ حولَ الوجود برُمَّتِه: هل يبقى لبنان؟ هلى نبقى؟ وفي ظرفٍ كهذا يصير «التقدُّم» الوحيد الذي يستحق هذه التسمية هو ما لا تشوبُهُ «ثرثرة» و«اضرابات» ويُضْحِي المطلوبُ «العمل [الذي] يُخَطِّطُ له حُكْمٌ حازمٌ ومستقرٌّ»، ويُصْبِحُ من تحصيل الحاصل طرحُ أسئلةٍ حولَ جدوى الديموقراطية في لبنان والدعوة إلى إرجاعها إلى أصولها «الصحيحة والسليمة»(٥٥).

وفي مقابل الدعواتِ إلى الحوار والتعايش، تظهر دعواتٌ نُكُوصِيّةٌ فيها الندمُ على صيغة ١٩٤٣ وسؤال اللبنانيين أنْ يقرروا «مصيرَهُمْ من جديد» لأنه «عند كل نكسةٍ نعودُ فنبدأ من الصفر»(٥٦).

وفي موازاة هذا الحذفِ المتواصل للسياسة وكلّ ما يُقيمُ المجتمعَ أو يُديمه، تدافعُ افتتاحية «العمل» في ١٠ آب ١٩٧٤ عن وجودِ السلاحِ بأيدي الكتائب الذي هو «ظاهرةٌ جديدةٌ مردُّها إلى الخوفِ من تهديداتٍ كثيرة، وبنوعٍ خاص، من عَجْزِ الدولة وغيابها»(٥٧). وحين تنعي هذا العجزَ حيال عملياتٍ إرهابيّةٍ آخرُها تفجيرُ مكاتب مؤسسة

(٥٤) W.Montgomery Watt, *Islamic political thought...*, *op. cit.*, p. 6.
(٥٥) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ١٠١ ـ ١٠٣.
(٥٦) المرجع السابق، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.
(٥٧) المرجع نفسه، ص ٦٩.

«بروتيين» تُلَمِّحُ إلى إمكان أن يظهر «إرهابٌ مماثلٌ» يكون مضاداً «لهذا الإرهاب المتمادي»(٥٨).

قبل ذلك كان بيار الجميّل قد أعلَنَ موقفاً تفصيلياً في ردِّه على «ما نُشر في بعض الصحف حول وصولِ كميّات من الأسلحة لحزب الكتائب». فقد نفى أيَّ علم بالأسلحة من دون أنْ يستغربَ إطلاقَ الرصاص في بلدٍ أصبَحَ كلُّهُ مسلّحاً. ولَئِنْ أكّد على مبدأ أن يكونَ السلاحُ في يدِ الشرعية وحدَها، أضاف أنّه يقول «برافو» للذي يُدخِلُ سلاحاً إلى لبنان بعد أن تكاثر السلاح الآتي من الخارج في يدِ طرفٍ واحد(٥٩).

هذه الدفاعية التي تَرُدُّ بالمنطقِ نفسه هي التي وَسَمَتْ الدولتية الكتائبيّة، في لحظةِ التّصدُّعِ العام، بهاجس البحث عن القوة والأمن، والكلام الذي يُلَبِّيهما، على حساب الوظائف والأبعاد الأخرى، إذ في داخل الدولة نفسها مَثَّلَتْ المؤسَّسةُ العسكريةُ للكتائب «المؤسسةَ الوحيدَة التي تجسَّدَتْ فيها وحدةُ اللبنانيين»، وحين قارنَتْها «العمل» بالبُنية السياسية التي هي «شطارة» وغش واستغلال و«ثرثرة» و«صراعٌ تافهٌ حول أمور تافهة»، وصلَتْ إلى الإستنتاج أنَّ الكتائبَ هي «دائماً حِصَّة» الجيش ولو أخطأ أو تعثَّر»(٦٠).

إنَّ البحثَ عن القوة ومقابلةَ الفعل بالفعل استطراداً، ينزلانِ بالعلاقات الاجتماعية والسياسية إلى مصافٍّ لا أفقَ له غير الثّأر الدموي بمعناه العشيري، بحيث تكون الحروب الأهليّةُ صافيةً كاملةً لا يسعى أيٌّ من أطرافِها إلى «كَسْب عناصرَ من الطرف المواجه» فيما يسودُ عجزٌ شاملٌ عن ممارسةِ سياسة توحيدٍ وطنيٍّ «لا تُكرِّسُ عملياً وفعلاً تحوّلاً في الميزان الفئوي»(٦١).

وهنا يُناطُ بـ «الذبح على الهوية» وسائر الممارساتِ المشابهة التي لم يتعفَّفْ عنها لاحقاً أيٌّ من أطراف النزاع الأهلي أنْ تُسَمِّرَ الهويتين المتقابلتين، كلَّ واحدةٍ في مطرحِها، فلا يطرأُ التباسٌ من سياسةٍ أو اجتماعٍ أو ثقافةٍ على صفاءٍ ونقاءٍ دمويّيْن متناظرَيْن، كل منهما يُضِيفُ لُحمةً إلى تكاثُفِ الآخر.

ما من شكٍّ في أنَّ النَّزْعةَ الدفاعيةَ العميقةَ، في حالةِ حزبٍ كالكتائب، هي التي توفِّرُ الأساسَ الأمتنَ لتفسيرِ هذا الامتزاجِ بين السياسيِّ ـ الدستوري والإيديولوجيّ ـ النضاليّ العاملِ على إنكاصِ السياسة، تفسيرَها معادلةَ الوطن ـ الدولةِ والنّظر إلى الأخيرة كَمُعطىً ينبغي شدُّه إلى سويّةِ مثالٍ ما، ولو بالرّغم عنه، أو تَعْريضُه للتحطيم. ومع أنّ أيّ «جهازٍ» يستحيلُ عليه أنْ يَنْشُدَّ إلى مصافِ مثالاتٍ مصادُرها في الرواية

(٥٨) المرجع نفسه، ص ١٢٠ ـ ١٢٤.
(٥٩) **النهار** ٩/١/١٩٧٤.
(٦٠) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ١٢٨ ـ ١٣٠.
(٦١) وضاح شرارة، **حروب الإستتباع**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٣.

التاريخية لإحدى الجماعات عن ذاتِها وعن العالم، فمثاليّةُ الدولة في عين الكتائب هي امتلاكُ قوة تستدعيها مَهَمَّةُ الدفاع عن النفسِ وردِّ الحصارِ الآتي من الخارج. لكنّها من جهة أخرى استكمالُ التطابقِ مع الذات، الذي هو شرطٌ من شروطِ الحربِ الأهليةِ وفرزها المطلَق.

فالدولةُ ذاتُ القاعدةِ المسيحيةِ ـ الجبليةِ، هي في مواسمِ التوترِ الأمني والسياسي، دولةُ الشطر «الأكثرِ لبنانيةً»، وذلك بمعزلٍ عن الميلِ الكتائبي الحاسم، في أزمنة الإستقرار، للفصل بين الدولة والحزب، الشيءُ الذي يقطعُ نصفَ الطريق نحو «الدولة الكتائبية»، نظرياً على الأقل.

فموقفُ الدولة، في عُرْفِ صحيفة «العمل»، يتطابق دائماً مع موقف المسيحيين، فيما يتطابقُ الموقف الإسلامي مع المخاطر التي تُهدِّدُ الدولة لأنَّ «الإنتقاصَ من سيادتها يأتي غالباً على يدِ نفوذٍ عربي، يجد فيه المسيحيون خطراً على حرياتهم ولا يجد فيه المسلمون إلاالخيرَ والسند»[٦٢]. وإذا كانت محاولة اغتيال معروف سعد قد تسبَّبتْ، قبل حدوث الوفاة، بإضعافِ الدولة والتجريحِ بها، فإن «محاولةَ اغتيال كميل شمعون عام ١٩٦٨ ـ وقد نجا منها الرئيس الأسبق بأعجوبة أيضاً ـ لا تقلُّ أهميةً عن «المحاولة» الأخيرة في صيدا. فلماذا تلكّأ مؤيدوه وأنصارُه الكُثُرُ عن قطع الطرقِ وحرق دواليب المطّاط والتظاهرِ بكثافةٍ في ذلك الحين؟»[٦٣]. بمعنى آخر، تمتدُّ القسمةُ، وهي المماثِلُ العكسيُّ لمبدأ مقابلة الفعلِ بالفعلِ والشيءِ بالشيء، من الدولة إلى المجتمع نفسِه بحيث لا يبقى للوحدة ركيزةٌ أو مُقَوِّم.

تَوَاكبَ العزوفُ الكتائبيُّ عن الوَحْدَةِ والسياسةِ، والانكباب على القوة، مع العودةِ إلى «جماهير» الطائفةِ التي تصير خَزَّانَ الموقفِ الحزبيِّ النضاليِّ كما تصير أداتَه والحَكَمَ فيه أو عليه، أي مصدرَ «السياسةِ» ومعيارَها بعد طرد السياسة للمصادرِ والمعاييرِ وجعلِها أقربَ ما تكون إلى سياسةٍ حربية.

أمّا تضامنُ الجماعة، والحالُ الحربية على ما هي عليه، فيؤدي بدورِه إلى استبعادِ انشقاقِها أو أنه يفترضُ هذا الاستبعاد وينطلقُ منه. وبهذا تتراجعُ السياسةُ الطائفيةُ التي تجمع التضامنَ إلى الانشقاق، خصوصاً أنَّ النظامَ الانتخابيَّ اللبنانيَّ ينقلُ التنافسَ إلى داخلِ كلِّ واحدةٍ من الطوائف كما هو معروفٌ جيداً، لتتقدَّمَ في المقابلِ طوائفُ متضامنةٌ من دون انشقاقِها، أي من دون سياسِتها.

وفي مثلِ هذه الظروفِ حيث يتعزَّزُ في الكتائب طابعُ «الحزب المضادِّ»، بحسب

(٦٢) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ١٥٥ ـ ١٥٩.
(٦٣) المرجع السابق، ص ١١٦ ـ ١١٩.

تعبيرِ موسوليني في وصف حزبه الناشئ، يتراجعُ «البرنامُج» تراجعَ العقلانيةِ السياسيةِ التي تُشْتَقُّ منها، ومن غيرها، التحالفاتُ والخصوماتُ، كما يتراجعُ السقفُ الذي يحْكُمُ التحالفَ والخصومةَ ويُقَرِّرُ مَداهُما.

بهذا كلِّه يزدادُ مَيْلُ «الخطابِ السياسيِّ» لاستحضارِ الماضي وتجاربِهِ الصِّراعية، لدى تناوُلِه أيَّةَ مسألةٍ تُداهمُ الواقعَ الاجتماعيَّ والسياسيَّ، جَرْياً على إصرارِ بيار الجميل، في أزمنة الاضطراب، على استخلاصِ أيِّ موقفٍ أو مآلٍ من دروس الخلاف بصدد «بروتوكول الاسكندرية» أو من «خطيئة» تاريخيةٍ كفيلةٍ بإثارة «الندم» عبَّرت عنها مواقفُ لن تتكرَّر لرياض الصلح أو لحزبِ النجادة، وذلك كما لو كانت الأحداثُ المشرعةُ دوماً على توتُّرٍ متعاظم، تجعلُ حزبَ الكتائبِ غيرَ قادرٍ على التعاقُدِ إلا مع ماضي الطرفِ الآخرِ سلباً أو إيجاباً. بهذا المعنى يكون لَبسُ الطائفةِ لَبوسَ العشيرةِ إنكاصاً لذاتِها ولعالِمها كلِّه إلى «ما كان عليه»، حيث «التكتلاتُ الطائفيةُ»، بحسبِ جواد بولس، «إحياءٌ للقبائلِ البدويةِ من الأسلاف»[٦٤]. هذا في حين أنَّ وحدةَ النسبِ المزعومة، كقيمةٍ عشائرية، هي التي «تمنحُ الطائفة تلاحمها»[٦٥] في أزمنة الحرب حيث يصبح التلاحمُ واجباً قاهراً. وعند هذه المحطة تلوحُ الطوائف المقاتلة، مسيحيةً كانت أو غيرَ مسيحية، «أقربَ إلى الإدراك العربي الإسلامي للتاريخ منها إلى الإدراك المسيحي الغربي»[٦٦].هكذا تطْغى العاطفةُ، بالمعنى البسيطِ للكلمة، على «الحوارات» برمَّتِها، بينما تبدو الأخيرة قابلةً، وبصورة متواصلة، لأن تتغذى من صراعِ خرافاتٍ جامحةٍ إحداها عروبية أو إسلامية، والأخرى لبنانية هي «حصيلة التفاعل بين العناصر العقلانية واللاعقلانية»، إذْ هذه الثانية هي «جزئياً خرافةٌ، وجزئياً حقيقةٌ، تتأثَّرُ بالمعتقدات الدينية والخرافات وتدعمها الأساطيرُ والفلولكلورُ والترميزاتُ وتجلِّياتُ التقاليدِ الوطنية»[٦٧]. وفي هذه الحدودِ العاطفية ذاتِ الصلةِ الواهنةِ بمهنةِ تسييرِ شؤون الناس (السياسة)، ينكفىءُ كلُّ كلامٍ إلى ذاكرة الماضي المفصومِ والصِّراعي: ففي مقابل «التأريخ» الثُّبوتيِّ الموحّدِ للجماعة الموحّدة، تتأبَّدُ أعمالُ المجموعاتِ الطائفية الأخرى متّخذةً سماتٍ «جوهريةً» لا تتغيّرُ ولا يقوى عليها فِعْلُ الزمن وتحوُّلاتُه. فالسلوكُ الذي بَدَرَ عن هذه المجموعةِ الطائفي في الثلاثينات أو الاربعينات، أو ربَّما في قرونٍ مضت، لا بدَّ أن يُلازمَها إلى قيامِ الساعة، وإلا كان الاندهاشُ الذي لا سبيلَ إلى تبديدِه.

في هذا العُرْفِ تلوحُ الطوائفُ كائناتٍ مغلقةً متحجرةً في ماضيها لا يجمعُها مطلقُ

(٦٤) أحمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٥٧.
(٦٥) المرجع السابق، ص ٢٦٣.
(٦٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها. حول هذا الإدراك ومعناه في الحالين، راجع ص ٢٥٧ ـ ٢٦٣.
(٦٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 76.

صلةٍ بمحدّدات غير طائفية، اجتماعيةً كانت أو اقتصاديةً أو ثقافيةً، أي أنّها تصيرُ، بكلمةٍ، عشائرَ محكومةً بدمِها.

يترتّبُ على الإنسحاب صوبَ الماضي وإضفاءِ الثابتِ الجوهري عليه، مع الإغفالِ الذي لا يقلُّ صلابةً ورسوخاً للجديد الذي قد يأتي به واقعٌ متحرّكٌ سائل، انحيازُ الكتائبِ في لحظاتِ الخوفِ إلى ما هو معادٍ للإصلاح، واندراجٌ عضويٌّ في نفسِ الإيديولوجيا (العروبيةِ) الشعبويةِ، وخصوصاً في مُقَدِّماتِها الأخلاقيةِ ذاتِ الجُنوحِ الصوفي.

المعاناة الكتائبية

لم يكُنِ الإنتقالُ من موقعِ الإحالةِ إلى الدولة إلى موقعِ الحلولِ محلَّها بسيطاً في تجربَتَيْ بيار الجميل والكتائب، وإنْ عَمِلَتْ جِدَّةُ الحرب وإطالتُها وحِدَّةُ الخوفِ وتعبيرُه، تالياً، على إظهار ذاك الانتقالِ بسيطاً وأقربَ إلى تحصيلِ الحاصل.

والراهنُ أنَّ الانتقالَ حملَ فيه كلَّ المحطاتِ السابقةَ في العلاقةِ مع الدولةِ والوطن، ومع السياسةِ والميليشيا، بما دلَّ مُبَكِّراً على فصامٍ كتائبي وجدَ تعبيرَه المشخّصَ الأمثلَ في المؤسِّسِ والقائدِ بيار الجميل: البرلمانيِّ ورجلِ الشارع، الحزبيِّ المؤسّسيِّ والحزبيِّ الجماهيريِّ، المعتدلِ والمتصلّبِ، المرنِ مرونةَ التسوويِّ الدينيِّ، والمحبَطِ المفْجوعِ إحباطَ «الجماهيرِ» وفجيعتَها، المارونيِّ الذي يضغطُ على اللبنانيةِ واللبنانيِّ الذي يضبطُ المارونية[٦٨]، حتى بدا في نظر الكثيرين «استاذاً كبيراً في السياسةِ اللبنانيةِ في مظهرِ طفلٍ بريء»[٦٩].

واقعُ الأمرِ أنَّ إشرافَ بيار الجميل على بناءِ وتوسيعِ ميليشيا تستطيعُ التصدّي للمسلّحين الفلسطينيين وحلفائهم، كما تستطيعُ انتزاعَ مَهامِّ الدولة، لم ينفصلْ عن دعواتٍ مُلحّةٍ ومتكررةٍ خلال مطالعِ السبعينات إلى إجراء استفتاءٍ شعبيٍّ بين اللبنانيين حول الوجودِ الفلسطينيِّ المسلّحِ في لبنان. ودعواتٌ كهذه لا يمكنُ التغافلُ عنها لِمَا تعكسُه من استمرارِ النبضِ الديمقراطي محتفظاً ببعضِ الزخمِ في التجربةِ الكتائبية، برغم بلوغِ الخوفِ مَرْتبةً متقدمةً جداً، علماً أنَّ هذه الدعواتِ لم تلْقَ في الصفِ المؤيِّدِ للفلسطينيين أيَّ اكتراثٍ جدّي، ناهيك عن الاستجابة. ولا تُعْدَمُ الأمثلةُ العديدةُ في ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ على محاولاتٍ كتائبيةٍ لإجراء مصالحةٍ ما مع الوجودِ الفلسطينيِّ المسلّحِ اعترافاً بالأمرِ

(٦٨) وامتداداً لعمل هذا الفصام، في شروط اخرى، عرف بيار الجميل لاحقاً «حالة من ازدواجية الشخصية خلال فترة الخلاف بين ولديه أمين وبشير. فالأوّل يمثّل نزعته التسووية اكثر، والثاني ميلَه الثابتَ إلى الاختيار والتقدم». جوزيف سماحة، «الكتائب والسلطة»، في: **السفير** ١٠/٤/١٩٨٣.

(٦٩) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١.

الواقعِ من جهةٍ وتوهُّماً لـ «عقلنة» هذا الوجود من جهة أخرى. يصحُّ ذلك في اللجانِ المشتركةِ التي شُكِّلَتْ خلال الفترةِ المذكورة، كما يصحُّ في مشاركة النائب الكتائبي آنذاك، أمين بيار الجميل، في استقبالِ وفدِ البرلمانيين الأوروبيين الذي حضر في ١٩٧٤ إلى لبنان لزيارة المخيّمات الفلسطينية وتفقُّدِ حالِها[٧٠]. وبحسبِ استعادةٍ لاحقةٍ لأمين الجميل: «في مطلع السبعينات ساهمتُ كثيراً في ترطيب الأجواء بين حزب الكتائب ومنظمة التحرير الفلسطينية، وفي إطلاق الحوارِ بين الجانبين تفادياً للانجرارِ في القتال المجاني. وكنتُ عضواً في اللجنة المشتركة التي أُلِّفَتْ لهذه الغاية وكانت برئاسة المرحوم النائب جوزيف شادر. وقد عقدت هذه اللجنةُ العديدَ من اجتماعاتِها في منزلي في شارع سامي الصلح وأحياناً في منزل أبو أياد قربَ مخيَّم شاتيلا»[٧١].

في الفترةِ نفسِها كان كاتبُ افتتاحيّاتِ «العمل» يحاولُ طرحَ المشكلةِ اللبنانية ـ الفلسطينية بالتساؤلِ عمّا إذا كان لبنان قادراً «على حمايةِ نفسِه وحمايةِ الفلسطينيين أيضاً من الإنتقاماتِ الاسرائيليةِ ولا يفعل»[٧٢]، توطئةً لتشبيهِ علاقةِ المسلمِ اللبناني بالثورة الفلسطينيةِ بعلاقةِ الأمِّ التي تتغافلُ عن أخطاءِ ابنِها، فيما تطمحُ الكتائب لأن تمارسَ عليه «قسوةَ» الأبِ لكي لا «يسقطَ في الدلع، واستطراداً في التجربة»[٧٣].

ويحاولُ بيار الجميل، عبر عشراتِ الرسائلِ والتصريحاتِ، طرحَ المشكلةِ بوصفِها مشكلةَ عجزٍ عن الحماية، مُخفِّفاً من أيّةِ حِدّةٍ قوميةٍ أو عنصريةٍ قد تُواكبُ طرحَها[٧٤]، بل إنّه في كثيرٍ من الحالات يذكُرُ «الفلتانَ الأمنيَّ» بوصفه ناجماً عن ضعفِ الدولةِ والمقاومةِ في آنٍ معاً[٧٥].

في موازاةِ ذلك، ومن قَبيلِ توفيرِ الفرصةِ الأخيرة، دافعتِ الكتائبُ عن التعييناتِ التي أقدمَ عليها الرئيسُ سليمان فرنجية في ١٩٧٤، أي بعد تخلّيه عن الخيارِ الأمنيِّ المحضِ واعتمادِه سياسةً منسَّقةً مع السوريين. فقد اتُّهِمَتْ تلك التعييناتُ في أوساطٍ مارونيةٍ واسعةٍ بمحاباةِ المسلمين، لكنَّ محرِّرَ «العمل» كتبَ مؤكِّداً: «نحن لا نصدِّقُ أنَّ

(٧٠) أنظر، مثلاً لا حصراً: شفيق الحوت، **عشرون عاماً في منظمة التحرير الفلسطينية ـ أحاديث الذكريات (١٩٦٤ ـ ١٩٨٤)**، دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٦، ص ٢٢٠. بَيْدَ أنَّ المبالغةَ في الحوار مع المسلحين الفلسطينيين والإستعدادَ لتقاسم السلطة الأمنية معهم بعد اليأس من قدرة الدولة، أشارا إلى أمر بالغ الخطورة ظهرت نتائجه لاحقاً، وهو أنَّ الكتائب قطعت شوطاً بعيداً في الطلاق مع المجتمع اللبناني كمجتمع مُرَكَّب وبدأت تفكر في «الأمن المسيحي» الذي تتولاه هي مقابل أن يتولى «الأمن الإسلامي» من اختاره المسلمون... وقد اختاروا المقاومة الفلسطينية.

(٧١) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٠، في: **الحياة** ١٣/١٢/١٩٩٠.

(٧٢) من **حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٦١.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٧٤) انظر مثلاً: David Gilmour, *Lebanon the fractured country*, Sphere books Ltd, 1984, p. 94.

(٧٥) انظر ما نقلته عنه جريدة **النهار** ٩/١/١٩٧٤.

رئيسَ الجمهورية قد استهترَ بحقوقِ الموارنة، أو تعمَّدَ المساسَ بهذه الحقوق. فقد أقْدَمَ على ما أقْدَمَ عليه بدافعِ تقديرٍ معيَّنٍ لأحوالِنا الوطنية»[٧٦]. ولا يعْصى على من يفهمُ القاموسَ السياسيَّ (والأهليَّ) اللبْنانيَّ أن «التقديرَ المعيَّنَ» ما هو إلا محاولةٌ لفكِّ التحالفِ بين المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين وإرجاعِ الأوَّلين إلى عَقْدِهم مع المسيحيين اللبنانيين. وفي هذه الحدود شاعَ آنذاك تصوُّرٌ مُؤدَّاه أنَّ العلاقةَ المارونيةَ الحسنةَ مع دمشق قد تخدمُ في هذه الوُجهة بعد أنْ تبيَّنَتْ حدودَ المواجهةِ العسكرية في أيار ١٩٧٣ من جهة، وظهر موقفُ فرنجية «العروبيُّ» مع حرب تشرين الأول من العام نفسِه وما تلاها، من جهة أخرى.

وإذا كانت «العمل» أشارت في افتتاحيةٍ لها في ١٨/١٠/١٩٧٤ إلى اللقاء مع مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد حول الأساسيات و«ضربِ الصفحِ عمّا جاء على لسانِ سماحته في مَعْرِضِ وصفِه للنظامِ اللبناني»[٧٧]، فإنَّها ذهبت إلى حدِّ مناشدةِ المسيحيين أن يكونوا عوناً للمسلمين «في ممارسةِ الضغوطِ على الدولة» من أجل رَفْعِ «الغُبْن» اللاحقِ بهم[٧٨]، محاولةً منذ مطالعِ ١٩٧٤ الانتباهَ إلى ضرورةِ تحديثِ الحياةِ السياسيةِ اللبنانية[٧٩]. وعَكَسَ هذا المناخُ نفسه على الاحتفالِ الكتائبيِّ في سينما الروكسي ببيروت في ٢٤/١١/١٩٧٤ بمناسبةِ الذكرى ٣٨ لتأسيسِ الحزبِ والذي حضره رئيسُ الحكومة آنذاك رشيد الصلح. في الاحتفال تحدَّثَ النائبُ الكتائبيُّ إدمون رزق عن «قوةِ الدولة» لكنه في محاولةِ بحثٍ عن قواسِمَ مشتركةٍ أكَّدَ أنَّ «المُشْكِلَ في لبنان لا يمكنُ أن يُؤْمِنَ بفلسطين ولا العروبة»، وحين تحدَّثَ المحامي (المسلم) شفيق الوزان «قوبِلَ بعاصفةٍ من التصفيق»[٨٠].

إلى ذلك راهَنَتِ الكتائبُ على الإمامِ موسى الصدر وعَمِلَتْ على مُحاورتِه في السنواتِ السابقةِ على انفجارِ مخيَّمِ التدريبِ لـ«حركة المحرومين» في بعلبك[٨١]، والذي تبيَّنَ أنَّ حركةَ «فتح» الفلسطينيةَ هي التي تَرْعاه، كما تبيَّنَ لاحقاً أنَّ أحَدَ المُشْرفين عليه، مصطفى شمران، هو واحدٌ من قياديي «حركةِ تحريرِ إيران» وقد عُيِّنَ وزيراً للدِّفاعِ في طهران بعد انتصارِ الثورةِ الخمينية[٨٢].

(٧٦) **من حصاد الأيام...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٨.
(٧٧) المرجع السابق، ص ٨٤ ـ ٨٦.
(٧٨) **العمل الشهري**، العدد الأوّل، ص ١٦ ـ ١٧.
(٧٩) انظر: **من حصاد الأيام...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٥ و٢٧ و٥٤ ـ ٥٩.
(٨٠) انظر الصحف في ٢٥/١١/١٩٧٤. كذلك راجع خطاب لويس أبو شرف في المهرجان نفسه في **العمل** ٢٦/١١/١٩٧٤.
(٨١) من المقابلة الشخصية مع كريم بقرادوني.
(٨٢) انظر، مثلاً لا حصراً، حسن صبرا، عن الصحوة الإسلامية في لبنان، في: **الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، جامعة الأمم المتحدة، ١٩٨٩، ص ١٧١.

كذلك حاولَتِ الكتائبُ أن تدمجَ موقفَها اللبنانيَّ الموصوفَ بـ«الانعزالية» في مجاري الإنقسامات والمحاورِ العربية، منفتحةً على مصر الساداتية (قبل سنواتٍ على زيارة القدس وكمب ديفيد) التي وجَّهَتْ دعوةً رسميةً لبيار الجميل لزيارتِها[٨٣]، بعد المبادرة في ١٩٧٢ إلى إنشاءِ علاقاتٍ مع السوريين[٨٤]. ويُهَنِّئُ الجميل بالوَحْدة الليبية ـ التونسية التي لم تُقَيَّضْ لها الحياة، محذِّراً من أن تَسْتَغِلَّ إسرائيل هذه الوحدة للقول إنَّها ردةُ فعلٍ (دينية) على يهوديةِ الكيان الإسرائيلي[٨٥]. ويستهلُّ لويس أبو شرف كلمتَه في المهرجانِ الكتائبيِّ بالذكرى الثامنةِ والثلاثين لتأسيسِ حزبه «بتحيةٍ إلى أعضاءِ الأسرةِ الدوليةِ الذين استجابوا إلى صوت الحقِّ والعدل، والذين أتاحوا لممثلي الشعب الفلسطيني إسماعَ صوتِه في قلبِ المنظَّمةِ الدولية»[٨٦].

وحتى شهر آب ١٩٧٤ ظلَّتِ «العمل» تؤكِّدُ على إمكانِ «التعايشِ والتضامنِ» مع الوجودِ الفلسطينيِّ شريطةَ توفُّرِ «حضورِ الدولة»[٨٧].

ولئن سارعَ حزبُ الكتائب في ١٩٧٥ إلى خوضِ الحربِ الأهليةِ ـ الإقليميةِ بحماسةٍ باديةٍ، إلا أنَّهُ تلكَّأَ عن المشاركةِ في صوغِ «ثقافتِها» التعبويَّةِ المطابقةِ لنُكوصِ الوعي الأهليِّ والمعبِّرةِ عنه.

هكذا تُرِكَ لدوري شمعون أن يُعلِنَ، بنبرةٍ عنصريةٍ حادَّةٍ، استعدادَه لرَمْي الفلسطينيين في البحرِ رغم أنَّهم «قد يلوِّثونه»[٨٨]، وتولَّت تجمُّعاتُ الأحياءِ والروابطِ الأهليَّةِ السريعةِ التَّشكُّلِ والتي تغلَّبُ عليها الرثاثةُ الاجتماعيةُ والإحباط، معطوفَيْن على الإحتكاكِ المباشرِ بالمسلحين الفلسطينيين في نقاطِ السَّكن التي تُجاوِرُها مخيَّماتُ المناطقِ الشرقيّةِ من بيروت، تولَّتِ التحريضَ على الفلسطينيين والمسلمين بأكثرِ التعابيرِ والأشكالِ فظاظةً. والحقُّ أنَّ التشكيلاتِ الأهليةَ التي تتداخلُ بطبيعةِ الحالِ مع نقاطِ الوجود الكتائبيِّ لم تتباطأ في الظهور العسكري الذي وازى دعواتِها المكتوبةَ على الجدرانِ إلى قتلِ الفلسطينيين، وإن اتَّخَذَ هذا الظهورُ في بدايتِه شكلَ المبادراتِ العفويةِ والفرديَّة. وفي أثناءِ المجابهاتِ الأولى بين شبيبةِ الأحياءِ المسيحيةِ والمقاتلين الفلسطينيين مارسَ الكتائبيون الأفرادُ دورَهم الأهليَّ في المشاركةِ في المجابهاتِ بينما لعبَ الحزبُ، كحزبٍ، دوراً وسيطاً وتحكيمياً أشدَّ تعقلاً واعتدالاً من متوسِّطِ الموقف

(٨٣) انظر **النهار** ١/١ و١١/١/١٩٧٤.
(٨٤) انظر مقابلة أنور نصار ونبيل حرب مع جورج سعادة في **الأنوار** ٢٢/٩/١٩٨٦ إذ يتطرق لتلك المرحلة.
(٨٥) **النهار** ١٥/١/١٩٧٤.
(٨٦) **العمل** ٢٦/١١/١٩٧٤.
(٨٧) من حصاد الأيام...، سبق الاستشهاد، ص ٧١ و٧٢.
(٨٨) عن David Gilmour, *Lebanon the fractured country, op. cit.*, p. 102.

الجماهيريّ المسيحي. فـ «العمل» التي تحدَّثتْ عن «اللاءات» المكتوبةِ على الجدران بوصفِها مما ينبغي تركُه لـ «صبيان الأزقّة»، ساوتْ في ذلك بين «لا للعروبة» و«لا للمقاومة» في طرفٍ، و«لا للكتائب» في طرف آخر[٨٩].

بدورها لم تتردَّدْ يومذاك إحدى المجلات اليساريةِ المعاديةِ للكتائب في التحدُّثِ عن تشكيلاتٍ طائفية «على يمين حزبِ الكتائب»، معتبرةً أنَّ ما يجعلُ الأخير أقلَّ «يمينية» منها اضطرارُه للتوفيقِ بين قاعدتِه البورجوازيةِ الصغرى و«بين مصالحِ البورجوازيةِ الكبرى»[٩٠].

لقد عاشت الكتائبُ صراعاً متفاوتَ التعابير بين جيبها الريفي المتعاظم وبين بقايا الحزبيّةِ الطامحةِ إلى مضاهاةٍ ومواكبةِ تمدُّدِ الطائفة على نطاقٍ وطني. ومثل هذه الحزبيّة لا يمكنُها إلا أن تُعانِدَ الانحصارَ في الحدودِ الضيقة، الرمزيةِ والصوفيةِ والفحوليةِ التي عبَّرت عنها التنظيماتُ المتطرِّفةُ يومذاك حاملةً أسماءَ «حراس الأرز» ومن أبرز شعاراتِه المبكرة: «الفلسطينيون هم المجرورُ الكبير الذي يجب أن نُلْغِيَه»[٩١] و«كتيبةُ الخوف» و«فرسانُ العذراء» و«شبيبةُ القديس يوسف» و«خشبُ الصليب» و«التنظيمُ الماروني» و«جبهةُ الدفاعِ عن الجبل» و«جيشُ التحرير الزغرتاوي»، وبعضُها لا يكتم الهُويّةَ المحلّيةَ الصريحة.

لقد عَمِلَتْ هذه التنظيماتُ المتفاوتةُ حجماً وأهمّيةً، والتي وُلِدَ معظمُها في مناخِ النزاعِ الأهليِّ ولم يسبقْ أن أدّى أيَّ دورٍ سياسيٍ ـ برلماني[٩٢]، على «تنقيةِ» كيانٍ لبنانيٍ يشوبُه الغموضُ من جرّاء «التلوُّث» باقتصادٍ ونزعةٍ نفعيةٍ يقودان إلى مشاركةِ المسلمين وإلى الانفتاحِ على العالم العربي. وهكذا كان الاستئصالُ، أو إتمامُ الانقلاب على ثقافةِ المدينة ومثالاتِها، هو الوعدُ المطروحُ من قِبَلِ هذه التنظيمات للمختلفين عنها.

بهذا المعنى تُشيرُ حالاتٌ كثيرةٌ كحالةِ المحامي هنري صفير، مثلاً، والذي أنشأ «لواء الجبل» في حرب السنتين، إلى أنَّ بعضَ التنظيماتِ المسلَّحةِ الصغرى نشأ ليستأنِفَ نزاعاً أهلياً عَصَبياً مع حزب الكتائب نفسه. وقد ساهمَ هذا التنظيمُ الذي «قاتلَ الكتائب» في «الأعمال الطائفية البشعةِ ضد المسلمين الشماليين الذين ينتقلون عبر طريقِ

(٨٩) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٧٦ و٧٩.

(٩٠) مجلة **الحرية** في ١٩٧٥/٧/٢١.

(٩١) أنظر، أنطوان بصبوص، «القوات اللبنانية وصمود لبنان، في: **العمل الشهري** الخاص بـ «المقاومة اللبنانية في حرب السنتين وجذورها في التاريخ»، العدد ١٢، منشورات دار العمل.

(٩٢) إذا كان العنف، كنقيض للسياسة (والإنتخابات)، أحد رموز الفحولية الذكرية وتمارينها، فليس من غير دلالة أن تظلّ «الماكينة» الإنتخابية (الكتائبية) حتى عام ١٩٧٥ «أهمّ نشاط تقوم به المرأة الكتائبية وتنجح». «الكتائبية بندقية في الحرب...» في: **العمل**، العدد الخاص بمناسبة ذكرى التأسيس السادسة والأربعين، في ١٩٨٢/١١/٢٨.

الساحل إلى بيروت»، كما زايدَ على الكتائب «في نبرة العداء للفلسطينيِّ والمسلم بما يتجاوزُ الحدودَ السياسيةَ إلى الحدودِ العنصرية»[٩٣].

وأشدُّ دلالةً من حالةِ صفير حالةُ «التنظيم» الذي تأسَّسَ في ١٩٦٩ «بعد الصدامات الكبيرةِ الأولى بين الجيشِ اللبناني والمقاتلين الفلسطينيين. فقد نشأ («التنظيم») بنتيجةِ انقسامِ مجموعةٍ عن الكتائب بعد أن عجزَ مؤسِّسوه عن إقناع القيادةِ الكتائبيّةِ بالمُضيِّ في تدريباتٍ عسكريةٍ على نطاقٍ واسعٍ للمواطنين اللبنانيين، رداً على توسُّعِ السلطة الفلسطينية في لبنان وضغوطِ الجامعةِ العربيةِ على الحكومة اللبنانية [...] هكذا قَرَّرَ الأعضاءُ المؤسِّسون أن يبْنوا تنظيماً شبهَ عسكريٍّ للدفاعِ عن لبنان ونصرةِ الجيش اللبناني»[٩٤].

لقد ظلَّت الكتائبُ، في المقابل، وطوالَ العامِ السابقِ على الحرب (١٩٧٤) تخوضُ في الظلِّ سجالاً مع البيئةِ الصافيةِ التي أنتجتْ تلك التنظيمات، فكتبت «العمل» في ١٩٧٤/٢/٢٧ مدافعةً عن الرهان الكتائبيِّ الأصْلي في ١٩٤٣، حين «في بعض الأديرةِ والمدارس المسيحية في الجبل أُنْزلَتْ صورةُ بيار الجميل التي كانت تُعلَّقُ تقديراً وتكريماً وبعضُهم اتُّهِمَهُ بالخيانة»، وصولاً إلى القول إن «امتيازات الموارنة» مسألةٌ مؤقتةٌ و«نهايةُ المؤقتِ هذا يجبُ أن تكونَ لها بداية [...] إلا إذا كان القصدُ إفهامَ المسلمين بأنَّ الضماناتِ المؤقتةَ قد أصبحت امتيازاتٍ نهائية. وهذا خيرُ تحريضٍ لهم على الثورةِ وعلى رفضِ هذا الظلم»[٩٥].

وعملاً بهذا التمييز، ظهرَ خلال حرب السنتين في الأوساطِ اليساريةِ والإسلاميةِ مصطلحُ «جبهةِ الرفض المارونية» دلالةً على «جبهةِ حُرّاسِ الأرزة» (الأرز لاحقاً) وأنصارِ الرهبانيّات ومن شاكَلَهُم[٩٦].

وراء ذلك كانت الكتائبُ تعيش نزاعاً حاداً بين مُقَدِّماتها المدينِية الأولى وبين ما هو ريفيٌّ ورمزيٌّ وفحوليٌّ فيها ممّا وجدَ تعزيزَه البشريَّ في أبناء الأطرافِ الوافدين إليها. ولم تفُتْ إحدى مجلات اليسار اللبناني الإشارةُ، بطريقتِها، إلى انشطار الكتائبِ «جناحَيْن رئيسيَّيْن»، أحدهما هو «الأكثر تمثيلاً للمصالح الرأسمالية والأكثر تحسّساً بها»، وهو يَضُمُّ، بحسب المجلة، أنطوان جزار وطانيوس سابا وجوزيف شادر، والثاني «الجناح

(٩٣) حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٦٨.

(٩٤) Lewis W. Snider, *The lebanese forces: Wartime origins and political significance*, condensed version of a larger paper presented at a meeting of the California seminar on international security and foreign policy, Nov. 8, 1983, p. 159 n.

(٩٥) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٣٢ ـ ٣٦.

(٩٦) انظر مثلاً **السفير** ١٩٧٥/١١/٢٤.

الأكثر تشنُّجاً بقيادة بشير الجميل ووِليم حاوي الذي يقودُ جهازَ الحزبِ العسكري المُتضخِّم»[٩٧]. وفقط مع اتساعِ نطاقِ الحرب ونطاق الانخراط الكتائبي فيها، على حسابِ اللّعبةِ السياسية وكلِّ مظاهرِ الحياةِ الحزبية، بدأ يَتَظَهَّرُ الإزدواجُ الكتائبي الذي حاول بشيرُ الجميل حَسْمَه ونجح فيه. وهنا كَمَنَ مفتاحُ الأزمة التي لن تلبث أنْ تعصُفَ بحزب بيار الجميل آيلةً إلى تعريبه الكامل، بما التعريبُ انتفاءٌ للحزبية في معناها الحديث وتحريكٌ للجماعة على إيقاع عشائري.

صحيحٌ أنّ حزبَ الكتائب حزبُ حركةٍ و«حَشْدٍ»[٩٨] لا ينفصلُ نموُّه عن الانفعالِ بالحدثِ والمبالغةِ في تَرْميز هذا الإنفعال، إلّا أنّ الردّ الكتائبي على الحدث (الخوف، في هذه الحال) لم يحصلْ دفعةً واحدةً ولم يَتُمّ اختياراً، كما تذهب ضمناً النظريةُ القائلةُ بـ «الكتائب العميلة الفاشِيَّة»، الرائجةُ في الأوساط اليسارية والإسلامية.

فالردّان الأقصَيان، أيّ التسلّحُ والعلاقةُ بإسرائيل، لم يَصْدرا عن موقفٍ مسْبَقٍ غير عابىءٍ أساساً بالدولة أو بالتعايش. إذ في المجال الأول يُلاحَظُ أنّ الإقبالَ على السلاحِ تنامى في موازاةِ تصاعُدِ التسلّحِ المقابلِ، كما في موازاة انقشاعِ عَجْزِ الدولة وأجهزتِها من دون أنْ يوجَدَ ما يَضمَنُ الأمنَ والاستقرارَ للجماعةِ الخائفة. وكان من آثارِ ضعفِ الدولةِ ووُجودِ المسلحين الفلسطينيين على الأراضي اللبنانية أنْ تحوّلَ لبنان في السبعينات «نقطةَ تجميعٍ ومُعسكرَ تدريب وملاذاً لمعظم الحركات الإرهابية الدّولية» التي يعدِّدُ منها جيرار شاليان، الذي كان في السبعينات مؤيداً للإرهابيين، «الفلسطينيين واليساريين المتطرفين الأتراك والإيرانيين واليابانيين والأرمن والأوروبيين الغربيين خصوصاً منهم الألمان والإيطاليون والإيرلنديون، وهكذا دواليك»[٩٩].

وفي عودةٍ إلى محطات انبعاثِ العسكريّةِ الكتائبيةِ، بعد أن كان الطورُ الفالانجي قد آل إلى نهايتِهِ مع الشهابية[١٠٠]، نجد أنّهُ بعد أن كانت التدريباتُ محصورةً في الاحتفالاتِ بعيد التأسيس[١٠١]، نشأَتْ فرقةُ الكوماندوس العسكرية الأولى، وهي فرقةٌ

(٩٧) مجلة **الحرية** ١٩٧٥/٩/٢٩.

(٩٨) حول العلاقة بين السلطة أو «السلطان» وبين الحشد والعمق الغريزي، والمدلول الرمزي في هذه العلاقة، انظر عرض كتاب الياس كانيتي «الجمع والسلطان»، في: وضّاح شرارة، **تشريق وتغريب ـ قراءات في وجوه من الفكر والتاريخ والاجتماع**، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٨٥ ـ ٣٩٢.

(٩٩) Gerard Chaliand, *Terrorism from popular struggle to Media spectacle*, Saqi books, London, 1987, p. 92.

(١٠٠) وكان الظن السائد وحَسَن النوايا أنّ استقلال ١٩٤٣ هو نهاية ذاك الطور، حيث لم يكن الإجتمال الناصري المتحالف مع السوفيات في نطاق التصور.

(١٠١) من تحقيق أرليت النوار، «الهيكلية العسكرية للكتائب»، في: **العمل**، العدد الخاص بمناسبة ذكرى التأسيس الخامسة والأربعين، في ١٩٨١/١١/٢٩، وقد استدعى عدم وجود أي مرجع موضوعي آخر حول هذه المسألة الإقتصار على مرجع كتائبي (لا يلوح مضخماً أو مبالغاً فيه).

تابعةٌ للقيادة المركزية، في ١٩٦٥، أي بعدَ عامٍ واحدٍ على نهاية العهد الشهابي الأول وذلك تحت وطأةِ «الشعورِ بالخطر تجاهَ التقلبّاتِ السياسيّة». ولم تبدأ التدريباتُ الجدّيةُ وإقامةُ المخيماتِ إلا في ١٩٦٩، سنة تظاهرة ٢٣ نيسان بعد الصدام بين الجيش والمقاومة الفلسطينية. إلا أنّ انشقاقَ العناصرِ الكتائبية التي أسَّسَتْ «التنظيم» كما سبق أن رأيْنا، يُوحي بأنّ تلك التدريباتِ كانت لا تزال محدودةً وبعيدةً عن أنْ تُلَبّي رغباتِ الشبّان الأكثرِ راديكالية. وفي ١٩٧٢ وُلِدَتْ فرقةُ الـ «ب. ج» التي أصبحت «الفرقةَ الوحيدة النظاميّة الحقيقيّة التي يُمكنُ أن تُعْتَبَرَ نواةَ القوّات اللبنانيّة».

في العام الثاني أصبحَتْ التدريباتُ أكثرَ جديّة، وهو العام الذي شَهِدَ مواجهاتِ أيّار بين الجيش والمقاومة[١٠٢]، وفي ١٩٧٥، ومع اندلاعِ الحرب، باتَ كلُّ قسمٍ حزبيٍّ يتولّى المواجهةَ في منطقتِهِ، باستثناءِ فرقة الـ «ب. ج» المركزيّة التي تتنَقّلُ بينَ الأقسام. لكن مع قدوم الرّدع السوري بنهاية حرب السنتين واتّضاحِ أنّهُ لن يعملَ على نزع السلاح الفلسطيني، أقدَمَ الكتائبيون «على التدريب الجديّ ووُلِدَت الثكناتُ المركزيّة» مثل ثكناتِ المغاويرِ والمدرّعات والمدفعية». إلا أنَّ الوجود السوري، معطوفاً على الفلسطيني، أفضى بدورِهِ إلى تلقّي المقاتلين «التدريبَ الحقيقيّ في المخيمات والثكنات» وفي أواخر السبعينات ظهرَ الاتجاهُ إلى «خلقِ جيشٍ منظّمٍ للدفاعِ عن كلِّ أجزاءِ الوطن». وفي هذه المرحلة أيضاً وُلِدَت القوات اللبنانية في «شكلها الأوّلي».

بعد اشتباكات ١٩٧٨ حيث «تمرْكَزَ السوريون بين الأحياء السكنية»، بما في ذلك من دلالةٍ على استدخالِ الخطرِ الخارجي، كما كان الحالُ مع المخيّمات الفلسطينية المسلحة التي في المناطق الشرقية حتى ١٩٧٦، دخلت التدريباتُ طوراً «أسرعَ وأشملَ، لأن الخطر هذه المرة كان من الداخل». والحقُّ أنّ الأطوارَ التي شهدَتْ تنامي الخوفِ والقوّةِ، وهما في حال انضغاطٍ وتكثيفٍ، كانت هي نفسُها أطوارَ الصعود الذي باشرَهُ بشير الجميل وصولاً إلى الذّروة، كما سنرى لاحقاً.

أمّا العلاقةُ بإسرائيل طلباً للحماية فهي، أيضاً، ما لم تَتُمّ من دون معاناة، كما أنَّها لم تُبْنَ وتُعْتَمَدْ إلا بعد أنْ حوصِرَ الجبلُ المسيحي بما فيه بكفيا من قبل المسلحين الفلسطينيين وحلفائهم، فيما استحال الإنجادُ العربيُّ المحافِظ والغربيّ سواءً بسواء.

واقع الأمر أنّ الكتائب في ١٩٧٦، لهثَتْ وراء الرئيس كميل شمعون في هذه

(١٠٢) في رصده لنمو المقاومة الفلسطينية في لبنان يتوقف أديد داويشا عندما يعتبره المحطات الأساسية والتي هي بدورها محطات التوتر اللبناني ـ اللبناني السابق على اندلاع الحرب. من هزيمة ١٩٦٧ إلى معركة الكرامة وصولاً إلى العام ١٩٦٩ حين أصبحت المقاومة الفلسطينية «قوة سياسية وعسكرية شبه مستقلة في السياسة اللبنانية». Adeed I. Dawisha, *Syria and the lebanese crisis,* The Macmillan press Ltd., 1980, p. 21.

الوُجهة، إذ بعدَ اجتماعيْن بين الأخير ورئيس الحكومة الإسرائيلية يومذاك، إسحق رابين، وافق بيار الجميل على الإنضمام إلى هذه اللقاءات «من دون أن يُخفي حقيقةَ حزنِهِ بسبب اضطرارِهِ لمصافحة يد رابين: «إنّني أريـد أنْ أسيرَ في لبنان ورأسي مرفـوعٌ كمسيحي وكعربي» كما قال، وأضاف «لقد أُجبِرْتُ على التّوجُّهِ إليكم لكنّني مملوءٌ بالعـارِ والخيبة». وحينما اختار رابين أنْ لا يجيب على إهانتِهِ، انتهز الجميل صمتَهُ كدعـوةٍ لمتابعـةِ كلامِـهِ العدواني: «إنّه خطـأُ إسرائيـل الذي دفـع الفلسطينيين إلى الاستقرارِ في لبنـان وحَمْلِ السـلاح»، بحسب ما روى كـاتبان إسـرائيليان غيـرُ متحمِّسيْن لتَبْييض صفحةِ المـوارنة اللبنانيين أو الكتائب[١٠٣].

والروايةُ نفسُها تقريباً، مع اختلافاتٍ في التفاصيل، يعيدُها كـاتبٌ إسرائيليٌّ آخـر: «وقد تكلّم بيار الجميل كمن يشعرُ بالذنب. قال «أشعرُ بالخجل لكَوْني أجدُ نفسي مضطراً إلى رئيسِ حكومةِ إسرائيل طلباً للمساعدة. فقد تكلّمتُ بحدّةٍ ضدَّ دولةِ اسرائيـل لسنواتٍ طويلة. لقد رأيتُ في قيامِها بدايةً لكارثةِ لبنان. فقد اضطُرِرْنا في أعقابِ تأسيسِ إسرائيل إلى استيعـابِ عددٍ كبيـرٍ من اللاجئين الفلسطينيين الـذين يُهَدِّدوننـا اليومَ ويحـرِّضـون المسلمين في بلـدِنا. لقـدْ رأيتُ فيكم، أنتم الإسرائيليين أصـلَ البَلاء. فقـد تَغَيَّـرَ لبنـان بسببكم. اختلّتِ التركيبةُ الديموغرافيةُ وحلَّ الخرابُ في الدولة». وأضـافَ الجميل يقـول: «أما الآن فقد تخلّى عنا العالمُ المسيحيُّ ولم يعُدْ أحدٌ يهتمُّ بنـا. ولأنني أريدُ أن أواصِـلَ العيشَ مرفوعَ الـرأس في لبنان، فـلا مناصَ من أن أتـوجَّهَ إليكم طلبـاً للمساعـدةِ لأنَّكم وحْدَكُم على استعدادٍ لِمُساعدتِنا وتستطيعون مساعدتنا»[١٠٤].

الدفع إلى الخوف

بطبيعـةِ الحال كـانت وجهةُ الخـوفِ أقوى ممـا عداهـا، وكان الميلُ إلى التكتيلِ العشـائريِّ الـذي يرصُّ الصفوفَ ويؤكِّدُ على «اللُّحمـة»، يُلْغي كـلَّ اتجـاهٍ للفـرْزِ ضمنَ المجموعةِ المقـابلةِ للكتـائب. ولم تكتمِ الأخيرةُ، المهجـوسةُ منـذ ١٩٤٣ ببحثِها عن نـدٍّ إسلاميٍّ لها، البرَمَ بأنَّ رئيسَ الحكومةِ (المسلم) «عـرضـةٌ دائمـةٌ لضغطِ الشارعِ الـذي

(١٠٣) Ze'ev Schief & Ehud Ya'ari, *Iseael's lebanon war*, Simon & Schuster, New York, 1984, p. 18-19.

(١٠٤) شيمون شيفر، **كرة الثلج ـ اسرار التدخل الاسرائيلي في لبنـان**، لا ذكر للـدار، ١٩٨٤، ص ٣٧. الجديـر بالذكر أنّه مع توافـر خيار عـربي عبرت عنـه «قوات الـردع العربيـة» عاد الخيـار الاسرائيلي في الكتـائب لينكمش، إلى ان اتضـح أنَّ السوريين ينـوون إبقاء السـلاح الفلسطيني وتحويـل لبنان «سـاحة» لمـواجهة «المخطط الساداتي»، بذلك اضيف الخطر السوري إلى الخطر الفلسطيني. حول مصاعب إقناع بيار الجميل بالخيار الاسرائيلي، راجع أيضاً جوزيف أبـو خليل، «حـرب لبنان، مـراجعة ونقـد»، الحلقة ٥، في: **الحيـاة** ١٤/٧/١٩٨٩.

جاء الحُضورُ الفلسطينيُّ ليزيدَه غلياناً»[١٠٥]. أمّـا في القاعـدةِ الشعبيةِ العـريضةِ فكـان لسطوةِ السلاح أنْ سَيَّدَ التنظيماتِ الشبابيةَ المسلّحةَ والملتحقةَ بالفلسطينيين، وأخَصَّها بالذكر «حركة المرابطون» على ما عداها من قوى سياسية معتدلة.

واستكمالاً للحصار لم تُجْدِ محاولات الإنفتاح على العالم العربي الذي تمـاسَكَ هـو أيضاً، بدرجةٍ تَقِلُّ أو تزيد، مع الجماعة الفلسطينية ـ اللبنـانية المنـاهضةِ للكتـائب. ولَئِنْ بدا أنّ ثمّة أنظمةً عربيةً مُحافظةً (في الخليج خصوصاً) تُبدي بعضَ التعاطف مع مسألـةِ المسيحيين في لبنان، إلا أنّ التعاطف بَقِيَ مُضمَراً وضمنيّاً في الغالب لأسباب كثيـرة في صدارتها فكـرةُ «الجماعـة»، وخوفُ الأنظمـةِ من مصارحـةِ «الجماهيـر» تاليـاً، فضلاً عن القداسة الخرافية التي تحظى بها المسألة الفلسطينيةُ في العـالميْن العربي والإسـلامي، من دون أنْ تخلـو من خَشْيةِ الإرهـاب الانتقامي للمنظمـات الفـدائيـة. وهكـذا اقتصـرَتْ التأثيراتُ الخارجية على «دفع مسلحين فلسطينيين من سوريـا إلى لبنان» وعلى «بيـانات التأييد العربية للفـدائيين وللقضية الفلسطينيـة»، والسّببُ، في عرف الكتـائب، «أنّ أحداً من المسؤولين العرب لم يُرِدْ أنْ يتفهّمَ صُلْبَ المشكلة»[١٠٦].

بدوره عَمِلَ ضعْفُ الثّقافةِ السيـاسيّةِ الـدستوريـةِ وعدَمُ التسليم بنِهَـائيَّةِ الكيـانِ اللبناني بين المسلمين حتى ١٩٣٦، وبتَعَثُّر وتـردُّدٍ بعد ذلـك، على تعقيد مُشكلـةِ «التفهّم والتفاهم»، التعبير الأثير لأحد رؤساء الحكومة، صائب سلام، فراحَتْ «العمل» تتساءلُ في صـورةٍ عصبيّةٍ متكررة: «من يمثل المسلمين: ليبيا؟ العـراق؟ سـوريـا؟ أبـو عمّـار؟ أم الزعامات المحلية في ظلِّ عجزها حيالَ الشارع؟»[١٠٧].

وإلى الوجودِ الفلسطينيّ المسلّح في لبنان وفي قلبِ المناطقِ الشرقيّةِ تحديداً[١٠٨]، عَمِـلَ التحوّلُ الـديموغـرافي الذي تفـرزُهُ نسبةُ الـزيادةِ السكـانية الأشد ارتفـاعـاً بين المسلمين من مثيلَتِها بين المسيحيين، معطوفاً على العدد الفلسطيني، على إغلاق حلقاتِ حصارِ الخوف، لا سيّمـا وأنَّ الوعيَ العـدديَّ (العشيري) كـان يُحْكِمُ قبضتَه على رؤوس اللبنانيين جميعاً.

أضِفْ إلى ذلـك أنّ الكلام الـذي كان يَهُبُّ «من الطـرف الآخر»، كـان لا يسمحُ إلا بتـأويلٍ واحـدٍ آحادي، من شعـار «الفلسطينيون جيش المسلمين» إلى تحليـلاتٍ لِلْيَسار شرعَتْ تظهرُ مع أواخر الستينات. فمنذ ١٩٧٠ لم يترك أحدُ اليساريين اللبنانيين فـرصةً للشـكِّ والتّكَهُّنِ، إذْ حَسَمَ بأنَّ «تسليـحَ الحُكْمِ لجماهيـر القرى الأمـاميـة ـ ومعظمُهم من

(١٠٥) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ١٤٢.

(١٠٦) انطوان عواد، «خمسون سنة في خدمة لبنان»، في: **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

(١٠٧) انظر: **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ١٦٨ ـ ١٧٢.

(١٠٨) ومن بعده الوجود السوري في المناطق إيّاها.

الفلاحين الصِّغار والفقراء ـ سيَغْني قُدْرَتَهُمْ على الثورةِ على مُضطهِديهم ومُستغِلّيهم»[١٠٩]. أمّا في ١٩٧٥ ومع انفجار حربِ السّنتين، فلم يتردَّدْ قياديٌّ وكاتبٌ فلسطيني في تحديدِ «الأُسُسِ» التي بموجبها «تُحَلُّ قضيّةٌ كقضيةِ حزبِ الكتائب»، ومن ذلك: «أوّلاً: يجبُ النضالُ لعزْلِ حزب الكتائب وطنيّاً ـ على صعيد لبنان وعلى الصعيد العربي ـ ولِكَشْفِ جرائمِهِ وتَعْرِيَةِ عَمَالَتِهِ. ثانياً: لا بدَّ من عَزْلِ الكتائب في أوساط الموارنةِ أيضاً، وذلك بتوسيعِ القاعدةِ المارونيّةِ المُتَحَرِّرَةِ من أوهامِ القرنِ التاسعِ عشر ومن معاداة الفكرة الوطنيّةِ العربية وأفكارِ التقدّم الاجتماعي»[١١٠].

وما فات الكاتِبَيْن اليساري والفلسطيني، أكَّدَهُ كاتبٌ مسلمٌ وثيقُ الصِّلةِ بدار الفتوى. فقد رأى حسين القوتلي أنَّهُ «إمّا أنْ يكونَ الحاكمُ مسلماً والحكمُ إسلامياً فيرضى عنه [المسلمُ] ويُؤيِدُهُ، وإمّا أنْ يكونَ الحاكمُ غيرَ مسلمٍ والحكمُ غير إسلاميٍّ فَيَرْفُضُهُ ويُعارِضُهُ ويَعْمَلُ على إلغائِهِ، باللِّينِ أو القوّة، بالعَلَنِ أو بالسِّرّ [...]. إنَّ أيَّ تَنَازُلٍ من المُسلم عن هذا الموقف أو عن جُزءٍ منه إنَّما هو بالضرورة تنازلٌ عن إسلامِهِ ومُعتقدِهِ [...]. إنَّ ذلك يعودُ إلى سببٍ منطقي هو أنّ الإسلامَ نظامٌ كاملٌ ومنطقٌ شامل»[١١١].

كان ما يضغطُ هذه العواملَ كلّها في لبنان أنَّ النتائِجَ التي أفضتْ إليها حربُ تشرين الأول ١٩٧٣، تركَتْ النفوذيْن السوري والفلسطيني يحتقِنانِ ويبحثان عن شروطٍ لتحسينِ عناصر التسوية الإقليمية الموعودة، وعن «ساحةٍ» تجري عليها المحاولَة. وبكلّ هذه المعاني بدَتْ رياحُ العروبة في ١٩٧٥ أقوى منها في ١٩٥٨، إذْ تضافَرَ الوجودُ الفلسطينيُّ المسلحُ في الدواخل اللبنانية ـ والذي نجح في جرِّ «الطوائفِ الإسلامية من أنْفِها إلى الحرب»[١١٢]، مع دعمٍ سوري مباشر، ولو في أشكالٍ متفاوتة، ونزاعٍ أهلي استطاع قطبُهُ الآخر بزعامة كمال جنبلاط إقامةَ «جبهةٍ عربية مُسَانِدَةٍ للثورة الفلسطينية» وعلاقاتٍ وثيقَةٍ مع الاتحاد السوفياتي. ولم يكتُمْ جنبلاط رغبتَهُ في «عَزْلِ الكتائب» بعد حادثة عين الرمانة في نيسان ١٩٧٥، كما لم يكتُمْ، بعدَهُ، صلاح خلف (أبو إياد) أنَّ «الطريق إلى فلسطين تَمُرُّ من جونيه».

في الآن نفسِهِ خَلَتْ العروبة السبعينية من الوزن المصري الذي كان عمادَها في الخمسينات، أيْ أنَّها خلَتْ من الكَفَّةِ التي تستطيع، بِثِقةٍ نسبيةٍ، لَجْمَ الصراعاتِ عند حدٍّ معيّن، والوصول تالياً إلى تسويةٍ ما.

(١٠٩) محمد كشلي، «لبنان والنماذج الثورية العربية»، في: **آراء نخبة من رجال الفكر: النظام السياسي الأفضل للإنماء**، مكتبة الفكر الجامعي، ١٩٧٠، ص ٢٢١.

(١١٠) ناجي علوش في مقابلة اجرتها معه مجلة **دراسات عربية**، العدد ٩، تموز ـ يوليو ١٩٧٥.

(١١١) **السفير** ١٨/٩/١٩٧٥، ونظراً للوقع الذي تركه هذا المقال على الوسط المسيحي اعادت الكسليك نشره.

(١١٢) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ١٤٥.

لهذا استطاعت الناصريّةُ عبرَ هجومها على لبنان في ١٩٥٨ أنْ تساعدَ في إنشاءِ النِّظامِ الشَّهابي شِبْهِ الاستبدادي. أمّا الضَّعفُ والإحتقانُ السوريّان ـ الفلسطينيان فلم ينجُم عن هجومِهِما على لبنان في ١٩٧٥ إلا المساعدة في إطلاقِ العنف والفوضى، وإنكاصِ الجماعات الطائفية كتلاً عشائريّةً دمويّةً تبحثُ عن «دولةٍ» هي كنايةٌ عن قوةٍ محضةٍ تنوبُ مَنابَ سائرِ وظائفِ الدولةِ، كما تنوبُ، استطراداً، عن المجتمع وتعقيداتِ دورتِهِ.

قُصارى القول أنّ مناخَ انحطاط الكتائب من حزبٍ مشرعٍ على شتى الاحتمالات، إلى فِرَقٍ عسكرية مُتنابذَةٍ، هو نفسه مناخ انحطاط العروبة من الناصرية المصرية إلى البعثية السورية والفلسطينية المُسَلَّحة ذاتِ الأنياب.

بشير الجميل أو بدء الانقلاب

إذا صَحَّ أنّ بشير الجميل وظاهرتَهُ كانا الترجمةَ المُشَخْصَنَة لانتقال العروبة إلى متن حزب الكتائب، فهذا ما لم ينفصلْ عن تحوّلاتٍ ديموغرافية تعرَّضَتْ لها بيروتُ الشرقية في الخمسينات والستينات، وبصورة متسارعةٍ وقسرية منذ ١٩٧٥.

فقد آلَتْ عملياتُ التهجير التي حصلَتْ مبكراً في قرى القاع وبيت ملات وتل عباس وغيرها، إلى استكمال انقلابٍ كان يَتَّجِهُ إلى نقل الأطراف المسيحية إلى قلب المركز.

وفي مقابل الهجرة والتهجير اللذين أصابا مُسلمي المناطق الشرقية مِمَّنْ أمُّوها قَصْدَ العملِ والإقامةِ، حَلَّتْ أعدادٌ مسيحيةٌ ضخمةٌ فيها، فباتَتْ الكثافةُ السكانيةُ للمناطقِ المذكورةِ في أوائل الثمانينات ١٢٤٤ شخصاً للكيلومتر المربع الواحد، بينما لم يَتَعَدَّ متوسط الكثافة في سائر البقاع اللبنانية ٢٨٥ شخصاً[١١٣].

هؤلاء النازحون حملوا معهم إحباطَهُمْ وخوفَهُمْ ورغبتَهُمْ في رَدِّ الخوفِ بأيِّ شَكْلٍ عُنْفي مُمْكن، خصوصاً أنّ الكثيرين منهم جاؤوا وهم يَضُجون باستعداداتٍ ثأريةٍ وَفَّرَتْ الحربُ لها فرصةَ التحوُّلِ إلى إمكانات. زِدْ على ذلك أنّ صعوباتِ الانخراطِ في البيئة الجديدة، في ظلِّ مجتمعٍ تراتُبي ذي سلطاتٍ قاعديةٍ مفتتةٍ وثقافةٍ أهليّةٍ غيرِ متسامحةٍ مع الغريبِ والمختلف، جعلَتْ التكيُّفَ يَتْمُّ بالصفة النضالية المزعومةِ للمُتَكَيِّفِ، لا بحسب تعارفٍ طبيعيٍّ بين الجماعات بصفتها وأسمائها الفعلية.

بَيْدَ أنَّ المُهَجَّرين حملوا أيضاً، كما في كلِّ توزيعٍ قَسْري للسكان، تَفَتُّتَ الروابطِ المحلية العائلية والمناطقية، التي صدروا عنها، بما دفَعَهُم إلى الانتساب، وصولاً إلى

(١١٣) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 142.

التماثُل، مع «الجماعة» المُتَشَكِّلَة حديثاً في المدينة على إيقاعِ الحرب وثاراتِها. وغنيٌّ عن القول إنَّ الرابطَ الجَمْعِيّ، «الجماهيري» أو العشائري ـ الدموي، هو المُسْتَعِدُّ دائماً لِتَلَقُّفِ مثل هؤلاء المتلهِّفين إلى إنتماءٍ ما[١١٤].

وقد توصَّلَ أحدُ الذين درسوا العراقَ البعثي (سمير الخليل) إلى أنّ التَّفَتُّتَ والاقتلاعَ وما يصحبُهُما من خوفٍ، قابلةٌ لأن ترمي الجماعةَ المفتتة والمقتلعةَ في وحشةِ «الحالةِ الطبيعيّة» بمعناها الهوبسي (نسبة إلى Hobbes)، فتكون، على هذا النحو، شرطاً للتوتاليتارية وركيزةً لها في آن[١١٥]، أيْ أنَّ الحزبَ السياسي المرتبطَ تعريفاً بوجودِ دولةٍ ومجتمعٍ مُسْتَقرٍّ وتقسيمِ عملٍ ما، يعجَزُ عن استقطابِ هؤلاء الباحثين عن حلولٍ راديكالية كبرى يتصدَّرُها «الخلاص» و«العودة»[١١٦]، أمّا الحزبُ الذي يُمكنُ له أنْ ينمو في هذا الوسط فهو الذي «لا يخاطبُ الجماعاتِ المهنيّةَ بصفتها تلك (العمال، الفلاحين، الملاكين) بل يخاطبُ أساساً الأفرادَ المُتَذَرِّرين والذين تَقَطَّعَ مسارُهم، أو أولئك الذين شعروا أنّهم مُهَدَّدُون بالاقتلاعِ من جرّاء النموّ السكاني والتمدينِ والتحديثِ وتَعَرُّضِ طريقةِ الحياةِ التقليديّةِ لهجومِ التحوّلاتِ الديموغرافيةِ ذات النطاق الواسع. ففي أوضاعٍ كهذه يَحولُ الإحباطُ دون التركيز على أهدافٍ معيَّنة ومحدودة»[١١٧].

وبرغم أنّ التحولات اللبنانية، على الأقل منذ ١٩٧٥، لم تَتَّسِمْ بأيٍّ من أعمالِ التَّمدِيْنِ والتَّحديثِ التي يصفُها الباحث، يبقى أنّ وَصْفَهُ ينطبقُ جزئياً على موجاتِ الهجرةِ إلى بيروت قبل اندلاعِ الحرب، كما أنّ نتائجَ المواجهةِ بالبيئةِ الغريبةِ بعدَ الحرب تبقى مشابهةً لما وَصَفَهُ الكاتبُ العراقيُّ لِجهةِ السَّعْيِ وراء العموميّات النضالية.

إلى ذلك يَلحظُ أحمد بيضون أثراً للتَّهجيرِ في داخلِ الجماعةِ المُهجَّرَة نفسها، وهو الأثَرُ الذي لا يلبَثُ أن يُعَزِّزَ عناصرَ التفاوُتِ في قلب التَّوحيدِ القَسْري على الغِرار العشائري، إذ «يَنْضافُ حسدُ المُهَجَّر للمُسْتقرِّين من حوله ـ أي من جماعته ـ فيخرجُ من بين المهجَّرين أشرسُ المقاتلين، يتنازعُهُمْ ـ على تَساوٍ في الشراسة ـ هَمُّ الدفاعِ عن مُحيطِهِمْ الجديد وهمُّ إضعافِهِ. فَتَتِمُّ لأناسٍ لم يَكُنْ لغاياتِ الحربِ السياسيّةِ أهميةٌ استثنائيّةٌ عندهم، المشاركةُ في وجهَيِ الحربِ الرئيسَيْن: وجهِ الصّراعِ ما بين الجماعاتِ المختلفةِ وَوَجْهِ الصّراعِ في الجماعةِ الواحدةِ وعليْها»[١١٨].

(١١٤) حول الصلة التي تعقدها حنّه أرندت بين تصدّع الروابط واليأس والتوتاليتارية، راجع: وضّاح شرارة، **تعبير الصور**، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ص ٥٥٤ ـ ٥٧١.
(١١٥) انظر Samir al-Khalil, *Republic of fear...*, *op. cit.*, p. 126-130.
(١١٦) مثّلت «العودة» في التجربة السياسية العربية موقفاً ثابتاً وعصبياً، أكانت عودةً في التاريخ («البعث»)، أم في المكان («إلى فلسطين»، «إلى الاسكندرون»، مؤخراً إلى المناطق التي هُجِّر منها اللبنانيون).
(١١٧) Samir al-Khalil, *Republic of fear...*, *op. cit.*, p. 203.
(١١٨) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٣.

ينعكسُ مثلُ هذا الوضعِ الناشىءِ، بصورةٍ خاصةٍ، على الأبناء الذين لم يُعَوِّضْهم عن اقتلاعِهم أيُّ زمنٍ مُستقرٍّ مديدٍ عَرَفَهُ أهلُهم، وأيّةُ علاقاتِ اختلاطٍ عاشوها. ولأنَّ أعمارَ المراهقة، وهي أعمارُ اضطرابٍ وانتقالٍ أيضاً، أوْعيةٌ نموذجية لأفكار إطلاقيّةٍ وغيرِ مُتَبَلْوِرَة، اتخذَ «العبورُ» إلى التنظيماتِ الراديكالية المسلّحةِ شكلَ تَنْحيةِ جيلِ الآباءِ واستبعادِهِ. فالآباءُ ممَّن لم تَبْلُغْهُمْ «الدعوةُ» الجديدةُ هُمْ في عُرْفِ أبنائِهِم «أُمّيّون، ابتدائيون، غيرُ مبالين، عازفون عن الحياة والمجتمع وعمّا يجري فيهما من أحداثٍ جسام»، وهم إلى ذلك «تقليديون ومحافظون مقيمون على زمنٍ فائتٍ ذاوي الأفق، وقِلّةٌ قليلةٌ مَنْ يُطيقُ مِنْهُم التجدُّدَ. وسبيلُ التَّجَدُّدِ هذا التَّتَلْمُذُ على أيدي أبنائِهِم واتّخاذِهِم مثلاً وقدوةً»[١١٩].

بدوْرِهِ لم يكنْ هذا الحدثُ مفصولاً عن مكانٍ بعَيْنِهِ. فقد نزل النازحون، وأغلبُهم صادرٌ عن الوسَطِ الأدنى من الهرم الاجتماعي، أو أنّ تَبْديدَ الهجرة أنْزَلَهم إلى هذا الوسط، في دوائر سكن فقيرة من «مناطقَ مدينية خصوصاً الأحياء العمالية في بيروت»، حيث أحْرَزَتْ «القواتُ اللبنانية» اللاحقة، ومنذ نشأتِها، وجوداً ملحوظاً[١٢٠].

وفي مقابل هذه الكتلة الوافدة، أطلقَتْ حربُ السنتين حركةَ هجرةٍ إلى الخارج شَكَّلَتْ بدايةً للنَّزْفِ المتواصل الذي تعرَّضَتْ له كفاءاتُ اللبنانيين وأدمغتهم. فخلال ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ غادَرَ لبنان نحو ٦٠٠ ألف شخص لم يَعُدْ منهم من عاد إلا بعد هدوء الأوضاع الذي ما لبث أن ثَبَتَ أنّهُ هدوءٌ موقت[١٢١].

مصدر الزعامة القوية ومآلها

كان قد سبقَ الحربَ بسنواتٍ عدة استمرارُ النزوحِ الرِّيفي من مناطقِ الأطرافِ إلى ضواحي بيروت، تبعاً لنموّ الرأسماليةِ اللبنانية، وتَوَسُّعِها في المركز البيروتي ـ الجبلي، فكان لهذه الوُجهة أنْ عَوَّضَتْ وفاقَتْ بكثيرٍ وجهةَ «وفودِ العمّال الزراعيين السوريين (الموسمي أو المناوب) إلى لبنان الطَّرَفي»[١٢٢]، حتى بَلَغَ، في أواسطِ السبعينات، مستوى النموّ في لبنان ٥٥٪[١٢٣].

(١١٩) وضّاح شرارة، **المدينة الموقوفة ـ بيروت بين القرابة والاقامة**، سبق الاستشهاد، ص ١٥٩. يدرس الكتاب، كما يدل عنوانه الفرعي، مدينة بيروت من خلال ثنائية هذين القطبين: القرابة والاقامة.
عن ظاهرة النزاع بين الأهل والأبناء في حركة نضالية لبنانية أخرى، ولو أقل شأناً بكثير، هي «حركة التوحيد الإسلامي» في طرابلس، انظر: Michael Humphrey, *Islam, sect and state: The lebanese case*, Centre for lebanese studies, Oxford, 1989, p. 29 & 29 n.
(١٢٠) انظر Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 137.
(١٢١) من مقابلة مع بطرس لبكي، في: **الحياة** ٨/٩/١٩٨٩.
(١٢٢) سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.
(١٢٣) عن سعد الدين إبراهيم، «مدن العالم العربي»، في **دراسات عربية**، سبق الاستشهاد.

ذلك أنْ نسبةَ سُكّان المدنِ ارتفعَتْ إلى مجموعِ عددِ السكان من ٣٩,٦٪ في ١٩٦٠ إلى ٥٩,٤٪ في ١٩٧٠ (وإلى ٧٤,٨٪ في ١٩٨٠ و٨٠,١٪ في ١٩٨٥ و٨٣,٤٪ في ١٩٩٠)[١٢٤]. وفي قراءةٍ لتوزيع السكانِ المُقيمين في بيروتَ والضّواحي في العامِ ١٩٧٠، تَبَيَّنَ أنَّ «نسبةَ الذين وُلِدوا خارجَ مدينةِ بيروت وضواحيها تبلغُ حوالى ثلثِ السكانِ المقيمين في مدينةِ بيروت، ونحو ٩٠٪ من مجملِ السكانِ المقيمين في الضواحي». وبين الملامحِ الحديدةِ التي نجمتْ عن هذا التحوُّلِ «زيادةُ نسبةِ القوى البشرية ممن هم بين ١٥ و٤٩ سنةً من العمر، ومعظمُ هؤلاء من الريفيين الوافدين للبحثِ عن عمل»، فضلاً عن ارتفاعِ مستوى الإنجابِ ونسبةِ الأميةِ بين المقيمين في الضواحي[١٢٥].

وسطَ هذا الخضم، كان من الطبيعي أن تغرقَ البورجوازية الصغرى الجديدة في بيروت، والتي نَمَتْ في موازاةِ نُمُوِّ المدينة بقطاعاتِها وخدماتِها وثقافاتِها، في بحرٍ واسعٍ من مُرَكَّب البِطالةِ والمِهَنِ القديمةِ أو المياوَمةِ ذاتِ الطابعِ العابرِ. وفي وجهِ الإجمالِ ارتفعَ عددُ ساكني بيروت ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٥ من ٤٥٠ ألفاً إلى ١,٤ مليون نسمة، وفيما قُدِّرَ أنَّ ثلاثةَ أرباعِ سكانِ العاصمة باتوا، عند اندلاعِ الحربِ الأهلية، «غرباءَ عنها»، قُدِّرَ عددُ الموارنةِ المقيمين في بيروتَ في السنةِ نفسِها بـ ٣٥٠ ألف نسمة[١٢٦]. إلا أنَّ هؤلاء «الغرباء»، الذين ظلَّ النظامُ الانتخابيُّ يردُّهم إلى مساقطِ رؤوسهم، لم يجدوا في الروابط المهنية والنِقابية الحديثة التي تجمع بعضَهم بالآخَر، ما يحلُّ محلَّ انقساماتٍ يُزكّيها تكوينُ المجتمعِ اللبنانيِّ وأفكارهُ الأهلية وتجدُّدُ صلةِ الوافدين بأريافِهم عبر طُرُقٍ لا تُحْصى. وما يقال في النزوح الماروني يُقالُ في نزوح سائر الطوائف. فإذا صحَّ، مثلاً، أنَّ غالبيةً ساحقةً من العمّال الشيعة عملت في بعض مصانع الضواحي المسيحية الشرقيّة، فهذا ما لم يُرَتِّبْ ظاهراتٍ سياسيةً إيديولوجيّة تتعدى الإستثناءات اليساريةَ التي ما لبثت الحربُ أن أطاحتْها، بإرجاعِها الأفرادَ إلى كُتَلِهم المذهبيةِ و«أحزابِها»[١٢٧].

كانت هذه البيئةُ بيئةَ ضواحٍ، فلم يكن من المصادَفِ أن تندلعَ الحروبُ اللبنانية

(١٢٤) عن علي فاعور، **بيروت (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠) ـ التحولات الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية**، المؤسسة الجغرافية، ١٩٩١، ص ٢٢.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ٢٤.

(١٢٦) عن غسان سلامة، **المجتمع والدولة**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

(١٢٧) راجع حول تجربة الهجرة الريفية إلى الضواحي وإقامة الريفيين كُتَلاً يُحَدِّدُها مصدرها العائلي والريفي فضلاً عن تَرَسُّخ ولاءاتها السابقة: Fuad Khuri, *From Village to Suburb: order and change in greater Beirut*, University of Chicago press. 1974.
وكذلك: وضّاح شرارة، **حروب الاستتباع او لبنان الحرب الأهلية الدائمة**، سبق الاستشهاد، بدوره يرى أحمد بيضون أنّ «هامش اللقاء الطبقي المتعدد الطوائف» يبقى عادة في الحال اللبنانية «في ما دون السياسة». **ما علمتم وذقتم**...، سبق الاستشهاد، ص ١٣٧.

المتناسلةُ انطلاقاً من الضواحي: من عين الرمانة والشياح، إلى أسواق طرابلس القديمة حيث نزل المهاجرون من عكار والضنية، وصولاً إلى حارة صيدا التي أمَّها المهاجرون والمهجَّرون الشيعة الجنوبيون. ومع ثِقْلِ الضواحي على المدن وانبثاثِها فيها، لاحظ ألبرت حوراني أنّ كتائب ١٩٧٥ «استقت دعمَها الأساسيَّ من موارنةٍ حديثي السكنِ في المدن، أو أولئك الذين يعيشون داخلَ حَيِّزِ التأثيرِ الاجتماعي المُتَّسِعِ للمدن من دون أن يتصالحوا معه تماماً، ومن دون أن يرتاحوا إلى تسويات النظامِ السياسي القائم»[١٢٨]. ذلك أنَّ بيئة الضواحي هي تلك التي تهتزُّ فيها القيمُ الريفيةُ من دون أن تنشأَ وتتصلّب قيمٌ مدينيةٌ مستقرة، بما يَلِدُ عصباً متوتّراً يبحث عن زعامةٍ قويّةٍ تنتقل به إلى الهجومِ و«الثأر». وليس من غير دلالة أن الرجلَ الذي شرع منذ معركة تل الزعتر في ١٩٧٦، حين صُرع المسؤول العسكري الكتائبي وليم حاوي، يلعبُ دورَ الزعيم البطلِ لهذه البيئة، هو الذي مثَّلَ التيارَ الأشَدَّ تصلُّباً في حزبه، استناداً إلى موقعِه الجديد في «القوات اللبنانية» التي تمَّ توحيدُها في ٣٠ آب ١٩٧٦[١٢٩].

فقد كان لتحالُفِ بشير الجميل مع جمهورِ الحربِ الوافدِ إلى الكتائب أن أنتجَ هجوميةً مركَّبةً في علاقتِها بالمجتمع والسياسة، فضلاً عن «العدد»، إنتَاجَهُ سعياً واضحاً إلى السلطة لم يكُنْ معهوداً في عزوف والده الشيخ بيار الجميل الذي تراوحَ بين إحالةِ السياسة إلى الدولة كنظريةٍ ثابتة، وبين السلوكِ الفالانجي في ١٩٣٦ ـ ١٩٤٣ و١٩٥٨ كأعلى درجاتِ الإخلال بتلك النظرية.

ولتقديرِ حجْمِ الفارقِ بين كتائبِ ما قبلَ بشير وجيلِه، لا بأس بالعودةِ إلى شهادةِ جوزيف أبو خليل الذي عايش، عن قربٍ، تجربةَ الطرفيْن وعَبَّر عنها بلغة لا تنقُصُها المرارةُ والدهشة:

«غريبٌ كيف تغيَّرَ هؤلاء الشبانُ وقد عرفْتُهم واحداً واحداً وأحببْتُهم مقاتلين لا يسألون عن أيِّ مقابلٍ. بل غريبٌ ما صنعتْ فيهم الشهوةُ إلى السلطةِ وكم بدَّلتْ من فضائلهم! فطوالَ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم أعرفْ صراعاً على السلطةِ مثلَ الصراعِ الذي بدأ مع السلطةِ التي انشأها بشير الجميل في المناطقِ الشرقيةِ ولم ينتهِ بعد. وفي كلِّ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم أشهدْ أحقاداً مثل الأحقادِ التي تُفرِّقُ بين أبطالِ هذا

(١٢٨) Albert Hourani, *The emergence..., op. cit.*, p. 177-178.

(١٢٩) بحسب رواية أمين الجميل، يعود تأسيس «القوات اللبنانية» إليه وإلى داني شمعون على أنْ تكون «قوات دفاع عن بيوتنا وأرزاقنا وأرواح أهلنا لا تنظيماً عسكرياً غرضه الوصول إلى السلطة». أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، في: **الحياة** ١٥/١٢/١٩٩٠. وإذا صحّت هذه الرواية كان أمين الجميل ـ من خلال عمله هذا ـ يحاول استعادة المرحلةِ الفالانجية والإقتصار عليها، حيث يطغى الدفاع والمهام المتواضعة على الهجوم.

الصراع وتدوِّخُهم. وفي كلِّ حياتي الحزبيةِ والسياسية لم أرَ جـرأةً في طلب السلطةِ مثل جرأتِهم. كنا في الماضي إذ هزَّ أحَدَنا طموحٌ إلى منصب أو مركز نفوذٍ، استحى بطموحِه واحمرَّ وجهُه خجلاً. فعلى هذا الزهْدِ تربَّيْنا في الكتائبِ وعلى هذا الحياء. وأذكُرُ أنَّ أحَدَ المستقيلين من الكتائب قال مرّةً: «الكتائبُ مقبرةٌ للطمُوح»»(١٣٠).

بدورهِ جاء الانتقالُ إلى الهُجوميةِ الصارخةِ انطلاقاً من الضواحي الفقيرة كالرميْل والمدوّر، ما بين المرفأ والأشرفية(١٣١)، مروراً بمُواجهـاتٍ عسكريـةٍ وأعمالِ عُنفٍ وذبحٍ على الهُويّةِ بلغت ذرْوتَها في «السبت الأسود» الشهير، ليَرُدَّ الخوفَ عن المسيحيين للمرّةِ الأولى، ويَنْقُلَهُ، فعلياً ورمزيّاً، إلى جبهـة «الخصم». بهذا المعنى ارتبطَتْ ولادةُ كـاريزما بشير الجميل التي تعاظمَتْ لاحقاً، بكونِها تتعدّى مطالبـةَ المسلم بمنحِ الطمـأنينة، كما كان يفعلُ والدُهُ، كما تَتَعدّى الدعوة لانتزاعِ الطمـأنينةِ أو حتى انتـزاعِها فـالانجيّاً، وهي حدودُ النظاميّةِ شِبْهِ العسكريّةِ للكتـائب حتى ١٩٧٥. فالمطـروحُ هنا، في المقـابل، ليسَ أقلَّ من نَقْلِ مَوْضعِ الخوفِ وتغييرِ مـوضوعِـهِ، والانطلاقِ، من ثَمَّ، نحـو مِنَصَّةِ السلطةِ السياسيةِ(١٣٢) في بلدٍ لنْ تكونَ قُوَّتُه «في ضعفِهِ» بعدَ اليوم.

ولَئِنْ أقدَمَ بشير على تقديمِ تنازلاتٍ للسلطة إبَّانَ ضُعْفِهِ النِّسبي، كإقدامِهِ على حَلِّ «اللجان الشعبية» في ١٩٧٧(١٣٣)، فذلك لم يكُنْ غيرَ إملاءٍ فَرَضَهُ تجميعُـهُ لعناصـر القوة وأوراقِها. ففي السنة التاليةِ بدأتْ الكتائبُ نفسُها تُوصَفُ بـ «تجـاذبِ تيارَيْن» أحـدَهما لا يخـرجُ عن النِّطاقِ الكتـائبي التقليدي الـذي يُـرْمَـزُ إليه بـأمين بيـار الجميـل، والثـاني «البشيري» المتحالف آنذاك مع الرئيس كميل شمعون، والقـائل بمبدأ «الحكـومة القـوية» مـع تشدُّدٍ في معـارضة الـرئيس اليـاس سـركيس «ومن ورائـهِ» السـوريين(١٣٤)، وكـان التحالفُ مع شمعـون دلالةً مبكـرةً إلى تغليب العملِ «الشعبي» للطـائفة وسيـاسَتِها وهـو بالضرورة عملٌ متطرّفٌ، على العمل الحزبي المتمايز بطبيعته.

ففي النِّطـاقِ الماروني، وبعـد استراتيجيـةِ قَضْمٍ تَـدريجيٍّ للمـواقـعِ العسكـريّـةِ

(١٣٠) جوزيف أبو خليل، «حرب لبنان،...»، الحلقة ٥٠، في: **الحياة** ١٩٨٩/٩/٥.
(١٣١) أنظر: بيرسي كامب (ترجمة كاتيا سرور)، **استراتيجية بشير الجميل**، الحلقة ١، في: **السفير** ١٩٨٣/٣/١٥.
(١٣٢) يحمل هذا الانتقال على التذكير بالصورة التي رسمها وليم رايخ لرمزية النقلة التي تُحدِثُها الفاشية (السادية) قياساً بالمسيحية (المازوشية)، بحيث تحلُّ القبضةُ العضلية المتجهة نحو الخارج والمؤهلة للضرب واللكم (والتي صارت من العدّة الإعلانيّة للحركات النضالية) محلَّ الأشواك المغروزة في جبهة المسيح وهو على صليبه.
انظر: Wilhelm Reich, *The mass psychology of fascism*, *op. cit.*, p. 118-119.
(١٣٣) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 152.
(١٣٤) أنظر، مثلاً لا حصراً، مقابلة جريدة **الرأي العام** الكويتية مع كريم بقرادوني في ١٩٧٨/٥/٢٥.

والسيـاسيّةِ في المنـاطقِ المسيحيّةِ بـدأتْ في ١٩٧٦(١٣٥)، واجَهَ بشيـر زعامـةَ سليمان فـرنجية في عقـر دارِها في مـا عُرِفَ بمجـزرة ١٣ حزيـران ١٩٧٨ في إهدن، حيث قُتِـلَ النائبُ توني سليمان فرنجية وزوجَتُهُ وطفلَتُهُ وبعضُ أنصارِهِ، ردّاً على مقتَلِ جود البـايع المسؤول في زغرتا.

وبدوْرِها كانت معركةُ زغرتا، التي قادَها من جهة الكتـائبِ الشابُّ البشـرّاوي سمير جعجع وأحسَّ بنتيجتِها بشعور كبيرٍ بالذّنب لأنَّ موارنةً يسيلون دماءَ موارنةٍ آخـرين(١٣٦)، غنيَّةٌ بالدلالاتِ على صعيدِ توجُّهاتِ الحزبِ الجديدة، أو التي حُمِلَ عليها.

فمن نـاحيةٍ بـاتَ توحيدُ الطائفـة مَهمَّةً مُلِحَّـةً، على أنَّ المَهَمَّةَ نفسَهـا لم تبرأ من عنـاصر تفـاوُتِها الخطيـرة. ذلك أنَّ التـوحيدَ القسـريَّ للجماعـةِ يَشي بمقدِّمـاتِ سلـوكٍ عشائريٍّ باتَتْ تجمعُ حزبَ الكتائب، في حلَّتِه الجديدة، بزعامَةِ آل فرنجية، وسائرِ زعـاماتِ المنـاطقِ في خانـةٍ واحدةٍ، حيث «الأعمـالُ الثأريّـةُ في الشّمالِ أعمـالٌ رائجـةٌ كمـا هـو معروفٌ» بحسبِ تخوفِ أمين الجميل آنذاك. وفي محاولةٍ منه لتجنّبِ الصراع على أرضيةٍ واحدةٍ وبذهنيةٍ واحدةٍ حـاولَ حزبُ الكتـائب، تحت تأثيـرِ ما تبقّى من نبضِـهِ الحزبي، أن يضعَ «لانتشاره في الشمال ضوابطَ عديدةً تلافياً لأيِّ تصادمٍ مع الحـزبيّاتِ المحليّـة، أو بالأصحِّ تلافياً لأن يصبحَ هو نفسُه حزبيةً من هذه الحزبيّات»(١٣٧).

غير أنَّ قسريةَ التوحيد البشيريِّ وما تتوخّاه بالضـرورة من هيمنةِ طـرفٍ على آخر، راحـا يُطلقان تنـاقضاتٍ قـديمةً ومكبـوتةً ومنـافساتٍ أهليـةً لا يبرأ من مثلِهـا أيُّ تكوينٍ عشائريٍ، كالمنافسةِ الزغرتاويةِ ـ البشراويةِ في هذه الحال(١٣٨).

من ناحيةٍ أخرى، دلّتْ عمليةُ إهدن العسكريةُ إلى أنَّ الكتائبَ في عهـدِ بشير طلّقَتْ كُلّياً سياسةَ الإحالة إلى الدولةِ والاقتصار على إضعاف الزعـاماتِ المـارونيةِ لمصلحتِهـا، وشرعت تتحولُ إلى الحزب المسيحي الأوّل، إن لم يكُنِ الأوحد، المتّجِهِ إلى السلطة عبـر قضمِ المـواقعِ في المجتمـع. ولمّا كـانت السلطةُ المطـروحةُ على الاستيـلاء ضعيفةً أو غائبةً، بَدَتْ الوُجهةُ البشيرية، كأنها «تخلق» الدولَةَ لحظةَ تستولي عليها.

غير أن الصدامَ بفرنجية ما لبثَ أن قادَ إلى الصدامِ بحلفائه السوريين الـذين زاد في مخـاوفهم حصولُ مـذبحة إهـدن في مناخِ إنشـاء دويلةِ الضـابط سعد الحـداد في الجنوب بُعَيْدَ الاجتياحِ الإسرائيليِّ الأوّل. وباندلاعِ معاركِ الأشرفيـة، تخوّفتْ دمشق من

(١٣٥) راجع: بيرسي كامب، **استراتيجية بشير...**، سبق الاستشهاد.
(١٣٦) حول شعور جعجع بالذنب بعد مجزرة اهدن، أنظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(١٣٧) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، سبق الاستشهاد.
(١٣٨) عن العداء التقليدي الزغرتاوي ـ البشراوي، راجع: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد. ص ١٦١ و١٦٧.

الصراع وتُدوِّخُهم. وفي كلِّ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم أرَ جـرأةً في طلبِ السلطةِ مثـل جرأتِهم. كنا في الماضي إذ هزَّ أحَدَنا طموحُ إلى منصبٍ أو مركز نفوذٍ، استحى بطموحِه واحمرَّ وجهُه خجلاً. فعلى هذا الزهْدِ تربَّيْنا في الكتائب وعلى هذا الحياء. وأذكُرُ أنَّ أحَـدَ المستقيلين من الكتائب قال مرّةً: «الكتائبُ مقبرةٌ للطمُوح»»[١٣٠].

بدورِهِ جاءَ الانتقالُ إلى الهُجوميةِ الصارخةِ انطلاقاً من الضواحي الفقيرة كالـرمَيْل والمدوّر، ما بين المرفأ والأشرفية[١٣١]، مروراً بمُواجهـاتٍ عسكريـةٍ وأعمالِ عُنفٍ وذبـحٍ على الهُويّةِ بلغت ذرْوتَها في «السبت الأسود» الشهير، ليَرُدَّ الخوفَ عن المسيحيين للمرّةِ الأولى، ويَنْقُلَهُ، فعليّاً ورمزيّاً، إلى جبهـة «الخصم». بهذا المعنى ارتبطَتْ ولادةُ كـاريزمـا بشير الجميل التي تعاظمَتْ لاحقاً، بكونِها تتعدّى مطالبـةَ المسلمِ بمنحِ الطمـأنينةِ، كمـا كان يفعلُ والدُهُ، كما تَتَعدّى الدعوة لانتزاعِ الطمـأنينةِ أو حتى انتـزاعِها فـالانجيّاً، وهي حدودُ النظاميّةِ شِبْهِ العسكريّةِ للكتـائب حتى ١٩٧٥. فالمطـروحُ هنا، في المقـابلِ، ليسَ أقلَّ من نَقْلِ مَوْضعِ الخوفِ وتغييرِ مـوضوعِـهِ، والانطلاقِ، من ثَمَّ، نحـو مِنَصَّةِ السلطـةِ السياسيةِ[١٣٢] في بلدٍ لنْ تكونَ قُوَّتُه «في ضعفِهِ» بعدَ اليوم.

ولَئِنْ أقدَمَ بشير على تقديمِ تنازلاتٍ للسلطة إبَّانَ ضُعْفِهِ النِّسبي، كإقدامِهِ على حَلِّ «اللجان الشعبية» في ١٩٧٧[١٣٣]، فذلك لم يكُنْ غيرَ إملاءٍ فَرَضَهُ تجميعُـهُ لعناصـر القوة وأوراقِها. ففي السنة التاليةِ بدأتْ الكتائبُ نفسُها تُوصَفُ بـ «تجـاذبِ تيارَيْن» أحـدَهما لا يخـرجُ عن النِّطاقِ الكتـائبي التقليدي الـذي يُـرْمَـزُ إليـه بـأمين بيـار الجميـل، والثـاني «البشيري» المتحالف آنذاك مع الرئيس كميل شمعون، والقائـل بمبدأ «الحكـومة القـوية» مـع تشدُّدٍ في معـارضة الـرئيس اليـاس سـركيس «ومن ورائِـهِ» السـوريين[١٣٤]، وكـان التحالفُ مع شمعـون دلالةً مبكـرةً إلى تغليبِ العملِ «الشعبي» للطـائفة وسيـاسَتِها وهـو بالضرورة عملٌ متطرّفٌ، على العمل الحزبي المتمايز بطبيعته.

ففي النِّطـاقِ الماروني، وبعـد استراتيجيـةِ قَضْمٍ تَـدريجيٍّ للمـواقـعِ العسكـريّـةِ

(١٣٠) جوزيف أبو خليل، «حرب لبنان،...»، الحلقة ٥٠، في: **الحياة** ٥/٩/١٩٨٩.

(١٣١) أنظـر: بيرسي كـامب (تـرجمـة كـاتيـا سـرور)، **استـراتيجيـة بشيـر الجميـل**، الحلقـة ١، في: **السفيـر** ١٥/٣/١٩٨٣.

(١٣٢) يحمـل هذا الانتقـال على التذكيـر بالصـورة التي رسمها وليم رايـخ لرمـزية النقلـة التي تُحدِثُهـا الفاشيـة (السادية) قياساً بـالمسيحية (المـازوشية)، بحيث تحـلُّ القبضةُ العضليـة المتجهة نحـو الخارج والمؤهلـة للضرب واللكم (والتي صارت من العدّة الإعلانيّـة للحركـات النضاليـة) محلَّ الأشـواك المغروزة في جبهـة المسيح وهو على صليبه.

انظر: Wilhelm Reich, *The mass psychology of fascism*, *op. cit.*, p. 118-119.

(١٣٣) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 152.

(١٣٤) أنظر، مثلاً لا حصراً، مقابلة جريدة **الرأي العام** الكويتية مع كريم بقرادوني في ٢٥/٥/١٩٧٨.

والسيـاسيّةِ في المنـاطقِ المسيحيّةِ بـدأتْ في ١٩٧٦[١٣٥]، واجَهَ بشيـر زعامـةَ سليمان فـرنجية في عقـرِ دارِها في مـا عُرِفَ بمجـزرة ١٣ حزيـران ١٩٧٨ في إهدن، حيث قُتِـلَ النائبُ توني سليمان فرنجية وزوجَتُهُ وطفلتُهُ وبعضُ أنصارِهِ، ردّاً على مقتَـلِ جود البـايع المسؤولِ في زغرتا.

وبدوْرِها كانت معركةُ زغرتا، التي قادَها من جهة الكتـائبِ الشابُّ البشـرّاوي سمير جعجع وأحسَّ بنتيجتِها بشعورٍ كبيرٍ بالذَّنب لأنَّ موارنةً يسيلون دماءَ موارنةٍ آخـرين[١٣٦]، غنيّةً بالدلالاتِ على صعيدِ توجُّهاتِ الحزبِ الجديدة، أو التي حُمِلَ عليها.

فمن نـاحيةٍ بـاتَ توحيـدُ الطائفـة مَهمّةً مُلِحَّـةً، على أنَّ المَهَمَّةَ نفسَهـا لم تبرأ من عنـاصر تفـاوُتِها الخطيـرة. ذلك أنَّ التـوحيدَ القسـريَّ للجماعـةِ يَشي بمقدِّمَـاتِ سلـوكٍ عشائريٍّ باتَتْ تجمعُ حزبَ الكتائب، في حلَّتِه الجديدة، بزعامَةِ آل فرنجية، وسائِرِ زعـاماتِ المنـاطِقِ في خانـةٍ واحدةٍ، حيث «الأعمـالُ الثأريّـةُ في الشَّمالِ أعمـالٌ رائجـةٌ كمـا هـو معروفٌ» بحسبِ تخوفِ أمين الجميل آنذاك. وفي محاولةٍ منه لتجنّب الصراع على أرضيةٍ واحدةٍ وبذهنيةٍ واحدةٍ حـاولَ حزبُ الكتـائب، تحت تأثيـرِ ما تبقّى من نبضِـه الحزبي، أن يضعَ «لانتشاره في الشمال ضوابطَ عديدةً تلافياً لأيِّ تصادمٍ مع الحـزبيّاتِ المحليّـة، أو بالأصحّ تلافياً لأن يصبحَ هو نفسُه حزبيةً من هذه الحزبيّات»[١٣٧].

غير أنّ قسريةَ التوحيد البشيريِّ وما تتوخّاه بالضـرورة من هيمنةِ طـرفٍ على آخر، راحـا يُطلقان تنـاقضاتٍ قـديمةً ومكبـوتةً ومنـافساتٍ أهليـةً لا يبرأ من مثلِهـا أيُّ تكوينٍ عشائريٍ، كالمنافسةِ الزغرتاويةِ ـ البشراويةِ في هذه الحال[١٣٨].

من ناحيةٍ أخرى، دلّتْ عمليةُ إهدن العسكريةُ إلى أنَّ الكتائبَ في عهـدِ بشير طلَّقتْ كُلِّياً سياسةَ الإحالة إلى الدولةِ والاقتصارِ على إضعاف الزعـاماتِ المـارونيةِ لمصلحتِهـا، وشرعت تتحولُ إلى الحزب المسيحي الأوّل، إن لم يكُنِ الأوحد، المتّجهِ إلى السلطة عبـر قضمِ المـواقعِ في المجتمـع. ولمّا كـانت السلطةُ المطـروحةُ على الاستيـلاء ضعيفةً أو غائبةً، بَدَتْ الوُجهةُ البشيرية، كأنها «تخلق» الدولَة لحظةَ تستولي عليها.

غير أن الصدامَ بفرنجية ما لبثَ أن قادَ إلى الصدامِ بحلفائه السوريين الـذين زاد في مخـاوفهم حصولُ مـذبحة إهـدن في مناخِ إنشـاء دويلةِ الضـابط سعـد الحـداد في الجنوب بُعَيْدَ الاجتياحِ الإسرائيليِّ الأوّل. وباندلاعِ معارِكِ الأشرفيـة، تخوّفتْ دمشق من

(١٣٥) راجع: بيرسي كامب، **استراتيجية بشير**...، سبق الاستشهاد.

(١٣٦) حول شعور جعجع بالذنب بعد مجـزرة اهدن، أنظـر: حازم صـاغية، **مـوارنة من لبنـان**، سبق الاستشهاد، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(١٣٧) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، سبق الاستشهاد.

(١٣٨) عن العداء التقليدي الزغرتاوي ـ البشراوي، راجـع: حازم صـاغية، **مـوارنة من لبنـان**، سبق الاستشهاد. ص ١٦١ و١٦٧.

أن تكون هذه المعاركُ، بعد عمليّتِيْ إهدن والجنوب، تمهيداً إسرائيلياً لأعمال أكبر، فاتّجه الرئيسُ حافظ الأسد إلى تعزيزِ جبهتِه في البقاع الذي هـو منفذٌ على دمشق(١٣٩). أي أنَّ «الإستراتيجية» التي اتّبعها أو انساقَ إليها بشير الجميل، وجدت قنـواتِها المفتـوحةَ على معابِرِ الطرقِ الإقليميةِ والدوليةِ بما لم يتيسَّر للكتائبِ من قبل.

لكنَّ القائدَ الكتائبيَّ الشابَّ الـذي اكسبتْه «حـربُ المئة يـوم» ونجاحُـه في إخراجِ السـوريين من عمق المناطقِ الشـرقيةِ، درجـةً بعيدةً من القـوةِ والهالـةِ، لم يعبـأ كثيـراً بـالإعتبارات الـدولية التي تعمـل لغيرِ مصلحتِـه، إذ عوَّضـه عنها التحـالُفُ الصريـحُ مع إسرائيل. ففي أيلول ١٩٧٨ لم يتردَّد أحَـدُ كبار مـوظفي الإدارة الأميركيـة في القولِ إن الأميركان ميّالون إلى تحميلِ مسؤوليةِ القتـال إلى «قوى اليمين المسيحي»(١٤٠). وبينمـا راح السفيرُ الأميركي في بيروت، ريتشارد باركر، يُحَمِّـلُ «الموارنـة» مسؤوليةَ مـا يجري، كـان مبعثُ قلقِ وزير الخـارجية الأميـركي سايـروس فانس «أن يفكِّـرَ الأسدُ بـأنَّ العنفَ الموجَه نحو القواتِ السوريةِ في لبنان عقابٌ موحى به أميركياً ردّاً على رفضِه تأييـدَ كمب ديفيد»(١٤١).

خاض بشير، إذن، صداماً رأسيـاً ضد الإعتبـاراتِ الاقليميةِ والـدوليةِ التي تعمـلُ ضدَّه، بما يُجافي المقوِّماتِ المعهودةَ لُلبنَانية التقليدية، وللكتائبية أيضـاً، الشيءُ الذي لم يكُنْ من الممكنِ تخيُّلُه من دون التحالفِ مـع إسرائيـل(١٤٢)، التي زاد في تعزيـزِ وضعِها خروجُ مصرَ من ساحةِ الصـراعِ في المشرق. ومضى بشيـر في طريقِ تحـدّيه هـذا بأن وصل إلى البقاع عن طريق انتقالِ مقـاتلين كتائبيين في كـانون الأول ١٩٨٠ إلى مـدينة زحلة، ليباشرَ في مطالعِ العام التالي شقَّ طريقٍ تربطُ المدينةَ البقاعيةَ بالجبل. وكما بـاتَ معروفاً جيداً، قصفَ السوريون، الذين لم يرُقْ لهم هذا الوجودُ المعادي في البقاع، مدينةَ زحلـة بقسوةٍ وضـراوةٍ، حتى إذا أسقطَ الإسرائيليـون مـروحيَّتَيْن سـوريَّتَيْن في أواخـرِ نيسان، نقلَ الأسدُ صواريخَ «سام» إلى البقـاع بما أنتـجَ «أزمة الصـواريخ» ذاتَ البعـدِ الدولي.

وهكذا بدأتْ مهمّةُ المندوبِ الأميركي فيليب حبيب التي تحوَّلَ معها بشير إلى لاعب سياسي لا يُمكِنُ إهمالُه في حساباتِ القوى المَعْنِيّة، بحيث اعْتَبَرَ ألفرد ماضي، الذي مثَّلَ القوات في الولايات المتحدة الأميركية آنذاك، أنّ أحداثَ زحلة «ترتَّبَتْ عليها نتائـجُ بالغـةُ

(١٣٩) Patrick Seale, Asad. *The struggle for the Middle East,* I. B. Tauris, 1988, p. 312.
(١٤٠) William W. Quandt, *Camp David. Peace Keeping and politics*, The Bookings Institution. 1989, p. 217. كذلك راجع عن حرب «المئة يوم» جوزيف أبو خليل، «**حرب لبنان**...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٩، في: **الحياة** ١٩/٧/١٩٨٩.
(١٤١) William W. Quandt, *Camp David...*, *op. cit.*, p. 267 & 268.
(١٤٢) حول تطور فكرة التعاون مع إسرائيل تحت وطأة الخوف، راجع الفصل الرابع.

الخطورة بينَها تدخُّلُ إسرائيل في لبنان إيذاناً بإعادةِ النّظرِ في الخطوطِ الحُمْرِ السوريّة ـ الإسرائيلية»، و«بدايةُ تحوُّلٍ، بل بدايةُ سياسةٍ أميركيةٍ في لبنان أخذتْ واشنطن تُعِـدُّ لها خطوةً خطوةً. هذه السياسة انتهَتْ إلى دعمٍ مطلقٍ وكامـلٍ لبشير الجميـل في انتخابـاتِ رئاسةِ الجمهورية»(١٤٣). لكنّها انتهَتْ أيضاً إلى تحـوّل بشير الـذي واجه السـوريين، في الأشرفية والشمال والبقاع معاً، بطلاً مسيحيّـاً للتحرُّرِ لا من الفلسطينيين فحسب بـل من السوريين أيضاً، أيْ من «العشيرة» المُسلمةِ المقابلة، في شتَّى صِيَغِها وتَفرُّعاتِها، منظوراً إليها من عينِ «العشيرةِ» المسيحيّةِ.

في ٧ تموز من العامِ نفسِه نَفَّذ بشير ما عُرِفَ بمجزرة الصفرا، مُتَخَلِّصَاً من الأداة العسكرية لـ «حزب الوطنيين الأحرار» الشمعونية، العمليةُ التي كَلَّفَتْ بحسب الشمعونيين ١٥٠ قتيلاً(١٤٤)، والابتعادَ القَسْريَّ لداني شمعون عن العمل السيـاسي والحزبي. إلا أنّ العمليـة إيّاهـا، وإنْ خلَّفَتْ الكثيـرَ من الأحقـادِ المـارونيـة ـ المـارونيـة، أدَّتْ إلى ضَبْطِ السياسة والأمنِ معاً: فسياسيّاً تبلْوَرَتْ الزعامةُ الواحـدةُ والزعيمُ الـواحدُ اللـذان ينهجانِ خطّاً متطرفاً كان في ما مضى خطَّ الرئيس كميل شمعون من حيث التوجّهات العامة لا من حيث الوسائل والأدوات. وفي ظل الصعودِ البَشيري، الأكْفَأ والأحدَثِ، لم يُعُدْ مطلوبـاً من شمعون غيرُ الإبقاءِ على غطائِهِ التاريخي، فيما أضْحَتْ ذراعُهُ العسكريّةُ زائدةً لا لزومَ لها أو إضافة شبابية على حالة كهلة.

أما أمنيّاً وخدماتيّاً فتمَّ تأسيسُ النموذجِ الأرقى بين النماذجِ التي وفَّرَتْها دويـلاتُ الحرب اللبنانيةِ بشهادةِ الأرقام التي وَزَّعتْها «قوى الأمن الداخلي» الرسمية عن الأعمـال الجريمية والمُخِلَّةِ بالقانون مـا بين ١ كانـون الثاني و٣١ كـانون الأول ١٩٨١. ففيمـا بلغ عددُ الجرائم في المنـاطقِ التي تُسيطرُ عليهـا قوى أخـرى ٤١٦ جريمـة بَلَغَ عـددُها في مناطق «القوات» ١٥ جريمة وفيما بلغَتْ السرقـات بملايين الليـرات اللبنانيـة في المناطق الأولى ٣٥٥٠٣ سرقات، بلغَتْ في المناطق الثانية ١٢٠٢ سرقة، والمعادلـةُ نفسُها تَصـحُّ في محـاولاتِ الاغتيال وأعمـالِ التَّشليحِ والخطف والسطـو واشتباكـاتِ الشـوارع. ففي ١٩٨١، أيْ بُعَد التخلّصِ من حزب شمعون، شهدَت مناطق «القوات اللبنـانية» اشتبـاكَيْن مسلّحيْن ذهب بنتيجتهمـا ٤٧ قتيلاً و٥٤ جـريحـاً، لكنّ المنـاطق الأخـرى شهـدَتْ ٢٠٦ اشتباكات أوْدَتْ بـ ٧٢٢ شخصاً وجرحَتْ ٩٧٨(١٤٥).

(١٤٣) ألفرد ماضي، «فلسفة الطنجرة» في لبنان»، في: **الحياة** ١٧/٩/١٩٨٩.
(١٤٤) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 132.
(١٤٥) الأرقام منشورة في *Ibid.*, p. 143. بما خلّف إقراراً عاماً بتفوق النموذج القواتي واجهه خصومه بالكلام عن «القمع» و«الضبط الفاشي» للمجتمع، فيما كان أهل المناطق الغربية وعائلاتها يقصدون جونيه وبرمانا للنزهة أو السهرة أو المطعم أو السينما.

أن تكون هذه المعاركُ، بعد عمليّتيْ إهدن والجنوب، تمهيداً إسرائيلياً لأعمال أكبر، فاتّجه الرئيسُ حافظ الأسد إلى تعزيزِ جبهتِه في البقاع الذي هـو منفذٌ على دمشق(١٣٩). أي أنّ «الإستراتيجية» التي اتّبعها أو انساقَ إليها بشير الجميل، وجدت قنـواتِها المفتـوحةَ على معابرِ الطرقِ الإقليميةِ والدوليةِ بما لم يتيسّر للكتائبِ من قبل.

لكنَّ القائدَ الكتائبيَّ الشابَّ الـذي اكسبتْه «حـربُ المئة يـوم» ونجاحُـه في إخراجِ السـوريين من عمق المناطقِ الشـرقيةِ، درجـةً بعيدةً من القـوةِ والهالـةِ، لم يعبـأ كثيراً بـالإعتبارات الـدولية التي تعمـل لغيرِ مصلحتِـه، إذ عوَّضـه عنها التحـالُفُ الصريـحُ مع إسرائيل. ففي أيلول ١٩٧٨ لم يتردّد أَحَـدُ كبار مـوظفي الإدارة الأميركيـة في القولِ إن الأميركان ميّالون إلى تحميلِ مسؤوليةِ القتـال إلى «قوى اليمين المسيحي»(١٤٠). وبينما راح السفيرُ الأميركي في بيروت، ريتشارد باركر، يُحَمِّـلُ «الموارنـة» مسؤوليةَ مـا يجري، كـان مبعثُ قلقِ وزير الخـارجية الأميـركي سايـروس فانس «أن يفكِّـرَ الأسدُ بـأنَّ العنفَ الموجَه نحو القواتِ السوريةِ في لبنان عقابٌ موحى به أميركياً ردّاً على رفضِه تأييدَ كمب ديفيد»(١٤١).

خاض بشير، إذن، صداماً رأسيـاً ضد الإعتبـاراتِ الاقليميةِ والـدوليةِ التي تعمـلُ ضدَّه، بما يُجافي المقوِّماتِ المعهودةَ لِّلبنانية التقليدية، وللكتائبية أيضـاً، الشيءُ الذي لم يكُنْ من الممكنِ تخيُّلُه من دون التحالف مـع إسرائيـل(١٤٢)، التي زاد في تعزيـزِ وضعِها خروجُ مصرَ من ساحةِ الصـراعِ في المشرق. ومضى بشيـر في طريقِ تحـدّيه هـذا بأن وصل إلى البقاع عن طريق انتقالِ مقـاتلينَ كتائبيين في كـانون الأول ١٩٨٠ إلى مـدينة زحلة، ليباشرَ في مطالعِ العام التالي شقَّ طريقٍ تربطُ المدينةَ البقاعيةَ بالجبل. وكما بـاتَ معروفاً جيداً، قصفَ السوريون، الذين لم يرُقْ لهم هذا الوجودُ المعادي في البقاع، مدينةَ زحلـة بقسوةٍ وضـراوةٍ، حتى إذا أسقطَ الإسرائيليـون مـروحيَّتَيْن سـوريَّتَيْن في أواخرِ نيسان، نقلَ الأسدُ صواريخَ «سام» إلى البقـاع بما أنتـجَ «أزمة الصـواريخ» ذاتَ البعدِ الدولي.

وهكذا بدأتْ مهمّةُ المندوبِ الأميركي فيليب حبيب التي تحوَّلَ معها بشير إلى لاعب سياسي لا يُمكِنُ إهمالُه في حسابَاتِ القوى المَعْنِيّة، بحيث اعْتَبَرَ ألفرد ماضي، الذي مثَّلَ القوات في الولايات المتحدة الأميركية آنذاك، أنّ أحداثَ زحلة «ترتَّبَتْ عليها نتائـجُ بالغـة

(١٣٩) Patrick Seale, Asad. *The struggle for the Middle East*, I. B. Tauris, 1988, p. 312.

(١٤٠) William W. Quandt, *Camp David. Peace Keeping and politics*, The Bookings Institution. 1989, p. 217. كذلك راجع عن حرب «المئة يوم» جوزيف أبو خليل، «**حرب لبنان**...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٩، في: **الحياة** ١٩/٧/١٩٨٩.

(١٤١) William W. Quandt, *Camp David...*, *op. cit.*, p. 267 & 268.

(١٤٢) حول تطور فكرة التعاون مع إسرائيل تحت وطأة الخوف، راجع الفصل الرابع.

الخطورة بينَها تدخُّلُ إسرائيل في لبنان إيذاناً بإعادةِ النَّظرِ في الخطوطِ الحُمْر السوريّة ـ الإسرائيلية»، و«بدايةُ تحوُّلٍ، بل بدايةُ سياسةٍ أميركيةٍ في لبنان أخذتْ واشنطن تُعِدُّ لها خطوةً خطوةً. هذه السياسة انتهَتْ إلى دعمٍ مطلقٍ وكامـلٍ لبشير الجميـل في انتخابـاتِ رئاسةِ الجمهورية»(١٤٣). لكنّها انتهَتْ أيضاً إلى تحـوّلِ بشير الـذي واجه السـوريين، في الأشرفية والشمال والبقاع معاً، بطلاً مسيحيّـاً للتحرُّر لا من الفلسطينيين فحسب بـل من السوريين أيضاً، أيْ من «العشيرة» المُسلمةِ المقابلة، في شتَّى صِيَغِها وتَفرُّعاتِها، منظوراً إليها من عينِ «العشيرةِ» المسيحيّةِ.

في ٧ تموز من العامِ نفسه نفَّذ بشير ما عُرفَ بمجزرة الصفرا، مُتَخَلِّصاً من الأداة العسكرية لـ «حزب الوطنيين الأحرار» الشمعونية، العمليةُ التي كَلَّفَتْ بحسب الشمعونيين ١٥٠ قتيلاً(١٤٤)، والابتعادَ القَسْريَّ لداني شمعون عن العمل السيـاسي والحزبي. إلا أنّ العمليـة إيّاهـا، وإنْ خلَّفَتْ الكثيـرَ من الأحقـادِ المـارونيـة ـ المـارونيـة، أدَّتْ إلى ضَبْطِ السياسة والأمنِ معاً: فسياسيّاً تبلْوَرَتْ الزعامةُ الواحـدةُ والزعيمُ الـواحدُ اللـذان ينهجانِ خطّاً متطرفاً كان في ما مضى خطَّ الرئيس كميل شمعون من حيث التوجّهات العامة لا من حيث الوسائل والأدوات. وفي ظل الصعودِ البَشيري، الأكْفَأ والأحدَث، لم يُعُدْ مطلوبـاً من شمعون غيرُ الإبقاءِ على غطائِهِ التاريخي، فيما أضْحَتْ ذراعُهُ العسكريّةُ زائدةً لا لزومَ لها أو إضافة شبابية على حالة كهلة.

أما أمنياً وخدماتياً فتمَّ تأسيسُ النموذجِ الأرقى بين النماذجِ التي وفَرَّتْها دويـلاتُ الحربِ اللبنانية بشهادةِ الأرقامِ التي وَزَّعتْها «قوى الأمن الداخلي» الرسمية عن الأعمـال الجرَيمية والمُخِلَّة بالقانون مـا بين ١ كانـون الثاني و٣١ كـانون الأول ١٩٨١. ففيمـا بلغ عددُ الجرائم في المنـاطقِ التي تُسيطرُ عليهـا قوى أخـرى ٤١٦ جريمـة بَلَغَ عـددُها في مناطق «القوات» ١٥ جريمة وفيما بلغَتْ السرقـات بملايين الليـرات اللبنانيـة في المناطق الأولى ٣٥٥٠٣ سرقات، بلغَتْ في المناطق الثانية ١٢٠٢ سرقة، والمعادلـةُ نفسُها تَصـحُّ في محـاولاتِ الاغتيال وأعمـالِ التَّشليحِ والخطف والسطـو واشتباكـاتِ الشـوارع. ففي ١٩٨١، أيْ بعد التخلّصِ من حزب شمعون، شهدَت مناطق «القوات اللبنـانية» اشتبـاكَيْن مسلّحيْن ذهب بنتيجتهمـا ٤٧ قتيلاً و٥٤ جـريحـاً، لكنّ المنـاطق الأخـرى شهـدَتْ ٢٠٦ اشتباكات أوْدَتْ بـ ٧٢٢ شخصاً وجرحَتْ ٩٧٨(١٤٥).

(١٤٣) الفرد ماضي، «فلسفة الطنجرة» في لبنان»، في: **الحياة** ١٧/٩/١٩٨٩.

(١٤٤) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 132.

(١٤٥) الأرقام منشورة في *Ibid.*, p. 143. بما خلّف إقراراً عاماً بتفوق النموذج القواتي واجهه خصومه بالكلام عن «القمع» و«الضبط الفاشي» للمجتمع، فيما كان أهل المناطق الغربية وعائلاتها يقصدون جونيه وبرمانا للنزهة أو السهرة أو المطعم أو السينما.

مهَّدَتْ هذه التحوّلاتُ لظهورِ لغةٍ كتائبية أخرى لا يتعفَّفُ صاحبُها عن استعراضِ كاملِ قِواهُ وقُدراتِهِ. ففي ١٩٨٠ وفي الذكرى الرابعة والأربعين لتأسيس الحزب، كان بشير نجمَ العديدِ من المهرجاناتِ مُتحدِّثاً في أحدها عن أنَّ المسيحيين «قِدِّيسو هذا الشرق وشياطينُهُ»، وفي آخر عن أنَّهُ «إذا كانت الدولةُ اللبنانيةُ لم تستطعْ أنْ تَخْلُقَ جيشاً، فهؤلاء الشبّان هم جيشُ لبنان»، وفي ثالث عن ظهور قضيةٍ للبنان لا تتمثّلُ في «الدفاع عن الاحتلال الفلسطيني [...] والمرحلةُ التاريخيّةُ تُحَتِّمُ إعلانَ المُسلمين عن قرارٍ صريح»(١٤٦).

وتعبيراً عن هذا الضجيج البشيري المتصاعد، وردّاً عليه، وعلى تداولِ فكرةِ «دور الكتائب في أيِّ حلٍّ وأيَّةِ صيغةٍ»، كتبَتْ جريدةُ «السفير» آنذاك تَعْكِسُ أجواءً إسلاميةً وسوريّةً، يساريةً وفلسطينيةً مهجوسةً بالنَّجْمِ الخطيرِ الصَّاعد: «إنَّ حزب الكتائب، ممثَّلاً مرّةً جديدةً ببشير الجميل، ما زال يُمْسِك بِصَمَّامِ الخطر، يتحدث إلى رئيس الجمهورية من موقع الآمر، ويتوجّهُ إلى المسلمين من موقع الناهي والمحذِّر، ويحدِّدُ للشرعية خطَّ تحرُّكِها أو شروطَهُ للحلّ، ويَرْهِنُ مصيرَ الوطن بمصيرِهِ ويُنَصِّبُ نفسَهُ راعياً لكلّ الأقليّات في الشرق»(١٤٧).

ولمّا كانَتْ الكلمةُ الأولى للحزب الأول، وهو هنا إلى حدٍّ بعيد الحزب الأوحدِ، انطلَقَ بشير من كلِّ هذا الذي راكمَهُ، انطلاقَهُ ممَّا اخْتَزَلَهُ واستَبْعَدَهُ، إلى تحقيقِ طموحِهِ السياسي في بلوغِ رئاسةِ الجمهوريةِ، فكان ارتدادُهُ نحوَ سياسةٍ أشد اعتدالاً في الموقفِ من الدولةِ ورئيسِ الجمهوريةِ الياس سركيس، وذلكِ بعد خلافاتٍ سياسيةٍ ونزاعاتٍ ميدانيةٍ عدة. فقد سبق لبشير مثلاً أنْ عارض قمَّة تونس العربية في ٢٣/١١/١٩٧٩ ومقرَّراتِها القاضيةِ بتنفيذِ مقرَّراتِ قِمَّتي الرياض والقاهرة»(١٤٨). وبعد أقلِّ من سنةٍ حصلَتْ اشتباكاتٌ بين «القوات» والجيش في عين الرمانة أدَّتْ إلى انسحابِ الثاني من بعض مواقعِهِ. ذلك أنَّ بشير، وبحسب صياغةٍ قواتيةٍ لاحقةٍ لخلافِهِ مع سركيس، لم يكُنْ يتحمل «الرجلَ الساكتَ الذي يُجَدِّدُ لـ «قوّاتِ الردعِ العربيةِ» لتُجَدِّدَ قَصْفَها على المسيحيين»(١٤٩).

لقد بدأ سركيس، اليائِسُ بدورِهِ من عدم تجاوب السوريين، يتعاملُ مع بشير تعاملَ

(١٤٦) أنظر الصحف اللبنانية في ٢٢ و٢٣ و٢٤/١١/١٩٨٠.
(١٤٧) **السفير** ٢٤/١١/١٩٨٠.
(١٤٨) ففي ٢٤ تشرين الثاني، مثلاً، خطب بشير في مأدبة عشاء أقامها إقليم كسروان الفتوح في ذكرى تأسيس الكتائب ورأى أنَّ قمة تونس «كرّست الاحتلال السوري ـ الفلسطيني» وحذّر العرب وأميركا من أنَّ «إرهابنا سيكون أقوى» رافضاً «المال العربي للتعمير». الصحف في ٢٥/١١/١٩٧٩.
(١٤٩) أنظر مقالة إيلي الحاج في مجلّة **المسيرة** ١٩/٩/١٩٨٧.

أمر واقعٍ بوصفِهِ يمثّلُ «وحدَهُ» مسيحيي بيروت والجبل، وبلغَ التعاونُ ذروَتَهُ في آب ١٩٨١ مع الاتفاقِ اللبناني ـ السوري ـ السعودي ـ الكويتي لترتيبِ انسحاب سوري من لبنان وإنهاءِ العلاقةِ بإسرائيل(١٥٠) الذي اعتُبِرَ بدايةَ انطلاقةٍ نحو «بديلٍ» أميركي - سعودي محتمَلٍ وظهورِ فرص حوارٍ مع بشير(١٥١).

تعدّتْ العلاقةُ بين القائدِ الكتائبي الشابّ ورئيسِ الجمهورية الشهابي التنسيقَ السياسيَّ في خطوطِهِ العريضةِ إلى التنسيقِ الأمني والجهازي حيث كانَ جوني عبده، رئيسُ الشعبة الثانية آنذاك همزة الوصْلِ العملانية(١٥٢)، ولا يكتُمُ كريم بقرادوني على مدى صفحاتِ كتابِهِ الذي أرَّخَ، بطريقتِهِ، لعهد سركيس، وجودَ ما يشبِهُ الغرفةَ السوداءَ طوال الثّلث الثالِث من العهد المذكور تُناقشُ كلَّ كبيرةٍ وصغيرةٍ ضمنَ فريقَيْ عملٍ متكاملَيْن.

هنا بدا أنَّ العروبةَ المضادة بدأت تقترب من منصّةِ دولةٍ ذوى مُجْتَمَعُها.

(١٥٠) يبقى المرجع الأفضل عن هذه المرحلة وما سبقها وتلاها: كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد.
(١٥١) بحسب كريم بقرادوني كانت النتيجتان الأهم لزيارة بشير إلى واشنطن في ١٩٨١ «أوّلاً: إعتراف أميركي للكتائب في حلّ أزمة لبنان، ثانياً: ضمانة أميركية في تأمين مصلحة لبنان من خلال أي حل لأزمة الشرق الأوسط، **العمل** ١٦/٨/١٩٨١.
(١٥٢) أنظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

الفصل الخامس

الانتفاضة

ثمَّ النموذجُ الذي أنشأهُ بشير الجميل ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٢، معطوفاً على تجربتِهِ السياسية حتى مصرعه، عن نزعةٍ ثوريةٍ[١] لم تَعْدِمْ واصفيها وشارحيها، مِمَّنْ كان المحامي كريم بقرادوني أبرزَهُم وأشدَّهم طلاقةً.

وفي الإمكانِ تلخيصُ هذه النزعةِ وتعبيراتِها، التي يمكنُ الوقوعُ على مثيلاتِها في سائرِ حركاتِ التحررِ الوطني والقوى التي تجمَعُ الإحتقانَ إلى التخلُّفِ، في السِّمات الآتية:

□ الرؤيويةُ التي لا تَتَّجِهُ إلى لحظةِ استقرار لأن وَعْدَها الخلاصيَّ عنفيٌّ بالضرورةِ يتمُّ البلوغُ إليه من طريقِ الاصطدامِ بالمعطياتِ المحليةِ والاقليميةِ والدوليةِ، فيما «الحركةُ» عندها هي ما يقودُ إلى المعنى السياسي ويُشَكِّلُه. فبشير، في عُرْفِ بقرادوني، ليس صانعَ حرب فقط بل صانعُ ثورة، علماً أنَّ الحروبَ الجيِّدةَ هي التي تَجِدُ تتويجَها وتكامُلَها في الثورات[٢].

وفي مقابلِ الضمنيةِ الخَفِرَةِ لِلُغةِ الميثاقيةِ التعاقديةِ، حلَّتْ علنيَّةٌ مبالغٌ فيها في الإفصاحِ عن الوجودِ الطائفيِّ وحروبهِ الأقربِ إلى القُدْسيةِ، ذلك أنَّ «الذين قرأوا عن ثورةِ الـ ٥٨ لم يعتبروها حرباً مع أنّها كانت حرباً. كانوا يقولون: «حوادث الـ ٥٨». بشير الجميل قال عن أحداثِ الـ ٧٥ «حرب السنتين» وبعدها «حرب الـ ١٠٠ يوم»[٣].

ومع رحيلِ بشير، ومِنْ وَحْيِهِ، مضى بقرادوني في تطويرِ هذه النظريةِ الدامجةِ للحروبِ والثوراتِ: «لماذا طالتِ المشكلةُ في لبنان؟ لأنّنا نقومُ بحروبٍ وليس بثورات. وما دُمْنا لا نُترجمُ حربَنا إلى ثورةٍ فستبقى الحروب مستمرة»[٤].

وفي تقييمٍ لاحق، وموفَّقٍ في تعبيرهِ عن رؤيويةِ بشير وجدودِها اللاعقلانية، يذهب

(١) يستعمل تعبير «ثورية» هنا من غير أيِّ قصد امتداحي. فالمقصود، على العكس تماماً، تلك النزعة إلى اخلال بعملِ المجتمع ومؤسساته وفرض صورة ذهنية على الواقع في نحو قسري وتعسفي.

(٢) انظر مقال بقرادوني في **العمل**، العدد السنوي ٢٨/١١/١٩٨٢.

(٣) انظر محاضرة بقرادوني التي نشرتها **العمل** ٢٢/٤/١٩٨٣.

(٤) من مقابلة احمد عيّاش معه في **الكفاح العربي** ١٤/٥/١٩٨٤.

بقرادوني إلى القول إنَّ الأخيرَ لو بقِيَ ومارسَ الحكمَ لكان من الممكنِ أن يقودَ البلدَ «إلى حالٍ من الاستقرارِ والهدوءِ التامِّ والبحبوحة، وكان بالإمكانِ أيضاً أن لا يبقى حجرٌ على حجر»(٥).

□ عسكرةُ المجتمعِ اللبنانيِّ، مع ما يعنيه ذلك ضمناً من تعديلٍ في تركيبِ الإقتصادِ الوطنيِّ في غيرِ مصلحةِ الخدماتِ والترانزيت، مع إشاعة قيمٍ أخلاقيةٍ صارمةٍ لا عهدَ للرخاوةِ اللبنانية المدينِية بها. فالفهمُ البشيري للأمنِ يعني «تحريرَ الأرض وقيامَ جيشٍ قادرٍ يضمُّ مئةً وخمسين ألفِ مقاتل»(٦). وفي تقييمٍ لاحقٍ للتاريخ اللبناني الحديث يجلو هذه الفكرة، يتحدَّثُ بقرادوني عن ارتكابِ «غلطةٍ كبيرةٍ» عام ١٩٤٣ «هي وضعُ نظريةِ قوةِ لبنانَ في ضعفِه». ذلك أننا، بحسبِ الشارحِ، «نعيش في عالمٍ لا يؤمِنُ إلا بالقُوّة، خصوصاً في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ حيثُ تصادمُ القوى والحروبُ المستمرة. نتيجةَ هذه النظرية بقي الجيشُ ضعيفاً ومحدوداً. لم يُنَفَّذِ التجنيدُ الإجباريُّ ولم تتعاطَ الأجهزةُ الأمنيةُ أدواتٍ للحُكم»(٧).

تتكاملُ هذه العسكرةُ مع تعقيمِ الإدارةِ لإنجابِ الموظَّفِ النزيهِ الكُفْءِ، موضوعِ التغنّي الدائمِ لكلِّ نزعةٍ شعبوية(٨). ولم يَكُفَّ بقرادوني، المُنَظِّرُ الذي انتقلَ إلى صفِّ بشير بعد الوقوفِ طويلاً ضدَّه في الحزب، عن التغنّي بأنّ فارسَهُ «حرَّكَ الإدارةَ بِخِطاب، وكاد أنْ يُعَبِّرَ الذهنيةَ الإداريةَ في أقلِّ من شهر. كان يريدُ إدارةً نظيفةً حيث الرشوةُ توازي جريمةَ القتلِ وكان يريدُ إدارةً شابّة». أمّا «حلمُه الأكبرُ» فإنشاءُ «قياداتٍ وكادراتٍ جديدةٍ تُنقِذُ لبنانَ من الرتابةِ والتقليدِ والعفونةِ وتشدُّ به إلى النجاحِ والتفوُّقِ واللَّمَعان»(٩).

□ استيلادُ فكرةِ «الزعيم» المنقذِ التي لا سابقَ لها في التجربةِ السياسيةِ اللبنانية خارجَ الحالةِ الإنقلابيّة التي مثّلها السوريون القوميون. والراهنُ أنّ هذه الفكرة ظلّتْ على الدوامِ عربيةً تَفِدُ إلى لبنانَ وفادةَ استفزازٍ وتحريكٍ للحساسيّاتِ الأهليةِ فتدفعُ المسيحيين، في صورةٍ عابرةٍ ومؤقّتةٍ، إلى خلقِ زعيمٍ معبودٍ لهم (شمعون مقابلَ عبد الناصر كأوضحِ الأمثلة).

انطوى هذا الإستيلادُ على الإستعاضةِ عن قوةِ النظامِ الناجمةِ عن قوةِ عنصرِهِ التسْوَوِي (بما في ذلك من مظاهرِ ضعفٍ، طبعاً وتعريفاً، بقوةِ الشخصِ الكفيلِ بكبْحِ

(٥) من مقابلة نقولا صيقلي معه في **الصياد** ١٩٨٥/٥/٨.
(٦) **العمل**، العدد السنوي ١٩٨٢/١١/٢٨.
(٧) من مقابلة معه اجرتها **النهار العربي والدولي** ١٩٨٥/٧/١٤.
(٨) راجع Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 119.
(٩) انظر مقال بقرادوني في **العمل**، العدد السنوي، ١٩٨٢/١١/٢٨.

علاماتِ الضعفِ والتناقضِ(١٠). ذلك أنَّ «النظامَ السياسيَّ بعد بشير الجميل لا يمكنُ أنْ يكون مثلَ النظامِ السياسيِّ الذي كان قبلَ بشير الجميل. في خلال ٢٠ يوماً، وفي محاضرةٍ في التلفزيون، استطاعَ أن يغيِّرَ ذهنيةَ دولةٍ بكامِلِها»(١١).

وبالخِفّةِ نفسِها التي تحتَسبُ التاريخَ وأحداثَه الجسامَ بالأيّام، يتحدَّثُ بقرادوني عن بعضِ الكيفيّاتِ «السياسيةِ» المحكومةِ بمزاجٍ يكادُ يكون اعتباطياً، والتي كان سيتَّبِعُها بشير ـ الرئيس: «وليد جنبلاط وكلُّ اشتراكياتِه لا يتعاونُ معهم. المرابطون لا يتعاونُ معهم. «أمل» كان متردداً لكنّه كان يفضِّلُ كثيراً كامل الأسعد والمجلسَ الشيعيَّ الأعلى»(١٢).

هذا التصوُّرُ الزعاميُّ لم يغِبْ عن «القوات اللبنانية المُوَحَّدَة» منذ نشأتِها حيث تمَّ التجديدُ لبشير قائداً بالإجماعِ واستمرَّ التقليدُ معه(١٣)، ليصيرَ بعدَه عُرْفاً مكرَّساً، حيث جُدِّدَ لفادي افرام بـ ٧ أصواتٍ وورقةٍ بيضاء(١٤)، وانتُخِبَ فؤاد أبو ناصر بـ ٧ أصواتٍ وورقةٍ بيضاء أيضاً(١٥)، من دون أنْ تتوافرَ لهما بالضرورة مواصَفاتُ بشير الذاتيةُ والشروطُ الموضوعيةُ التي أحاطتْ بصُعودِه، فيما كان البديلُ الأوحدُ لهذا الإجماعِ قيامَ «الإنتفاضاتِ»، كما سنرى لاحقاً.

□ دفعُ اللبنانيةِ إلى سَويةٍ قوميةٍ، ودفعُ المسيحيةِ من داخِلها إلى سويةٍ محوريّةٍ ناتئةٍ وضاغطة، وهما، طبعاً، مُهمّتان متناقضتان في آخر الأمر. فقد كان على بشير، تِبعاً لشارحِه، «أن يخلقَ دولةً لبنانيةً على ١٠٤٥٢ كلم مربّعاً لكلِّ اللبنانيين [...] ولكنْ إلى جانبِ هذه الدولةِ، وداخلَ هذه الدولة، يخلقُ وطناً مسيحياً تعبيراً عن أنَّ الوجودَ المسيحيَّ في هذا الشرقِ يجب أنْ يستمرَّ. ولم يخجلْ من ذلك»، نافياً أن يكون هذا الوطن «وطناً قومياً مسيحياً»(١٦). ومن نافلِ القولِ أنّ هذا التصوُّرَ يُبقي علاقةَ المواطنِ بالدولة، وتالياً بالوطن، علاقةً ملتَبسةً لا يفوقُها إلتباساً إلّا الصِّيَغُ التفصيليةُ والتنظيميةُ الناجمةُ عن التصوُّر المذكور: عملُ الدولة، عملُ الأجهزةِ ودرجةُ وَحدتِها ونشاطها المُتوازي إلخ...

وغنيٌّ عن القول إنَّ رصَّ ولحمَ أيِّ طائفةٍ كبرى، ومن ثَمَّ إطلاقَ حالتِها إلى مَداها الأقصى، تُخلُّ تعريفاً بالتركيبِ اللبنانيِّ التقليديِّ وحساسياتِه، حيث جعلت الصيغةَ «لا

(١٠) في سبيل ملامح صورة بشير «الرئيس القوي»، أنظر محاضرة بقرادوني في **العمل** ١٩٨٣/٣/٢٢.
(١١) المرجع السابق.
(١٢) المرجع السابق.
(١٣) انظر، مثلاً، صحف في ١٩٧٨/١١/٢٨.
(١٤) صحف ١٩٨٣/٩/٢٠.
(١٥) صحف ١٩٨٤/١٠/١٠.
(١٦) محاضرة بقرادوني في **العمل** ١٩٨٣/٤/٢٢.

تحتملُ اتِّحادَ طائفةٍ من الطوائفِ الكبرى، لا على الدولةِ ولا معها»[١٧].

□ رفعُ السياسةِ ولغتِها إلى مَصافِ «القضايا» المصيريةِ التي تجانِبُ «الصغائر» والعادياتِ والتسوياتِ واللعب مما تُوْصَفُ به السياسةُ البرلمانية عادةً. فللمرّةِ الأولى، تبعاً لبقرادوني، «استطاعَ بشير الجميل أن يُحوِّلَ النظامَ السياسيَّ اللبنانيَّ القائمَ على التسويةِ إلى نظامِ سياسيّ قائم على القضيّةِ. فلقد أصبح النظامُ السياسيُّ أداةً لخدمةِ القضيّة»[١٨]. ومن قَبيلِ الولعِ بالقضايا ورَذْلِ التسويات، يُصار إلى تصعيدِ النبرةِ الشعبويةِ ضدَّ السياسيين، والتركيزِ على مفاهيمِ «الشعب» و«الجيلِ الجديد» وتقديسِ «الشهادةِ» بصفتِها شعاراتٍ مطلقة. فحين يُشيرُ الشارحُ إلى المتغيِّراتِ التي أدخلَها بشير الجميل إلى النظامِ السياسيِّ اللبنانيِّ، يرى أنّه «انتصرَ بواسطةِ الشعبِ ومن دون السياسيين، وخلقَ شعبياً مباشراً [...] أهمُّ شيءٍ عَمِلَه بشير الجميل هو خلقُ مسؤوليةِ جيل. هذا الجيلُ تسلَّمَ المسؤولياتِ على الأرض. جيلُ بشير الجميل صارَ عنده وعيٌ، ومؤسَّسةُ أمانةٍ حملَها هي أمانةُ الشَهيد»[١٩].

تَنْبَني من هذه التصوراتِ والقيمِ خرافيةٌ ثوريةٌ لا تكتمُ بَرَمَها بالمنطقِ الشرعيِّ التدريجيِّ الذي يَسُودُ عملَ الدولةِ والمؤسَّسات. فالقواتُ اللبنانيةُ التي نشأتْ «كمقاومةٍ [...] تعوَّدت على منطقِ الثورةِ المناقضِ جوهرياً لمنطقِ الدولة [...] إنّها تُعبِّرُ عن نزعةِ الشباب والتغيير في المجتمعِ المسيحي، وإنّها تيّارٌ نشأ بعد ١٩٧٥، فهي الإبنُ الشرعيُّ لهذه الحرب»[٢٠].

بدورها لم تَكُنْ «نزعةُ الشباب» مجرَّدَ كلمةٍ لا مُسْتَنَدَ لها في الواقعِ المادِّي. فمع وصول بشير الجميل إلى الرئاسة في ١٩٨٢، في مناخِ الإجتياحِ الإسرائيليِّ للبنان، بدا أنّ التغييرَ المطروحَ يتجاوزُ تعديلَ النظامِ الطائفيِّ وميزانَه في صورةٍ كاسحة، إلى مسألةِ الأجيالِ والتركيبِ العُمْريّ لرُموزِ النُخْبةِ السياسيةِ اللبنانية. فبشير كان عمرُه آنذاك ٣٤ سنة، أما القادةُ الذين خلَّفهم على رأسِ القواتِ كفادي افرام وفؤاد أبو ناضر وإيلي حبيقة وسمير جعجع فكانَ أكبرُهم في الثلاثين من عمره.

وكان هذا الجيلُ القياديُّ الذي فتح عينَيْه على «السياسة»، مع الحرب ومنها، يحملُ مجافاةً للبنانِ التقليديِّ كما عهدناه بثوابتِه ومقوِّماته ومعادلاتِه، كما يعبِّرُ عن نكوصِ الزعامةِ المارونيةِ المُجرَّبةِ والمدينيةِ والأكثرِ تعلُّماً. أبعدُ من ذلك أنّ صعودَ الجيلِ المذكورِ شكَّلَ طعنةً لفكرةِ الحزبِ ولواقعِ الكتائبِ في آنٍ معاً، بردِّهما عملاً وممارسةً، إلى مجرَّدِ

(١٧) احمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ١٣٥.
(١٨) محاضرة بقرادوني في **العمل** ١٩٨٣/٤/٢٢.
(١٩) المرجع السابق.
(٢٠) من مقابلة مع بقرادوني اجرتها **النهار العربي والدولي** ١٩٨٤/٣/٢٥.

حالِ حربيةٍ تعبويةٍ لا تنفصلُ عن «المجتمعِ العسكريِّ» الذي شاركتْ سائرُ الطوائفِ المسلَّحةِ في بنائه وتعزيزه.

ولم يُخْفِ أمين الجميل، في استعراضِه اللاحقِ لمصادرِ خلافه مع شقيقِه الأصغر، مشكلةَ الأجيالِ هذه، لا من حيثُ اقتصارُها على الأعمار، بل أيضاً من حيث مضامينُها في التجاربِ السياسية. فالفوارقُ، بحسبِ أمين، «عديدةٌ بيْني وبيْن بشير. فارقُ السِّنِّ أوّلاً ويبلغُ ستَّ سنوات، وهذا يعني أنّها ستُّ سنواتٍ من عمرِ لبنانَ أيْضاً [...] إن جيلي هو جيلُ مُخَضْرَمٍ إن جازَ القول. يعني أنني تتلمذتُ في السياسةِ على يدِ سياسيين وبعضُهم كان من طينةِ الأقْطاب [...] في المقابلِ يُعتبرُ أخي بشير من جيلِ الحربِ وإن كان قد وُلِدَ قبلَها. وهو في الحقيقةِ لم تنفتحْ عيناه على الحياةِ إلا ولبنان قد ضَيَّعَ هدوءه وتوازُنَه في مَهَبِّ العاصفة، والتشنُّجُ السياسيُّ والطائفيُّ في أوْجِه. ثم أنا نائبٌ منذ العام ١٩٧٠»[٢١].

المحاور الانقلابية

كان لا بُدَّ، تبعاً للمقدماتِ المذكورة، أنْ تنطويَ علاقةُ بشير بـ «الدولة»، فكرةً وواقعاً، على تناقضاتٍ والتباساتٍ سبقَ الإلماحُ إلى بعضِها، مصدرُها إزدواجُ التمثيلِ والوجهةِ على غيرِ صعيد. وإذا ما صدَّقْنا صحيفةَ «العمل»، فهذه التناقضاتُ والإلتباساتُ لم تكُنْ غائبةً عن همومِه، إذْ كان أوَّلُ سؤالٍ طرحَه بعد أن صارَ رئيساً منتخباً، «على نفسِه وعلى رفاقِه وأركانِ حزبِه، وفي أوّلِ يومٍ من رئاستِه القصيرة: ماذا عن «القواتِ اللبنانية» في الوضعِ الجديد؟ لكنه «استشهد [...] قبل أن يكتشفَ الحل»[٢٢].

قبل ذلك وُجِدتْ حلولٌ عمليةٌ للمشاكلِ المُلِحّةِ كان لا بُدَّ أنْ تُساهِمَ كلُّها في إضعافِ الدولةِ، والنُمُوِّ وظيفياً على حسابِ أدائها لوظائفِها. من ذلك مثلاً أنَّ تحصيلَ الضرائبِ في المناطقِ الشرقيةِ لتمويلِ آلةِ الحرب، وجهودَ التطويعِ في «القواتِ اللبنانية»، كانت «تستدعي بالتعريفِ بُنْيَةً شرعيةً بديلةً لتلك التي تملكُها الحكومةُ المركزية»، فيما كانت إحدى «عاداتِ» القواتِ «تجاهُلَ أو تجاوُزَ سلطةِ الجيشِ اللبنانيِّ حينما يبدو أنَّ هذين التجاهلَ والتجاوزَ يخدمان أغراضَها»[٢٣].

وتقْضي الأمانةُ الإشارةَ إلى الكفاءةِ الملحوظةِ في أداءِ هذه الوظائفِ مُجْتَمِعةً[٢٤]،

(٢١) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، في **الحياة** ١٩٩٠/١٢/١٥.
(٢٢) «من حصاد الأيّام»، **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٣.
(٢٣) Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 139.
(٢٤) انظر، مثلاً لا حصراً، عن النظام الضريبي وكيفية تحصيل الموارد، *Ibid.*, p. 140.

حيثُ أثْمَرَ التوحيدُ السياسيُّ القَسْريُّ كما أثّرَ استخدامُ الكفاءاتِ المدنيّةِ التي راكمتْها الجماعاتُ الأهليةُ المسيحيةُ على نطاقٍ واسعٍ منذ عقودٍ خلتْ من السنين. بَيْدَ أنَّ النجاحَ نفسَه عزَّزَ الفكرةَ التقسيميّة، الشعبيةَ أصلاً بين القطاعاتِ المسيحيةِ الشابةِ والمُهَجَّرة: فالدولةُ التسوَويةُ، بحسب القناعاتِ الجديدةِ على ضوءِ هذا النجاح، لا بُدَّ أن تتخلَّفَ بنتيجةِ الشراكةِ مع المسلمين ممَّن يردُّون أداءها إلى الوراءِ، بدَلالةِ أنَّ «دولةَ» القواتِ المقتصرةَ على المسيحيين ذاتُ أداءٍ أشَدُّ تقدُّماً من دويلاتِ الآخرين بما لا يُقاس[٢٥].

لم تعدَمْ هذه القناعاتُ أشكالاً تصوغُها وتنظِّمُها وتعيدُ إنتاجَها، فيما هي تلعبُ دورَها الخَدَماتيَّ الأصْليَّ في الصُّلْبِ الاجتماعي. فلئن حاولتِ «القوات» تطويرَ «سياسةٍ خارجيةٍ» وصلةً بالمغتربين اللبنانيين[٢٦]، معتمدةً، منذ ١٩٧٦، في دفاعِها على إسرائيل، أكان على شكلِ معوناتٍ عسكريةٍ وذخائرَ أم تدريبات[٢٧]، فإن المثيرَ للقلق، خصوصاً، تمثَّلَ في محاولةِ تكييفِ المجتمع من خلال إنشاءِ «لجانٍ شعبية» بلغ عددها في ١٩٨٢، ١٢٢ لجنةً تولَّت إدارةَ وربطَ القاعدةِ بالقيادة[٢٨].

ذلك أنَّ هذه اللجان مثّلت، عند أحَدِ دارسي «القوات اللبنانية»، احتمالَ «إقامة بنيةٍ سياسيةٍ بديلةٍ قد تنطوي على تجاوز الولاءاتِ القديمة»[٢٩] في المجتمعِ والنظامِ السياسيِّ اللبنانيَّيْن. غير أن الحلَّ الذي «لم يكتشفْه بشير «كما قال كاتبُ افتتاحيةِ «العمل»، بدا شديدَ الوضوحِ لشارحِه الآخرِ الذي نسبَ إليه لوْناً من المزجِ بين الدولةِ و«القوات». فالحلُّ كان عند بشير واضحاً. فهو أصبحَ السلطةَ وكان يريدُ أن يُحَوِّلَ القواتِ أداةً من أدواتِ السلطةِ في السياسةِ والإدارةِ والعسكر، وأنْ يحاولَ الدمجَ بين القواتِ والدولة. كان يُريدُ أن يُدخِلَ العسكرَ في الجيشِ وتكونَ القواتُ الخميرةَ في كلِّ الأجهزةِ العسكريةِ والسياسيةِ والمدنية»[٣٠].

(٢٥) من أجل نظرة إجمالية على سائر الخدمات العامة التي باتت تقدمها القوات، *Ibid.*, p. 141-144.

(٢٦) *Ibid.*, p. 145.

(٢٧) *Ibid.*, p. 146.

وقد زاد عدد مقاتلي «القوات» ثلاثة أضعاف بين ١٩٧٦ و١٩٨١: من ٤ إلى حوالى ١٢ ألف مقاتل، وشملت القدرة على التعبئة حوالى ١٥ ألف احتياطي. أبعد من ذلك أنَّ تركيبَها ونوعَ قدراتها العسكرية ونوع الحروب «التحريرية» التي أعدّت نفسها لخوضها على نطاق وطني وبناءها جيشها الحديث، كلها كانت علامات تنذر بالخطر، *Ibid.*, p. 133-137.

(٢٨) انظر *Ibid.*, p. 147. من أجل وظائف اللجان *Ibid.*, p. 150-151.

(٢٩) *Ibid.*, p. 147. ويعتبر سنايدر أنّ «القوات» لا تكمن قوتها في المليشيا، بل «في بُنْيتها التنظيمية وفعالية برامجها الإجتماعية وقدرتها على تعبئة السكان» p. 118 ممّا يطرح مرة أخرى، ولو على نطاقٍ أضيق بكثير، ما أثارته النازية والصهيونية القومية ـ الدينية من جمع بين مقدمات خرافية ودموية واستخدام حديث للآلة والتنظيم.

(٣٠) من مقابلة أجرتها مجلة **المسيرة** مع بقرادوني في ١٩٨٦/١٠/١١. وبهذا المعنى كتب أحد القواتيين: «مع انتخاب الشيخ بشير رئيساً كانت جدلية العلاقة بين الحكم القانوني والدستوري والحكم الشعبي انتهت إلى دمجهما في حكم واحد [...] ولم تكن مشكلة كبيرة على الشيخ بشير، في أيّ حال، أن يجعل القوات فرقة

وفي الصورة التي جلاها بقرادوني لقائده، بدا «خطُّ» بشير «عكْسَ» صيغة ١٩٤٣[٣١]، ومن عناصر هذه المعاكسة أن الدولةَ لا تنهضُ على وفاقٍ وتسوياتٍ بل على مقاومة، وبهذا فإن لقاءَ «المقاومتيْن» المسيحيةِ والشيعيةِ هو ما يضعُ الإستقلالَ بعيداً عن التَسْويةِ[٣٢]. وعلى ضوءِ هذا النهجِ يُعادُ تَدْويرُ سائرِ المحاورِ وتياراتِ الأحداثِ اللبنانيةِ بما يُلْغي خصوصياتِها ويُعيدُ إدْراجَها في «المقاومة»، بحيث تصبح صِداماتُ «أمل» والفلسطينيين التي سبقتِ الاجتياحَ الإسرائيليَّ «استمراراً للإنتفاضةِ اللبنانيةِ في العامِ ١٩٧٥»[٣٣].

كان من الواضحِ أنَّ الميْلَ الانقلابيَّ لـ«القوات» يتَّجهُ إلى معاقبةِ الطائفةِ السنيةِ ليس لأنها انجذبتْ وراءَ الفلسطينيين، عاطفياً وسياسياً، في ١٩٧٥، ولا للنقصِ في وعيها اللبنانيِّ، بل أيضاً لأنها امتنعتْ في قطاعاتِها العريضةِ عن المشاركةِ الميدانيةِ في الحربِ الأهليةِ ـ الإقليميةِ بما أظهرَها في مظهرِ الطائفةِ المحافظةِ والتقليدية[٣٤].

وإذا ما بدتْ هذه المُعَاقَبَةُ علامةَ مجافاةٍ للصيغة، خصوصاً أنّ السنّةَ هم الوسيطُ المباشرُ لـ«وجه لبنان العربي»، فذلك ما لم ينفصلْ عن تحولٍ عميقٍ بدأ يُسَجِّلُهُ الوضعُ العربيُّ في تلك الحقبة. فالمركزُ السنّيُّ العربيُّ الأوّلُ (القاهرة) أبعدَهُ الصلحُ مع إسرائيل عن التيارِ العريضِ للحركةِ السياسيةِ العربية، والمركزُ الثاني (بغداد) كان قد جرفتْهُ حربُ الخليجِ ضدَّ إيران الخمينيةِ بعيداً عن التيارِ العريضِ إيّاه، فيما استحالَ على السياساتِ التوفيقيةِ للبلدان الخليجيةِ أن تُشكِّلَ محوراً جاذباً بمعزلٍ عن التحالفاتِ الإقليميةِ مع هذا البلدِ العربيِّ أو ذاك.

بهذا المعنى كان النموذجان الثوريان المجاوران اللذان راحت «القوات اللبنانية» تتأثَّرُ بهما سلباً أو إيجاباً، هما النموذجُ السوريُّ حيث السلطةُ الفعليةُ في قبضةِ العسكريين المنتسبين إلى الطائفةِ العَلَوية، والنموذجُ الإسرائيليُّ الذي اندفعَ مع وصولِ ليكود إلى الحكم في ١٩٧٧ إلى اقتحامِ عاصمةٍ عربية (سنيّةٍ) للمرة الأولى، في ١٩٨٢. ولقد كان لهذا التأثُّرِ بنموذجيْن يتعارضان مع اللونِ السنيّ العربيّ السائدِ في المنطقة، أن تغذّى بمصادرِ الثقافةِ الإخلاقية، المعاديةِ للنفعيةِ ولطبيعةِ الإقتصادِ الرأسماليِّ والخَدَماتيِّ، بما تُفْضي إليْه هذه الثقافةُ من تقليصِ الحاجةِ إلى الانتباهِ للعالمِ العربي

خاصة في الجيش، أو إلى جانبه، ما دام هو القائد وهو الرئيس». إيلي حاج، في **المسيرة** ١٩٨٧/٩/١٩.

(٣١) **العمل** ١٩٨٤/٦/٢.

(٣٢) **العمل** ١٩٨٤/٢/١٠.

(٣٣) **العمل** ١٩٨٢/٢/٣.

(٣٤) تعبيراً عن بحث «القوات» عن بديل شيعي للسنة والهموم الناجمة عن ذلك، انظر:
Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 154-156.

ورساميله وأسواقه[٣٥].

في السياسةِ الداخليةِ، كان إغفالُ العنصر السنيِّ قد تمثَّلَ أصْلاً في المعركةِ الرئاسية لبشير الجميل، حيث بدا بليغَ الدلالةِ أنَّ نواباً مسيحيين وشيعةً ودروزاً يـزبكيين هم الذين اقترعوا له فيما تحفَّظَ أغلبيةُ السنَّةِ البرلمانيين عن ترشيحِه، من دون أنْ يشملَ التحفُّظُ أسماءَ آخرين موصوفين تقليدياً بـ «الإنعزالية»[٣٦].

واستطراداً، وعملاً بإخلاله بأكثر من واحدٍ من وجوهِ الصيغة، عَنَتْ رئاسةُ بشير، بحسبِ شارحِه، أنَّـهُ «لأوّل مرّةٍ وصلَ إلى رئاسةِ الجمهوريةِ منحازٌ للغرب ومن دون وساطةِ العرب. كلُّ رؤساءِ الجمهوريةِ وصلوا إمّا باسمِ عدمِ الانحياز (لا شرق ولا غرب) أو بموافقةِ العربِ أو الأكثريةِ الساحقة من العرب [...] وحْدَهُ بشير الجميل تجرّأ على أن يُعلنَ هُويّتَه وقال: «أنا مُنحازٌ للمُعَسْكرِ الغربيِّ والعالمِ الحرّ»[٣٧]. ولا يُقلِّلُ من صحّةِ وصفِ بقرادوني أنّ بشير بادرَ قُبَيْلَ معركتِه إلى زيارةِ السعودية والتقرُّب إلى أبرز ممثلي السنيةِ السياسيةِ المحليةِ (صائب سلام)، إذْ ظلَّ الاجتياحُ الاسرائيليُّ والصلةُ الحديثةُ العهدِ بالولاياتِ المتحدةِ الأميركية[٣٨] السِّمَتيْن الطاغيتيْن على المناخِ المحيطِ بمعركتِه الرئاسية.

داخلَ المناطقِ الشرقيةِ، وفي ما يتّصلُ بحياتِها السياسةِ، سار صعودُ البشيريةِ في موازاةِ تراجعٍ متعاظمٍ للسياسيين وأدوارهم، عبَّر عن نفسه تارةً بذهابهم مَـذْهَبَ التطرُّفِ لِلَّحاقِ به وبجمهورهِ، وتارةً أخرى بالإنْـزواءِ والإذْعان. أي أنّهم في المرّةِ الأولى كانوا يَـدُلّون على استجابتِهم للخوفِ ذي المصدرِ الخارجيِّ المُفْضي بهم إلى الإلتحامِ مع جماعتِهم، وهو ما أصابَ الياس الهراوي ورينيه معوض وميشال المر وفؤاد بطرس وغيرَهم، وفي المرّةِ الثانيةِ كانوا يَـدُلّون على استجابتِهم للخوفِ ذي المصدرِ الداخليِّ الذي نشأ ردّاً على الخوفِ الأوّلِ وكان من طينتِه نفسها (وفي هذه الخانةِ يمكنُ إدراجُ أسماءِ السياسيين الذين أرهبَهُم أو أهانَهُم أو منعَهُم بشير من الترشيحِ للرئاسة). ولم ينفصلْ هذا المسارُ في الدائرةِ السياسيةِ العريضةِ للكتلةِ المسيحيةِ، عن تحوّلاتٍ بدأت

(٣٥) كان اختيار بشير، سليمان العلي لرئاسة حكومته الأولى من قبيل هذا العقاب للسنة، حيث جمع العلي بين موقف وطني متقدم من دون أنْ يكون تمثيلياً في طائفته، وبين رجعيّة سياسية واجتماعية تُواكب كونه من كبار الملاكين الزراعيين في منطقة عكار المتأخرة. جاء هذا الاختيار فيما كانت «المارونية السياسية»، ومن خلال بشير، تؤكد على ثورية لا هوادة فيها.

(٣٦) يعرف الذين عاشوا تلك الفترة قُرباً من مصادر الحياة السياسية في بيروت كيف أبدى زعماء «السنية السياسية» استعدادهم للقبول بكميل شمعون أو بيار الجميل لرئاسة الجمهورية.

(٣٧) كريم بقرادوني في محاضرته، **العمل** ٢٢/٤/١٩٨٣.

(٣٨) نضع جانباً الكلام اللاحق عن عمل بشير الجميل منذ وقت مبكر مع المخابرات المركزية الأميركية، لسهولة إصدار كلام كهذا ولصعوبة التحقق منه، مع تعدد المعاني التي يمكن أنْ ينطوي عليها عمل زعيم سياسي، أو مرشح لزعامة سياسية، في هذا النشاط.

تشقُّ طريقَها قبلَ خمسِ سنوات، وتحت وطأةِ تجربةِ «حرب السنتين»، في الوسطِ الأكثرِ تعبيراً عن النزعةِ الحربية. ففي كانون الثاني ١٩٧٦، انعقدتْ «خلوة سيدةِ البير» التي وُصفتْ مقرراتُها بالتصلب في طلب مراجعة الميثاقِ الوطني والتشديدِ على اللامركزيةِ أو الفيدراليةِ من ضمنِ الوَحْدة[٣٩]. ومع هذه الخلوةِ تحوّلتْ «جبهةُ الحريةِ والإنسانِ» إلى «الجبهة اللبنانية» التي بات بشير الجميل يَحْضُرُ اجتماعاتِها.

فـالجبهةُ الأولى التي أُسِّسَت في ١٩٧٦ ضمَّتْ من هم أعلى كعباً في المارونيتيْن السياسيةِ والفكريةِ، فكان في عدادِها سليمان فرنجية وكميل شمعون وبيار الجميل وشارل مالك (الأرثوذكسي) وجواد بولس وإدوار حنين وفؤاد إفرام البستاني وشربل قسيس رئيس «الرهبانيّات المارونية». ولئن شملتْ عضويتُها أيضاً الشاعرَ سعيد عقل مؤسِّسَ «حرّاس الأرزة» وفؤاد الشمالي قائدَ «التنظيم» ومارون خوري رئيس «حركة الشبيبة المارونية»، فممّا لا شكَّ فيه أن ثِقْلَ رئاسةِ الجمهوريةِ (فرنجية) وكبارِ السياسيين (شمعون وبيار الجميل) كان الطاغيَ بلا مُنازع. مع هذا ظلَّ غيابُ ريمون إدّه[٤٠] ومعارضتُه للجبهة يُضْعفانِ قليلاً زعمَها التمثيلَ السياسيَّ للمسيحيين، ناهيكَ عن اللبنانيين.

بَيْدَ أنَّ هذا الطابعَ العضويَّ الذي جمعَ السياسيين إلى المثقفين في جبهةٍ واحدة، وهو ما رأى فيه باحثٌ لبنانيٌّ علامةَ انتكاسٍ عندَ المثقّفين «إلى ضربٍ من النرجسيةِ الطائفية»، حَوَّلَ أوهامَ التراصِّ العشائريِّ «مؤسَّسةً» ما كان من الممكنِ من دونِها لزعامةِ بشير الشاملةِ أن تنشأ وتَقْوى[٤١].

أمّا الجبهةُ الثانيةُ فاقتصرتْ على شمعون والجميل وحنين ومالك وافرام البستاني وبولس نعمان الذي حلَّ مَحَلَّ شربل قسيس، ذلك أنَّ فرنجية خرج من الجبهةِ بنتيجةِ تفاقمِ خلافِه مع الكتائب وجَمَّدَ جواد بولس، الزغرتاوي، نشاطَهُ فيها، فيما كان لتوحيدِ التنظيماتِ المسلَّحةِ في «القوات اللبنانية» أنِ استبْعَدَ الحاجةَ إلى تمثيلِها المستقل. غيرَ أنَّ طغيانَ العاملِ العسكريِّ جعلَ وَحدةَ العسكريين تَزِنُ في الجبهةِ الجديدةِ ما لا تَـزِنُهُ وَحْدَةُ السياسيين أو من تبقّى منهم في عِدادِها. فقادةُ الجبهةِ السياسيّون كانوا «ببساطةٍ يُوافقون على العمليّةِ العسكريّةِ بعد شنِّها»[٤٢].

(٣٩) راجع مقررات الخلوة في Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 135. وبحسب جوزيف ابو خليل (في المقابلة الشخصية معه) لم يوافق بيار الجميل على مقررات الخلوة إلا على مضض ومغلوباً على أمره، وهو ما كَتَبَهُ لاحقاً وتكراراً ابو خليل.

(٤٠) بعد تعرضه لمحاولة اغتيال تعددت الشبهات الحائمة حول مصدرها.

(٤١) احمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ٤١.

(٤٢) Lewis. W.Snider. *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 130.

هنا تضافرَ العملُ الهادئُ عموماً، والعاصفُ في الصفرا، لوراثةِ شمعون وخطِّه المبادرِ الهجوميّ، مع وراثة بيار الجميل الذي أفقدتْه الحربُ على المسيحيين واحتدامِ مخاوفِهم وجهَهُ التسوَويَّ المستمرَّ في نجله الآخر أمين الجميل. ومن التحفُّظِ عن الصلةِ بإسرائيل إلى التحفُّظ عن مقرّراتِ «سيدة البير»، أصبح الجميل الأبُ مجرَّدَ مسجِّلٍ للتحفُّظاتِ لا يلبثُ، مغلوباً على أمره[٤٣] في البداية، أن يَمْضِيَ في الإتجاهِ الجديد ويدافعَ عنه.

وإلى هاتيْن الوراثتيْن، سَهَّلَ رحيلُ ريمون إدّه والنزاعُ مع فرنجية الذي وضعَه خارجَ دائرة المارونية الجبلية، وإذعانُ سياسيّي الصفِّ الثاني أو انزِواؤهم، كلُّ هذا سَهَّلَ لبشير طريقَه إلى الرئاسةِ تتويجاً لدورِه في الحرب.

وكما قضمَ القائدُ الكتائبيُّ الشابُّ الحياةَ السياسيةَ المارونيةَ ومواقِعَها، قضمَ حزبَ الكتائبِ موقعاً بعدَ آخر، وهو الحزبُ الذي كان قد عَقَدَ آخرَ مؤتمرٍ له في ١٩٧٤، أي قبلَ أشهرٍ على اندلاعِ القتالِ الذي جعل المؤتمراتِ الحزبيةَ لزومَ ما لا يَلْزَم.

ففضلاً عن احتوائه والدَه المؤسِّسَ، عزلَ جوزيف شادر أوّلَ نائبٍ كتائبيٍّ في البرلمانِ اللبناني، والليبراليَّ الذي كان إبّانَ الحربِ الأهليةِ أبرزَ من تصدّى له ولصُعودِه على قاعدةٍ عسكريةٍ، حتى سُمِّيَ «الخصمَ الألدَّ لبشير»[٤٤]. وإذا كانت معارضةُ شادر، ذي الأصلِ الأرمني المديني، قد عكستْ ممانعةَ التعدُّدِ اللبنانيِّ عن الإنضواء في مشروعٍ نضاليٍّ صَهْريٍّ ضَيِّقِ الضِّفاف، فما لا ينبغي نسيانُه أنَّ القياديَّ الكتائبيَّ التاريخيَّ هو الذي وضعَ في الستينيات برنامجاً لبرلمانيي الكتائبِ «كان يطبِّقُه كلُّ وزراءِ الحزب»[٤٥].

لم يقتصِر الأمْرُ على الجيلِ الأوّل، إذ تلقّتْ رموزُ الجيلِ الثاني «المُخَضْرَمِ» ضرباتٍ لا يُستهانُ بها على يَدِ بشير قائدِ الجيلِ الثالثِ النافرِ من الوصايةِ، والناكرِ لجميل السابقين عليه في التمهيدِ له ولجيلِه. فجوزيف الهاشم مديرُ إذاعةِ «صوت لبنان» الكتائبيةِ مثلاً، تعرَّضَ للإبعادِ، بعد تبادُلِ شهرِ المسدَّسات مع بشير، بفعل اعتدالِه واستمرارِ صلتِه بأمين الجميل[٤٦]. أمّا إدمون رزق، ولأسباب مشابِهة، فتمَّ تفجيرُ سيارتِه في مطالِعِ ١٩٨٠[٤٧].

(٤٣) ... ومؤخوذاً بعواطف أبوية حيال نجله الصاعد الذي يمثّل له وجهه الشبابي والمبادر. وبحسب ميشال أبو جودة، «تحفظ» بيار الجميل عن ترشيح بشير للرئاسة بل «قيل إنّه عارض في البداية»، **النهار** ٢٥/٩/١٩٨٧.

(٤٤) برسي كامب، استراتيجية بشير الجميل، سبق الاستشهاد.

(٤٥) من مقابلة **المسيرة** مع كريم بقرادوني في ١١/١٠/١٩٨٦.

(٤٦) انظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٤٦، وفي سياق خلافه مع الهاشم أنشأ بشير «صوت لبنان الحر» كإذاعة ناطقة بلسان «القوات» وحدها.

(٤٧) المرجع السابق، ص ١٩٦.

أبْعَدُ من هذا، أنَّ القرارَ الحزبيَّ لم يَعُدِ الحزبُ مصدرَه، إذْ نشأت غرفةٌ معتمةٌ من ثلاثةِ قياديين كتائبيين مقرّبين من بشير (جوزيف أبو خليل، كريم بقرادوني، أنطوان نجم) كانت هي التي «تطبخ» السياساتِ التي على الحزب أن يتَّخِذَها ثم تُقْنِعُ الشيخَ بيار الجميل بِها، كما تتولّى حملَ الحزبِ على تبنّيها[٤٨]. ولئن برَّرَ جوزيف أبو خليل هذا الاغتياب بأنَّ حركةَ بشير باتت أسرعَ بكثيرٍ من الحركةِ البطيئةِ لحزبٍ لم يُعِدْ نفسَه ولم تُعِدَّهُ الأحداثُ للتعاملِ مع تطوراتٍ إقليميةٍ ودوليةٍ كالتي شهدناها في ظلِّ بشير[٤٩]، فهذا لا يُلْغي إرساءَ عملٍ تآمريٍّ في الحزب، وعليه ما لبث أن تكرَّرَ، غيرَ مرّةٍ، في السنواتِ اللاحقة.

ويَصِفُ أحَدُ تاريخيي الكتائب ما حصلَ آنذاك، حيثُ أنَّ «الجمودَ والضعضعةَ والتواري» في الحزب بدأت «في أواسطِ السبعينيات بعد مصرعِ الشهيد وليم حاوي، قائدِ «القوات النظامية» في الكتائب (١٣ تموز/يوليو ٧٦) عندما سمح بشير - وكان نائبَ القائد وليم - لنفسِه بحرمانِ الكتائب ذراعَها العسكريةَ أي «القواتِ النظامية»، ثم حوَّلَها إلى «قواتٍ لبنانيةٍ» سرعانَ ما استقلَّتْ عن الحزبِ تفكيراً وتدبيراً، فمضت «تفتح» سياساتٍ وتُشهرُ حروباً وتعقدُ تحالفاتٍ وتنقضُ مواثيقَ وتخطِّطُ لمصايرَ. والحزبُ آخِرُ من يعلمُ أو يُستشارُ أو يُوافق. وأفادَ بشير من ظروفِ الحرب، وذرائِعها وفيها تعلو كلمةُ السلاح أيَّ كلمةٍ سواها بقدْرِ ما أفادَ من تغاضي والدِه عنه [...] وما من مرّةٍ كان يُثارُ الوضعُ الناشىءُ بين الكتائبِ والقواتِ بانتقادٍ قاسٍ أحياناً في الإجتماعاتِ الموّسعةِ والضيِّقةِ إلّا كنّا نسمعُ صوتيْن: أحدُهما للشيخ بيار وهو يعلن: «ألا تثقون بي وببشير؟ اترُكوا الأمْرَ لي وله ولا يقلقنَّ لكم بالٌ فبشير كتائبيٌّ مُنْضَبِط [...] ثانيهُما لبشير»[٥٠].

وبلُغتِه، يروي أمين الجميل كيف أصبح الحزبُ، بعد صعودِ بشير وجيلِه «تيّاريْن يتجاذبانِه: تيّارُ جيلِ الشبابِ أو جيلِ الحربِ وتيّارُ جيلِ المُخَضْرَمين أو ما قبلَ الحربِ، ولا ذاكرة مشتركة تجمعُ بينهما. فقط سلطةُ الشيخِ بيار الجميل وهيبتُه كانتا وسيلةَ الربطِ والجَمْع»[٥١].

هكذا انتهى الأمرُ بكريم بقرادوني، وبعدَ إحكامِ السيطرةِ على الحزبِ، أن يعلنَ وبلُغةٍ ظافرية، أنَّ «اليومَ في داخلِ حزب الكتائب خزاناً بشرياً كبيراً جداً خلقه بشير الجميل وعلينا نحن أنْ نوظِّفَه»[٥٢]. والواقعُ أنَّ ما خلقَه بشير، على صعيدِ الحزب، هو

(٤٨) من المقابلتين الشخصيتين مع جوزيف أبو خليل وكريم بقرادوني.

(٤٩) من المقابلة مع جوزيف ابو خليل، الذي يرى في مذكراته أنّ بشيرية انطوان نجم نجمت عن فقدان ثقة بالكتائب، الحلقة ١٦، **الحياة** ٢٧/٧/١٩٨٩.

(٥٠) الياس ربابي، «مذكرات العين الواحدة»، **الحياة** ٢٢/٩/١٩٨٩.

(٥١) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، **الحياة** ١٥/١٢/١٩٩٠.

(٥٢) من مقابلة **الأنوار** معه في ٣/٤/١٩٨٤.

هنا تضافرَ العملُ الهادىءُ عموماً، والعاصفُ في الصفرا، لوراثةِ شمعون وخطّه المبادرِ الهجوميّ، مع وراثة بيار الجميل الذي أفقدتْه الحربُ على المسيحيين واحتدام مخاوفِهم وجهَهُ التسوويَّ المستمرَّ في نجله الآخر أمين الجميل. ومن التحفُّظِ عن الصلةِ بإسرائيل إلى التحفُّظ عن مقرّراتِ «سيدة البير»، أصبح الجميل الأبُ مجرَّدَ مسجِّلٍ للتحفُّظاتِ لا يلبثُ، مغلوباً على أمره[٤٣] في البداية، أن يَمْضِيَ في الإتجاهِ الجديد ويدافعَ عنه.

وإلى هاتيْن الوراثتيْن، سَهَّلَ رحيلُ ريمون إدّه والنزاعُ مع فرنجية الذي وضعَه خارجَ دائرة المارونية الجبلية، وإذعانُ سياسيّي الصفِّ الثاني أو انزواؤهم، كلُّ هذا سَهَّلَ لبشير طريقَه إلى الرئاسةِ تتويجاً لدوره في الحرب.

وكما قضمَ القائدُ الكتائبيُّ الشابُّ الحياةَ السياسيةَ المارونيةَ ومواقعَها، قضمَ حزبَ الكتائبِ موقعاً بعدَ آخر، وهو الحزبُ الذي كان قد عَقَدَ آخرَ مؤتمرٍ له في ١٩٧٤، أي قبلَ أشهرٍ على اندلاعِ القتالِ الذي جعل المؤتمراتِ الحزبيةَ لزومَ ما لا يَلْزَم.

ففضلاً عن احتوائه والدَه المؤسِّس، عـزلَ جوزيف شادر أوّلَ نائبٍ كتائبيٍّ في البرلمانِ اللبناني، والليبراليَّ الذي كان إبَّانَ الحربِ الأهليةِ أبرزَ من تصدّى له ولصُعودِه على قاعدةٍ عسكريةٍ، حتى سُمِّيَ «الخصمَ الألدَّ لبشير»[٤٤]. وإذا كانت معارضةُ شادر، ذي الأصلِ الأرمني المديني، قد عكستْ ممانعةَ التعدُّدِ اللبنانيِّ عن الإنضواء في مشروعٍ نضاليٍّ صَهْريٍّ ضَيِّقِ الضِّفاف، فما لا ينبغي نسيانُه أنَّ القياديَّ الكتائبيَّ التاريخيَّ هو الذي وضعَ في الستينيات برنامجاً لبرلمانيي الكتائبِ «كان يطبِّقُه كلُّ وزراءِ الحزب»[٤٥].

لم يقتصرِ الأمرُ على الجيلِ الأوّل، إذ تلقّتْ رموزُ الجيلِ الثاني «المُخَضْرَم» ضرباتٍ لا يُستهانُ بها على يَدِ بشير قائدِ الجيلِ الثالثِ النافرِ من الوصايةِ، والناكرِ لجميل السابقين عليه في التمهيدِ له ولجيلِه. فجوزيف الهاشم مديرُ إذاعةِ «صوت لبنان» الكتائبيةِ مثلاً، تعرَّضَ للإبعادِ، بعد تبادُلِ شهرِ المسدَّسات مع بشير، بفعل اعتدالِه واستمرارِ صلتِه بأمين الجميل[٤٦]. أمّا إدمون رزق، ولأسباب مشابهة، فتمَّ تفجيرُ سيارتِه في مطالِعِ ١٩٨٠[٤٧].

(٤٣) ... ومؤخوذاً بعواطف أبوية حيال نجله الصاعد الذي يمثّل لـه وجهه الشبـابي والمبادر. وبحسب ميشـال أبو جودة، «تحفظ» بيار الجميل عن ترشيح بشير للرئاسة بل «قيل إنّه عارض في البداية»، **النهار** ١٩٨٧/٩/٢٥.

(٤٤) برسي كامب، استراتيجية بشير الجميل، سبق الاستشهاد.

(٤٥) من مقابلة **المسيرة** مع كريم بقرادوني في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٤٦) انظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٤٦، وفي سياق خلافه مع الهاشم أنشأ بشير «صوت لبنان الحر» كإذاعة ناطقة بلسان «القوات» وحدها.

(٤٧) المرجع السابق، ص ١٩٦.

أبْعَدُ من هذا، أنَّ القرارَ الحزبيَّ لم يَعُدِ الحزبُ مصدره، إذْ نشأت غرفةٌ معتمةٌ من ثلاثةِ قياديين كتائبيين مقرّبين من بشير (جوزيف أبو خليل، كريم بقرادوني، أنطوان نجم) كانت هي التي «تطبخ» السياساتِ التي على الحزب أن يتَّخِذَها ثم تُقْنِعُ الشيخَ بيار الجميل بها، كما تتولّى حملَ الحزبِ على تبنّيها[٤٨]. ولئن برَّرَ جوزيف أبو خليل هذا الاغتياب بأنَّ حركةَ بشير باتت أسرعَ بكثيرٍ من الحركةِ البطيئةِ لحزب لم يُعِدْ نفسَه ولم تُعِدَّهُ الأحداثُ للتعاملِ مع تطوراتٍ إقليميةٍ ودوليةٍ كالتي شهدناها في ظلِّ بشير[٤٩]، فهذا لا يُلْغي إرساء عملٍ تآمريٍّ في الحزب، وعليه ما لبث أن تكرَّرَ، غيرَ مرّةٍ، في السنواتِ اللاحقة.

ويَصِفُ أحَدُ تاريخيي الكتائب ما حصلَ آنذاك، حيثُ أنَّ «الجمودَ والضعضعةَ والتواري» في الحزب بدأت «في أواسطِ السبعينيات بعد مصرعِ الشهيد وليم حاوي، قائدِ «القوات النظامية» في الكتائب (١٣ تموز/يوليو ٧٦) عندما سمح بشير ـ وكان نائبَ القائد وليم ـ لنفسه بحرمانِ الكتائب ذراعَها العسكريةَ أي «القواتِ النظامية»، ثم حوَّلَها إلى «قواتٍ لبنانيةٍ» سرعانَ ما استقلَّتْ عن الحزبِ تفكيراً وتدبيراً، فمضت «تفتح» سياساتٍ وتُشْهِرُ حروباً وتعقدُ تحالفاتٍ وتنقضُ مواثيقَ وتخطِّطُ لمصايرَ. والحزبُ آخِرُ من يعلمُ أو يُستشارُ أو يُوافق. وأفادَ بشير من ظروفِ الحرب، وذرائعِها وفيها تعلو كلمةُ السلاح أيَّ كلمةٍ سواها بقدْرِ ما أفادَ من تغاضي والدِه عنه [...] وما من مرّةٍ كان يُثارُ الوضعُ الناشىءُ بين الكتائبِ والقواتِ بانتقادٍ قاسٍ أحياناً في الإجتماعاتِ الموسّعةِ والضيِّقةِ إلّا كنّا نسمعُ صوتيْن: أحدُهما للشيخ بيار وهو يعلن: «ألا تثقون بي وببشير؟ اتركوا الأمْرَ لي وله ولا يقلقنَّ لكم بالٌ فبشير كتائبيٌّ مُنْضَبِط [...] ثانيهما لبشير»[٥٠].

وبلُغتِه، يروي أمين الجميل كيف أصبح الحزبُ، بعد صعودِ بشير وجيلِه «تيّاريْن يتجاذبانِه: تيّارُ جيلِ الشبابِ أو جيلِ الحرب وتيّارُ جيلِ المُخَضْرَمين أو ما قبلَ الحرب، ولا ذاكرة مشتركة تجمعُ بينهما. فقط سلطةُ الشيخِ بيار الجميل وهيبتُه كانتا وسيلةَ الربطِ والجَمْع»[٥١].

هكذا انتهى الأمرُ بكريم بقرادوني، وبعدَ إحكامِ السيطرةِ على الحزب، أن يعلنَ وبلُغةٍ ظافرية، أنَّ «اليومَ في داخلِ حزب الكتائب خزاناً بشرياً كبيراً جداً خلقه بشير الجميل وعلينا نحن أنْ نوظِّفَه»[٥٢]. والواقعُ أنَّ ما خلقَه بشير، على صعيدِ الحزب، هو

(٤٨) من المقابلتين الشخصيتين مع جوزيف أبو خليل وكريم بقرادوني.

(٤٩) من المقابلة مع جوزيف أبـو خليل، الذي يرى في مـذكراتـه أنّ بشيريـة انطوان نجم نجمت عن فقـدان ثقة بالكتائب، الحلقة ١٦، **الحياة** ١٩٨٩/٧/٢٧.

(٥٠) الياس ربابي، «مذكرات العين الواحدة»، **الحياة** ١٩٨٩/٩/٢٢.

(٥١) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/١٥.

(٥٢) من مقابلة **الانوار** معه في ١٩٨٤/٤/٣.

بالضبط بدايةُ استبداله كجهاز بـ «القوات اللبنانية»، والتمهيدُ لاستبداله إيديولـوجياً. أي أنَّ البشيريةَ كـانت جسراً انقـلابياً تمَّ العبورُ عليه من الكتـائبيةِ، ضحيّـةِ الإنقلابِ، إلى القواتيةِ التي عادتْ عليها فوائدُه.

حتى تـركيبُ «القوات التي شكّـلَ المقاتلـون الكتـائبيـون عمـودَهـا الفقـريَّ، ضمَّ التنظيماتِ المسلَّحةَ الأخرى التي سبق وصفُها بالمحلِّيةِ والـرمزيـةِ والفحوليـةِ والتعصّبِ الريفي، ونما الكثيرُ منها في سياقِ النزاعِ مع الكتائبِ أو الاعتراضِ عليها(٥٣).

ومن هذا المركَّبِ الكتائبي اللاكتائبي نشأت «القواتُ» كجسمٍ متزايدِ الإنقطاعِ عن الجسمِ الكتائبي، وذي ملامحِ هُويّـةٍ مُتمايـزة، بحيثُ أضحى من الخطأ أن «نفتـرضَ أنَّ القواتِ اللبنانيةَ هي مجرَّدُ امتـدادٍ لأيٍّ من الأحزاب السيـاسيةِ الأصليـةِ أو الميليشياتِ التي انبثقتْ عنها. ولئن بدا حزبُ الكتائبِ العنصرَ المكوِّنَ المُسَيْطِرَ للقواتِ اللبنانية، فـإنَّ المظهرَ يبقى أقوى من المضمون، إذْ نشأت القواتُ كمنظمةٍ مستقلةٍ عن الكتائب»(٥٤).

يصـحُّ الأمرُ نفسُـه حتى على المقاتلين ذوي الـوَلاءِ المزدَوجِ، إذْ بَـدَوْا أمْيَـلَ إلى القواتِ بُحكمِ وظائفِهم العسكريّةِ وأعمارِهم سواءً بسـواء. هذه مثـلاً، كانتْ حـالَ «أنصار الكتائب»، وهم غالباً «إمّا مسيحيون عَرَّضَهم القتالُ للتهجير، وإمّا أنّهم انجذبوا أصْلاً إلى الكتائب حين كانت الأخيرةُ إحدى التنظيماتِ شِبْهِ العسكـريةِ القليلـةِ القادرةِ على إمْـدادِ الكثيرين من اللبنانيين القلقين بالأسلحة والتـدريب ليُدافعـوا عن أنفسِهم. إنَّ ولاءَ هؤلاء النـاسِ للقـوّاتِ اللبنـانيـةِ يُمكنُ اعتبـارُهُ بـديهيـاً، الشيءُ الـذي لا ينطبقُ على ولائهم الكتائبي»(٥٥).

ضبط الانقلاب

لا يُلْغي الكلامُ عن تطرُّفِ بشير، التوقُّفَ عند محطّاتٍ ودقائقَ انطوتْ عليها سياستُه خصوصاً في ١٩٨١ ـ ١٩٨٢. ولئن لم يُتَحْ لهذه الدقائقِ أن تتطوَّرَ بفعلِ اغتيالِ صاحبها بعد عشرينَ يوماً على انتخابه رئيساً، إلاّ أنّها أشارت، مجدداً، إلى الإزْدِواجات الكتائبيّةِ، ولو كان مناخُ ظُهورِها هذه المرة أكثَرَ احتداماً بكثيرٍ من مناخاتِ ظهورهـا السابق. كـذلك أشارت إلى أنَّ الإدْزواجَ الكتائبيَّ هو ما ينكشفُ علناً في مختَبَرِ العَلاقةِ بالدولة ووظائفِها، انكشافه أمام امتحان الخوف والطمأنينة.

(٥٣) راجع الفصل الرابع، جدير بالذكر أنَّ مجلس قيادة القوات ضم ٨ ممثلين عن الأحزاب والقوى الأساسية المشكلة لها، أي الكتائب والأحرار والتنظيم وحراس الأرز.
(٥٤) Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 137.
(٥٥) *Ibid.*, p. 139.

فقد رافقتِ المُصالحةُ مع السركيسيةِ ملامحَ اعتدالٍ لم يكُنْ مألـوفاً قَبْـلاً. صحيحٌ أنَّ التّحـالفَ مع إسـرائيل والتـوجُّهَ نحـو الـولايـاتِ المتحـدةِ بقِيـا الثـابتيْن الحـاكمَيْن لاستراتيجيةِ الرجل، إلا أنَّ التركيزَ على المَنْحى الثاني بدأ يتزايدُ في صورةٍ ملحوظة(٥٦). وإلى خُطَب وتصريحاتٍ أقلَّ انقلابيةً راحتْ تظهرُ في سنتَيْ عمره الأخيرتَيْن، جاء الانفتاحُ النسبيُّ على الـزعامـةِ السلاميـةِ في بيروت، والمملكـة العربيـةِ السعوديـة، ليؤشّـر إلى احتمالٍ، كان بشير ـ الرئيسُ ـ مُلْزَماً بتطويره في ما لو أتيحَ له أن يحكم.

بلُغةٍ أخرى، مثّـلَ القائـدُ الشابُّ، نجـلُ بيار الجميـل، حالـةَ ترجُّـحٍ بين الكتائبيـة واللاكتائبيةِ: الأولى، الضعيفةُ، تدفعُه إلى الاهتمام بالصيغةِ والعواملِ التعدُّديةِ والعربية، وهي على ضعفِها تكسبُ بعضَ النماءِ في موازاةِ اقترابهـا من الدولـة والإطمئنان النـاجم عن هذا الاقتراب. والثـانيةُ، القـويةُ، تقـودُه إلى الإغفال عن التـركيبِ الداخليِّ اللبنـانيِّ والإملاءاتِ السياسيةِ العربية.

فقد اعتُبِرَ العامُ ١٩٨١ زمنَ الانتقال من «معركةِ التحرير» إلى «معـركـةِ التـوحيد»، وفي ٢٩ تشرين الثاني، وفي الذكرى الخامسةِ والأربعين لتـأسيسِ الكتائب، ألْقَى بشيـر «خطابَ الوعد» مفتتحاً معركةَ رئاسةِ الجمهـورية، طـارحاً شِعـارَ الـ ١٠٤٥٢ كلم مربعـاً، ومطالباً برئيسٍ قويٍّ وبفتحِ مَلَفِّ العَلاقاتِ اللبنانيةِ ـ السوريةِ ونقلِ النزاعِ من المجالِ العسكريِّ إلى السياسيِّ من ضمنِ تصورٍ عامٍّ للتسوية(٥٧). وقبـلَ يومٍ واحـدٍ كان بعضُ الزعماءِ المسلمين الموصوفين بالاعتدال، قـد أدْلَوْا بتعليقـاتٍ على عيدِ الكتـائب شديدةِ التفاؤلِ والترحيب، فقال صائب سلام «إنَّ ما نراه هو إلحاحٌ على الوَحدةِ اللبنانية» واعتبرَ كاظم الخليل «أنَّ التضحيةَ صنوُ بيار الجميل»(٥٨).

انعكسَ التّوجُّهُ الجديدُ هذا على أكثرِ من صعيد. ففي تفسيره الـوثيقةَ التي قـدَّمَها بشير بعدم التعاونِ مع إسرائيل تجـاوباً مـع مطلب سوريٍّ وعـربي، يرى بقـرادوني «أنَّ الوضعَ الدوليَّ بات ملائماً أكثر. فالأميركيون يفهمونَ موقفَنا اليومَ في صـورةٍ أفضل، وهم ربّمـا مستعدّون لمـدِّ يدِ العـونِ لنا. ثمّ أنّنـا نعتقدُ بـأنَّ المسلمَ اللبنانيَّ بـدأ يدرك معنى التعـايشِ مع المسيحيِّ اللبنـاني»، وهو يـلاحظُ في المقابلـةِ نفسِها التي أجـرتْهـا معـه «ليبراسيون» الفرنسية «يقظةً إسْلاميةً على اللبْننة»(٥٩).

(٥٦) ترافق ذلك مع تعويل مبالغ فيه على اميركا ودورها وقدرتها العربيين: من صعـود ريغان ورئـاسته القـوية إلى خطته لتسوية أزمة الشرق الأوسط بعيد ترحيل المقاتلين الفلسطينيين من لبنان. وربما سهّل هذا العامل على بشير الجميل انتهاج سياسات أكثر اعتـدالاً حيال العـرب بمن فيهم سوريـا، إذ احتلّ الفلسطينيـون المرتبـةَ الأولى في العداء إذّاك.
(٥٧) انظر صحف ١٩٨١/١١/٣٠.
(٥٨) انظر صحف ١٩٨١/١١/٢٩.
(٥٩) عن **العمل** ١٩٨١/٨/١٢.

وبحسب الروايةِ اللاحقةِ لـ «حصاد الأيام»، اصطدمَ بشير بعد انتخابه رئيساً «بالمقابلِ الذي تطلبُه الدولةُ العبريةُ وقد بدا له كبيراً جداً. قال لمخاطبيه (الاسرائيليين): «ما يَقْبَلُ به رئيسُ حكومتي العتيدةِ أقبلُ به أنا. فلبنانُ كلُّه يقرِّرُ الصلحَ معكم أو لا يقرِّره». وإذا كانت وقائعُ لقاءِ نهاريا قد باتت معروفةً، فإن افتتاحيةَ «العمل» التي تُضْفي على تقديمِها مِسْحَةً بطوليةً، تُسجِّلُ أنَّ بشير فوجئ في اليومِ التالي لانتخابه بمندوبِ التلفزيون الإسرائيلي «يسأله رأيَه في مستقبلِ العلاقةِ بين لبنان وإسرائيل» فأجابَ بحدَّةٍ «أنا رئيسٌ لكلِّ اللبنانيين لا لبعضِهم فقط»، ولمّا بلغه «نبأُ الاشتباكاتِ المسلَّحة بين القواتِ اللبنانية والاشتراكيين في قبيع وجوارها، أصْدَر أمرَه بسَحب «القوات» فوراً وهو يقول «لا أُريد حرباً مع الدروز أبداً»، ثم انتقلَ إلى الكحالة ليؤكِّد أمامَ حشْدٍ من مشايخِ الطائفةِ الدرزيةِ ما قالَهُ قبلَ ساعات».

وتختمُ «العمل» متطرقةً إلى العلاقةِ بسوريا التي «لم تَغِبْ عن ذهنِه أبداً [...] وخصوصاً في عزِّ الحصارِ الإسرائيليِّ للعاصمة، فأوفدَ ثلاثةً من معاونيه إلى دمشق، مرةً ومرتيْن وثلاثاً للتأكيد على ذلك»[٦٠].

ويعود جوزيف أبو خليل، بعد سنوات، إلى بعضِ تفاصيلِ لقاء نهاريا، حيث «واجه بشير إصرارَ بيغن على توقيعِ اتفاقِ سلامٍ مع إسرائيل، من غير أن يحْظى بإجماع اللبنانيين أو أن يُراعيَ موقعَ لبنانَ العربي، فرفَض ذلك. كما رفضَ طلبَ بيغن إصدارَ بيانٍ يُعلنُ فيه عزمَه على توقيعِ الاتفاق. وقد انتهى اجتماعُ بشير وبيغن في نهاريا في ٩ أيلول بمشادَّةٍ شتمَ فيها بيغن كلّاً من الرئيس شمعون والشيخ بيار وبشير نفسَه لعدم توجيههم الشُّكْرَ إلى إسرائيل على اجْتياحِها لبنان»[٦١].

ويتولّى بقرادوني الحديثَ عن الصلة بالسوريين، وإنْ ظلّ يصعبُ وصفُها بالحِوار، إذْ جرى آخِرُ اتّصالٍ معهم «قبلَ أسبوعٍ من انتخاب الرئيس الراحل»[٦٢]. قبلَ ذلك «وفي عزِّ التقدُّمِ الإسرائيليِّ في لبنان [...] قُمْتُ بزيارتيْن إلى دمشقَ لنقولَ للقادةِ السوريين إنَّ دخولَ إسرائيل وتراجُعَ الجيشِ السوريّ، لا يعنيان إلغاء الدور السوريّ ولا إلغاء العلاقاتِ اللبنانيةِ ـ السورية. وبالطبعِ كنتُ أذهبُ باسمِ بشير الجميل»[٦٣].

وتنوَّعت المُحاولاتُ البشيريةُ لإحداثِ اختراقاتٍ، مهما كانت ظفيفةً، في النهجِ الذي رافقَ سنواتِه الأولى. فبحسبِ افتتاحيةِ «العمل» كان بشير «قبلَ استشهادِه بساعاتٍ يستعدُّ للمشاركةِ في القمَّةِ العربيةِ في الرباط، وقد دُعِيَ إلَيْها بصفتِه «الرئيس المنتخب»

(٦٠) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٤.
(٦١) **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٩.
(٦٢) **الأنوار** ١٩٨٢/١١/١٤.
(٦٣) انظر مقابلة **الكفاح العربي** معه في ١٩٨٤/٥/١٤.

لكلِّ لبنان»[٦٤]. ويصلُ الأمْرُ ببقرادوني أنْ يَعْرِضَ على الاتحادِ السوفياتيِّ في كانون الأول ١٩٨١ «أن يقومَ بدورِ الشريكِ في حلِّ أزْمة لبنانَ عن طريقِ إدارة الحوارِ بين سوريا والكتائبِ من جهةٍ، وبين الكتائبِ و«منظمةِ التحريرِ الفلسطينيةِ» من جهةٍ ثانية»[٦٥].

إنَّ نظرةً إجماليةً إلى تجربةِ بشير الجميل منذ بداياتِه المتطرفةِ حتى نهاياتِه التي شابَ تطرّفَها قَدْرٌ من الاعتِدال، تشيرُ إلى أنّه مثَّل محطةً وُسْطى بين ما وصفناه قبلاً بالكتائبية واللاكتائبية، أي بين الحزبية الدستوريّة وبين العقلية والسلوك الثوريّيْن الآيِلَيْن إلى دمارِ الحزب.

وبهذا المعنى فعندما رَحَلَ بشير، ترك وراءه نقاشاً معلّقاً تسكنه أزمةُ الحزب الكبيرة، فحزبيّو الحزب حرصوا على رسمِ صورةٍ له أقربَ إلى ملمحِهِ الجميلي، حيث أنّه، على رغم كونه «سيِّدَ الانتفاضات، لم يسمح لنفسه مرّةً بالتعرُّضِ للمؤسسات الحزبية. وقد استمرَّتِ الشرعيةُ عنده قُدْسَ الأقْداس»[٦٦]، بل إنّه كان في استطاعتِه وحْدَه «تسييرُ القواتِ في اتّجاهِ المصالحة» مع الحياةِ السياسيةِ ورموزها بما فيها حزبُ الكتائب[٦٧]. أمّا قواتيو الحزب فرسموا له صورةً أقربَ إلى ملمحِهِ الإنتفاضي إذ أنّه «ولأوَّلِ مرّةٍ في تاريخ لبنان أوصَلَ المقاومةَ المسلّحة إلى الحكم وبالطرقِ الشرعية [...] وإذا لم تصل المقاومةُ المسلَّحةُ فإنها تبقى في خارجِ الحكمِ مثلما تعرَّضنا له في السنة ١٩٤٣، يومَ كانت الكتائبُ والنجادةُ في الشارعِ ولم يَصِلا إلى الحكم، إذْ وصلَ مكانَ الكتائبِ بشارة الخوري ومكانَ النجادةِ وصلَ رياض الصلح»[٦٨].

واقعُ الأمْرِ أن كلّاً من الطرفيْن قال نصفَ الحقيقة. فبشير لم يَكُنْ ذاك الطائعَ للمؤسساتِ، المُذْعِنَ لعملِها، في هجومه على السلطة. كما أنّه لم يَكُنْ ذاك المنتفضَ الكاملَ عليها من دون حساب لعائلةٍ أو تقليدٍ سياسي، كما رُحْنا نشهدُ مع ورثتِه. فارتباطُه ببيت بيار الجميل أبقى ارتباطَه، ولو مخفّفاً، بالصِّيغةِ التي شاء مرةً أن يدفنَها، وبلَوْنٍ من تركيب المجتمعِ اللبناني وتعدُّده. كما أنَّ وصولَه إلى الرئاسة خلقَ عنده تفاؤلاً ساهمَ في تعديلِ توجُّهِه نحو الآخرين خلال أيّامه الأخيرة، بما حمل أديباً وكاتباً ديمقراطياً لم يجمعْه مرةً موقعٌ واحدٌ ببشير الجميل، على أن يصِفَ التحوُّلَ الذي طرأ على صورتِه بين ما قبلَ انتخابِه رئيساً وما بعدَه، كتحوُّلٍ من صورةِ فرانكو لبناني إلى «صورة ديغول

(٦٤) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٤.
(٦٥) **العمل** ١٩٨١/١٢/٩.
(٦٦) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٤.
(٦٧) **العمل** ١٩٨٥/٧/٢٤.
(٦٨) محاضرة بقرادوني المنشورة في **العمل** ١٩٨٣/٤/٢٢ وفيها يرد تاريخ رغبة بشير في تغيير الشرعية بالطرق الشرعية، إلى العام ١٩٨٠.

لبنانيّ مَشوب بميتران [...] فهو يبدأ بالخمسةِ آلاف شهيدٍ وينتهي بالمئةِ ألفِ ضحية»(٦٩).

لقد كان بشير مؤسِّسَ الطريقةِ في زمنٍ من جُنوحِ الشرقِ الأوسطِ برمّتِه نحو التطرُّف: حرب لبنان، وصول ليكود إلى السلطة في ١٩٧٧، كمب ديفيد التي فاقمت الاحتقانَ السوريَّ ـ الفلسطينيَّ، ثورة الخميني، رئاسة ريغان، وأخيراً، اجتياح ١٩٨٢.

والتلاميذُ، في العادةِ، يفوقون شيخَ طريقتِهم تطرُّفاً، خصوصاً حين تضعفُ تأثيراتُ الروابطِ البيتيةِ والتقليديةِ عليهم، فيما لا يكونُ وصولُهم إلى الرئاسةِ، أو أيُّ موقعٍ دستوريٍ سياسيّ، احتمالاً مطروحاً بالقَدْرِ الذي كان مطروحاً مع الأستاذِ المُؤَسِّس.

لم يؤدِّ الانفجارُ في مقرِّ الكتائبِ في الأشرفيةِ إلى مصرعِ بشيرِ الجميل ورفاقِه فقط، لكنه أدى أيضاً إلى ترجيحِ كفةِ إحدى القناعاتِ المتداولةِ دائماً في أزمنةِ الخوفِ والقلقِ عند الكتائبيين والمسيحيين عموماً.

وهذه الحقيقة التي ساهمت أصلاً في إنتاج حزبِ الكتائب نفسه، هي أنّ «الدولة» ليست مصدرَ الاطمئنانِ الأخير، إذْ بعد وصولِ بشيرٍ إلى ذروتِها عادت الأمورُ إلى الصفرِ من جديد. واستطراداً، فإنَّ مصدرَ الإطمئنانِ وطردِ الخوفِ هو المجتمع، والقوةُ الأهليّة، الذاتية تالياً، أكان هذا المجتمعُ مقسَّماً بما يجعلُه معادلاً لهذه القوة، ومَسْرحاً لها، أم موحَّداً تنهضُ وَحدتُه على غَلَبةٍ كاسحةٍ ونهايةٍ تنعكسُ تالياً على الدولة.

ولئن كان أصحابُ هذا الرأيِ قادرين على إسنادِه بعددٍ من الحُجَجِ التاريخيّة، كإفْضاءِ الإستقرارِ الشهابيِّ عبْرَ الدولةِ إلى الفوضى والتقاتلِ في أواخرِ الستينيات، فإن انتقالَ رئاسةِ الجمهوريةِ إلى أمين الجميل، الكتائبيِّ غيرِ القواتيِّ، لم يعُدْ كافياً لأنْ يطمئنَ القواتيين وقطاعاً واسعاً من المفجوعين ببشير وتجربتِه. هذا إنْ لم نَقُلْ إن وصولَ أمين وما عبَّرَ عنه هذا الوصولُ من تجديدِ الثقةِ بالدولةِ كمصدرٍ للإطمئنانِ(٧٠)، كان له أثَرٌ مُعاكس. ولمّا كان ما أطلقه المجتمعُ الأهليُّ المسيحيُّ، منْ خلال بشير، وفي أشكالٍ مُمَوَّهةٍ من صراعاتِ المناطقِ والأجيالِ والفئاتِ الاجتماعية، غيرَ قابلٍ لِلَّجْمِ والإلْغاء، بدا وكأنَّ شقيقَهُ الأكبرَ «سرقَ تضحياتِ القواتِ بذرائعَ عائليةٍ وتقليديةٍ»(٧٠).

حتى النائبُ الكتائبيُّ الموصوفُ بـ «الاعتدال»، جورج سعادة، باتَ بعد تلك

(٦٩) عبّاس بيضون، عن بشير الجميل، في **السفير** ١٩٨٢/٩/١٧. واقع الأمر أنّ بيئات كثيرة عرفت بعدائها لبشير الجميل شرعت، خلال تلك الأيام، تُعيد النظر في طريقة حكمها عليه.

(٧٠) من المقابلة مع كريم بقرادوني (١٩٨٦) وهو ينقل جو «القوات» حينذاك. بدوره أعاد الياس ربابي خلاف الـ ١٩٨٥ بين الحزب والإنتفاضة إلى أمين وبشير ومآخذ البشيريين أو القواتيين على أمين. راجع المقابلة معه في مجلة **الكفاح العربي** ١٩٨٥/١٢/٩.

التجربة، وبحسب تعليق متأخر له، من المعتقدين بأن «الضماناتِ لم تَعُدْ كافية». أمّا «العمل» فلم تتلكأ في التشكيكِ بعلاماتِ السلم البارد الجديد حيث لا يزالُ الإطمئنانُ مربوطاً بالوجودِ الإسرائيليِّ المباشر، ولو أنَّ هذا الوجودَ لم يعُدْ مضموناً بالكامل بعد تجربة حرب الجبل. كذلك لم تتردَّد «العمل» في استرجاعِ التجربةِ السابقةِ كلِّها من هذا المنْظور، إذْ أنّ «الذين اجتمعوا في المصيطبة قبل أشهر لإطلاقِ حركةِ الإعتراضِ على ترشيحِ بشير الجميل للرئاسة لم يتورَّعوا عن اللجوءِ إلى سلاحِ العدوِّ ومنطقِه [...] ومن ذلك أنَّ اللجوءَ إلى هذا «السلاح» واردٌ في أيِّ حين، وربما بعد أن يتمَّ إقصاءُ إسرائيلَ وجيشِها»(٧٢).

ولا يُؤْتى بجديدٍ حين يُقال إنَّ لحظاتِ الخوفِ والقلقِ تُرسلُ أصحابَها إلى طريقةٍ مهووسةٍ ولا عقلانيةٍ في التفكيرِ والعملِ قابلةٍ لأن تصطدمَ بالتَّراتُبِ والمؤسساتِ والأنصبة وكلِّ ما تمَّ التعارفُ عليه(٧٣)، فكيف بعد حالةٍ من الاطمئنانِ المشبعِ كالتي عرفها الكتائبيون، والمسيحيون عموماً، مع بشير ورئاسةِ العشرين يوماً.

ما فاقمَ هذه العناصرَ كلَّها أنَّ مصرعَ بشير اندرجَ في وجهةٍ عامةٍ، داخليةٍ وإقليميةٍ، لا تبعثُ إلّا على الخوف. فالإنكفاءُ الإسرائيليُّ المصحوبُ بهزيمةٍ مُرّةٍ للمسيحيين في الجبل، رافقه هجومٌ سوريٌّ من خلالِ حربِ الجبلِ وبعدَها، بلغ ذروتَه في «انتفاضة» ٦ شباط ١٩٨٤(٧٤) وحواراتِ جنيف ولوزان في تشرين الثاني ١٩٨٣ وآذار ١٩٨٤. ولم يَفُتْ أحدَ الكتائبيين الذين عاشوا تلك الأحداث عن قرب أن يُلاحِظَ أنَّ مؤتمرَ لوزان «لم يَكُنْ مُتَوازناً ولا الحكومةُ التي انبثقتْ منه كانت مُتوازنة». وينطبقُ الوصفُ نفسُه على التسويةِ التي تَضمَّنها البيانُ الوزاريُّ للحكومةِ المذكورة. فمُقابلَ نبيه بري ووليد

(٧١) من مقابلة مجلة **الشراع** معه في ١٩٨٦/٩/٢٢.

(٧٢) **العمل** ١٩٨٢/١١/١.

(٧٣) يجد هذا السلوك جذوره الكتائبية البعيدة في أكثر المراحل الفالانجية حدّة، ففي خِضَمّ حركة أنطون سعادة الإنقلابية في ١٩٤٩، اندفعت «العمل» إلى المطالبة بإغلاق الجامعة الأميركية في بيروت لأنها تضم «أعداء لبنان». عن الدكتور مصطفى خالد والدكتور عمر فروخ، التبشير والاستعمار، المكتبة العصريّة، صيدا، لبنان، ص ٩١. ولا تلبث **العمل** إياها في ١٩٦٦/٢/٢٨ أي مع بدايات الصعود الفلسطيني المسلح وتفكك الدولة الشهابية، أن ترى أن الجامعة اللبنانية «بحالتها الحاضرة ليس فيها من اللبنانية سوى الإسم، وفيها كل ما هو ضد لبنان، ضد كيانه، ضد استقلاله، وضد روحيته ورسالته». عن وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد،** سبق الاستشهاد، ج ٢، ص ٧٦٥.

(٧٤) عن ارتباط أوضاع الغربية وخصوصاً «انتفاضة» ٦ شباط بـ «انتفاضة» الشرقية بعد عام وشهر واحد، أنظر افتتاحية ميشال أبو جودة «توازن المعتدلين» في **النهار** ١٩٨٥/٣/١٦. وعن دور تزايد التطرف الديني والسياسي في الغربية، راجع تحقيق مجلة **التضامن** في ١٩٨٥/٤/٥. فبخطابية وحماسية تتسم بهما كتاباته، علق جبران تويني على «الانتفاضة» وتسبب «الطرف الآخر» بها:

«أما أنتم أيّها المتطرفون في «الجبهة الأخرى»، فأنتم أيضاً بتشنجكم وتعصبكم ودعواتكم القرون وسطية تعملون على هدم لبنان الذي نريد. ولولا دعواتكم القرون وسطية لما تفاقم الخوف عند المسيحيين ولما تفاقمت هذه المشكلة الحزبية». مجلة **النهار العربي والدولي** ١٩٨٥/٣/٣١.

جنبلاط كان كميل شمعون وبيار الجميل في المؤتمر وفي الحكومةِ وفي التوقيعِ على التسوية. بل أكثر من ذلك، ففيما الفريقُ المعارضُ والثائرُ على النظامِ يتمثَّلُ بجيلِ الحرب ـ إنْ صحَّ القول ـ كان الفريقُ الآخرُ المُوالي يتمثَّلُ بجيلِ ما قبل الحرب أو جيلِ الأربعينيات. وبكلامٍ آخر، تمثَّلَ المُسلمون يومئذٍ بأصغرهم عمراً فيما تمثيلُ المسيحيين ظلَّ مُقْتَصِراً على شيخَيْن من شيوخِ صيغةِ الأربعينيات»(٧٥).

إلى هذه الهزائمِ والتراجعاتِ رحلَ مُتعدِّدو الجنسيةِ في آذار ١٩٨٤ أي بعدَ أقلَّ من شهر على استيلاءِ المسلَّحين المُوالين لدمشقَ على بيروتَ الغربية، فيما كان التطرفُ الإسلاميُّ المَرْعِيُّ سورياً وإيرانياً يمارسُ أكثرَ من تأثيرٍ في الوُجْهةِ نفسِها ويَتَحَلّى بشبابيّة انقلابيّة يستهوي المسيحيين تقليدُها، فإلى الدعواتِ المتكاثرةِ إلى إنشاءِ «جمهوريةٍ إسلاميةٍ» في لبنان، حُوِّلَ هذا الأخيرُ ساحةَ عنفٍ وإرهابٍ لم يتردَّدْ في مباركتِها الاتحادُ السوفياتيُّ الطامحُ إلى الحدِّ من النفوذِ الأميركيِّ والأطلسيِّ في المتوسِّط. وبحسب أرقامِ جيرار شاليان جُعِلَ العامُ ١٩٨٣ أكثرَ أعوامِ الإرهاب إزدهاراً بالدم في العالَم بأسْره، حيث قضى من جرّائه ٧٢٠ ضحيةً بينَها الـ ٢٤١ جندياً أميركياً في بيروت والـ ٥٧ موظفاً في السفارةِ الأميركيةِ ممن أودَتْ بهم عمليتا تفجيرٍ قام بهما أصوليون إسلاميون(٧٦).

وفي مواجهةِ انقلابيةِ الطوائف الأخرى كان من «الطبيعي» أن تتعرَّضَ للإنقلاب بقايا المواقعِ الدستورية عند المسيحيين، إذْ بحسب أحدِ الذين قادُوا «انتفاضةَ» آذار ١٩٨٥ على الكتائب: «لماذا يكون مسموحاً لدى الطوائفِ الأخرى بتغييرِ رئيسِها وليس مسموحاً لنا أن نفعل ذلك [...] عندما يستقبلُ السوريون الشيخَ سعيد شعبان في دمشقَ وهم يعرفون كيف يُسَيْطِرُ على طرابلس، فإن ذلك بالنسبةِ إليهم لا يبدو مُتعارضاً مع استقبالِهم رشيد كرامي كأحدِ رموزِ الشرْعية»(٧٧).

ولغةٌ كهذه لم يَعُدْ يعوزُها الجمهورُ اليائسُ والمُحْبَط. فإلى الأفواجِ المتعاظمةِ من المهجَّرين، حملت مطالعُ العام ١٩٨٣ إلى المناطقِ الشرقيةِ مُهَجَّري الجبلِ المسيحيين ممَّنْ قُدِّرَ عددُهُم بـ ١٢٥ ألفِ شخص، الرقم الذي ما لبثَ أن تزايَدَ مع الكوارثِ اللاحقةِ في الشوفِ وشرقِ صيدا(٧٨). وبدَوْرِهِ أطلقَ الإجْتياحُ الإسرائيليُّ والظروفُ التي تَلَتْهُ موجةً جديدةً من الهجرةِ إلى الخارج «تمثَّلَتْ بمُغادرةِ اللبنانيين البلادَ بمعدَّلِ ٥٠ ـ ٦٠

(٧٥) جوزيف أبو خليل، «حرب لبنان ـ مراجعة ونقد ذاتي»، الحلقة ٤٧، في **الحياة** ١/٩/١٩٨٩.
(٧٦) Gerard Chaliand, *Terrorism from popular struggle to media spectacle*, Saqi books, 1987, p. 89.
(٧٧) الكلام لإيلي اسود، في **النهار** ٢٦/٣/١٩٨٥.
(٧٨) عن غسّان سلامة، **المجتمع والدولة**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٣.

ألفِ شخص سنوياً»(٧٩) بما زادَ في إضعافِ العَصَبِ الداخليِّ للمجتمعِ ومؤسساتِهِ وبنيتِه الذِّهنيةِ عموماً.

مقدمات الانتفاضة

كان الدرسُ الأساسيُّ الذي تعلَّمتْه «القوات» من حربِ الجبلِ وهزيمتِها، التعويلَ على ضرورةِ «الوحدةِ المسيحية». ذلك أنَّ السببَ «الواحدَ» للهزيمةِ، كما قرأها كريم بقرادوني، أن «المسيحيين كانوا مُنْقَسِمين ومن دون حليفٍ، في حين أن الدروزَ كانوا متّحدين ومعهم أكثرُ من حليف»(٨٠).

ومن دون أنْ تختفيَ أسبابٌ تفصيليةٌ أخرى كان القُواتيون يوردونَها، كسياسةِ أمين الجميل وعدم إبرامِ اتفاقيةِ ١٧ أيار مع إسرائيل، بقيتْ مسألةُ الوَحْدة أُمَّ المَسائل. فإذا ما نُظِرَ إليها بعينٍ نَرْجِسيةٍ ومُعْتَدّة بذاتها كعينِ القوات، أمكنَ القولُ أنَّ عدمَ إحرازِ هذه الوَحدة هو ما أتاحَ «في لحظةٍ ما» تلاقي المصلحتين «السورية والإسرائيلية ضدَّ الحكم»(٨١).

إلا أن هذه الوحدةَ، مَثَلُها مَثَلُ دعوةٍ إيديولوجيةٍ إلى الوَحدة، لا بدَّ أن تَمُرَّ بالفرز الحادّ، خصوصاً عن الجسدِ الأعرضِ الذي صدر عنه حَمَلَةُ الدَّعْوة. فبقرادوني مثلاً أشارَ قبلَ عامٍ على الانتفاضةِ إلى تبايُنٍ في الرأيِ بين القواتِ والشيخِ بيار الجميل حيث يرى الأخيرُ «ضرورةَ الرجوعِ إلى ميثاقِ ١٩٤٣، فيما نعتقدُ نحن بضرورةِ قيامِ ميثاقٍ جديد»(٨٢).

وفي تلك الفترةِ شرعتْ تتكاثرُ الدعواتُ والطروحاتُ الشعبويةُ حول الأجيالِ الجديدةِ وقوى التغيير، وهي تسمياتٌ للميليشياتِ المسلحةِ مداورةً أو مباشرةً، عملت على توفيرِ الغطاءِ «الفكري» للإنتفاضةِ ومن بعدها «الإتفاق الثلاثي». وما كانت تضمرُه هذه الدعواتُ تأسيسُ حوارٍ بين «وحداتٍ» شابةٍ فرضَها مقاتلو كل واحدةٍ من الطوائفِ على طائفتِهم وجماعتِهم، أيِ السعيُ إلى توحيدِ «العشائر» التي وُحِّدتْ كُلٌّ منها قَسْراً، وعبرَ إطلاقِ قَدْرٍ لا حَصْرَ له من القَمْعِ والكَبْتِ والتَفاوتِ في داخِلِها.

ترافقَ هذا التوجُّهُ الجديدُ نحو الميليشياتِ مع كلامٍ جديدٍ عن سوريا ودورها، لعبت عناصرُ متعددةٌ في تشكيلِه. فالسوريون يرعَوْن في آخرِ الأمرِ التنظيمَيْن العسكريَّيْن (أمل

(٧٩) من مقابلة مع بطرس لبكي اجرتها **الحياة** ٨/٩/١٩٨٩.
(٨٠) **العمل** ٤/٩/١٩٨٤.
(٨١) المرجع السابق.
(٨٢) **النهار** ١٠/٣/١٩٨٤. من أجل بعض بنود هذا البرنامج الجديد، راجع مقابلة **النهار العربي والدولي**، ٢٥/٣/١٩٨٤، معه عن الفيدرالية وغيرهما.

والاشتراكي) اللذيْن تنوي «القواتُ» محاورتَهما. ولئن انتقلَ الإسرائيليون، مع تسلُّمِ موشي أرينز وزارةَ الدفاعِ بدلاً من أرييل شارون، إلى سياسةٍ غيرِ تدخُّليّةٍ، في ما يتعدّى المناطق الحدوديّة، باتَ من الضروريّ أن تُبْنى جسورٌ مع الطرفِ الإقليميِّ الذي خرجَ منتصراً في حربِ الجبل. ولم تَعْدَمْ هذه الحساباتُ عناصرَها الضِّمْنِيَّةَ وبينَها اثْنان أساسيان، أوّلُهما أنَّ سوريةَ هي أيضاً بلدٌ تحكُمُه الثورةُ على التقاليدِ السياسيةِ والطبقاتِ المحافظةِ، والحزب الذي تمرَّدَ على قيادتِه العفلقيّة التاريخية، والثاني المتفرعُ عن النرجسيةِ المسيحيةِ عند «القوات»، أنَّ الحوار بينهم وبين السوريين يُقنعُ دمشقَ بالتعاملِ معها بدلاً من حلفائها المسلمين، لا بل يجعلُ «القوات» موضِعَ تنافسٍ سوريٍّ - إسرائيليٍّ ما دامَ أنَّها لم تقطعِ الصلةَ في صورةٍ نهائيةٍ مع الإسرائيليين.

هذه التّصوراتُ التي تَبيَّنَ لاحقاً أنّها ضربٌ من الشطارة الخفيفة، واكَبَتْها تعابيرُ متفاوتة الصّراحة. ففي ٢٤/٤/١٩٨٤ أيْ بعد أيّام على ٦ شباط حين استولى مقاتلو «أمل» و«الاشتراكي» على بيروت الغربية، أعلن بقرادوني أنّ «القوات» تُحضِّرُ مشروعَ تفاوضٍ جديٍّ مع التنظيمَيْنِ المذكورَيْن، نافياً أنْ تكون سوريا «طامعةً بأرضِنا»، إذْ كلُّ ما تريدُه هو أن يكونَ الجيشُ والسياسةُ في لبنان «متعاطفيْن معها»[٨٣]. وتدريجاً تطورتْ مواقفُه من سوريا التي هي «عقدةٌ لمُتجاهِليها» وهي «الحلُّ لمن يتعاملُ معها»[٨٤].

وفي مواجهةِ حكومةِ «الوحدة الوطنية» الكراميةِ التقليدية، راح بقرادوني يطرحُ تسويةَ القوى الميليشياويةِ الثلاث، والسلامَ الذي يقوم على «تشريع» الميليشيات وأمنِها، كلٍّ واحدةٍ في منطقتِها، زاعماً وجودَ صيغةٍ بهذا المعنى تمَّ نقلُها لـ «أمل» و«الاشتراكي»[٨٥]. ولئن رفضَ ما أسماهُ «تعويم صيغة ١٩٤٣» مُتَحَدِّثاً عن حلٍّ ينجمُ عن تفاهمِ الميليشياتِ ولا يتمُّ بمعزلٍ عن سوريا[٨٦]، فقد ذهبَ بعيداً في رسمِ «القيم» السياسيةِ للتسويةِ المنشودةِ بما يوحي بأنَّ التسامحَ الذي يُبْديهِ حيالَ الآخرين لا يستبطِنُ الوحدةَ اللبنانيةَ قدْرَ ما يستبطنُ فضَّ الشراكةِ بصيغةٍ فيدراليةٍ أو ربّما كونفيدراليةٍ ما. في هذا المعنى تُصْبِحُ القوى الأخرى، في عُرْفِ القواتِ، غيرَ مُطالبةٍ بأيٍّ من الشروطِ التي درجَتِ الكتائبُ على المُطالبةِ بتوافُرِها. فالسيدُ محمد حسين فضل الله الموصوفُ بالأبّوةِ الروحيةِ لـ «حزب الله» اللبناني، هو من يُسَجِّلُ له بقرادوني «دعوتَه إلى حماية المسيحيين ونداءَه إلى الحوارِ مع جيل الشبابِ من أجلِ التغيير»، معتبراً أنَّه الرجلُ الذي «لا يُراوغُ في إسلاميته، ويدعو إلى إقامةِ حُكْمٍ إسلاميٍّ في لبنان. على الأقلِّ هو رجلٌ صريحٌ يقولُ الحقيقةَ التي يؤمِنُ بها، ونحن في المقابلِ نقولُ الحقيقةَ

(٨٣) **العمل** ٢٥/٤/١٩٨٤.
(٨٤) **السفير** ٢٧/١١/١٩٨٤.
(٨٥) انظر مقابلة **الكفاح العربي** معه في ١٤/٥/١٩٨٤.
(٨٦) انظر **السفير** ٣٠/٧/١٩٨٤ و**العمل** ١٥/٧/١٩٨٤.

ومستعدّون للحوارِ معه في كلِّ شيءٍ وكلَّ الوقتِ اللازم»[٨٧].

لم يَعْنِ هذا التوجُّهَ أنَّ اللُغةَ التي سادت إبَّانَ حربِ الجبل، عن الفوارقِ الجوْهريةِ بين الطوائفِ وعن النزاعاتِ التاريخيةِ الضاربةِ دائماً وأبداً[٨٨]، قد طُويَتْ تماماً، فهي راحت تحتلُّ الموقعَ الضِّمْنِيَّ الذي لا تَتِمُّ تلبِيتُه إلا بِحوارٍ يقودُ إلى كَسْرِ الوَحدةِ اللُبْنانيةِ كما بُنِيَتْ في ١٩٢٦ و١٩٤٣.

وبهذا المَعْنى توهَّمَتِ الثوريةُ القواتيةُ وجودَ مَحطّاتٍ ثلاثٍ مُتكامِلة:

١ ـ تَصْديعُ ما تبقّى من وَحدةٍ مسيحيةٍ أنْشأها بشير الذي جمعَ السلطةَ إلى الميليشيا، لإقامةِ وَحدةٍ قويةٍ متراصّةٍ في ظل قيادتِها الراديكالية.

٢ ـ الحوارُ مع أطرافٍ مُشابهةٍ في الطوائفِ الأخرى، لكنّها مختلفةٌ «جوهَرياً» بِسبب صُدورِها عن طوائفَ أُخْرى.

٣ ـ إعادةُ بناءِ لبنانَ ذي السلطةِ المركزيةِ الإسميةِ حيث لكلِّ جماعةٍ ثوريةٍ «سياستُها».

لم يَكُنْ مَطْلوباً، إذن، غيرُ رَحيلِ بيار الجميل الذي حاولَ إعادةَ الاعتبارِ لنَهْجِ إحالةِ السياسةِ إلى الدولةِ التي يَقِفُ نجلُه أمين في ذروتِها، وكانت له قدرةٌ على التوسُّطِ والحلِّ وثيقةُ الصِلةِ بدوره التاريخي. فالنهجُ المذكورُ لم يَعُدْ من المُمْكِنِ العَمَلُ به في ظلِّ صعودِ الجسمِ الجديد، القواتِ اللبنانيةِ، الذي نما على حسابِ الجسمِ الكتائبيّ، وشكّلَ العنصُرَ الطارِئَ الكبيرَ على الحساباتِ التقليديةِ للكتائبِ وعلى إمْكانِ اعتِمادِها مُجَدَّداً.

وبرحيلِ المُؤسِّسِ لم يَبْقَ من قيدٍ ماديٍّ أو معنويٍّ يحولُ دون انفجارِ «الإنتفاضة» على حزبِ الكتائبِ المتَّهمِ بالخضوعِ للرئيس الجميل، من خلال شخصِ رئيسِه إيلي كرامة، وعلى سيطرةِ الحزب، والجميل تالياً، على «القوات[٨٩].

الانتفاضة حدثا

ترافقَ انفجارُ الإنتفاضةِ في ١٢ آذار ١٩٨٥ وهي التي أسمَتْ نفسَها «حركة القرارِ المسيحي» وطرحت شعارَ «أمنُ المجتمع المسيحي وحريَّتُهُ فوقَ كلِّ اعتبار» مع اقتراب

(٨٧) **العمل** ٢/٦/١٩٨٤، وفي العدد نفسه من الجريدة نفسها يقرر بقرادوني أنّ «أمامنا فرصة ٣ أشهر للتفاهم مع التقدمي وأمل».
(٨٨) كعيّنة على هذه اللغة، انظر: بول عنداري، **الجبل حقيقة لا ترحم**، ١٩٨٥، لا ذكر لدار النشر.
(٨٩) اعتُبر حلول فؤاد أبو ناضر. وهو ابن شقيقة أمين الجميل، محلّ فادي فرام في قيادة القوات عملاً تَدَخّلياً بدفع من رئيس الجمهورية الذي ضمن السيادة لخطه وتوجهاته، بعد أن ضمن له الشيء نفسه في حزب الكتائب انتقال الرئاسة إلى الدكتور إيلي كرامة بعد رحيل الشيخ بيار الجميل صيف ١٩٨٤.

الحكم من التوصُّل إلى تسويةٍ موصوفةٍ بالتوازُنِ النِسْبيِّ مع السوريين[٩٠]. والتوازنُ هذا هو ما أمْكَنَ تحقيقه برغم خروج الفريقِ المسيحيِّ مَهْزوماً في مواجهاتِ الأعوامِ الثلاثةِ الماضِية، إلا أنّ بقاءَ الجيشِ على وَحدتهِ ونجاحَ الجميل في ربطِ الحزبِ والقواتِ بقرارهِ السياسيّ، فضلاً عن أنّ العهدَ كان في بداياتِه الأولى، هي العواملُ التي سمحتْ بإنجاب تسْويةٍ مقبولةٍ.

وقد ترجمَ السيرُ نحو التسويةِ نفسَه في جلساتِ مجلسِ الوزراء في ٩ و١٠ آذار التي كانت مُخَصَّصَةً للوفاقِ الوطنيّ وإجراءاتِه. فالصيغةُ المطروحةُ للحلِّ كانت تستدعي إزالةَ حاجزِ البربارةِ الذي يفصلُ الجبلَ عن الشمال قبل بَتِّ مسألةِ المهجَّرين الشماليين (وسائر المهَجَّرين) ممّن يلتفّون حول سمير جعجع[٩١]. وفي ١١ آذار صدرَ قرارٌ للمكتبِ السياسيِّ الكتائبيّ بفصلِ جعجع من الحزبِ لمعارضتِه السياسةَ التي يتبعُها، بعد رفضِه قرارَ إزالةِ حاجزِ البربارةِ الذي كانت مسؤوليّتُه في عهدتِه، الشيءُ الذي تلا رسوبَ جعجع وبقرادوني في انتخاباتِ المكتبِ السياسيّ[٩٢].

هكذا، وفي ١٢ آذار أُطيحَ بفؤاد أبو ناصر من قيادةِ «القوات» وتغيّرتْ طبيعةُ العلاقةِ التي ربطت الأخيرةَ بحزب الكتائب، فـ «انفرطَ التقليدُ وفقد الحزبُ الرابطَ الأخيرَ مع آلتِه العسكريةِ المتمرِّدة»[٩٣].

وبدورها ضمَّت «الهيئةُ التنفيذيةُ» الجديدةُ للقواتِ كما سمَّتْها الإنتفاضة، وبحسبِ الترتيبِ الذي اعتمدتْه، كلاً من: سمير جعجع، إيلي حبيقة، فادي فرام، كريم بقرادوني، انطوان بريدي، شارل غسطين، إيلي أسود، اتيان صقر، فوزي محفوظ، جورج عدوان[٩٤] مما يعني أنّ نصفَ المُنْتَفِضين، وهم أصحابُ الأسماءِ الخمسةِ الأولى، كتائبيون، والنصفَ الآخرَ قوّاتيون ينتسبون إلى الأحزابِ والتنظيماتِ الصغرى.

لكنَّ الأكثرَ دلالةً مثَّلتْه «الهيئةُ التنفيذيةُ لقيادةِ القوات» إذ تمَّ توزيعُ مهامِّها بين ثلاثةِ كتائبيين هم سمير جعجع رئيساً لهيئةِ الأركانِ العامّة، وإيلي حبيقة رئيساً لجهازِ الأمنِ القومي، وكريم بقرادوني رئيساً للدائرة السياسيةِ والإعلامية[٩٥].

(٩٠) في سبيل ملامح هذه التسوية، انظر **النهار** ١٩٨٥/٣/١٩.

(٩١) انظر مقابلة **وكالة الأنباء الصحافية** قبل يوم واحد على الإنتفاضة والمنشورة في الصحف يوم حصولها، ١٩٨٥/٣/١٢. وإنّه لذو دلالة أن يكون التمسك بـ «الحاجز» مناسبة الخلاف. فالحاجز عند الخائف هو الحائل والسد دون مصادر خوفه، مثله، في هذا المعنى، مثل «الحدود» عند الأقليات والجماعات الخائفة من جماعات أكبر.

(٩٢) انظر رواية نوفل ضو، في **النهار العربي والدولي** ١٩٨٦/١/٥.

(٩٣) راجع **الصياد** ١٩٨٥/٣/٢٧.

(٩٤) انظر تحقيق نقولا ناصيف في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٣٠.

(٩٥) **النهار** ١٩٨٥/٣/٢١.

لقد مثَّلَ هذا الثالوثُ ما يشبهُ الحلفَ بين التهجيرِ الريفيّ (جعجع) و«الرثاثةِ» المدينيةِ (حبيقة) والإمتثالِ الثقافيِّ للبندقية وسلطتِها القائمةِ أو الموعودةِ كما رمزَ إليه محامٍ أرمنيُّ الأصلِ ذو مَنْبِتٍ اجتماعيٍّ متواضعٍ نسبياً (بقرادوني). فجعجع الذي نُقلَ إلى الجبل خلال الحرب، وحصدَ الهزيمةَ التي ارتبطتْ باسمه[٩٦]، تسلَّمَ إبّان قيادةِ فادي فرام للقواتِ رئاسةَ «جهازِ التعبئة»[٩٧]، وفي ١٩٨٤/٣/٤ أعلنَ بقرادوني عن حصولِ تعييناتٍ جديدة «تستهدفُ زيادةَ الإلتحامِ بين صفوفِ «القواتِ اللبنانية» لِمُساندةِ قائدِ هذه القواتِ السيد فادي فرام. وقد عُيِّنَ السيدُ انطوان بريدي مفتِّشاً عاماً للقوات والسيد إيلي حبيقة رئيساً للأمن والدكتور سمير جعجع مسؤولاً عن القيادة العسكرية»[٩٨]. لكنَّ جعجع الذي سبقَ له في ١٩٧٨ أن ارتكبَ مجزرةَ إهدن، وقاد مُهَجَّري الشمالِ جنوباً نحو الجبلِ وبيروت، كان بمثابةِ الطريدِ المُتَخَوِّفِ من أيّةِ تسْويةٍ بين «آل» الجميل و«آل» فرنجية تتِمُّ على حسابه، والمتمسِّك، تالياً، بحاجزِ البربارة كحائلٍ فعليٍّ ورمزيٍّ دون هذه التَسْوية. وكان لموقعِه هذا أنْ رفدَ اتجاهاتِه الراديكاليةِ المعارضةِ للتقليدِ وللسياسةِ و«الاعيبها» وعائلاتِها.

فيما يَنِمُّ عن اللونِ التجمعيِّ والتهجيريِّ لهذه الراديكالية، أعلنَ صاحبُها منذُ البدايةِ «معارضتَه لإزالةِ» حاجزِ البربارة «وتساءلَ عما يفعلُه بمقاتليه ومعظمُهم مُهَجَّرون من الشمال ومنثورون في تخومِ جرود جبيل والبترون وعلى الطريق الساحليِّ بين البربارة وجبيل»[٩٩]. ولم يَعُدْ سرّاً ما عُرِفَ عن جعجع في الكتائبِ من أنّهُ «على خلافٍ مع قادةِ الحزبِ السياسيين، وأنه اصطدمَ مع بشير الجميل نفسه أكثرَ من مرّة. وهو يُشَبِّهُ سيطرةَ آلِ الجميل على الكتائب بسيطرةِ آل فرنجيةِ الإقْطاعيةِ في الشمال»[١٠٠].

وفي لوحةٍ كهذه لا يعودُ حاجزُ البربارةِ مجرَّدَ تفصيلٍ عابر، حيث استطاعَ جعجع أنْ يحوِّلَ هزيمتَه الأولى في زغرتا موقعاً سياسياً جديداً في الكتائب، أو بحسبِ جوزيف سماحة، «مناسَبةً» لكي يغرفَ من مهجّري الشمال عناصرَ مقاتلةً عديدةً ويشكِّلَ ميليشياه الخاصة ضمن «القوات» ويؤمِّنَ عن طريقِ حاجز البربارة والخُوّاتِ المجموعةِ عنده مَصْدَراً ماليّاً يقيه ضغوطاتِ المركزِ في بيروت، سواءٌ تمثَّلَ هذا المركزُ في بيارِ الجميل وحزبِ الكتائب، أم في بشير الجميل وقيادةِ القواتِ اللبنانية»[١٠١].

بَيْدَ أن الشابَّ الذي بدأ نجمُه بالصعودِ مع تفكُّكِ الجبهةِ المارونية، أي مع دبيب

(٩٦) راجع: بول عنداري، **الجبل حقيقة لا ترحم**، سبق الاستشهاد.

(٩٧) انظر تعيينات «القوات» في **النهار** ١٩٨٤/٣/١.

(٩٨) **النهار** ١٩٨٤/٣/٥.

(٩٩) **الصياد** ١٩٨٥/٣/٢٧.

(١٠٠) من تحقيق فؤاد حبيقة في **الوطن العربي** ١٩٨٥/٣/٢٨.

(١٠١) **اليوم السابع** ١٩٨٥/٣/٢٥.

الخلافِ بين الكتائبِ وفرنجية، وبسببِه، لم يَعْدَمِ الأُصولَ الاجتماعيةَ التي أهَّلَتْهُ أصلاً لهذه الراديكالية.

فهو ابنُ عشيرةٍ كَثيرةِ العَدَدِ لكنَّه ينتسبُ إلى أحد أجْبابِها الفقيرةِ وإلى بيتٍ يجمعُ الأبَ الذي خدمَ في الجيشِ إلى الأمِّ المؤمنةِ الوَرِعةِ التي تُرَبّي أبْناءَها على تَعاليمِ الكِتابِ المُقَدَّس[١٠٢]. ولئن قضى طُفولَتَه وشبابَه في عينِ الرمّانة، أبرزِ الضواحي البيروتيةِ التي أمَّها المهاجرون الريفيون المسيحيون إلى بيروت، فإنَّه درجَ على خدمةِ القدّاس الكَنَسيِّ في كنيسةِ سيدةِ لورد في عينِ الرمّانة كما في كنيسةِ مار سابا في بشري إبّانَ العُطَلِ الصيفية. أمّا انتماؤه إلى حزبِ الكتائبِ إبّان دراستِه الطِبَّ في الجامعةِ الأميركيةِ في بيروت، فترافَقَ مع ولائه لطُروحاتِ كريم بقرادوني آنذاك والذي تزعَّمَ «تيارَ الشباب» أو «اليسارَ الكتائبي»، بحسبِ إحدى التَسْميات، بما نَمَّ عن رغبةٍ مُبَكِّرةٍ في تحدّي «سلطة آلِ الجميل».

من ناحيتِه، وُلِدَ إيلي حبيقة في بسكنتا بقضاءِ المتنِ الشمالي[١٠٣]، وعَمِلَ موظَّفاً في فرعٍ تابعٍ لأحدِ المصارفِ في ضاحيةِ الدورةِ لينخرطَ في القتالِ قبل إنجازه الدراسةَ الثانوية. ويبدو أنه خلال عملِه في المَصْرِفِ تعرَّف بالسياسيِّ ورجلِ الأعمالِ المتني ميشال المر الذي ربطتْه به صلةٌ تزلُّميةٌ (cliental) ترتَّبَ عليها لاحقاً الكثيرُ من الذيولِ والنتائج.

لم يُعَبِّرِ التيارُ الذي التفَّ حول حبيقة عن ظاهرةٍ مُتماسكةٍ سوسيولوجياً بالمعنى اللبنانيِّ (الطائفي ـ المناطقي) للكلمة. فإذا كان أبناءُ الأريافِ والجُرودِ المارونيةِ بين قياديي «القوات» (نادر سكر، جورج كسّاب) هم الأكثرُ إحاطةً بجعجع، فالذين أحاطوا بشريكِه كانوا في معظمِهم لا ينتمون إلى الطائفةِ المارونية (أسعد شفتري، بول عريس، نزار نجاريان) من دون أنْ تكوَن انتماءاتُهم المناطقيةُ وطيدةً أو قديمةَ العهد. أمّا صاحِبا الإسميْن اللذان درجت الصحافةُ على تسميتِهما «مستشارَيْن» لحبيقة (ميشال المر، وميشال سماحة) فأرثوذكسي وكاثوليكي من المتن الشمالي اختلطتْ «نصائحُهما» لقائدِ تنظيمٍ نضاليٍّ بمُركَّبٍ من المصالحِ السياسيةِ والماليةِ التي لا تتَّسِعُ لها التنظيماتُ النضاليةُ عادة. فإذا أضفْنا أنَّ حبيقة الذي كان اسمُه وثيقَ الارتباطِ بأجهزةِ الأمنِ القوّاتية، لم يُعْرَفْ بأي مَلْمَحٍ سياسيٍّ أو عقائدي، أمكنَ إدراكُ الحالةِ المائعةِ التي مثَّلتها قياساً بالصلابةِ التي انطوى عليها تيّارُ سمير جعجع.

لمَع اسمُ إيلي حبيقة بصفتِه مُنفِّذَ مذبحةِ صبرا وشاتيلا، المُخَيَّمَيْن الفلسطينيين

(١٠٢) راجع حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٥٨ ـ ١٦١.
(١٠٣) راجع المرجع السابق، ص ٤٢٨ وما يليها.

اللذين هوجما بُعَيْدَ مصرعِ بشير الجميل، فيما كان المَسارُ المُمْتَدُّ ما بين المجزرةِ وتنفيذِها والوصولِ إلى الإتفاقِ الثلاثيِّ، مساراً نموذجياً في دلالتِه على فقدانِ الصبرِ الذي تتميَّزُ به القِطاعاتُ المدينيةُ الرثَّةُ والهامشية. فالشبانُ الذين اتَّجهوا بقيادةِ حبيقةَ إلى المخيميْن المذكوريْن هم ممَّن تبلورتْ نفوسُهم على بشير الجميل، فحين اغتيلَ بشير ودُمِّرَ مثالُهم لجأوا إلى الحلِّ الذي يستهوي شباناً صغارَ السنِّ كانت رئاسةُ بشير قد وضعتْهم على قابِ قوسيْن من تحقيقِ ذواتِهم. فحين نَفِّذَ الإنتقامُ بدأت تُلِحُّ ضروراتُ العودةِ إلى الإندراجِ في حياةٍ عاديةٍ ما.

بهذا المعنى جاءت حِدّةُ العنفِ الجَماعي، وبالمعنى نفسه جاءت حِدّةُ الحاحِ على توفيرِ حِمايةٍ جديدةٍ بعد أن تمَّ تفريغُ شحنةِ الثأرِ والغضب، فكان التخلي التدريجيُّ عن البشيرية[١٠٤] الذي قادَ أصحابَه، بعد وقتٍ قصير، إلى «الإتفاق الثلاثي» وبلوغِ جنَّةِ الخلاصِ السورية.

مناطق العشيرة

ركَّزت الإنتفاضةُ على شعاراتِ «الوحْدَة المسيحية»، داعيةً إلى إنْشاءِ «مجلس مسيحي»[١٠٥]، ومؤكدة في بيانٍ مُبكِّرٍ لها على «بلورةِ الإنتماءِ المسيحي إثنياً وثقافياً كهُويّةٍ جامعةٍ للمسيحيين فوق تمايزاتِهم الطوائفيةِ والمناطقيةِ والعائليةِ والسياسية»[١٠٦]. كذلك أصرَّتْ على تَرْسيمِ «حدودِ» المجتمعِ المسيحي[١٠٧]، ولم تتردَّدْ في محاولتِها كسبَ أعرضِ جمهورٍ مسيحيٍّ، في التودُّدِ إلى «التقليديين» ما خلا الكتائب، فقالت بتشكيلِ هيئاتٍ مسيحيةٍ موسعةٍ تشملُ سليمان فرنجية وريمون إدّه وتوفِّرُ غِطاءً مشروعاً للعمل[١٠٨]، وفي هذا الإطارِ قامت بتسليمِ ثلاثةِ مخطوفين من «المردة» الزغرتاويين واستعادتْ عنصريْن قواتييْن منهم[١٠٩].

مع هذا بقيت الوَحْدَةُ الفعليةُ أبعدَ عن التحقُّقِ من أيِّ وقتٍ سابق، وسريعاً ما رصدَ

(١٠٤) بحسب رواية أمين الجميل، بدأ هذا التخلي مبكراً، واتخذ شكل خيانة ذا طابع بوليسي. فـ «بشير قتل داخل مكتبه، مما يعني أنه لم يكن ممكناً اغتياله لو لم تحصل خيانة من الداخل ومن أقرب المقربين إليه [...] هناك مجموعة من معاوني بشير لا بدّ أنها كانت قد سرّبت معلومات إلى المتآمرين، بعضهم عن مكان الاجتماع، وبعضهم الآخر عن توقيته، وآخرون عن مكان جلوس بشير. ونحن نعرف أنّ العبوة التي وضعت كانت فوق رأسه تماماً، وزرعت في عملية حسابية دقيقة». أمين الجميل، **«حوار وذكريات»**، الحلقة ١٣، **الحياة** ١٦/١٢/٩٠.
(١٠٥) راجع صحف ١٦/٣/١٩٨٥.
(١٠٦) **العمل** ١٧/٣/١٩٨٥.
(١٠٧) من أمثلة ذلك خطاب جعجع في اليسوعية المنشورة في **السفير** ٢٧/٣/١٩٨٥.
(١٠٨) راجع مثلاً، الاقتراح الذي نقلته **وكالة الانباء الصحافية** في **النهار** ٢٨/٣/١٩٨٥.
(١٠٩) صحف ٢٤/٣/١٩٨٥.

مُحَلِّلُ جريدةِ «النهار» ظهور الألوانِ المناطقيةِ والتجمُّعيـةِ من خلالِ الانتفـاضةِ وبفعلِهـا. فبعد أنْ يؤكِّدَ سيطرةَ الإنْتِفَاضِيِّينَ على معظمِ المنـاطقِ الشرقيـةِ، يلاحظُ وجـودَ «عقدة» هي المتنُ الشمـالي «الذي يفـاوضُ من خلالِـه حزبُ الكتـائبِ ويعتبـرُه العقبـةَ المؤجِّلـةَ الحَلَّ [...] ففي حينِ أنَّ «الإنتفاضةَ» في واردِ «ابتلاعِ» هـذه المنطقةِ عسكـرياً من دون صـدامٍ دامٍ، واستقطابِ قـاعدتِهـا الحزبيـةِ خطوةً خطـوةً في أقربِ وقتٍ ممكنٍ، يجعـلُ الحزبُ المتنَ الشماليَّ قاعدتَه العسكريةَ والحزبيةَ ليضيفها إلى المساحةِ الجغـرافيةِ التي لا يزالُ يُسيطِرُ عليها»(١١٠).

وبرغمِ الوجودِ العسكريِّ السوريِّ في بشرّي، فهذا ما لم يَحُلْ دون ظهورِ حمـاسةٍ للإنتفاضةِ وصفَها مراسلُ الجريدةِ المذكورةِ على النحوِ الآتي: «مئاتُ المسلحين من أبناءِ بشري انتشروا ليلَ الثلثاء ـ الأربعاء في البلدةِ وضواحيها وأقاموا حـواجزَ طيـارةً. ووزَّعَ المسلحـون عشراتِ البيـاناتِ التي تُؤَيِّـدُ خطوةَ الـدكتور سميـر جعجع وتُنَـدِّدُ بسياسـةِ الارتِهانِ التي يَتْبَعُها (الرئيس) أمين الجميل حيالَ سوريا»(١١١).

واقعُ الأمر أنَّ شعارَ «أمنِ المجتمعِ المسيحيِّ» الهادفَ إلى توحيدِ «العشيرة» وراء الإنتفـاضةِ لم يكُنْ من نتـائجه إلا إطـلاقُ التفاوتِ والتفتُّتِ إلى المـدى الأقصى على غيرِ صعيدٍ بما دلَّ على أمريْن يحكمُهما التصادُم:

فقـد تبيَّن، من جهَةٍ، أنَّ «المجتمـعَ المسيحيَّ» بطـواقِمِـه العُلْيـا لم يكُنْ حتى تلـك اللحظـةِ قد انفصـلَ عن السياسـةِ أو تخلّى عن بقايـا خيارِه السيـاسيِّ، وهذا هـو معنى المُمانعةِ التي وُجِّهَتْ بها الإنتفاضة.

كمـا تبيَّنَ، من جهةٍ أخـرى، أنَّ الحربَ على المجتمـعِ المذكـورِ وسياستِـه، باسمِ التوْحيد، لن تَقِفَ عندَ حدٍّ معيَّن، وهو ما ستظهرُه أحداثُ شرقِ صيدا والتطوراتُ اللاحقـةُ عليها.

فبُعَيْدَ الإنتفاضةِ سارعَ مُمَثِّلو البطاركـةِ الكاثـوليك والأرثـوذكس إلى الإجتماعِ في القصرِ الجمهوريِّ والتصريحِ بأنَّ «أمنَ الشرقيةِ وكلِّ لبنانَ يجبُ أنْ يكونَ شـرعِياً»، مـع الدعوةِ إلى «عودةِ عجلةِ الوفاقِ ومسيرةِ الإنقاذِ بقيادةِ أمين الجميل»(١١٢).

وفيما رفضَ البطريركُ الأرثوذكسيُّ هزيم، المُقيمُ في سورية، الإنتفاضةَ وما أسْمـاهُ «تغطية الوجودِ الإسرائيلي»(١١٣)، بدتْ مواقِفُ كميل شمعون و«حـزب الوطنيين الأحـرار»

(١١٠) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.
(١١١) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٤.
(١١٢) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٦.
(١١٣) **تشرين** ١٩٨٥/٣/١٩.

أقربَ إلى الرئيس الجميل وحزب الكتائب(١١٤)، بينما جاهَرَ داني شمعون بأنَّ «المُتَمَـرِّدين يلعبون بالنار» وأنَّ المسيحيين «سيواجِهون معهم أوْقاتاً خطيرة»(١١٥).

ولئن دعا مجلسُ البطاركةِ والاساقفةِ الكاثـوليك بعـد اجتماعِـه برئـاسةِ البطـريركِ خريش «إلى المصالحةِ وخنقِ الفتنةِ والخلاصِ بالحفاظِ على الشرعيةِ ودعمِها»، مؤكِّداً أنَّ «العنفَ لا يحلُّ المشكلة»(١١٦)، انتقلَ الخلافُ حـول الإنتفاضـةِ وإصدارِ بيـانٍ بذلـك إلى داخِلِ «الجبهة اللبنانية» فوقفَ شمعون ورئيسُ الكتائبِ إيلي كرامـة ضدَّهـا، ووقفِ إدوار حنين وشارل مالك الطامِحان إلى التصدُّرِ السياسي، في مكانٍ مُتَمَـايزٍ من دون أن يكـونا حاسمِيْن في تأييدِها(١١٧). ولم يكتمْ بقـرادوني غَيْظَه حين علَّقَ على الإجتمـاعِ المسيحيِّ الـذي انعقدَ في بكـركي وأيَّدَ الشـرعية، بـالقولِ إنَّـه «مؤتمرٌ غيـرُ عادِيٍّ أتى بقـراراتٍ عادِية»(١١٨)، وهو ما أتبعَهُ لاحقاً بـآراء أخرى حملتْـه على اعتبارِ أنَّ بكـركي «تخلَّتْ» عن «دورِها التاريخِي»(١١٩).

أبعدُ من هذا كلِّه أنَّ «القوات» أقدمتْ على حلِّ «المجلسِ التمثيليِّ» لـلأحزابِ التي تشارِكُ فيها وأحلَّتْ محلَّها الهيئةَ التنفيذيةَ التي رأسَها إيلي حبيقة(١٢٠)، وبدا أنَّ المطلوبَ تذريرُ وإضعافُ كافةِ القُوى السيـاسةِ العـاملةِ في النطـاقِ المسيحيِّ، فكانت «انتفـاضةٌ» أخـرى في «حزب الـوطنيين الأحرار» قـادَهَا مُمَثِّلـو الحزبِ المـذكورِ في قيـادةِ «القواتِ اللبنانية»(١٢١).

وفي هـذا المناخِ المُتَصـدِّعِ الذي أوجـدتْه «الانتفـاضةُ»، كـان المطلوبُ فقط أن تنضافَ مسألةُ «الاتفاق الثلاثي» والخلافِ حولَها لكي يصبحَ الموتُ أُفُقاً وحيداً للعَـلاقاتِ السياسية. فأثناءَ انعقادِ «الجبهةِ اللبنانيةِ» في دير عوكر حصلْت محاولةُ اغتيالِ جمَاعية، بسيـارةٍ مفخّخة، لجميـع أعضائهـا المعارضين لـذاك الاتفاق (شمعـون، كـرامـة، داني شمعـون، حنين، افرام البستـاني)، ووسطَ الدخـانِ والغبارِ خـرجَ شمعون ليصـرِّحَ أمـامَ

(١١٤) **تشرين** ١٩٨٥/٣/١٩.
(١١٥) **اللواء** ١٩٨٥/٣/٢٢.
(١١٦) صحف في ١٩٨٥/٣/٢٣.
(١١٧) راجع صحف ٢٣ و٢٤ و١٩٨٥/٣/٢٥.
(١١٨) صحف ١٩٨٥/٤/١٠.
(١١٩) من مقابلة **الكفاح العربي** معه في ١٩٨٥/٩/٢٣.
(١٢٠) **النهار** ١٩٨٥/٥/٣٠. كذلك انظر اعتراض إيلي كرامة على هذا الإجراء في **النهار** ١٩٨٥/٦/١.
(١٢١) رداً على سؤال حـول أسباب دعم انتفـاضة «الأحـرار» قال بقـرادوني بلغة لا يـرقى الشـك إلى تضـامنهـا العشائري، بعد أن تمَّ تصديع العشيرة الكبرى التي أُريد توحيدها:
«لقد دعمنا انتفاضة حزب الوطنيين الأحرار، التي قام بها شارل غسطين وإيلي أسود وسيريـل بسترس، لأنَّ هؤلاء المُنْتَفِضِين هم أعضـاء في الهيئة التنفيـذية للقـوات فكان من واجبنـا الطبيعي أن نـدعم من هم معنا». من مقابلة **الكفاح العربي** معه ١٩٨٥/٩/٢٣.

الصحافيين «بأنَّ إلغاءَ الطائفيةِ السياسيةِ يناقضُ تاريخَ لبنانَ وتقاليدَه والضماناتِ التي استحقَّتْ للطوائفِ التي تعيشُ على أرْضِه»[١٢٢].

وسطَ هذه العُزْلةِ التي واجهتِ الانتفاضةَ منذُ قيامِها وحتى كانون الثاني ١٩٨٦، كانت أحداثُ شرقِ صيدا التي تلتْها مباشرةً، محاولةً وهميّةً لإنْجازِ أهدافٍ متعدِّدة. فمثلُها مثلُ الكثيرِ من ردّاتِ الفعلِ التي تترجَّحُ بين النزعةِ الإستبداديةِ والمَيْلِ الشعوري، أوكلتْ «الانتفاضةُ» لـ «الحركة» أهميةً قُصْوى في «تحريك» وضعٍ مسدودٍ وسلبي. وفي الحدودِ التي يمكنُ فيها الحديثُ عن «نظريةٍ» للانتفاضة، لا يمكنُ الإغفالُ عن هذا التركيز على «الحركةِ» وعلى «الجماهيرِ» أو «القيادةِ» التي تقومُ بها تطوُّعياً وعلى عكسِ التيار.

فالإنتفاضةُ، بحسبِ بقرادوني، «حركةٌ ديناميكيةٌ متلاحقةٌ، خلقتْ انتفاضاتٍ متعددةً وستخلقُ انتفاضاتٍ متلاحقة. ونحن في ضوءِ ذلك نعيشُ حالةً من الانتفاضةِ الدائمة، وهذا ما أعطانا شرعيةً تَمْثيلِ المُسْتَقْبَل»[١٢٣]. أمّا سمير جعجع فتوقَّعَ، لو لم تحصل الإنتفاضةُ، «أن يسودَ الملُّ والسأمُ مجتمعَنا إلى حدِّ اليأسِ في نفسِ كلِّ مواطن»[١٢٤]. وفي محاولةِ اقترابٍ من لينينية ما رأى أنَّه «ولا مرة في التاريخِ قامت الجماهيرُ بتحرُّك. ومن هنا اسمُها الجماهير. يجبُ أن تقومَ مجموعةٌ من الجماهيرِ بتحرُّكٍ معيَّنٍ حتى تقومَ هذه الجماهيرُ وتتحرَّكَ مثلَها»[١٢٥].

لقد شكّلت منطقةُ شرقِ صيدا مسرحَ «الحركةِ» التي نيطَ بها أن تخلطَ الأوراقَ من دون سابقِ تصوّرٍ وتصميم، وأن تُحْدِثَ التفافاً مسيحياً حول الانتفاضةِ، فيما تُفْضي إلى إحكامِ العُزْلةِ على الرئيسِ الجميل وحزبِ الكتائب. كذلك نيطَ بـ «ساحةِ» الصراعِ الجديد أن تمتحنَ إسرائيل وإمكانَ استعادةِ دعمِها بعد تجربةِ الجبلِ المُرّة، خصوصاً أنَّ الإنتفاضيين تركوا جميعَ الأبوابِ مفتوحةً على الآخرين، ليكتشفوا، كما سنرى لاحقاً، أنَّ

(١٢٢) صحف في ١٤/١١/١٩٨٥.
(١٢٣) من مقابلة **الكفاح العربي** معه في ٢٣/٩/١٩٨٥.
(١٢٤) **المسيرة** ٨/٣/١٩٨٦.
(١٢٥) انظر نص الخطاب في **السفير** ٢٧/٣/١٩٨٥. تلازمت هذه الحركية الرافضة للسأم والتي تستقي شرعية ذاتها من ذاتها، مع كلّ عدتها الفولكلورية من شعبوية وتقديس للموت والشهادة وتزمّت أخلاقي مُعَادٍ ضمناً للمدينة. فبعد الإنتفاضة ناشد جورج فريحة، أحد قياديي القوات ورئيس «الهيئات الشعبية»، المواطن في الشرقية كـ «عضو في الهيئات الشعبية، شئت أم أبيت. وأوّل ما يجمعك معنا هو الجوع والظَّفَر والحرمان وتشويه طبيعة لبنان الحلو». (**النهار** ٢٩/٣/١٩٨٥)، وفي معرض شرح الإنتفاضة رأى أحد قادتها، أنطوان بريدي، أنّ «انتفاضتنا كانت لكي نتمكن من النظر إلى أمهات الشهداء بعدما كنا نخجل من النظر إليهن لأنّنا عاجزون عن الإجابة عن تساؤلاتهن» (**السفير** ٢٧/٣/١٩٨٥). أمّا جورج عدوان رئيس «جهاز الأمانة العامة للهيئة التنفيذية»، فحدّد من «أسباب» الإنتفاضة، ما «وصل إليه المجتمع المسيحي من تخدير» متحدثاً عن «التراخي» و«الإنحلال السائد»، إذ أنَّ «المجتمع الذي نريد ليس مجتمع البينغو والكازينو والسيارات من دون لوحات» (**النهار** ١/٤/١٩٨٥).

الآخرين كانوا يوصِدونها الواحدَ بعد الآخَر. فإلى إشارات بقرادوني الودِّيةِ تجاهَ سوريا و«قوى التغيير» اللبنانية، تحدّثت «رويتر» عن اجتماعٍ تلا الإنتفاضةَ بين إرييل شارون ومُمَثِّلين عن «القوات»، لتربطَه بمخاوفَ من نزوحٍ مسيحيٍّ في منطقةِ جزين – روم[١٢٦].

قُصارى القول، إنَّ القواتِ، في تمرينِها الأوّلِ بعدَ الانتفاضةِ، أرسلتْ عناصرَها إلى شرقِ صيدا، وعلى مقربةٍ من «أمل» و«الاشتراكي» والمسلحين الفلسطينيين، فانفجرتِ المعاركُ في ١٧ آذار[١٢٧] وكانت موجةُ تهجيرٍ آخَرَ للمسيحيين على نِطاقٍ جَماعي.

استقبال الانتفاضة

أجمعت القوى والأطرافُ التي خاطبتْها الإنتفاضة، وهي مُتَناقضةٌ في ما بينَها، على توفيرِ استقبالٍ يتفاوتُ بين الحذرِ والعداءِ الصريح. ولم يكُنْ للإندفاعةِ نحو شرقِ صيدا سوى أنْ تَفاقَمَ العداءُ عند كثيرٍ من هذه الأطراف. ففي لبنان رأى رئيسُ الحكومة رشيد كرامي أنَّ الإنتفاضيين «يريدون تنفيذَ المشاريعِ القديمةِ الجديدة» متسائلاً «كيف نُصدِّقُ أنَّ إسرائيل ليست المستفيدة الوحيدة»[١٢٨]. وازدادتْ لهجةُ كرامي حِدّةً يوماً بيوم، إذْ بعدَ مخاطبتِه رئيسَ الجمهوريةِ بأننا «نحن معك لتحقيقِ الإنقاذِ والمُخْلِصون سيُكافَؤون»[١٢٩]، دَعا إلى «تحدّي هذه الحُثالاتِ من البَشَر»[١٣٠]. ولم يكُنْ أهْلُ «التغيير» أفضلَ حالاً، فوجَّهَ سليمان فرنجية ووليد جنبلاط[١٣١] ونبيه بري نداءً مشتركاً من دمشق يتَّسِمُ بالحِدّةِ حيالَ الانتفاضة[١٣٢]، ورأى بري أنّ «تَحرُّكَ جعجع ردٌّ إسرائيليٌّ سنقاومُه تسعين عاماً، وسوريا لا تحتاجُ إلى طلبٍ لضربِ المنْحى التقسيمي»[١٣٣]. وبدورِه طالَبَ محمد حسين فضل الله «بقرارٍ إسلاميٍّ في مواجهةِ القرارِ المسيحي»[١٣٤]، فيما حذَّرَ المفتي حسن خالد والشيخ محمد مهدي شمس الدين من عودةِ الحربِ الأهليةِ معتبرين «أنّ الظاهرةَ الطائفيةَ في الشرقيةِ تَصُبُّ في مخطَّطِ العَدُو»[١٣٥]. أمّا «اللقاءُ الإسلامي»

(١٢٦) انظر **النهار** ٢٤/٣/١٩٨٥.
(١٢٧) حول تدهور الأوضاع في صيدا وجوارها بعد الانتفاضة، راجع صحف ١٨ و١٩/٣/١٩٨٥.
(١٢٨) **السفير** ١٩/٣/١٩٨٥.
(١٢٩) **السفير** ٢٢/٣/١٩٨٥.
(١٣٠) **السفير** ٣١/٣/١٩٨٥.
(١٣١) وجد أحد المقربين من كمال جنبلاط في الإنتفاضة مناسبةً لرفع شكواه إلى السياسي الراحل في يوم ذكرى رحيله: «هو نفسُه حبيقة يجيئنا اليوم في ذكراك أيّها القائد الشهيد، فيصبح لكثرة جرائمه ولِحِدّة فاشِيَّته، قائد «انتفاضة» يُدافع عن «حرية» القرار المسيحي». فؤاد شبقلو في **السفير** ١٦/٣/١٩٨٥.
(١٣٢) راجع **النهار** ١٧/٣/١٩٨٥.
(١٣٣) **النهار** ١٩/٣/١٩٨٥.
(١٣٤) **السفير** ١٨/٣/١٩٨٥.
(١٣٥) **السفير** ٢٢/٣/١٩٨٥.

فطالَبَ بـ «تدابيرَ حاسمةٍ لوأْدِ الفِتْنة»(١٣٦)، بينما بدأت «مشاوراتٌ» بين الأحزابِ المؤيِّدة لسوريا لإنشاءِ «جبهةٍ وطنية» أخرى للردِّ على الانتفاضة(١٣٧)، ودعا عاصم قانصوه، أمينُ عام منظمةِ حزبِ البعثِ في لبنان، إلى «إقامةِ نوعٍ من الاتحادِ الكونفيدرالي بين لبنان وسوريا»(١٣٨). وحتى الرئيس صائب سلام حملَ على ما أسْماهُ «انتفاضة الشّارونيين» معلناً بدايةَ نهايةِ حزبِ الكتائب(١٣٩).

ولئن لم تزعجْ مواقفُ التقليديين، كالرئيسين سلام وكرامي والمفتي خالد، قادةَ الإنتفاضة ولا حَمَلَتْهُم على الإستغراب، فإنَّ مواقفَ الأحزابِ الثوريةِ التي سبقَ لبقرادوني أنْ ناشدَها، هي التي كانت مَثَارَ الإستغرابِ عند جعجع ما دامت أنّها هي أيضاً «أحزابٌ داعيةٌ للتَغْيير»(١٤٠).

أمّا دمشق التي اعتبرت الإنتفاضةَ موجَّهةً ضدَّها وضدَّ الإتفاقِ معها، فلم تكْتَفِ بتحريكِ جوقةِ المؤيدين في بيروت، بل اتخذت «إجراءاتٍ قُصْوى» بينَها إبْداءُ الاستعدادِ للتدخُّلِ العسكري(١٤١)، وقيامُ القواتِ السوريةِ فعلاً بقطعِ طريقِ المدفونِ وتعزيزِ مواقعِها(١٤٢). وقد سارع العميد خولي إلى تحديدِ وجهةِ النظر الرسمية في مقالٍ له في صحيفةِ «تشرين» حيث رأى أنَّ الانتفاضةَ «ليست مسألةً داخليةً» بل عملٌ «يصبُّ في خدمةِ إسرائيل بالضرورةِ وبشكلٍ مباشرٍ إنْ لم يكن استجابةً لرغبةٍ إسرائيليةٍ ولتنفيذِ مُهِمّةٍ إسرائيلية»(١٤٣) فيما كانت الصحفُ اللبنانيةُ تنقُلُ بياناً صادراً عن «منظمةِ حزبِ البعث» في لبنان يدعو إلى تَحْييدِ الجيشِ ويطالِبُ بحسْمِ الصراعِ في الشرقيةِ لصالحِ «الخيارِ العربيِّ السوري»(١٤٤). وفي خلال ١٢ ساعةً صَدَر تحذيرٌ سوريٌّ آخرُ إذْ نقلتِ «الوكالةُ العربيةُ السوريةُ» (سانا) عن مصدرٍ رسميٍّ قولَه: «لن نقفَ موقفَ اللامبالاةِ من التحركاتِ المشبوهةِ في لبنان»(١٤٥)، وأعادتْ دمشق التذكيرَ بأنَّ الانتفاضةَ «سعيٌ مجنونٌ لإعادةِ الإنفجار»(١٤٦)، وجدَّدتْ صحيفةُ «البعث» الدعوةَ إلى مواجهةِ «التحرُّك

(١٣٦) **السفير** ١٩٨٥/٣/٢١.
(١٣٧) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٩ **والنهار** ١٩٨٥/٣/٢٢.
(١٣٨) **الصياد** ١٩٨٥/٣/٢٧.
(١٣٩) صحف ١٩٨٥/٣/٢٧.
(١٤٠) انظر، مثلاً، خطابه في المؤتمر الطلابي الكتائبي في **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٤١) عن العرض السوري الذي رفضه أمين الجميل راجع «حوار وذكريات»، الحلقة ٧، في **الحياة** ١٩٩٠/١٢/١٠.
(١٤٢) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٧.
(١٤٣) **تشرين** ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٤٤) صحف ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٤٥) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٤٦) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٧.

المشبوه»(١٤٧)، وتولَّتْ سائرُ الصحفِ السوريةِ المطالبةَ بـ «استئصالِهم» لأنَّ «الحلولَ الوسطَ مع الخونةِ لا تُفيد»(١٤٨). بدوره حاولَ أمين الجميل امتصاصَ التوتُّرِ والحؤولَ دون تدخُّلٍ سوريٍّ أوسعَ نطاقاً، فنقلَ للرئيسِ الأسد أنَّ «الأمورَ تُشيرُ نحو الأحسن»(١٤٩)، إلّا أنَّ دمشق مَضَتْ في التشديدِ على «استئصالِ التحرُّكِ المشبوه» وأعلنَ رئيسُ حكومتِها عبد الرؤوف الكسم أنَّ «إسرائيل وأعوانَها» لن تستطيعَ «عرقلةَ الخطواتِ الإيجابيةِ نحو الوَحدة»(١٥٠)، وحدَّدتْ صحيفةُ «البعث» مخاوفَ سوريا من أنْ يكونَ «التمرُّدَ على الشرعيةِ اللبنانيةِ لإيصالِ إسرائيل إلى الخاصرةِ السورية»(١٥١). وكانت الحملةُ السوريةُ قد دفعتْ رئيسَ الجمهوريةِ للذهابِ إلى دمشق «لاستدراكِ ردّاتِ الفعل»(١٥٢). ومن قَبيلِ التَمْهيدِ لنجاحِ الزيارةِ عاجلَ الجميل في إلغاءِ وتعديلِ عددٍ من المراسيمِ الاشتراعيةِ كما سبقَ واتّفقَ على ذلك مع السوريين وحلفائهم اللبنانيين(١٥٣)، حتى إذا ما انتهتْ قِمّةُ الرئيسيْن نقلتْ صحيفة «السفير» أنَّ الجميل وعدَ باستيعابِ وإنهاءِ التمرُّدِ خلال شهريْن، وهو ما كرَّرتْهُ وسائلُ إعلامٍ قريبةٍ من دمشق(١٥٤).

هكذا لم تفعلْ حركةُ القواتِ سوى إنزالِ المزيدِ من الضعفِ بالموقعِ التفاوضيِّ للشرعيةِ اللبنانيةِ حيالَ السوريين، إلا أنَّ الإدانةَ لم تقتصرْ على الأخيرين إذْ وصلتْ شظاياها السوريةُ إلى العالَمِ العربي، والاتحادِ السوفياتي أيضاً(١٥٥).

فقد كتبتْ، مثلاً، صحيفة «السياسة» الكويتيةُ في رسالةٍ لها من بيروت أنَّ أحدَ أركانِ الانتفاضةِ «يدعو المسلمين للرحيل إلى مكة»(١٥٦)، وبدوره صرَّح من أثينا الأمين العام للجامعةِ العربيةِ الشاذلي القليبي بأنَّ «شقاقَ الكتائبِ مؤامرةٌ إسرائيلية»(١٥٧)، وما لبثَ «السفير» أنْ نقلت إدانتَه للقواتِ وتحذيرَه من «محاولةٍ إسرائيليةٍ للتقسيم»(١٥٨).

(١٤٧) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٨.
(١٤٨) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٨.
(١٤٩) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٠.
(١٥٠) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٩.
(١٥١) عن **النهار** ١٩٨٥/٣/٢٠.
(١٥٢) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٣.
(١٥٣) راجع **السفير** ١٩٨٥/٣/٢٣.
(١٥٤) **السفير** ١٩٨٥/٣/٢٤.
(١٥٥) في سعيه وراء الحركة والمبادرة الذاتية، ركّز جعجع في شرحه الإنتفاضة على الحدّ من الإهتمام بالتحولات الخارجية والإقليمية والدولية. هذا الإفراط في التعويل على دور التدخل التطوعي في الواقع، ساهم في إنتاج «سياسة خارجية» اعتباطية ومُجْلِبَةٍ للكوارث. انظر، مثلاً، خطابه في المؤتمر الطلابي الكتائبي في **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٥٦) **السياسة** (الكويتية) ١٩٨٥/٤/٣.
(١٥٧) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٨.
(١٥٨) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٩.

وفي موسكو وصفت «برافدا» الإنتفاضةَ بلُغةٍ سورية، فقالت إنّها «فتنةٌ تهدِّدُ مجدَّداً بخطرِ التقسيم»(١٥٩)، وكانت «النهار» قد لاحظتْ قبل أيامٍ «تركيزاً سوفياتياً على الوضعِ اللبناني» من نتائجه اتهامُ موسكو الولاياتِ المتحدةَ بأنَّها «وراء المتطرفين في القواتِ وتحركِهم»(١٦٠)، وكانت «نوفوستي» رأت أيضاً أن إسرائيل «تسعى إلى كانتونات في لبنان» وأن الإنتفاضة تندرجُ في هذا التصوُّر(١٦١).

ما زادَ بؤسَ الانتفاضةِ و«سياستَها الخارجيةَ» بؤساً أنَّ الولاياتِ المتحدةَ لم تكنْ إطلاقاً في هذا الواردِ. فهي نفسُها انضمَّتْ، وفي وقتٍ مُبَكِّر، إلى المحذِّرين، إذْ عبَّر بيانُ لوزارةِ الخارجيةِ تلاه الناطقُ باسْمِها إدوارد جيرجيان عن أنَّ أحداثَ الشرقيةِ تُعَدُّ «تطوراً سلبياً»، مع تأكيدِه الدعمَ «للحكومةِ المركزيةِ بقيادةِ الجميل»(١٦٢)، وبعد أقلَّ من أسبوع جدَّدَ جيرجيان دعمَه حكومةَ الجميل واصفاً تطوراتِ الشرقيةِ بأنَّها «خطيرةٌ جداً على الوضعِ اللبناني»(١٦٣).

حتّى إسرائيل لم تَبْدُ مستعدةً للضُلوعِ في المغامرةِ التي عُزِيَتْ إليها، فلم يَفُتْ صحافتَها التذكيرُ، الذي ينطوي على استصغارٍ مُرْفَقٍ بالتَوْريط، بأنَّ «الجيشَ الإسرائيليَّ انقذَ جعجع عندما كان محاصَراً في ديرِ القَمرِ في أيلول ١٩٨٣»، مضيفةً أنّه «زار إسرائيل مراراً وبصفةٍ خاصةٍ في الآونة الأخيرةِ من أجلِ العِلاج»(١٦٤).

وإلى إحْراجِ الصحافة، أدْلى السياسيون بدلْوهم نافضين اليَدَ من دمِ المَناطِقِ الشرقية، فقال رئيسُ الحكومةِ شيمون بيريز، وكان في واشنطن آنذاك، إنَّهم خارج المسألةِ تماماً مع تحذيرِه بأنّ سوريا تُحاولُ احتلالَ لبنان. أمّا مديرُ عامّ الخارجيةِ ديفيد كيمحي فأكّدَ أن بلادَه تراقبُ التأثيراتِ على أمنِها لكنّها لم تتدخَّلَ لِحمايةِ الميليشيات، فيما أعلن سكرتير مجلسِ الوزراء يوسي بيلين «أنّنا بعيدون جداً عن المسيحيين في لبنان، وليست هناك أيّةُ اتّصالات»(١٦٥).

ولئن اكتفى كيمحي بعد ثلاثةِ أيّامٍ بإبداء «التَّفَهُّم لدوافع» حركة جعجع(١٦٦)، فإنَّ صحيفة «دافار» الناطقة بلسان الهستدروت حكمت أنَّ الإنتفاضيين «يلعبون لعبة فاسدة سلفاً» وأنّها رغم تفهُّم الدوافع تعتبرُ أنَّ «إحياءَ التحالف بين المسيحيين وإسرائيل فات

(١٥٩) **السفير** ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٦٠) **النهار** ١٩٨٥/٣/٢١.
(١٦١) انظر **النهار** ١٩٨٥/٣/٢٠.
(١٦٢) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٤.
(١٦٣) **النهار** ١٩٨٥/٣/٢٠.
(١٦٤) **السفير** ١٩٨٥/٣/١٥.
(١٦٥) **النهار والسفير** ١٩٨٥/٣/١٨.
(١٦٦) **السفير** ١٩٨٥/٣/٢١.

أوانُه»(١٦٧).

لقد حاول الإنتفاضيون امتحان رد الفعل الإسرائيلي بعد أنْ كانت الأحداث المُمْتَدَّةُ من مصرع بشير وحتى الإمتناعِ عن إبرامِ معاهدة ١٧ أيّار، قد وحَّدت الحكومةَ والرأيَ العامَّ على موقفِ الإبتعادِ عن «المُسْتَنْقَعِ» اللبناني. وبهذا دفعت الإنتفاضةُ، ومعها «العشيرةُ» المسيحيةُ، كُلْفَةَ التُّهمةِ الإسرائيلية التي لم تُغْنِ المُتَّهَمِينَ بها ولم تُسْمِنْهُمْ من جوع.

(١٦٧) **صحف** ١٩٨٥/٣/٢١.

الفصل السادس

الحزب المستحيل

لم تتأخر الإنتفاضة التي أيّدتها التنظيماتُ الصغرى[1]، والجناحُ الأَقَلَّيُّ في «حزب الوطنيين الأحرار» وهو الذي نشـأ أصلاً كـ «تنظيم» لشعبيـة كميل شمعـون، في الإعلانِ عن ولادةِ منظمـةٍ باسم «منظمـة شباب الكتـائب» مؤيدةً لهـا[2]. وقد استمـرَّ هذا النهـجُ الإستبداليُّ على مدى الأشهر التاليةِ، فحاول إيلي حبيقة إنشاء «التجمع المسيحي للبنان الواحد» الذي ضمَّ بعض السياسيين ورجـالَ الأعمالِ المسيحيين بقصـد «إيجاد الهيئـةِ السياسيةِ البديلة من حـزب الكتائب، تحـاورُ بالنيـابةِ عنـه (أي عن حبيقة) ويختبىءُ هـو وراءَهَا»[3].

بدوره لم يتأخر إيلي كرامة رئيس حزب الكتائب الذي استشعـر المخاطـرَ المتعددة المصادر، في وصف الإنتفاضةِ بأنها «حركةٌ مسلحةٌ داخل الحزب وظاهرةٌ انقلابيةٌ خطيرةٌ جداً محذِّراً من أنَّ حزبَ الكتائب «في خطرٍ حقيقي»[4].

وفي المهرجان التاسع والأربعين لتأسيس الحزب أتَّهَمَ كرامة القوات «بمحاولة منعِ إقامة الحزب لمهرجانه في انطلياس» ووضعِ سيـارة مُفَخَّخَةٍ وحـواجزَ في طـريقه[5]، ولم يلبث كرامة أنْ أبـدى حِرْصَـهُ على «رفضِ التفاهم خـارج المؤسَّسات الحـزبية»[6] التي تَعَرَّضَت لامتهان الإنتفـاضيين. والراهنُ أنَّ الأخيـريْن، خصوصـاً منهم كريم بقـرادوني، كانوا لا يكفّون عن تبديدِ كلِّ إبهامٍ حول أهـدافِ حركتِهم في مـا يتّصلُ بحـزب الكتائب. ففي تبرير «نظَريّ» للانتفاضاتِ داخلَ الأحزاب، رأى بقرادوني أنّ «من الضروريِّ جداً أن يهتزَّ (الحزبُ) بعد رحيلِ مؤسِّسـة. الأمثلةُ كثيـرةٌ على ذلك. وتُصبِـحُ «الهزّةُ حتميّـةً لكي يَسْتَمِرَّ الحزْب. هذه هي سُنّةُ الحيـاة، بل قُـلْ هي الحتميةُ التـاريخية». وإذا كـان التعبيرُ

(١) ومنها تنظيمات كان لا يظهر لها اسم إلا في الكوارث العـامة، كـ «الاتحـاد الديمقـراطي المسيحي» الذي رأى أنّ «مبادىء حركة القرار المسيحي تتمحور حول مبدأين اساسيين هما: الديمقراطية ضمن المجتمع المسيحي والحق الطبيعي للشعب المسيحي في تقرير مصيره بنفسه». **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.

(٢) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٣. في سبيل متابعة التطورات الكتائبية على امتداد ١٩٨٥، انظر تحقيق نقولا ناصيف في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٣٠.

(٣) حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٤٢٩.

(٤) **النهار** ١٩٨٥/٤/١٦.

(٥) انظر صحف ١٩٨٥/١١/٢٥.

(٦) **النهار** ١٩٨٥/١٢/٨.

الأخيرُ المُسْتقى من ماركسيةٍ عموميةٍ قد استهوى بقرادوني، فهو لا يلبثُ أن يرى أنّ الانتفاضةَ عملٌ «يتوافقُ مع الحتْميةِ التاريخيةِ»[٧].

وبعد أنْ يتحدّث عن الطابعِ التغييريِّ في «القوات»، ولا سيما أثرِ الانتفاضة، يُلاحظُ بقرادوني «أنّ المشكلةَ (هي) داخلَ المجتمعِ المسيحيِّ لأنه تقليديٌّ ومحافظٌ أكثرَ مما هو تغييريّ. ونحن نأملُ أنْ ينتشرَ تيارُ التغيير، لأنَّ هناك مجموعةً كبيرةً من الشبابِ الذي كبروا في الحربِ فأصبحوا بعد عشرِ سنواتٍ من بدءِ هذه الحربِ أصحابَ القرار»[٨]. في هذا الاطار يتكاملُ الإستقلالُ السياسيُّ بأشكالٍ أخرى من الإستقلالِ الماليِّ والإداريِّ والوظيفي، إذْ «قبْلَ الإنتفاضةِ كانت القواتُ اللبنانيةُ مُعْتَمِدَةً سياسياً وعسكرياً ومالياً على حزبِ الكتائب. لكنْ منذُ الإنتفاضةِ أصبحتِ القُوّاتُ مستقلةً»[٩].

ويتولّى الياس ربابي بصياغةِ أرادها «محايدةً»، التعبيرَ عمّا أراده الإنتفاضيون على صعيدِ التنظيم، وهو لا يَقِلُّ عن «إنشاءِ مجلسِ تأسيسيّ أو هيئةٍ تأسيسيةٍ جديدة تحمل صفةَ الإهتمام بالطوارىء. ومفهومُ الطوارىء يكمنُ في ضرورةِ الإسراعِ في الإصلاحِ والتغييرِ لأنَّ الوضعَ لم يَعُدْ يتحمّلُ المماطَلةَ والتسويفَ والتأخير. ويعهد للمجلسِ التأسيسيِّ مهمةٌ محدّدةٌ ترتكزُ أوّلاً على تخويله سلطاتٍ واسعةً لفترةٍ معينةٍ يكونُ مُطْلَقَ الصلاحياتِ والتصرُّفِ في كلِّ التدابيرِ التي يراها الحزبُ ملائمةً للتغيير بَدْءاً من تبديلِ مواقعِ الحزبيين حتى تعديلِ الأنظمةِ والقوانين»[١٠].

في غُضون ذلك ومع الحصادِ البائسِ لمُواجَهةِ شرق صيدا والاستقبالِ السيّءِ الذي لاقتْهُ حركةُ ١٢ آذار، سارعت الإنتفاضةُ إلى الإعلانِ عن حوارٍ ومفاوضاتٍ مع الكتائب ما لبثَ أنْ تبيَّنت شكليتُها وسعيَها لكسبِ الوقت، فيما صُيِّرَ إلى تشكيلِ «لجنةٍ مشتركةٍ» على غِرارِ سائرِ الحالاتِ الحربيةِ والصداميةِ التي عرفَتْها الحربُ اللبنانيةُ منذ ١٩٧٥.

بدأتِ المفاوضاتُ في ١٩٨٥/٣/٢٦ فيما كانت تتصاعدُ أعمالُ قَضْمِ الحزبِ والدعواتُ التي تبرِّرُ هذا القضمَ، فالإنتفاضةُ تَرْمي في آخرِ المطَافِ، بحسبِ تحليلٍ صحافيٍّ آنذاك، إلى «إفراغِ حزبِ الكتائبِ من مؤسَّساتِه وقواعِده من الداخلِ من دون

(٧) من مقابلة **الصياد** معه في ١٩٨٥/٥/٨.
(٨) من مقابلة **الشراع** معه في ١٩٨٥/٩/٣٠.
(٩)
(١٠) **الكفاح العربي** ١٩٨٥/١٢/٩. كذلك راجع مقترحات حبيقة «للتوحيد والتغيير» في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٨. وقد لا يكون عديم الدلالة أنَّ الياس ربابي، الكتائبي التاريخي، الذي تعاطف مع الإنتفاضة آنذاك، كان من القلّة الريفية في الرعيل الكتائبي الأوّل كما كان أحد أبرز مؤسسي تقليد الخطابة العربية في الكتائب، راجع الفصل الثاني.

اللجوءِ إلى الصِدامِ الدامي»[١١]. وفي إشارتِها إلى هذا الطابعِ الانْقِلابيِّ تحدَّثَت «النهار» عن اسْتِقْطابِ «مَصْلَحةِ الطلاب»[١٢] و«إحياءِ الهيئاتِ الشعبيةِ في الأشرفية» وعن أنّ «بعضَ المسؤولين في «الإنتفاضة» استدعى عدداً من المَصْرفيين الكبارِ في المناطقِ الشرقيةِ [...] وأفهمَهم ضرورةَ وضعِ حدٍّ لِسُلَّمِ التلاعبِ بسعرِ الدولارِ الأميركيِّ في سوقِ بيروت»[١٣].

هذا المشروعُ الناحي نحو العُضْويةِ بجمْعِه الطلبةَ إلى الهيئاتِ الشعبيةِ والمَصْرفيين، وامْتِلاكِه القوّةَ العسكريةَ والمالَ، لا يمكنُ أن يتركَ مكاناً آخرَ لطرَفٍ آخَر، ناهيك عن حوارٍ جَدِّيٍّ معه. فكيف حين يعلنُ الإنتفاضيون، بلُغةٍ كثيراً ما تردّدت مفرداتُها في بيروتَ الغربية، أنَّ «المشروعَ الكتائبيَّ قد أوْصَلَ البلادَ إلى المأزق. أوْصَلَ المسلمين والمسيحيين على السواء»[١٤].

كان الحوارُ، إذن، تعبيراً عن حاجةٍ قوّاتيةٍ إلى كَسْبِ الوقتِ سياسياً والعملِ على قضمِ الحزبِ بهدوء، قابلتْها حاجةٌ كتائبيةٌ إلى كسبِ الوقتِ أمنياً حفاظاً على الجسمِ الحزبي والمحازبين[١٥]. وفي هذه الحدودِ تكاثرتْ حركاتُ المَدِّ والجَزْر، فقرَّرَ المكتبُ السياسيُّ الكتائبيُّ برئاسةِ كرامة، تعليقَ العملِ بقرارٍ كتائبيٍّ سابقٍ يَقْضي بوضعِ الوَحداتِ العسكريةِ الكتائبيةِ في إمْرةِ رئيسِ أرْكانِ القُوات[١٦].

مع هذا تَمَّ «الاتفاقُ» على دمجِ القوى العسكريةِ والأمنية[١٧]، وقد نتَجَ عنه تعيينُ ثلاثةِ أعضاءٍ جُدُدٍ في «الهيئةِ التنفيذية» هم جورج قسيس وسامي خديري وأسعد شفتري[١٨].

بعيداً عن هذا كلِّه، كانت ساحةُ المجابهة الأكثرُ سخونةً افتتاحيات «حصاد الأيّام»

(١١) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.
(١٢) حيث انعقد في ١٩٨٥/٣/٢٩، وبحضور جعجع، مؤتمر عام استثنائي لمصلحة الطلاب الكتائب بعد انقطاع دام سبعة أعوام في قاعة مدرسة القلبين الأقدسين، وقد أيد المؤتمر الانتفاضة واعتبرها «من قلب الحزب»، **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٣) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.
(١٤) من مقابلة مع بقرادوني اجرتها **كل العرب** ١٩٨٥/٤/١٠.
(١٥) قبل الانتفاضة بأشهر، اغتيل رئيس إقليم الكتائب في جبيل غيث خوري، بحيث ربط أكثر من معلق بين مصرعه، وهو المعارض لـ «القوات»، وبين «هيمنة» سمير جعجع على منطقة جبيل. أنظر، مثلاً لا حصراً، موفق مدني في **السفير** ١٩٨٤/١٠/١٥.
(١٦) **النهار** ١٩٨٥/٥/٣.
(١٧) راجع **العمل** ١٦ و١٩٨٥/٧/١٧، وكذلك تحقيق نبيل براكس ونوفل ضو عن هذه التسوية وحدودها في **النهار العربي والدولي** ١٩٨٥/٧/٢٨.
(١٨) انظر **النهار** ١٩٨٥/٧/١٩. بعد أشهر سمى صحافيو «القوّات» ذاك الحوار «حوار الطرشان». انظر تحقيق إيلي الحاج وروزانا الياس في **المسيرة** في ١٩٨٥/١٢/١٤، ومقال عيسى كفوري في **الجمهورية** في ١٩٨٥/١٢/١٤.

الأخيرُ المُسْتقى من ماركسيةٍ عموميةٍ قد استهوى بقرادوني، فهو لا يلبثُ أن يرى أنَّ الانتفاضةَ عملٌ «يتوافقُ مع الحتْميةِ التاريخيةِ»[٧].

وبعد أنْ يتحدّثَ عن الطابعِ التغييريِّ في «القوات»، ولا سيما أثرِ الانتفاضة، يُلاحظُ بقرادوني «أنّ المشكلةَ (هي) داخلَ المجتمعِ المسيحيِّ لأنه تقليديٌّ ومحافظٌ أكثرَ مما هو تغييريّ. ونحن نأملُ أنْ ينتشرَ تيارُ التغيير، لأنّ هناك مجموعةً كبيرةً من الشبابِ الذي كبروا في الحربِ فأصبحوا بعد عشرِ سنواتٍ من بدءِ هذه الحربِ أصحابَ القرار»[٨]. في هذا الاطارِ يتكاملُ الإستقلالُ السياسيُّ بأشكالٍ أخرى من الإستقلالِ الماليِّ والإداريِّ والوظيفيِّ، إذْ «قبْلَ الإنتفاضةِ كانت القواتُ اللبنانيةُ مُعْتَمِدَةً سياسياً وعسكرياً ومالياً على حزبِ الكتائب. لكنْ منذُ الإنتفاضةِ أصبحتِ القُوّاتُ مستقلةً»[٩]. ويتولّى الياس ربابي بصياغةٍ أرادَها «محايدةً»، التعبيرَ عمّا أرادَه الإنتفاضيون على صعيدِ التنظيم، وهو لا يَقِلُّ عن «إنشاءِ مجلسٍ تأسيسيٍّ أو هيئةٍ تأسيسيةٍ جديدة تحمل صفةَ الإهتمام بالطوارىء. ومفهومُ الطوارىء يكمُنُ في ضرورةِ الإسراعِ في الإصلاحِ والتغييرِ لأنَّ الوضعَ لم يَعُدْ يتحمَّلُ المماطَلةَ والتسويفَ والتأخير. ويعهد للمجلسِ التأسيسيِّ مهمةً محدّدةً ترتكزُ أوّلاً على تخويله سلطاتٍ واسعةً لفترةٍ معينةٍ يكونُ مُطْلَقَ الصلاحياتِ والتصرُّفِ في كلِّ التدابيرِ التي يراها الحزبُ ملائمةً للتغييرِ بَدْءاً من تبديلِ مواقعِ الحزبيين حتى تعديلِ الأنظمةِ والقوانين»[١٠].

في غُضونِ ذلك ومع الحصادِ البائسِ لمُواجَهةِ شرقِ صيدا والاستقبالِ السيِّءِ الذي لاقتْهُ حركةُ ١٢ آذار، سارعت الإنتفاضةُ إلى الإعلانِ عن حوارٍ ومفاوضاتٍ مع الكتائب ما لبثَ أنْ تبيَّنت شكليتَها وسعيَها لكسبِ الوقت، فيما صُيِّرَ إلى تشكيلِ «لجنةٍ مشتركةٍ» على غِرارِ سائرِ الحالاتِ الحربيةِ والصداميةِ التي عرفَتْها الحربُ اللبنانيةُ منذ ١٩٧٥.

بدأتِ المفاوضاتُ في ١٩٨٥/٣/٢٦ فيما كانت تتصاعدُ أعمالُ قَضْمِ الحزبِ والدعواتُ التي تبرِّرُ هذا القضمَ. فالإنتفاضةُ تَرْمي في آخرِ المطاف، بحسبِ تحليلٍ صحافيٍّ آنذاك، إلى «إفراغِ حزبِ الكتائبِ من مؤسّساتِه وقواعِدِه من الداخلِ مِن دون

(٧) من مقابلة **الصياد** معه في ١٩٨٥/٥/٨.
(٨) من مقابلة **الشراع** معه في ١٩٨٥/٩/٣٠.
(٩)
(١٠) **الكفاح العربي** ١٩٨٥/١٢/٩. كذلك راجع مقترحات حبيقة «للتوحيد والتغيير» في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٨. وقد لا يكون عديم الدلالة أنَّ الياس ربابي، الكتائبي التاريخي، الذي تعاطف مع الإنتفاضة آنذاك، كان من القلّة الريفية في الرعيل الكتائبي الأوّل كما كان أحد أبرز مؤسسي تقليد الخطابة العربية في الكتائب، راجع الفصل الثاني.

اللجوءِ إلى الصدامِ الدامي»[١١]. وفي إشارتها إلى هذا الطابعِ الانْقِلابيِّ تحدَّثَتِ «النهار» عن استِقْطابِ «مَصْلحةِ الطلاب»[١٢] و«إحياءِ الهيئاتِ الشعبيةِ في الأشرفية» وعن أنّ «بعضَ المسؤولين في «الإنتفاضة» استدعى عدداً من المَصْرفيين الكبارِ في المناطقِ الشرقيةِ [...] وأفهمَهم ضرورةَ وضعِ حدٍّ لِسُلَّمِ التلاعبِ بسعرِ الدولارِ الأميركيِّ في سوقِ بيروت»[١٣].

هذا المشروعُ الناحي نحو العُضْويةِ بجمْعِه الطلبةَ إلى الهيئاتِ الشعبيةِ والمَصْرفيين، وامْتِلاكِه القوّةَ العسكريةَ والمالَ، لا يمكنُ أن يتركَ مكاناً آخرَ لطرَفٍ آخَر، ناهيكَ عن حوارٍ جَدِّيٍّ معه. فكيف حين يعلنُ الإنتفاضيون، بلُغةٍ كثيراً ما تردَّدت مفرداتُها في بيروتَ الغربيةِ، أنَّ «المشروعَ الكتائبيَّ قد أوْصَلَ البلادَ إلى المأزق. أوْصَلَ المسلمين والمسيحيين على السواء»[١٤].

كان الحوارُ، إذن، تعبيراً عن حاجةٍ قوّاتيةٍ إلى كَسْبِ الوقتِ سياسياً والعملِ على قضمِ الحزبِ بهدوء، قابلتْها حاجةٌ كتائبيةٌ إلى كسبِ الوقتِ أمنياً حفاظاً على الجسمِ الحزبي والمحازبين[١٥]. وفي هذه الحدودِ تكاثرتْ حركاتُ المَدِّ والجَزْر، فقرَّرَ المكتبُ السياسيُّ الكتائبيُّ برئاسةِ كرامة، تعليقَ العملِ بقرارٍ كتائبيٍّ سابقٍ يقضي بوضعِ الوحداتِ العسكريةِ الكتائبيةِ في إمْرةِ رئيسِ أرْكانِ القُوات[١٦].

مع هذا تَمَّ «الاتفاقُ» على دمجِ القوى العسكريةِ والأمنية[١٧]، وقد نتجَ عنه تعيينُ ثلاثةِ أعضاءٍ جُدُدٍ في «الهيئةِ التنفيذية» هم جورج قسيس وسامي خديري وأسعد شفتري[١٨].

بعيداً عن هذا كلِّه، كانت ساحةُ المجابهةِ الأكثرُ سخونةً افتتاحياتِ «حصادِ الأيّام»

(١١) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.
(١٢) حيث انعقد في ١٩٨٥/٣/٢٩، وبحضور جعجع، مؤتمر عام استثنائي لمصلحة الطلاب الكتائب بعد انقطاع دام سبعة أعوام في قاعة مدرسة القلبين الأقدسين، وقد أيد المؤتمر الانتفاضة واعتبرها «من قلب الحزب»، **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٣) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.
(١٤) من مقابلة مع بقرادوني اجرتها **كل العرب** ١٩٨٥/٤/١٠.
(١٥) قبل الانتفاضة بأشهر، اغتيل رئيس إقليم الكتائب في جبيل غيث خوري، بحيث ربط أكثر من معلق بين مصرعه، وهو المعارض لـ «القوات»، وبين «هيمنة» سمير جعجع على منطقة جبيل. أنظر، مثلاً لا حصراً، موفق مدني في السفير ١٩٨٤/١٠/١٥.
(١٦) **النهار** ١٩٨٥/٥/٣.
(١٧) راجع **العمل** ١٦ و١٩٨٥/٧/١٧، وكذلك تحقيق نبيل براكس ونوفل ضو عن هذه التسوية وحدودها في **النهار العربي والدولي** ١٩٨٥/٧/٢٨.
(١٨) انظر **النهار** ١٩٨٥/٧/١٩. بعد أشهر سمى صحافيو «القوّات» ذاك الحوار «حوار الطرشان». انظر تحقيق إيلي الحاج وروزانا الياس في **المسيرة** في ١٩٨٥/١٢/١٤، ومقال عيسى كفوري في **الجمهورية** في ١٩٨٥/١٢/١٤.

في جريدةِ «العمل». فقد اغتنمَ كاتبُها جوزيف أبو خليل، الذي أحاطَ ببشير الجميل حتى مصرعِه ليعودَ أدراجَه إلى الحزب، فرصةَ الإنتفاضةِ ليُثيرَ سجالاً غنياً ضدَّ أشكال الوعيِ التوتاليتاريِّ والانقلابي.

هكذا سجّلت «العملُ» مُبَكِّراً أنَّ في الإنتفاضةِ «كلَّ ملامحِ الحركةِ الانقلابيةِ، والغرضَ منها هو الإستيلاءُ على السلطةِ، سواءٌ في حزبِ الكتائب أو في «القواتِ اللبنانية»»[١٩]. وفي اليومِ التالي ساجلتِ الإنتفاضيين دفاعاً عن «الصيغةِ» وعن أنَّ حزبَ الكتائب هو «حزبُ الصيغة»[٢٠]، لتصفَ الإنتفاضةَ بأنها «مشروعُ لامركزيةٍ سياسيةٍ وأمنيةٍ لا يُنَفَّذُ إلّا بالحربِ وقوةِ السلاح، ولا يؤدّي، نتيجةً لذلك، إلّا إلى التقسيمِ الفِعْلي»[٢١]. ولا تلبثُ زاويةُ «من حصاد الأيام» أن تطرحَ فكرةَ التسليم للدولةِ إذْ أنَّ «إحياءَ الدولةِ مستحيلٌ من دونِ التنازلِ لها سلفاً، وهي لن تكونَ أبداً إذ لمْ تُسَلَّفْ سلطاتٍ وأموالاً وصلاحياتٍ وقدراتٍ، وخضوعاً أيضاً لدستورِها وقوانينِها»[٢٢].

وفيما قارنَ آنذاك بعضُ المعلِّقين الحياديين «الإنتفاضة» بالصَحْواتِ الدينيةِ الأصوليةِ، ذاهبين إلى أنها تنطوي على صحوةٍ دينيةٍ مسيحيةٍ[٢٣]، طرحت «العمل» الخيارَ بين لبنانَيْن، واحدٌ من الناقورة إلى النهر الكبير، والآخرُ الذي هو «لبنان سمير جعجع» من المدفونِ إلى كفرشيما[٢٤]. وسريعاً ما أُطلِقَتِ الشَّكْوى من اضطرابِ حبلِ الأمنِ في المناطقِ الشرقيةِ حيث أنَّ «أمنَ المجتمعِ المسيحي» الذي رفعتْهُ الانتفاضةُ شعاراً، «لا يتحققُ فقط على خطوطِ التّماس، بل أيضاً في داخلِه ومن خلالِ العلاقةِ بين الإنسانِ والإنسان»[٢٥]. وطورتِ «العمل» سجالَها لتتناولَ اللجوءَ إلى الأحْوالِ الإستثنائيةِ في الإنتفاضاتِ وتمهيدِها للديكتاتوريةِ ولإفقارِ الصراعِ على السلطةِ من كلِّ مضمونٍ سياسي[٢٦]. وفي تمييزِها بين «جيلِ الحربِ القواتي» و«جيلِ ما قبلَ الحربِ الكتائبي»، أشارتْ إلى «نظرةِ جيلِ الحربِ إلى لبنانَ الذي لم يعرفْ منه إلّا نصفَه، على عكسِ ما هي حالُ الجيلِ الآخر، وقد ظلت الذكرياتُ تربطُه بلبنانَ ما قبلَ الحربِ وبالحنين إليه أيضاً، فبدا الأوَّلُ كما لو أنه جيلٌ تقسيميٌّ فيما الثاني هو توحيدي»[٢٧].

(١٩) **العمل** ١٩/٣/١٩٨٥. راجع أيضاً مواقف الكتائب، كما عكستها صحيفة الحزب، من المحاور الإيديولوجية والسياسية التي أثارتها الإنتفاضة وصِلَة ذلك بمسائل الوفاق اللبناني ـ اللبناني في **العمل** ١٥/٣/١٩٨٥.

(٢٠) **العمل** ٢٠/٣/١٩٨٥.

(٢١) **العمل** ٢١/٣/١٩٨٥.

(٢٢) **العمل** ٢٣/٣/١٩٨٥.

(٢٣) انظر، مثلاً، مقالة وفائي دياب في **الصياد** ٢٧/٣/١٩٨٥.

(٢٤) **العمل** ٢٨/٣/١٩٨٥.

(٢٥) **العمل** ٢٧/٦/١٩٨٥.

(٢٦) انظر **العمل** في ١٣/٧/١٩٨٥.

(٢٧) **العمل** ١٤/٧/١٩٨٥.

وبعد صدورِ صحيفتي «عمل» متنافستيْن، ظلت «العمل» الكتائبيةُ تتساءلُ بجرأةٍ ملحوظةٍ، وكأنها تبحثُ عن مصادرِ السياسةِ التي غَيَّبَتْها الحرب: «من أين تستمدُّ الهيئةُ التنفيذيةُ سلطتَها؟ ومن هي الهيئةُ الانتخابيةُ التي انتَخَبَتْ أعضاءها؟ وكيف يصيرُ التغييرُ فيها إنْ لم يكُن بـ «الإنتفاضاتِ» المتلاحقة؟ وهل قراراتُها قراراتٌ ديمقراطيةٌ وبأيِّ مِقْدار؟»[٢٨].

وفيما كان السِّجالُ ضدَّ «القواتِ» على أشدِّه، اقتحمَ مسلَّحو «القواتِ» مبنى جريدةِ «العمل» في ٢٤/١٠/١٩٨٥، بعد أن كانت قد صُودِرَتْ إذاعة «صوت لبنان» الكتائبيةُ وأُقْصِيَ مديرُها العامُّ جوزيف الهاشم، ليُعَيَّنَ بدلاً منه نبيل عون القُوّاتي[٢٩].

هكذا اعتُقِلَ رئيسُ التحرير جوزيف أبو خليل ثم أُودِعَ الإقامةَ الجبريةَ التي لم تُرْفَعْ عنه إلا في ٢/١١/١٩٨٥، لم يتردّدْ في التصريحِ بُعَيْدَ إطلاقِ سَراحِه بأنّ الكتائبيين مسؤولون عن ماردٍ خلقوه ويُريدُ ابتلاعَهم، مُعْلِناً تخوُّفَه من أنّ الإنتفاضيين «يُريدون فرضَ ديكتاتوريةٍ لإقامةِ لبنان، كما يتصوّرونه، لكنهم لا يُدْرِكون أنْ لا وجودَ للبنان من دون حرية»[٣٠].

وحين جددت «العمل» صدورَها لتوزَّعَ بصورة سرِّيَّة[٣١]، وذلك قبل أيامٍ قليةٍ على إطلاقِ رئيسِ تحريرِها، دَهَمَتِ «القُواتُ» مجلةَ «لوريفاي» لتمنعَ إصدارَ «العملِ» الكتائبيةِ

(٢٨) **العمل** ١٠/١٢/١٩٨٥. في تحديد يحاول أنْ يكونَ جامعاً للفوارق بين الكتائب والقوات، لاحظت الجريدة نفسها «أكثر من تناقض واحد. يكفي أنْ نتذكر أنَّ «القوّات» هي من مواليد الحرب لكي ندرك عظم الفوارق بينها وبين حزب ولد قبل الحرب ومارس «الأصول» في حلّ النزاعات. هذه الأصول تحتاج إلى إعادة نظر؟ لا مانع من ذلك. لكن لا سلطةَ لأحد على الناس من دون أصول». **العمل** ١٢/١٢/١٩٨٥. وبحسب رواية أمين الجميل للانتفاضة: «هناك حرب أجيال في حزب الكتائب، وربما حرب مناطق [...] وعندما توفي الشيخ بيار صعدت كل هذه المشاعر إلى السطح وبدأت تتفاعل. ومنها أنَّ جيلاً كان يُحاول البروز على حساب جيل آخر. وهناك الذين كانوا يعتبرون أنّهم من مناطق محرومة فضلاً عن الطامحين والمغامرين. والمؤسف أنَّ السلاح المنتشر في أيدي الجميع ساهم، مع عامل المال، في فرض إرادات على إرادات». أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ٧، **الحياة** ١٠/١٢/١٩٩٠.

(٢٩) انظر **النهار العربي والدولي** ٥/١/١٩٨٦.

(٣٠) أنظر صحف ٢٥/١٠/١٩٨٥ **والسفير** في ٢/١١/١٩٨٥.

(٣١) تولّى رئاسة تحرير «العمل» القواتية سجعان قزي الذي هو «كتائبي ملتزم منذ العام ١٩٧٣». بحسب المعلومات التي وزعتها القوات. انظر صحف ٣٠/١٠/١٩٨٥. وبدوره كانت لقزي آراؤه حول المؤسسات الكتائبية التي استولت عليها القوات، إذْ «التفاوض يجب أنْ يكون على ما بقي وليس على ما حصل (...) إنَّ القضية قضية تغيير ستشمل كل شيء». من حوار **النهار العربي والدولي** معه في ٩/١٢/١٩٨٥. يسير هذا الميل إلى السطو على الغنائم والاسلاب مع ميل وحدوي مؤكد، حيث أنَّ «الحل» ـ كما تكتب العمل القواتية ـ «يعني مؤسسة توحد الكتائب والقوات»، ذلك أنَّ الانتفاضة «لا بدَّ أنْ تلد حزباً كتائبياً بثوب عصري يفتح يديه وأبوابه ونوافذه لاستقبال كلِّ الوافدين وكلّ الكفايات وكلّ المسيحيين عشيّة استعداد شعبنا لولادة يسوع». **العمل** (القواتية). ١٠/١٢/١٩٨٥.

من مطابعها كما نصبتِ الحواجزَ وفتّشَتِ السياراتِ بحثاً عن النَشْرةِ السِّرِّيَّة[٣٢].

وفي وصف جوزيف أبو خليل لِمَا أنزلَه إيلي حبيقة بالحزبِ الذي انتسبَ إليه، فإنَّه «ضيَّقَ على حزبِ الكتائب إلى حدِّ «الإقامةِ الجبريةِ في «بيتِ الكتائب» المركزيّ. بل أكثر من ذلك، وضعَ على هذه القيادةِ مُراقبةً دائمةً بواسطةِ عُمَلاءَ ومُخْبِرين سريين، وبواسطةِ أجهزةِ التقاطٍ حديثةٍ كان كل شيءٍ يَدُلُّ على أنها معلّقةٌ في أمكنةٍ معيّنةٍ من «بيتِ الكتائب» لكنّها لا تُرى ولا تقعُ عليها عينٌ أو نَظَر»[٣٣].

مجتمع الانتفاضة

لم تَكُفَّ الإنتفاضةُ عن توليدِ الإنتفاضاتِ المتلاحقةِ، كما يحصلُ دائماً في الأعمالِ الثوريةِ التي لا تعبأ بالاحتكام إلى شرعيّةٍ دستورية. ولا يُؤْتى بجديدٍ حين يقالُ إن هذا المَسارَ قد آلَ في حصيلتِه الإجماليةِ إلى نتائجَ كارثيةٍ لا على حزبِ الكتائبِ أو الموارنةِ والمسيحيين وحدَهم، بل على لبنانَ بأسْرِه.

فالقاعدةُ التقليديةُ للدولةِ والمؤسّساتِ أضحتْ منطقةً عربيةً أخرى من مناطقِ الثوراتِ والتفتّت الدموي، حيث الريفُ يرزحُ على صدر المدينة، والميليشيا على صدرِ الحزب، وفورةُ الغضبِ والحماسةِ على صدرِ الانتظامِ المؤسَّسي. ولمّا استحالَ أن يُنتجَ التفتتُ الثوريُّ في المَناطقِ المسيحيةِ نظاماً استبدادياً قوياً وقادراً على الإمتدادِ إلى سائرِ البقاعِ اللبنانية، كان أثره الوحيدُ مزيداً من التفتّتِ والفوضى اللذَيْن أضعفا الموقعَ التفاوضيَّ للمجتمعِ والحكمِ اللبنانيَيْن سواءً بِسَواء.

فبعمل تآمريّ أصبحَ الرجلُ الثاني في الإنتفاضة، إيلي حبيقة، رجلَها الأولَ، إذْ سُمِّيَ في ٩ أيار ١٩٨٥ رئيساً لـ «الهيئةِ التنفيذيةِ» في القوات، وذلك بعد إحْباطه عملاً تآمُرياً، هو الآخرُ، قام به شريكاه سمير جعجع وكريم بقرادوني[٣٤]، وتمثَّلَ برسالةٍ سريةٍ منهما إلى أمين الجميل[٣٥].

ولم يتباطأ القائدُ الجديد، الباحثُ عن كنفٍ يقيه متاعبَ الحربِ والصراعِ مع المنافسين الكُثْرِ وسطَ عزلةٍ متعاظمةٍ ومسلسلاتِ فصلٍ متلاحقةٍ، في السيرِ نحو «الخيارِ

(٣٢) في وصفه لمكتبه في العمل، بعد عودته إليه، يستعمل أبو خليل تعابير تليق بالقبائل الغازية، إذ «اعملت فيه يد السبي والنهب والتخريب كأنه مكتب أو مقر لعدو». جوزف أبو خليل، «حرب لبنان...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٥٢ **الحياة** ٧/٩/١٩٨٩.
(٣٣) المرجع السابق، الحلقة ٤٧، **الحياة** ١/٩/١٩٨٩.
(٣٤) راجع التفاصيل في صحف ١٠/٥/١٩٨٥، وفي مجلة **الكفاح العربي** ٢٠/٥/١٩٨٥، كذلك أنظر حوار **السفير** التليفوني مع جعجع في ١٠/٥/١٩٨٥.
(٣٥) نشرها أمين الجميل في مذكراته، «حوار وذكريات»، الحلقة ٧، **الحياة** ١٠/١٢/١٩٩٠.

السوري»، وصولاً إلى ما أسماه أحدُ المعلّقين «سِلْم العسكر» لا سِلم السياسيين[٣٦].

فمثلُ هذا الحسمِ هو ما يَضَعُ حداً للتناقضاتِ التي اتّسمت بها الإنتفاضةُ منذ ولادتِها العشوائية، وفي رأسِها التناقضُ بين الرغبةِ في الإنفتاحِ على سوريا وحلفائها اللبنانيين، والرغبةِ في تجديدِ الصلةِ بإسرائيل و«وقفِ التنازلاتِ لسوريا».

هكذا اجتمعت «الهيئةُ التنفيذيةُ» برئاسةِ حبيقة للمرةِ الأولى في ١٣ أيار[٣٧]، ثم أصدرت قرارتها بإقفالِ المكتبِ التمثيليِّ في إسرائيل والترحيبِ بنشرِ قوةٍ من الجيش في جزين والدعوةِ إلى وقفٍ نهائيٍّ للنار[٣٨].

لقد كانت الصورةُ الشائعةُ عن «القوات اللبنانية» أحَدَ العناصرِ الدافعةِ في سبيلِ التوصُّلِ إلى السلامِ كيفما اتّفق. فقد أضْحَتِ الصورةُ المذكورةُ، كجسمٍ ورَمِيّ متضخّمٍ وككيانٍ طُفَيْليّ لا تحولُ دعواتُه إلى الصرامةِ الأخلاقيةِ دون الإصطدامِ بحياةِ الناسِ ورغباتِهم وأذواقِهم، صورةً ضاغطةً على بعضِ الجسمِ القياديِّ الذي أصابَهُ البَرَمُ بالحرب، فأرادَ أن يحافظَ على مكاسبَ وامتيازاتٍ تحت غطاءٍ سلميّ ومشروع. ذلك أنَّ القواتِ أصبحت «ملجأً لكُلِّ العاطلين عن العمل وقبضاياتِ الأحياء، بل الإطارَ لصالحِ تجميعِ كلِّ الذين جعلتِ الحرب منهم مقاتلين قُساةَ القلوبِ لا يسألون لا عن قيمةِ الإنسانِ ولا عن حياته»[٣٩].

وبكثيرٍ من التعرُّج، آلَ هذا المَسارُ إلى المفاوضاتِ التي انتهت بتوقيعِ «الإتّفاقِ الثلاثي» في دمشقَ بين «القوات» و«أمل» و«الحزب التقدمي الاشتراكي»، فيما وقّعَ وزيرُ الخارجيةِ السوري عبد الحليم خدام كشاهدٍ على تواقيعِ الأطرافِ الثلاثة. لكن لئن أثارَ التكتُّمُ حولَ المفاوضاتِ ريبةً مسيحيةً واسعةً وتخوّفاً من نتائجَ يَتِمُّ فرضُها على المسيحيين من وراءِ ظهورِهم، خصوصاً أنَّ الصورةَ الطاغيةَ لحبيقة كرجلِ أمنٍ كانت تُذكي هذه المشاعرَ، فإنَ الإعلانَ عن الإتّفاقِ لم يعملْ على تهدئةِ المخاوفِ بل زادَها تأجُجاً.

فلا «العلاقاتُ المميَّزةُ» مع سوريا و«إعادةُ تأهيلِ الجيش» اللبنانيّ ولا تقريبُ التربيةِ والتعليمِ اللّبنانيَّيْن من مثيلَيْهما السوريين، شعاراتٌ جذابةٌ عند المسيحيين. أمّا ما أراده حبيقة، بحساباتٍ عَصَبَويّةٍ ضيقة، تجاوزاً لأمين الجميل، فعَنى في هذه الحالِ تجاوزاً للشرعيةِ الدستوريةِ ودورِها، الأمرُ الذي يُشبهُ إنقلابيةَ «الإتفاقِ الثلاثي»[٤٠]

(٣٦) انظر نقولا ناصيف في **النهار** في ١١/٥/١٩٨٥.
(٣٧) صحف ١٥/٥/١٩٨٥.
(٣٨) صحف ١٩/٥/١٩٨٥.
(٣٩) جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٤٧، **الحياة** ٢/٩/١٩٨٩.
(٤٠) من العلامات الأخرى على هذه الإنقلابية استبعاد الطائفة السنية كلياً، واختزال الطائفة الشيعية بالمحامي

وأطـرافَـه ورعــاتَـه من دون أنْ يَلْقى التـرحيبَ في مـا تبقّى من تقليـدٍ سيـاسيّ عنـد المسيحيين.

وإذا كانت تعهداتُ حبيقة المكتوبةُ وغيرُ المكتوبةِ للسـوريين، قد زادَتِ القلق، فـإنَّ استبـدالَ السوريين وحلفـائهم أوصافَ «الـزمرة الإسـرائيلية» ومـا شـاكلَهـا في وصفِ «القوات»، بأوصافِ «المُحاور الأساسي و«الطرفِ القويِّ على الأرض» إلخ... مـا كان لـه غيرُ مفاقمةِ التوجّس، خصوصاً أنَّ هذا التحولَ هو ما انتجتْهُ قنواتٌ خَفيَّةٌ واتصالاتٌ كـان الناسُ كلُّهُم في منأىً عنها.

بهذا، فحينُ وُقِّعَ الاتفاقُ في ١٩٨٥/١٢/٢٨، بعد الاجتمـاعِ الفاشلِ الذي دعـا إليه قبلَ يوم واحدٍ المدبِّرُ الرسوليُّ المطران إبراهيم حلـو للوصـولِ إلى موقفٍ مسيحيٍّ موحَّد[٤١]، كانَ من الواضحِ أن العملَ الجديدَ لـلإنتفاضـة سيتسبَّبُ في مذبحـةٍ مسيحيةٍ أخرى ينتقلُ معها التفتُّتُ إلى داخلِ «القوات اللبنانية» نفسِها.

فالإقدامُ على تـوقيعِ الاتفـاقِ الذي اعتبره كثيرون من المسيحيين بمثـابةِ خيـانةٍ وطنيـة، لم يكُنْ لينفصلَ عن المجتمـعِ الذي حـاولت الإنتفاضـةُ أن تقيمَه قسْـراً ولا عن السياسةِ العشوائيةِ التي اتَّبَعَها.

ففي أواخرِ ١٩٨٥ تحدّثت «النهار» عن استنفار لـ «القـوات» واشتباكـاتٍ ليليةٍ في المناطقِ الشرقية[٤٢]، لتتحدثَ بعد يومٍ واحدٍ عن اشتباكاتٍ مَوْضِعيَّةٍ حصلت بين أنصار حبيقة وأنصار جعجع، كما بين الأوّلين والجيش[٤٣].

داخـلَ «القوات» صـادرَ مسلَّحو حبيقـة عددَ مجلـةِ «المسيرة» بسببِ تـأييـدِه خطَّ جعجع الرافضِ لـ «الاتفاقِ الثلاثي»، من خلال مقالِ الغلافِ الذي حمـل عنوانَ «الاتفـاق على نهر الموت» وقد كتبه إيلي الحاج ناقلاً النقاشاتِ الداخليةَ في «القوات» حول الإتّفاقِ المذكورِ والتصويتِ عليه[٤٤].

فإذا كان حبيقة، وللأسبابِ التي سبقت الإشارةُ إليها، رجلَ الحلِّ كيفما اتّفق، فـإن جعجع هو رجلُ تعقيدِ الحلّ وتصعيبه لأسبـابٍ لا تَخْفى. فالجَمْهـرةُ المُهَجَّرَةُ التي يُمَثِّلُهـا جعجع تعرفُ أنَّ عودتَها إلى مناطقِها الأصليّـةِ لا تُؤتى بالإنتصـارِ والغَلَبة، فـإذا حَصَلَتْ بغير ذلك كان الذلُّ الذي يهون حياله احتمالَ شظفِ الحربِ و«الصمودِ» وسائر القيم التي

نبيه بري، فضلاً عن تمثيل المسيحيين كلهم بحبيقـة الذي، كمـا كتبت العمل، «ليس بيـار الجميل ولا بشـارة الخوري أو كميل شمعون»، **العمل** ١٩٨٦/١/٢١.

(٤١) انظر صحف في ١٩٨٥/١٢/٢٨.
(٤٢) **النهار** ١٩٨٥/١٠/١٥.
(٤٣) **النهار** ١٩٨٥/١٠/١٦.
(٤٤) **المسيرة في** ١٩٨٦/١/١٤.

لا يملكُ مثلها شبانُ المدنِ وأطرافُ الأحياء. فكيف حين نُضيفُ صدورَ جعجع عن مارونيةٍ سابقةٍ على التعايُشِ وسابقةٍ، تالياً، على المدن[٤٥]، من دون أنْ تكونَ معنيَّةً على الإطلاقِ بالإعتباراتِ الإقتصاديةِ (التي تحتقرها) للوفاقِ مع الجوارِ العربي.

إنَّ ما كان مُمْكِناً ضبطُه داخلَ البشريةِ من أجسامٍ جنينيـةٍ ونواتيـةٍ لم يَعُدْ قـابلاً للضبط بعد رحيلِ القائدِ وما فعلتْهُ الحربُ «التوحيديةُ» من مفاقمةِ التفاوتِ داخلَ التركيبةِ الواحدة.

هكذا تمادى العنفُ وراحَ ينمـو تدريجـاً، فأُطلقتِ النـارُ على موكبِ أسـعد شفتري رئيسِ «جهازِ الأمنِ القوميِّ» في القـوّات، وعلى موكبِ رئيسِ الجمـهـورية أمين الجميـل. وفيما سادَ حالٌ من التوتُّرِ في المناطقِ الشرقيةِ التي قُطِّعَ بعضُ طُرقاتِها، اعتبرتْ صحيفـةُ «الجمهورية» المقرّبةُ من حبيقة[٤٦] أنّ محاولةَ اغتيال شفتـري «استهدفتْ حبيقـة» الذي انفصلَ عنه في جـونيه. ولئن حمّلت «القـوّات» جهازَ أمين الجميـل المسؤولية[٤٧]، اتَّهمَ حبيقة «مرتزقةَ صـاحبِ القصر»[٤٨]، لتنـدلعَ اشتبـاكاتٌ بين أنصـار الاثنيْن خلّفت «قتلى وجرحى وحرائقَ»[٤٩] فضلاً عن احتراقِ خزّانيْن في الدورة.

في غضونِ ذلك، وفي ١٠ كانون الثاني، اقتحمَ مسلَّحون صحيفةَ «الجمهوريـة» كما مُنِعَ توزيعُها في المتن ودوهِمَتْ مطابعُها وأُصيب ثلاثةٌ من موظّفيها[٥٠]. وتلاحقَ التـدهورُ بصورةٍ مُتَسارِعة، فحاولتْ قوّاتُ حبيقة التقدّمَ نحو المتنِ الشمالي، الأمرُ الذي حوَّلَ هـذه المنطقةَ إلى مسرحٍ لاشتباكاتٍ تـرافقت مع التهيّـوء للقمة اللبنـانية ـ السـورية الحـاديةَ عشرة. وبعد يومَيْن، أي في ١٥ كانون الثاني دخلت قـواتُ جعجع[٥١] في معـاركَ واسعةِ النطاقِ ضدَّ قواتِ حبيقة آلتْ إلى سقوطِ مواقعِه كلِّها ومغادرتِه لبنان مع عددٍ من معاونيـه وأتْباعِه[٥٢]. وقد وصفتْ «غرفة العملياتِ في الصليب الأحمر اللبناني» الأكلافَ الإنسانيةَ للمعركةِ الأخيرة بما يلي: «نَقْلُ ١٦١ جريحاً، ١٣٢ مريضـاً، تَكْفينُ ١٢٨ جثة، تـأمينُ ٤٤ وحدة دم ووُزِّعتْ على المستشفيات، إخلاءُ ٤٧ مدنيـاً حُوصِـروا في أماكِنَ عِـدة، وتعرُّضُ ثلاثةِ مُسْعِفِين لإطلاق نارٍ وإصابتهم بِجُروح»[٥٣].

(٤٥) راجع الفصل الأول.
(٤٦) **الجمهورية في** ١٩٨٦/١/٣.
(٤٧) صحف ١٩٨٦/١/٣.
(٤٨) **النهار** ١٩٨٦/١/١٤.
(٤٩) بحسب **الجمهورية** ١٩٨٦/١/١٤ بلغت «كلفة الفوضى في المتن» ٢٠ قتيلاً و٦٠ جريحاً.
(٥٠) **الجمهورية والنهار** ١٩٨٦/١/١١.
(٥١) في أيار وحين تولّى حبيقة القيادة، احتفظ جعجع برئاسة هيئة الأركان ممـا ترك لـه «العسكر» ذوي الغـالبية الشمـالية، وفيمـا انصرف حبيقـة إلى السياسـة مُوليـاً الأمن لأسعد شفتـري، انصـرف هـو إلى الإهتمـام بالمقاتلين.
(٥٣) عن **السفير** ١٩٨٦/١/١٧، حول الدمار والخسائر المادية، انظر **النهار** في اليوم نفسه.

ولئن لوحظَ وقوفُ انطوان بريدي، مسؤولُ الأشرفية وابن إحدى عائلاتها الأرثوذكسية «العريقة» وأحدُ أبرزِ قادة الإنتفاضة، على الحِياد(٥٤)، فهذا ما لم يَكُنْ عديمَ الدلالة على أنّ الجيبَ الأشدَّ صلةً بالمدينةِ والذي لم تكن له يوماً اليدُ العُلْيا في «القوات»، لم يَعُدْ يجدُ له أيَّ مكانٍ في الصراعِ الدائرِ بين جناحَيْ المُهَجَّرين الريفيين وأطرافِ المدن(٥٥).

لقد أُعلنَ عن هيئةٍ تنفيذيةٍ جديدةٍ جاء تركيبُها يعكسُ المصالحةَ العابرةُ مع حزبِ الكتائبِ والرئيس الجميل ، بسببِ اللقاءِ لذي جمعَ بينهم ضدَّ «الاتفاق الثلاثي». وهكذا ضمّت إلى جعجع، كُلًّا من كريم بقرادوني وجورج قسيس وسامي خويري وجورج فريحة وجورج عدوان وشارل شرتوني وجورج كسّاب ونادر سكر ووليد فارس وجان غانم(٥٦). وإذا كانت «العمل» مضت تُسَمِّي ما حصل «انقلاباً على الإنقلاب»(٥٧)، في مقابلِ استعارةِ بقرادوني لغةَ «الحركات التصحيحية» واعتباره أنّ «ما حصل في ١٥ كانون سببُه انحرافاتٌ عن ١٢ آذار»(٥٨)، فإنَّ جعجع ما لبثَ أنْ وضع يدَه على جرح المناطقِ والعصبياتِ حين قال: «كلٌّ منا أتى من منطقة ومن حزب معيّن. كلٌّ منا يجب أن يفتخرَ بحزبه ومنطقتِه [...] لكنْ يجبُ ألّا يكون لهذا أيُّ تأثيرٍ على المُمَارَسَةِ العملانية المؤسَّسية»(٥٩).

صحيحُ أنَّ السياسةَ تغيَّرتْ لكنَّ مسلسلَ الانتفاضاتِ لم يتوقَّفْ بعد التخلُّص من حبيقة. ففي ١٠ آب ١٩٨٦ انتفضَ مارون مشعلاني قائد «ثكنة الشحروري» ضد إعادة التأهيلِ وتحويلِ القواتِ جيشاً نظامياً، وهي الفكرةُ التي مثَّلتْ لمن تبقّى من شبيبةِ الأشرفية في «القوّات» قدْراً من الصرامةِ والقسوةِ الريفييْن اللذين تمجُّهما المدنية. وبدورِها عدَّدَت «المسيرة»، وبنبرةٍ أخلاقية راحت تتزايدُ مع إحكام قبضةِ جعجع على القوات، الأطرافَ التي تقفُ وراءَ الحملةِ على القائد، فرأت فضلًا عن حبيقة ومن اعتبرتْهم متضررين من الإنتخاباتِ الحزبيةِ «شبِّيحةَ» الكازينوهات والنوادي التي أقفلتْها القوّات»(٦٠) و«التجّارَ الذين يتحكمون بالسوقِ اللبنانية» و«زعماءَ الأحياء» الذين اعتادوا

(٥٤) انظر، مثلاً، **النهار العربي والدولي** ٢٦/١/١٩٨٦.
(٥٥) راجع اسماء دفعات المغادرين مع حبيقة حيث تكاد تنعدم الأسماء الشمالية والطرفية في **النهار** ١٨ و١٩/١/١٩٨٦.
(٥٦) انظر **السفير** ٢٥/١/١٩٨٦ نقلاً عن مصادر القوات.
(٥٧) انظر **العمل** ١٧/١/١٩٨٦.
(٥٨) **النهار** ١/٢/١٩٨٦.
(٥٩) **النهار** ٢٠/١/١٩٨٦. أما حبيقة فنقل مجلس قيادته إلى زحلة التي تقع تحت النفوذ السوري، انظر أسماء مجلس قيادته في **السفير** ٢٧/٩/١٩٨٦.
(٦٠) في الفترة نفسها حصلت اعتداءات «القوات» على «حليقي الرؤوس» الـ (Punks) والتعبئة ضدهم في الشرقية.

قيادةَ السيارات الفخمة»(٦١)، لكنَّ القوات، مع هذا، سمَّتِ الحركةَ «انقلاباً فاشلاً ضدّ القيادة»(٦٢). وبينما انتهزت «العمل» الكتائبية فرصةَ ثكنةِ الشحروري لِتُعَبِّرَ عن مخاوفِها من احتقانِ الحياةِ السياسيةِ وتمادي العنفِ، داعيةً في سلسلةٍ من الإفتتاحيات، إلى «قيامِ الشرعية عندنا دون أيِّ مُنازِع»(٦٣). رأى معلِّقُ «النهار» في تمرُّدِ مشعلاني «بروزَ نوعٍ من الصراعِ «الإقليمي» داخلَ القوات، نتيجةَ وضعِ عناصرَ من منطقةٍ معيّنة، في المرحلةِ الأولى على الأقلّ، في المراكِزِ المهمّةِ في الثكنِ والأجهزة، وتحديداً عناصر يَطْمَئِنُّ إليها الدكتور جعجع لأنَّها من الشمال أو من بشري، الأمْرُ الذي أثارَ حفيظة شباب من مناطِقَ أخرى»(٦٤)، وعندما عاد المعلِّقُ نفسُه بعد أيامٍ إلى الحدثِ المذْكور، سجَّلَ الفراغَ الذي باتت تنطوي عليه الحياةُ السياسيةُ في المناطقِ الشرقيةِ وهو ما سمحَ لجعجع بتصفيةِ مشعلاني وسطَ «الغياب الكامِلِ للفاعلياتِ المسيحيةِ السياسيةِ والروحية»(٦٥).

واقِعُ الحالِ أنّهُ منذ ١٢ آذار، وخاصةً منذُ انتفاضةِ حبيقة على جعجع في أيّار، انعطفتِ «القواتُ» انعطافاً راديكالياً عن ذاك الثابتِ المارونيِّ ـ الكتائبيِّ الذي هو تمتينُ الصلةِ برئاسةِ الجمهورية والدفاعِ عنها. فالخصُومَةُ الحادّةُ مع الرئاسةِ أضْحَتْ أَحَدَ أبرزِ حوافزِ التحرُّكِ السياسيِّ لـ «القوات»، إذ المطلوبُ، بين أمورٍ أُخرى، «أن يعودَ الحزبُ حزبَ الشعب بعدما جُعِلَ حزبَ الدولة» كما كتب سجعان قزي في افتتاحيتهِ الأولى لـ «العمل» القواتية بعد استيلاءٍ على «العمل» الكتائبية الأصلية(٦٦).

وتِبعاً لهذا التوجُّهِ تمَّ تعميمُ القوةِ المحضةِ في «المجتمع المسيحي»، بحيثُ راحتِ «القوات» تُوَسِّعُ بيكارَ تدخلها في المؤسسات والحياةِ الثقافية في نحوٍ قَسْرِي، وراحت أجهزةُ الدولة، بدورِها، تردُّ على هذا التوسُّعِ بسلوكٍ مشابهٍ في ظلِّ انعدامِ المعاييرِ والأنصبةِ والوسائلِ اللازمةِ لإقامةِ الشرعيّة.

وفي هذا السِباقِ المحمومِ على السيطرةِ خُطِفَ الممثِّلُ الياس الياس(٦٧) وتمَّ الإعتداءُ على المذيعِ التلفزيوني جاك واكيم الذي فُجِّرَ منزلُه في الحازمية(٦٨)، وصِيرَ إلى مصادرةِ عددٍ من المُؤَسَّساتِ والوظائف المهنيةِ والنقابيّة، حتى أنَّ «جهازَ النِقابات» في

(٦١) **المسيرة** ١٦/٨/١٩٨٦.
(٦٢) انظر مقابلة **المسيرة** مع توفيق الهندي في ٢٣/٨/١٩٨٦.
(٦٣) مثلاً، **العمل** ٢٠/٨/١٩٨٦.
(٦٤) سركيس نعوم في **النهار** ١٢/٨/١٩٨٦.
(٦٥) **النهار** ١٧/٨/١٩٨٦.
(٦٦) انظر **العمل** (القوّاتية) ٣١/١٠/١٩٨٥.
(٦٧) راجع صحف في ٦/٧/١٩٨٥.
(٦٨) صحف في ١٢/٧/١٩٨٥.

القوات حين نَفى وجودَ «اتّحادِ عُمّالٍ مسيحيين»، ردَّ عليه هذا الأخيرُ بِبَيانٍ اسْتِغْرابي، مُعْتبراً أنَّ النفي «يتناقضُ مع الإنتفاضة»(٦٩). وعندما اعتُدِيَ على «العمل» واحتُجِزَ رئيسُ تحريرِها جوزيف أبو خليل، رأى إيلي حبيقة في ردٍّ على النقيبِ ملحم كرم أنَّ القضيَّةَ «سياسيةٌ حزبيةٌ، وبالتالي مُنَحَّاةٌ في بعض وجوهِها عن الجانبِ المِهَني»(٧٠).

وفي سياقِ الإنتفاضةِ صادرتِ الهيئةُ التنفيذيةُ لـ «القوات» جزءاً أساسياً من الدَوْرِ التَحْكيميِّ للنِقاباتِ والاتِحاداتِ المِهَنِيّة، مُعلِنَةً أنَّ «جهازَ الشؤونِ الاجتماعيةِ والنِقابات» في الهَيْئَةِ، هو وَحْدَهُ المُخَوَّلُ بِالتعاطي مع الشؤون النِقابيّةِ والعَلاقاتِ مع أربابِ العمل(٧١).

صحيحٌ أنَّ نَهْجَ تقديسِ الحركةِ وتعميمِ القوّةِ على حسابِ السياسةِ والمؤسّساتِ هو ما بدأ مع بشير الجميل، إلا أن الفوارقَ التي جعلتْ مشروعَ الأخيرِ مُتفائلاً وصاعداً، ومشروعَ ورثتِه مُنْحَسِراً وآيلاً إلى التمزيقِ الشامل، أكثرُ من أن تُحْصى. فبشير، كما سبقت الإشارة، لم يَقْطَعْ بالكاملِ مع المؤسَّساتِ والتقليدِ كما وجدَ طَريقَهُ مَفْتوحاً إلى سُدّةِ الدولة. كذلك عَمِلَ الاقْتناعُ بِمَشْروعِه، الذي أَثْمَرَ خلال فسحةٍ زمينةٍ قصيرةٍ نِسْبياً، على الحَدِّ من العُنْفِ والقوةِ، والحدِّ من التفسُّخِ تالياً. وهذا ما باتَ يستحيلُ تجنُّبُه مع استطالةِ الحربِ الأهليةِ ـ الإقليميةِ، خصوصاً بعد الإحباطِ المسيحيِّ العامِّ بتجربةِ بشير. أضِفْ إلى ذلك أنَّ صعودَ الأخيرِ قد وازى السياسةَ الإسرائيليةَ المتَّجِهَةَ إلى التخلُّصِ من «منظمة التحرير الفلسطينية» وواكَبَها، بينما سَبَحَ مشروعُ الوَرَثَةِ في بحرٍ إقليميٍّ تتضاربُ أمواجُهُ ولا تستقِرُّ على حالٍ ووجْهة.

بكلِّ هذه المعاني استوردت الإنقلابيةُ القواتيةُ إلى داخِلِها قَدْراً كبيراً من التبعثُرِ وفقدانِ الإستمرارية.

فقد عرفت «القواتُ» منذ نشأتِها حتى ١٩٨٦ تعاقُبَ خمسةٍ من القادةِ في ستةٍ من «العهود» (بشير، فادي فرام، فؤاد أبو ناضر، جعجع، حبيقة، جعجع)، حلَّ أربعةٌ منهم في القيادةِ بين ١٩٨٢ و١٩٨٦، أي بمعدَّلِ قائدٍ كلَّ سنة. وفيما اتسمتْ ثلاثُ عملياتِ انتقالٍ للسُلطة بـ «الإنتفاضات»، كُتِبَ الفشلُ لانتفاضةٍ أخرى على الأقل.

وبدورها تغيرتْ صِيَغُ القِيادة(٧٢) من «حركةِ القرارِ المسيحِي» بعد آذار ١٩٨٥ إلى «هئيةِ طوارىء» بعد أيامٍ قليلةٍ فإلى «هيئة تنفيذية» في ٢٠ آذار ما لبثت في ٩ أيار أنْ انتقلت إلى قيادةِ حبيقة وحْدَه، وفي ٣٠ أيار انتهى العمل بـ «المجلس التمثيلي» للأحزابِ

(٦٩) انظر **السفير** في ٢٠/١٠/١٩٨٥.
(٧٠) **الجمهورية** ٢٥/١٠/١٩٨٥.
(٧١) راجع صحف ١٥/١١/١٩٨٥.
(٧٢) راجع نقولا ناصيف في **النهار** ٩/١٢/١٩٨٦.

المُشَارِكَةِ، فانسحبَ رئيسُه فؤاد أبو ناضر من القوّات التي سَبَقَ له أن تولّى قيادتَها وعاد كُليّاً إلى حزبِ الكتائب. وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٨٦ ومع تصفيةِ حبيقة وجماعتِه عُمِلَ بصيغةٍ جديدةٍ هي هيئةٌ تنفيذيةٌ موسّعة، أُبْعِدَ عنها في ١٠ آب سامي خويري وسط تكهُّناتٍ حول تعاطُفِهِ مع حركة مشعلاني، تلا ذلك إنشاءُ «مجلس قيادة» يقفُ على رأسِه سمير جعجع.

غنيٌّ عن القول إنَّ بُنْيَةً كهذه لا يجمعُهَا من صلاتِ النسبِ بحزبِ الكتائب إلا القليلُ القليل؛ فعندما انعقدتِ القيادةُ لجعجع بعد تخلُّصِهِ من شراكةِ حبيقة، افْتُتِحَ فصلٌ جديدٌ في الصراعِ على الحزبِ، الذي كان ضحيَّتَه المُطْلَقة.

الميليشيا وعجز الدولة

على صعيد الأفكار كما على صعيد الواقع، اندفعت الإتّجاهاتُ الاستبداديةُ في البشيريّة إلى حدودِها القصوى بعد بشير، خصوصاً بعد أنْ أُطيح بحبيقة وكُتِبَت «الزعامةُ» لسمير جعجع وحده.

هكذا نشأ وتعاظم تضخيمُ «الزعيم»، وعبادَتُه تالياً، وهو التَّضَخُّمُ الذي كُنَّا رأيناه جَنينِيّاً، كثيرَ العفويةِ وقليلَ التنظيم، مع بشير وهجوميّتِه. وبدوره آل هذا التَّضخيمُ، في ظلِّ أفكار تنبُذُ الاستمراريَّةَ ولا تَتَّسِعُ زعامتُها لغيرِ زعيمٍ واحدٍ، نَبْذاً لبشير نفسه وتناقُصاً يومِيّاً لصوَرِه التي ترفَعُهَا «القوّات اللبنانية» على ثُكَنِها ومراكزِها وآليّاتها(٧٣).

فكريم بقرادوني رأى، في معرِضِ التمييز والمقارنة، أنَّ بشيراً كان سياسياً «يربطُ المسائلَ بالواقع السياسي» فيما جعجع عقائديٌّ «يربط المسائل بالخلفيّاتِ التاريخية والعقائدية»(٧٤). ولا يُخْفَى، في وَسَطٍ نضاليٍّ وشبابيٍّ ضئيلِ الخُبْرَةِ، تَقَدُّمُ العقائدي على السياسي، وسحرُهُ الناجمُ، خصوصاً، عن كونِهِ مُنَزَّهاً عن السياسة.

وما لا يستطيعُ أنْ يقولَهُ بصراحةٍ «مسؤولٌ» كبقرادوني، ذَهَبَ بعيداً في تورُّطِهِ البشيري، وفي صوغِ صورة بشير الجميل، يقولُه بصراحةٍ أكبر كاتبٌ قوّاتيٌّ يرى أنَّ «المقصود أخطاء الشيخ بشير من حيث العمل العسكري والسياسي طيلةَ الفترةِ التي عرفناهُ فيها مقاوماً سياسياً ورئيساً [...] قد يكون ذلك أنَّ الخطأ الذي وقع فيه بشير الجميل هو اعتمادُ الزمنِ الآتي فرصةً مُمْكِنَةً لتسويةِ بعضِ المشاكلِ العالقةِ. فالتخطيطُ والبرمجةُ اللذان نَسَّقَ لهما بشير من الناحية العسكرية كانا ناجحين لكنهما سيبقيان دون

(٧٣) هذا فيما تخلى الشق الذي قاده حبيقة كلياً وعلنياً، تنظيمياً وفكرياً، عن البشيرية ليؤسس حبيقة في وقت لاحق ما اسماه «حزب الوعد».
(٧٤) راجع مقابلة **النهار العربي والدولي** معه في ٣/١١/١٩٨٦.

وَضْع خطّة واضحةٍ لاستعمالها مع أخذ الإحتياطات لاحتمالاتٍ قريبةٍ أو بعيدةٍ [...] ولعلَّ من الأخطار أيضاً التي فرضها الشعبُ نتيجةَ عاطفته الزائدةِ القاتلةِ في بعض المرّات على المشروع الحلم، هو تَعَلُّقُهُم ببشير الرجل وعدم الإهتمام ببشير المؤسسة التي تجسّدت في «القوّات اللبنانية» [...] ومن الأخطاء التي يُمكننا أنْ نستخلِصَهَا عدمُ التمييز عند بشير بين العلاقات السياسية والعلاقات الشخصية»[٧٥].

ولئن سَمّى بقرادوني فارسَه الجديدَ «راهباً سياسياً»[٧٦]، فهو لم يتردد في القول الذي يُحاكي الكلام على الآلهةَ، إنّه «لو لم يكن سمير جعجع موجوداً لَوَجَبَ أنْ نخلقَ سمير جعجع»[٧٧]. وفي هذا الاحتفال المنقطع النظير بجعجع، سِيمَ الرجلُ مفكراً[٧٨]، وَرُسِمَ على أغلفةِ الكتب كما تُرْسَمُ صور القديسين[٧٩]. وإلى الزعامة وتعظيمِها مارست «القوات» تعويلاً مُبَالَغاً فيه على «العقيدة» و«العقائدية»، مُنْشِئَةً في كانون الأول ١٩٨٦ «معهد التنشئة السياسية» الذي سُلِّمَتْ رئاستُهُ لشارل شرتوني، فيما دعا جعجع عند افتتاحه إلى إعادة تأهيلٍ سياسيٍّ بعد انتهاء عملية التأهيل العسكري[٨٠].

وفي الوُجْهَةِ نفسِها حصل لقاحٌ واضحٌ بين الخطاب السياسي للقوات وبين سِقْطِ مَتَاعِ الأحزاب التوتاليتارية ومثالاتِها[٨١]، كان من نتائجه إنتاجُ تصوّرٍ أحاديٍّ للبنان وسياستِهِ وجماعاتِهِ، لا يكتفي بالوقوف عند الثنائيةِ القطبية (المسيحيّة ـ الإسلاميّة) كما ترسمها الكتائبيّة الكلاسيكيّة طاردة كلَّ مستوى آخر للنشاط الإنساني، بل يدفعها إلى مصافِ مطلقٍ[٨٢]. ومِنَ الأمثلة الكثيرة على ذلك ما كتبه أحد القواتيين تعليقاً على خَطْفِ الملازم الأول ماجد كرامة إحدى طوّافات الجيش اللبناني: «كان أمام الملازم الأول ماجد

(٧٥) من مقابلة جورج عبدالله براكس في **النهار العربي والدولي** في ١٩٨٧/٩/٢٨. هذا النقد كان أشد حدّة وعقائديةً وتماسكاً عن التنظيمات الصغرى.

(٧٦) انظر مقابلة **المسيرة** معه في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٧٧) المرجع السابق. وبلغة تُقارب التبشير الديني وانتظار المهدي يرى بقرادوني «أنَّ أهم إنجاز حققته الإنتفاضة داخل القوات اللبنانية أنّها وجدت القائد وكلكم يعرفه وهو قريب منكم الآن، ولو معتكف، وهو سمير جعجع»، الذي اعتكف لأنَّه «يمر بمرحلة إعادة حساب [...] وهذا ما يستلزم العزلة الذاتية فضلاً عن أنَّ الدكتور جعجع شعر بأنه «قرفان» من كثير من السياسيين». من محاضرته في عمشيت التي نشرتها **الأنوار** ١٩٨٧/٥/٣١.

(٧٨) راجع المقابلة «الفكرية» والسياسية المطولة معه في **المسيرة** ١٩٨٨/٤/٤.

(٧٩) راجع، مثلاً لا حصراً، بول عنداري: **الجبل حقيقة لا ترحم**، ١٩٨٥، لا ذكر للدار، وعنداري، بحسب **المسيرة** ١٩٨٦/٣/٨ قائد «الوحدات الخاصة» في القوات (التسمية التي لا تخفي مصدر استلهامها).

(٨٠) راجع صحف ١٩٨٦/١٢/١٢.

(٨١) من العينات الكثيرة على ذلك، وصولاً إلى حدوده الفولكلورية، أنَّ كريم بقرادوني حين تحدث عن «المقاومة» استشهد بتكامل دوري الجيش والمقاتلين في الجزائر وفييتنام حيث تمَّ «الدفاع عن الحدود وتعبئة المجتمع». من مقابلة **المسيرة** معه في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٨٢) ربما كان أحد أفضل تعبيرات هذه النظرة افتتاحيات فيفيان صليبا داغر التي حملت عنوان «القوات اللبنانية مشكلة أم حل؟» في اعداد مجلة **المسيرة** لأشهر تشرين الثاني ١٩٨٧ ـ كانون الثاني ١٩٨٨.

كرامة خيانة من اثنتين: إمّا أنْ يخوَن الدورز، إمّا أنْ يخونَ الجيش. فاختار الخيانةَ الثانية بسبب منطقيٍّ هو أنّه يُمْكِنُهُ أنْ يكونَ عسكرياً في أيِّ جيشٍ لكنّه لا يستطيع ألّا يكونَ درزياً»[٨٣].

وواكبَ هذا اللقاحَ احتلالُ بعضِ العقائديين المُنْسَحِبين من أحزابِهم واتجاهاتهم «العلمانيّة»، كنادر سكّر السوري القومي وتوفيق الهندي ووليد فارس الماركسيين، مواقعَ أساسية في «القوات»، فيما كان يصب في الوُجْهَةِ إيّاها الضغطُ الذي تُمارسُه كُتْلَةُ المُهَجَّرين بصفتها الكتلةَ الأوْزَنَ والأعلى يداً في «القوّات» بعد تطهيرها من حبيقة ومؤيديه.

فالمُهَجّرونَ، في ظلِّ جعجع، لم يعودوا مجرَّدَ بندٍ في السياسةِ المعمولِ بها. ذلك أنَّ القوات، وبحسب أحد بياناتها، جدّدت «العهدَ لهم على أنْ تبقى درعَهُم وضميرَهُم وبندقيَّتَهُم وحاملةَ لواءِ قضيَّتِهم حتّى يستعيدَ كلُّ واحدٍ منهم أرضَهُ وبيتَهُ وحقَّهُ في الحياةِ الحُرَّةِ الكريمةِ في إطارٍ وطنيٍّ جامعٍ وشاملٍ»[٨٤].

أمّا كريم بقرادوني فأسماهم «العائلةَ الكبرى» للقوات، ورأى أنَّ ثمَّةَ بندين رئيسيين في أيِّ مفاوضةٍ مع الآخرين هما «إنهاءُ الإحتلالات وعودةُ المهجرين».

لكنَّ هؤلاء الأخيرين لم يدفعوا نحوَ «حلٍّ» على الأرض فحسب، إذ كانت للسماء حصتها. فبانتصار جعجع كسبت دعوى «الوَحْدَة المسيحية» مزيداً من الإهتمام والتركيز، كما زاد الإهتمامُ بالفولكلوريات المسيحية والطقسيات شبه الصوفية. فحين أُقيم في ١٢ آذار ١٩٨٦ مهرجان للقوات في برج حمود لمناسبة الذكرى الأولى لـ «انتفاضة» ١٢ آذار، إستُهِلَّ، بعد النشيد الوطني و«موسيقى تكريم الشهداء» و«لحن الموت»، بقدّاس ديني[٨٦]. وحين تُقيم «إذاعة لبنان الحر» القوّاتية إحتفالاً، تُقيمُهُ في عيد القديسة ريتا «شفيعةِ الإذاعة»، ويتخلَّلُ الإحتفالَ قدّاسٌ يَرْأَسُهُ الأباتي بولس نعمان حيث يُلقي عِظَةً دينية[٨٧]. وحين تجتمعُ «خلوة المغتربين» في مقر قيادة القوات اللبنانية، فإنَّ اجتماعها

(٨٣) امجد اسكندر، «بين الجيش والدرزية»، في **المسيرة** ١٩٨٨/١/٩. لم يكن لهذه العدة الفكرية أن تتجانس وتصير وجهة وسياقاً. فالموقع الأقلي وما تبقى من تراث ديمقراطي دستوري عند الكتلة المسيحية، جعلا الإلحاح على «التعددية» يواكب استعراضات القوة والسيطرة. غير أن هذه المواكبة افضت، والحال على ما هي عليه، إلى ما يسميه احمد بيضون «تعددية الاحتقار» التي تدين الآخر مسبقاً وتتعالى عليه، فتجافي بهذا «مثيلتها» الغربية التي تقوم على احترام الآخر والاعتراف بخصوصياته وثقافاته. انظر أحمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٧ ـ ٢٤١.

(٨٤) من بيان صادر في ١٩٨٦/١٢/٣٠ عن مجلس قيادة القوات اللبنانية.

(٨٥) **الشراع** ١٩٨٧/١١/٢.

(٨٦) انظر **النهار** ١٩٨٦/٣/١٣.

(٨٧) انظر **النهار** ١٩٨٧/٥/٢٣.

يُفْتَتَحُ «بقدّاس إلَهي في كنيسةِ المقر»(٨٨).

وهذا الزعمُ المسيحيُّ هو ما لا يني كريم بقرادوني يشتقُّ منه نتائجَ سياسية، حيث «أنَّ تجاربَ الماضي يجبُ أنْ تُعَلِّمَ الجميع بأنَّ وَحْدَتَنا في النهاية أهمُّ من كلِّ الباقين. وما ينفعُ الإنسانَ إذا خسر جماعَتَه وربحَ جميع الآخرين»(٨٩).

بَيْدَ أنَّ هذا الزعمَ العشائريَّ لا يُطلَقُ، على الأرض، إلّا عكسُه ونقيضُه.

فمرّةً أخرى يتوازى الإفراط في الكلام عن الوَحْدَةِ المسيحية مع إفراطٍ في التَّفَتُّتِ المسيحيِّ لا مثيلَ له في السابق.

لقد ظهرت إلى السطح قِوىً وتنظيماتٌ وأحزابٌ تجمعُ بين الشعبويّة الراديكالية وبين البحثِ عن مصادرَ لها أثريةً (اركيولوجية) ولا تاريخيةً، يتمُّ معها تحويلُ الهُويّاتِ الصغرى والماضوية إلى شعاراتٍ مستقبليّةٍ ومَهَامٍ مُطْلَقَةٍ(٩٠).

ولئن أفادت هذه القِوى الجديدةُ من غياب الحياةِ السياسية والأحزاب، فقد عبَّرت عن غربتِها المطلقةِ حيالَ التكوين اللبناني التقليدي الذي بُنِيَ حولَ التعايش المسيحي - الإسلامي»(٩١).

فبحسب تعدادٍ في «النهار» للتنظيماتِ الصغرى التي شاركت في ندوة عقدها «الإتّحاد الديمقراطيُّ الاشتراكيُّ المسيحيُّ»، نقرأ، فضلاً عن «الإتّحاد» المذكور، الأسماء التالية «الإتّحاد العام للعمّال المسيحيين في لبنان»، «حركة التضامن المسيحي»، أمينُها العام المهندس جوزيف باسيل، «الإتّحاد الديمقراطي لشبيبة الروم الكاثوليك»، رئيسه ديفيد عيسى، «اللجنة المشرقية»، أمينُها العام سامي فارس، «تجمّع السريان الكاثوليك»(٩٢)، رئيسُهُ الدكتور فادي زرازير، «الحزب القبطي الديمقراطي»(٩٣)، رئيسه

(٨٨) **المسيرة** ١٩٨٧/١٠/٢٤.
(٨٩) **الأنوار** ١٩٨٧/٥/٣١.
(٩٠) هنا يُستعاد لون «لبناني» مُفَتّت عن قومية سورية جامعة، مصادرها هي أيضاً في الطبيعة والآثار. إنّها، بمعنى ما، مصالحة الأرياف الخالصة مع ذاتها، راجع الفصلين الثاني والثالث.
(٩١) كعينة على هذه التنظيمات التي راحت في ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ تحتل مساحات متزايدة في التغطيات الإعلامية، يمكن الرجوع إلى بعض مواقف «اللجنة المشرقية» التي تتسم بتسرع في المطالبة بترسيم «أماكن الوجود الديموغرافي والجغرافي للمسيحيين والمسلمين». انظر **النهار** ٢/٢٨ و٣/١٨ و١٩٨٧/٣/٢١.
(٩٢) هناك أيضاً «الرابطة السريانية» التي يرأسها حبيب افرام، وهو من أصدر جعجع في تموز ١٩٨٧ قراراً قضى بإنشاء «جهاز العلاقات العامة» في القوات، على أن يكون برئاسته. انظر **النهار** ١٩٨٧/٧/٢٥.
(٩٣) بحسب أحد الكتّاب المصريين فإن «الهيئة القبطية» المتطرفة ذات الحضور في الولايات المتحدة وكندا وأوستراليا وأوروبا، تتعاطف مع «الجبهة اللبنانية» كما تنشر في مجلتها مقالات لكتاب صهيونيين دون أنْ تكفّ عن دعوة اقباط مصر ومسيحيي الشرق إلى «الموت» الذي هو «أفضل من العبودية» لأنّ «المسيحية تُتيحُ الدفاع عن النفس والحقوق». أبو سيف يوسف، **الأقباط والقومية العربية (دراسة استطلاعية)**، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

إدوار بيباوي، «الحزب الوطني الأشوري الديمقراطي»، أمينُه العام إبراهيم ماربو، «حزب بيت نهرين الديمقراطي»، مُمَثِّلُهُ في لبنان يعقوب يوخانا»(٩٤).

إمتدَّ هذا التعيين الجرمي، بالمعنى السوسيولوجي للكلمة، ليشملَ المناطقَ اللبنانية في صورة ناتئةٍ ولافتةٍ للنظر. فحين يُطْلِقُ جعجع بعضَ عناصر حبيقة الزحلاويين ويُسَلِّمُهُم إلى أساقفة زحلة، لا يَنسى إبداءَ أسفِهِ لِبُعْدِهِم «كلَّ البعدِ عن التقاليد الزحلية»(٩٥)، وحين يُلقي خطاباً يُذَكِّرُ المُجتمعين بأنهم «عمشيتيين كنتم أم جبيليين، جبيليين كنتم أم متنيين، ساحليين أم جبليين، شماليين أم جنوبيين، مسلمين كنتم أم مسيحيين...»(٩٦).

توتاليتارية وهمية

إنطلاقاً من توحيد «القوات اللبنانية» في ظلِّ التصورات المُتَشَدِّدَةِ التي سبقت الإشارةُ إلى بعضها، ومن التَّبَعْثُرِ الفعلي الواسعِ في المجتمع والمصحوبِ بالتّردّي الكبيرِ الذي أصابَ الحياةَ والتقليدَ السياسيين، أمْكَنَ لقيادةِ جعجع أنْ تَتَقَدَّمَ نحوَ محاولةٍ وهميةٍ لإقامة نظامٍ توتاليتاري وهميٍّ هو الآخر.

وَوَهْمِيَّةُ المحاولةِ، الناجمةُ عن عواملَ مختلفةٍ منها صِغَرُ الرقعةِ الجغرافية، وعدم

(٩٤) **النهار** في ١٩٨٧/٩/٢٦. جمعت الكلمات التي تليت في هذه الندوة بين القومية المسيحية والراديكالية الاجتماعية والنضالية الجماهيرية، من دون أنْ تخلو من مراجعات نقدية لبشير الجميل و«تقليديته». وهكذا بتنا، مثلاً، نقرأ في الصحف أخباراً من نوع: «في معلومات وزعت في بيروت أنّ اجتماعاً مشتركاً عقد في لندن بين وفد يمثل فرع الاتحاد الماروني العالمي في بريطانيا وأمانة الإعلام والتعبئة في الاتحاد برئاسة الدكتور رشيد رحمة، ووفد يمثل «الاتحاد الآشوري العالمي» و«المؤتمر الآشوري العالمي» برئاسة الدكتور سرغون داديشو وفلاديمير توما. وبحث المجتمعون في سبل التعاون الإعلامي والثقافي بين الاتحادين. واتفقوا على تأليف لجنة عمل لمتابعة الاتصال بين الطرفين». **النهار** ١٩٨٧/٩/٢٢.
(٩٥) **النهار** ١٩٨٧/٣/٤.
(٩٦) من خطاب القاه بدعوة من «هيئة التنسيق لأندية جبيل «في ملعب نادي عمشيت في ١٩٨٧/٨/٢٢. وإذا كان الحضور الإسلامي في منطقة جبيل قد أملى المخاطبة الأخيرة («مسلمين كنتم أم مسيحيين»)، فإن التعداد المتكرر كثيراً ما يستحضر الزجليات اللبنانية في شكلها السياحي أو التوفيقي. والراهن أنّ حدة نفور هذا التوحيد الفولكلوري هو من نتاجات العجز الفعلي عن التوحيد، إذ الحرب الأهلية لم تعمل على توحيد «أيّة من الطوائف الكبرى توحيداً مطلقاً في الواقع. ولكنّها انشأت لبعضها تيارات يسعها الزعم ـ زعماً مسلحاً ـ في الوقت الحاضر، انها قيادات كلية الطوبى لطوائفها». أحمد بيضون، ما علمتم وذقتم، سبق الاستشهاد، ص ١٤١. ويقدم باحث غربي إضافة «عملانية» إذ يرى أنّه بسبب استدعاء السيطرة العسكرية «سيطرة على الأرض والجماعات، نزولاً إلى مستوى القرية والحي، أو الشارع، تعززت سلطة القادة المحليين في صورة ملحوظة». Michael Humphrey, *Islam. sect, and state: The lebanese case*, centre for Lebanese Studies, Oxford, 1989, p. 5.

كونها دولةً ناجزةً، والإضطرارُ إلى التّسليم بوجود شرعيةٍ وبـ «تعددية» ولو كانت «تَعَدُّدِيَّةِ الإحتقار»(٩٧)، لا تحولُ دون رَصْدِ هذه المحاولة التي اتَّجَهَت إلى الإمساك بالمجتمع في سياسته واقتصادِه وأمنه وثقافتِه وخدماته، ومِنْ ثَمَّ تَوَهُّمُ الهيمنةِ عليه.

☐ سياسياً: تمَّ تصعيدُ النَّبرَةِ البشيرية الشعبوية حيالَ الدولة والسياسيين، من دون بشير ومشروعه المُتَّجِهِ نحوَ مِنَصَّةِ السلطة. بهذا المعنى صارت «القوّات» تُخَيِّرُ رئيسَ الجمهورية بين رئاسَتِه وبين وَحْدَةِ التَّجَمُّعِ الطائفي، فيأملُ كريم بقرادوني من أمين الجميل «أنْ يقبلَ استقالةَ الرئيس كرامي بسرعة حتى نعودَ إلى ما كُنّا عليه من وَحْدَةِ الموقف وَوَحْدَةِ الصفِّ وَوَحْدَةِ القيادة»(٩٨).

وتذهب النَّبرةُ الشعبويّةُ محطَّةً أبعدَ مع افتتاحيةٍ لـ «المسيرة» تتساءل:

«لماذا الدولة أصلاً إذا كانت لا تدعمُ الفقيرَ المحتاجَ وتترُكُهُ لمصيره وَلِنَزَقِ التّجار والمحتكرين وجَشَعِ الطامعين؟ ولماذا الدولةُ أصلاً إذا كانت ترى الشعبَ مهدداً بالموت وتغضُّ النظر؟ ولماذا استقتلوا ليصبحوا نوّاباً عن الشعب ما داموا لا يحسبون له حساباً ولا يهتمون بما يُصيبُه من أهوالٍ كلَّ يومٍ لدى سماعِ أنباء البورصة؟»(٩٩).

واقعُ الأمر، أنَّ القواتِ وصلت في ظلِّ جعجع، خصوصاً بعدما طوى الموتُ كميل شمعون بعد بيار الجميل، إلى الإستفراد بالساحة السياسية المسيحية التي تكرَّس خروجُ سليمان فرنجية وريمون إدّه عنها، كلٌّ بطريقته، فيما وُضِعَ أمين الجميل في حَيِّزٍ يتراوحُ بين «الخارج» الشرعيِّ والمحاصرةِ داخلَ أسوارِ المتن.

ولئن أُخْضِعَ حزبُ الكتائب لمنافسةٍ ضاريةٍ ما لبثت «القوّات» أنْ كسبتها، كما سنرى لاحقاً، فإنَّ المهندس داني شمعون ابتعد «ليُصْبِحَ كأنَّه يتحرك خارجَ «الجبهة اللبنانية» أو كأنّه تركها»(١٠٠). أمَّا إدوار حنين، الذي يُسَمّيه ميشال أبو جودة، «آخر كبار» الجبهة فاستقالَ هو أيضاً مع إغراقِ الأخيرةِ بالأسماء والتنظيمات إبَّان تفاقم أزمة الإستقالاتِ والتعيينات في حزب الكتائب(١٠١).

(٩٧) ما لبث ظهور قائد الجيش ميشال عون كمنافس لجعجع على زعامة المناطق الشرقية، أنْ عبَّر عن وهمية المحاولة، أي عن استحالة العيش خارج النظام السياسي اللبناني وايديولوجيته، أو ما تبقّى منهما.

(٩٨) **الأنوار** ٣١/٥/١٩٨٧.

(٩٩) **المسيرة** ١٧/١٠/١٩٨٧.

(١٠٠) ميشال أبو جودة في **النهار** ١٧/١٠/١٩٨٧.

(١٠١) تعلّق **المسيرة** (١٧/١٠/١٩٨٧) على استقالة حنين من الأمانة العامة للجبهة اللبنانية بطريقة آمرة ناهية محذرة: «لا شكَّ في أنَّ لاستقالة الأمين العام من الجبهة اللبنانية وقعاً مهماً. لكنَّ الجبهة تمثّل المقاومة والمقاومة استمرار وعطاء»، وبعد أنْ تغمز من قناة الصلة بين حنين والرئيس الجميل وطموح حنين في تسلم رئاستها بعد رحيل شمعون وبعض الاعتبارات المُفْتَرَضَةِ الأخرى، تنقل أنَّ مصدراً في الجبهة «أفاد المسيرة أنَّ أركان الجبهة كانوا يفضلون لو بقيت الاستقالة من ضمن الإطار الطبيعي لها، ولم تُرَوَّج عبر وسائل الإعلام».

إلى ذلك شابت علاقةُ «القوّات» بالسياسيين والنواب رداءةٌ ملحوظة، مَهَّدَتْ لها دعوةُ «تجمُّع النواب الموارنة المستقلين»، إثْر تصفيةِ مجموعة حبيقة، إلى توحيدِ «الصفِّ الوطني» وإدانتِه «الممارساتِ ضدَّ المواطنين العُزَّلِ والأبرياء»(١٠٢)، وفاقمَها اتِّضَاحُ حجم التأثير الضيئل لـ «القوات» على أعضاء البرلمان وقراراتهم(١٠٣). كذلك لم تكن العلاقةُ بالمراتب الدينية المسيحية أفضلَ حالاً، إذْ بَلَغَ الأمر بالمطارنة الموارنة أنْ تحدَّثوا عن «التَّفَسُّخ في القوّات اللبنانية» نفسِها(١٠٤).

☐ امنيّاً: لم يتردد بقرادوني في «تنظيم» ترتيب للمسؤوليات بين الجيش والقوّات في المناطق الشرقية، إذْ رأى أنَّ الأوَّل «يتولّى الآن الدفاع عن ٦٠ في المئة من الجبهات ونحن نتولّى الدفاع عن ٤٠ في المئة [...] (و) تتولّى القوات ٨٠ في المئة من المَهَمّات الأمنية و٥٠ في المئة من المهمات الإستخباراتية»(١٠٥).

لكن يبدو أنَّ «القوات» لم تَتَقَيَّد دائماً بهذا الترتيب، فمِنْ إقالة قائدِ الجيش ميشال عون المُقَدَّمَ بول فارس قائدَ اللواء الخامس، قبل مُشاركة الجيش في صدِّ اختراق حبيقة في أيلول ١٩٨٦(١٠٦)، إلى مصرع العقيد خليل كنعان في منزله بُعَيْدَ الصدِّ بأيام يَلُوح أنّها كانت تُحاول باستمرار توسيعَ «حِصَّتِها» على حسابِ «حِصَّتِه».

وإذا صدّقنا أرقام بقرادوني، كان من الطبيعي أنْ يتَّجهَ الوحشُ العسكريُّ الذي خَلَقَتْهُ «القوات» إلى التَّوسُّع. فبحسب أرقامه هذه باتت «المؤسَّسة العسكرية» القوّاتية في آذار ١٩٨٧ «متكاملةً، عددُها أكثر من ١٤ ألف مقاتل محترف عدا القوات الإقليمية التي أنشئت مؤخراً [...] بالإضافة إلى الإحتياط»(١٠٧).

☐ إعلاميّاً وثقافيّاً: لم تَعُدْ «القوّات» ضئيلةَ التأثير بعد تطويرها «إذاعةَ لبنان الحر» ومجلةَ «المسيرة» الأسبوعيّة، وخصوصاً محطَّتَهَا التلفزيونية «إل. بي. سي» التي حَدَّثَت نسبياً الأداء التلفزيونيَّ في لبنان من دون أنْ تتقيَّد في عرضِها للأخبار والبرامج الأجنبية بأيٍّ من الإعتباراتِ التجارية وحقوقِ الملكية. فإذا أضفنا التأثيراتِ

(١٠٢) **النهار** ١٨/١/١٩٨٦.

(١٠٣) انظر الحملة على البرلمان والنواب في مقالات **المسيرة** ٢٤/١٠/١٩٨٧.

(١٠٤) بين أمثلة كثيرة راجع صحف ١/١٠/١٩٨٦ حيث ترّد «القوات» على بيان المطارنة وحول حساسيات العلاقة ببكركي وانظر مقابلة **المسيرة** مع بقرادوني في ١١/١٠/١٩٨٦.

(١٠٥) انظر مقابلة «**المسيرة**» معه، المرجع السابق، وفي معرض امتداح زعيمه يرى أنَّ «سمير جعجع عقله عسكري ويحب الجيش بترتبيه ومعظم أصدقائه في الجيش. ومؤسسة الجيش هي المؤسسة التي يطمح إلى أنْ يتمثل بها»، المصدر نفسه.

(١٠٦) حتى أنَّ **المسيرة** (٢٢/٧/١٩٨٧) سألت بقرادوني عن «صحة الحديث عن انقلاب كانت تحضّر له «القوات اللبنانية» مع بول فارس».

(١٠٧) من محاضرته في عمشيت، في **الأنوار** في ٣١/٥/١٩٨٧.

القواتيَّةَ المبثوثة في بعض الصحفِ الصادرة في المناطق الشرقية، تبيّن لنا وجودُ آلةٍ إعلاميّةٍ من دون منافسٍ رسمي أو غيرِ رسمي في لبنان.

الجديدُ أنَّ «القوات» شرعت في عهدِها البادىء مطالعَ ١٩٨٦ تتسلَّلُ إلى النشاطات الثقافيَّةِ، فتُشارك، مثلًا، في تكريم ميخائيل نعيمة عند بلوغه الثامنة والتسعين، وكذلك في تكريم توفيق يوسف عوّاد لدى نَيْلِهِ «جائزة صدام حسين للآداب».

وفي المناسبة الأخيرة، يتحدث بقرادوني عن كتاب عوّاد «الرغيف» بلغة «الواقعيين الاشتراكيين» وموظفي «الأدب الثوري»، فيرى فيه «عملًا فنياً نضالياً ضدَّ الإحتلالِ العثماني والإستغلال الاجتماعي. ففي لبنان بالذات كانت التربة التي فجَّرت المقاومة، ومن لبنان بالذات ينهمر «غيثُ» التحرر...» وبعد أن يتحدث عن المقاومة.«بالسياسة والبندقية» و«بالكلمة والأدب»، يُضيف:

«هُنا يلتقي الفنُّ الملتزم والسياسة المقاومة في معركة كونية وخصوصية واحدة...»(١٠٨).

☐ خدمياً ومؤسَّسياً: باتت «القوات» في أواخر ١٩٨٧، بحسب بقرادوني أيضاً، «أكبرَ مؤسَّسة عاملةٍ في هذه المنطقة (أي الشرقية) وتضمُّ ١٧ ألف عاملٍ لديها بشكل مستمر»(١٠٩). وفي تقييم للنقلة التي حققتها منذ ١٢ آذار ١٩٨٥، يرى أنَّه قبل ذاك التاريخ «لم يكن في القوّات اللبنانية سياسةُ اجتماعية ولا بُعْدٌ اجتماعي. كانت القوّات تُؤَمِّنُ بعضَ الخدمات الاجتماعية لعناصرها وللمعاقين ولأهل الشهداء. أمّا اليوم فالقوّات اللبنانية تتحول إلى حركةٍ اجتماعية بأهدافٍ اجتماعية لمواجهة الحرب الإقتصادية»(١١٠).

وفي هذا الإمساك بخيوطِ المجتمع رُبطَتِ المدارسُ بها من خلال ضَبْطِ قوائم الطلبة المُسَجَّلين واحتمالِ استدعائهم إلى الخدمة الإحتياطية(١١١)، كما من خلال الروابط ونقاباتِ المعلمين، بحيثُ أمْكَنَ لأحد القوّاتيين أنْ يكتبَ تعقيباً على إضراب المعلمين، أنَّ «رئيس جهاز التربية في القوات اللبنانية الدكتور شارل شرتوني اعترض

(١٠٨) انظر **النهار** ١٧/١٠/١٩٨٧ و**المسيرة** ٢٤/١٠/١٩٨٧.
(١٠٩) «**الشراع**» في ٢/١١/١٩٨٧.
(١١٠) **الأنوار** ٣١/٥/١٩٨٧. ويمضي بقرادوني مُعَدّداً بعض بنود «البرنامج والانجازات» كـ «مراقبة الأسعار ومكافحة الغلاء والغش عن طريق المداهمات، وقف نوادي القمار والبينغو، تسيير النقل المشترك وقريباً سيزداد عدد «بوسطات» النقل بكل الاتجاهات ولكل المناطق. التضامن الغذائي الذي يبدأ في ١٥ حزيران ويغطي ما يقارب ٨ آلاف عائلة لبنانية، التضامن الصحي الذي سيبدأ قبل نهاية هذا العام وسيغطي أكثر من ٨ آلاف عائلة لبنانية، التعاضد التربوي... إلخ.
(١١١) وهو أحد بنود الخلاف الذي انفجر لاحقاً مع الجيش وقائده ميشال عون.

على فكرةِ الإضراب المفتوح الذي أعلَنَتْهُ نقابةُ لم تَعُدْ تُمَثِّلُ إلّا الجزء اليسيرَ من المعلمين [...] رابطةُ أساتذة التعليم الحر اتخذت موقفاً مُنَاقضاً لقرار النقابة [...] إنَّنا لا نعترفُ للمتكلمين باسم المعلم من نُقَبَاء ومُمَثِّلين بأيِّ صفةٍ شرعية»(١١٢).

☐ مالياً واقتصادياً: لم يكتم بقرادوني ارتفاعَ موازنةِ القوّاتِ الشهريَّةَ من ٢٠ مليون ليرة لبنانية قبل ١٢ آذار إلى «أكثر من ١٢٠ مليون ليرة» بعدها(١١٣)، وفي تفنيدٍ لبعضِ مصادر هذه الموازنة، قُدِّر أنَّ القوات تجني ٣٧٠ مليون ليرة سنوياً من كازينو لبنان، ومليون ليرة يومياً من الحوض الخامس، و١٢ مليون ليرة شهرياً من العقارات والسيارات، و٥ ملايين شهرياً من الضريبة على البنزين والغاز و١٢٥ ألف ليرة يومياً من المتاجرة بالقمح(١١٤).

لقد بات في وُسْعِ بقرادوني أنْ يتحدَّث عن «برنامج للتنمية الزراعية بمساعدة الدولةِ الإيطالية» وعن امتلاكِ «شبكةِ اتصالاتٍ ديبلوماسية مُنَظَّمَةٍ مع الكثير من الدول الغربية والشرقية والعربية المعنية مباشرةً أو بصورة غير مباشرة في الأزمة»(١١٥). وأخطر من ذلك ما عبَّرت عنه بدايةُ انبثاقِ لغةِ الاقتصادِ المُوَجَّهِ في الخطاب الإقتصادي للقوات التي باتت ترى «ضرورةً في تشجيعِ المبادراتِ الإقتصاديّة المنتجة. إنَّها تعملُ الآن على دَعْمِ المشاريع الاقتصاديّة. على سبيل المثال، هي (القوّات) ترى أنَّ الفرصة سانحةٌ لتحويل لبنان من دولة خدمات إلى دولة صناعية»(١١٦).

☐ في السياسة الخارجية: لئن اهتمت «القوّات» منذ نشأتها بالشؤون الخارجية، فهذا الاهتمامُ لم يَعُدْ، بعد بشير، يحتلُّ أهميّتَهُ السابقَةَ نفسها أكان ذلك في ظلِّ إيلي حبيقة الذي عوَّل تعويلًا وحيَد الجانب على السوريين، أو في ظلِّ سمير جعجع الذي تزامنت قيادتُهُ مع تراجعِ الإهتمامِ الغربيِّ (والاسرائيلي) بلبنان.

غيرَ أنَّ «القوات» ركَّزت تركيزاً ملحوظاً على المُغْتَربين لا بالمعنى الكتائبي التقليدي الذي يدور حول إعطاءِ «حقوق» للمغتربين في لبنان، بل بمعنى مطالبةِ الأخيرين بـ «واجباتهم» حيالَ الوطن الأم. ومن هذا المُنْطَلَق سعت «القوّات» وعبر جهازٍ تابعٍ لها أسْمَتْهُ «مؤسَّسة التضامن الاجتماعي»، إلى أنْ «تربطَ مئة ألف عائلة مغتربةٍ بمِائة ألف عائلة مُقيمَةٍ»(١١٧)، بحيثُ تتولّى العائلاتُ الأولى المشاركةَ في إعالةِ العائلاتِ الأخيرة

(١١٢) **المسيرة** ١٧/١١/١٩٨٧.
(١١٣) **الأنوار** ٣١/٥/١٩٨٧.
(١١٤) من مقابلة مع عدنان الحاج (محرر اقتصادي في جريدة السفير) في بيروت ١٩٨٦. جدير بالذكر أنّه لو أتيح لمشروع مطار حالات أنْ يتحقق، لدرَّ دخلًا إضافياً هائلًا.
(١١٥) **الأنوار** ٣١/٥/١٩٨٧.
(١١٦) بقرادوني في **المسيرة** ٢٢/٧/١٩٨٧.
(١١٧) انظر، مثلًا لا حصراً، افتتاحية **المسيرة** ١٧/١٠/١٩٨٧.

ودعمِ «صمودها». وَوَجْهُ الخطر في هذا التوجه أنَّ قوميَّةَ المُضْمَرَةَ تفترضُ ضمناً عدم اندماجِ المهاجرين في مجتمعاتِهم الجديدة، أو أنَّها تعمل على تعقيد مثلِ هذا الإندماج بذريعةِ «الواجب» حيالَ المصدر الأصلي.

عود على بدء

في مقابل هذا المسار القوّاتي، شكّل وصول أمين الجميل إلى رئاسةِ الجمهورية[118]، بعد مصرع شقيقه الأصغر، إطلاقاً لمسار آخر آيل إلى تضارب لا مهرب منه مع «القوّات»، فيما تُركت «الكتائب» موضوعاً لنزاعٍ ضارٍ ولتجاذبِ آلَ إلى تبديدها.

وما ينبغي تسجيلُه، بادىء ذي بدء، أنَّ مجرَّدَ ترشيح كتائبيٍّ آخر من آل الجميل إلى رئاسة الجمهورية، بعد الصدمة التي أصابت المسيحيين عموماً، بضمانات الدولة، هو من قَبيل العودة إلى النظرية الكتائبية «الكلاسيكية» في الإحالة إلى الدولة. وهذا ما كان يتنافى مع النظرية القوّاتية حول الإحتكامِ إلى القوّة الذاتية أو التَّجَمُّعِيَّةِ في المجتمع الأهليِّ، والاعتمادِ ثانياً، وفي حدودٍ قصوى، على الدعم الخارجي لهذا البلد المجاورِ أو ذاك.

والحقُّ أنَّ أمين الجميل، وفي توجُّهاتِهِ العامّةِ، التزمَ تماماً نظريةَ الإحالةِ إلى الدولة، خصوصاً وقد بات على رأسها، وكانت لالتزامه هذا أكلافٌ لا بُدَّ من تسديدها.

فالمُرَشَّحُ الذي انتخبه عددٌ كبيرٌ من النوّاب المُسلمين، سُنَّةً وشيعةً، ورعى صائب سلام معركَتَهُ الرئاسيةَ بقَدْرٍ من الحماسة، كان مضطراً إلى أنْ يعمل على فَصْلِ ما ومَنْ يُمَثِّلُ عن أيَّةِ شبهةٍ إسرائيليَّة، عِلماً أنَّ فصلاً كهذا لَمْ يَكُنْ عمليةً بسيطةً. وتَبَعاً لرواية جوزيف أبو خليل أنَّ أرييل شارون كان بُعَيْدَ مجزرة صبرا وشاتيلا قد طَلَبَ إلى الكتائبِ إصدارَ بيانٍ بمسؤوليتها عن ذلك، عَلَّ بياناً كهذا يُبْرِىءُ ساحَتَهُ. لكنَّ الكتائبَ امتنعت حِرصاً على توفير الشروطِ اللازمة لمعركةِ أمين الجميل الرئاسية[119].

ومؤدّى هذه الروايةِ أنَّ الحزبَ فضَّل خيارَ الدولةِ اللبنانية، ولو أدّى إلى بدايةِ التدهور في العلاقة مع الإدارةِ الليكودية، على التَّمَسُّكِ بالدعم الإسرائيلي للموارنة والذي وَصَفَهُ شارون بأنَّه «ضمانَتُكُم الفعليّة».

(١١٨) بحسب رواية أمين فإنَّه عارض، منذ ترشيح بشير، ترشيخ أي فرد من آل الجميل للرئاسة بسبب الصبغة الحزبية، لكن «اغتيال بشير بعد انتخابه، قد وضع المصير على كف عفريت، وقام اعتقاد بأن خلافتي لبشير قد تساعد على تأمين الانسحاب الإسرائيلي بأخفً الأثمان». أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ٢، في **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٥.

(١١٩) بحسب رواية جوزيف ابو خليل (المقابلة الشخصية معه).

ومن زيارته وليد جنبلاط بعد محاولة اغتيالٍ تعرّض لها ومشاركته في مهرجان جمعية المقاصد الإسلامية في بيروت، إلى التّوجه إلى طرابلس وصيدا وزيارة المفتي حسن خالد والرئيس شفيق الوزان، بدا الرئيس الجميل حريصاً، ولو في الظاهر، على نفي الطابع الثأري عن عهده وإبداءِ الحرصِ على لونٍ من التوازن اللبناني - اللبناني.

كذلك جاءت حكومةُ العهد الأوّل، وفي ظلِّ تعذُّرِ تشكيل حكومةِ «اتحادٍ وطني» جامعةٍ، لتُكَرِّرَ ما فعلَهُ فؤاد شهاب بعد ١٩٥٨ حين عهد إلى رشيد كرامي بتشكيل حكومة فنّيين وإداريين هي التي قامت في وجهها «الثورة المضادة» للكتائب. فإلى تكليف شفيق الوزّان برئاستها، وهو سياسيٌّ بيروتي تولّى رئاسةَ الحكومة في عهد الياس سركيس، جِيءَ بوزراء هم في غالبهم فنِّيُّون ونقباءُ مهنيون كبهاء الدين البساط نقيب المهندسين، وروجيه شيخاني نقيب المحامين، وعصام خوري النقيب السابق للمحامين والمهندس بيار خوري.

وفي الوَسَطِ المسيحي العريضِ لم يتلكأ أمين الجميل، مُسَلَّحاً بدعمِ والده، عن خوضِ معاركَ متواصلةٍ مع الخطِّ الذي تنتهجُهُ «القوات». ومن أبرز أمثلةِ ذلك، خلوة سيدة البير التي عُقِدَتْ في أواخر العام ١٩٨٢ وضمّت «حوالي أربعين شخصاً يمثّلون الفعاليات التالية: حزب الكتائب، الجبهة اللبنانية، القوات اللبنانية، الكسليك، اليسوعية، اللجنة الاستراتيجية في «بيت المستقبل»، والمقدم سامي الشدياق («زميل» سعد حداد) وعدداً من الأكاديميين. وبين الذين حضروا الخلوة التي دامت يومين: جورج شرف، أنطوان نجم، أنطوان معربس، أنطوان مسرّة، ميشال عوّاد، الأب سليم عَبُو، يوسف مَيْلا، جان شرف، العميد إبراهيم طنّوس، العقيد ميشال عون، الأب عبدالله داغر، الأب توما مهنا، وليد الخازن، روبير عبده غانم، خيرالله غانم، كريم بقرادوني، جوزيف أبو خليل، فادي افرام، سمير جعجع، شارك مالك، د. دعد عطاالله، د. نبيه كنعان عطاالله»[120].

واللافت في هذه الخلوةِ المُوَسَّعَةِ والتي شملت هذا العددَ من الفعاليات المسيحية، أنَّ التيّار المؤيِّد لرئيس الجمهورية كان مُتَمَسِّكاً بشعار «الـ ١٠٤٥٢ كلم مربع» بصفته «وصيَّةً» بشير الجميل، إلّا أنَّ الأكثرية كانت ترى «أنَّ» مشروع بشير» لن يستمر [...] (و) أنَّ الحكمَ لا يُشَكِّلُ ضمانةً وَحْدَهُ، وأنّه يجبُ أنْ تُضَافَ إلى الضمانة السياسية التي يُمَثِّلُهَا، ضمانةٌ «جغرافية أو جيو - استراتيجية» تُطَمْئِنُ المسيحيين، وأنَّ ذلك لن يكونَ بغير استمرار «القوّات اللبنانية»، وبغير التّوصُّل إلى صيغةٍ جديدةٍ هي نوعٌ من الفيدرالية»[121].

هذا الرجوعُ إلى نظرية إحالةِ السياسة إلى الدولة لا يعدَمُ مصادِرَهُ في شخصِ

(١٢٠) جوزيف سماحة، «الكتائب والسلطة»، الحلقة ١، **السفير** ١٩٨٣/٤/٧.

(١٢١) المرجع السابق، حيث يتحدث الكاتب عن «نقاش حاد» جرى بين عضوي المكتب السياسي كريم بقرادوني وإبراهيم نجار المؤيد لخط أمين الجميل.

أمين الجميل وتجربتِه. فنجل مؤسس الكتائب الذي وُلِدَ في ١٩٤٢ ودرس في مدرسة الآباء اليسوعيين لِيَتَخَرَّجَ محامياً من الجامعة اليسوعية، تَفَتَّحَ وعيُهُ في زمن صعود الشهابية ونجاحِها الظاهري. فسنواتُ حكم فؤاد شهاب (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤) هي مُعْظَمُ سنوات الجميل في التعليم الثانوي العالي والجامعي. وإذا كان شقيقُهُ الأصغرُ بشير قد شارَكَهُ التَّدَرُّجَ في مكتب المحامي والقُطب الشهابي فؤاد بطرس، إلَّا أنَّه اختلفَ عنه في أنَّ سنواتِهِ الجامعية تلازمت مع تَفَسُّخِ الشهابية وصعودِ المقاومة الفلسطينية والفوضى التي صاحَبَتْهَا، ومن ثَمَّ دخولِ العنفِ إلى الحَرَمِ الجامعي عن غير طريق.

قُصارى القول إنَّ كتائبية أمين في زمن الإسترخاء الشهابي بَدَتْ كتائبيةً مُسْتَرْخِيَةً تُتيحُ، إلى التأثُّر بالوالد الشيخ بيار، تَأَثُّراتٍ متعددةً أخرى، ومتضاربةً أحياناً. فالتفاؤلية التي اتَّسَمَت بها الشهابيةُ وَفَّرَتْ لِحِزْبِيٍّ شاب مِثْلَهُ أنْ يُفَكِّرَ في معابرَ للتَّرقي موازيةٍ للمعبر الحزبي، وأنْ يعيشَ في «مجتمعاتٍ صغرى» تتعدّى البيئةَ الحزبيةَ الضيقةَ.

مِنْ ذلك اقترانُ أمين بجويس تيّان المتفرعةِ عن بيتٍ تجاريٍّ في مقابلِ اقترانِ شقيقه بشير بصولانج توتنجي المناضلةِ الحزبيةِ الصادرةِ عن بيتٍ كتائبيٍّ في ولائه وأهوائه. ولئن عُرِفَ بشير بصداقاته في أوساط مُجايليه الحزبيين، عُرِفَ أمين بصداقاتِهِ في أوساط المُحامين والمهنيين، ولاحقاً رجالِ المالِ والأعمالِ والسياسةِ. أمَّا أبرز مُستشاريه إبَّانَ حُكْمِهِ، كوزير خارجيته إيلي سالم ووديع حداد وغسّان تويني، فكان يُؤتى بهم من الجامعةِ والصحافةِ والسياسةِ أكثرَ مِمّا مِنَ الحزب. وكما كان الإعتبارُ الجغرافي - السياسي، وأهمُّ ما فيه تحسينُ شروطِ الصلة بالولايات المتحدة كَمَخْرَجٍ يُجَنِّبُهُ الخيارين السوري والاسرائيلي، هو ما يُملي اختياراتِهِ في ميدان السياسةِ الخارجيةِ، كانت النزعةُ المُؤَسَّسِيَّةُ تَجِدُ عندَهُ تعويلاً يذهبُ إلى حدِّ مبالِغٍ فيه لِجِهَةِ الإغفالِ عن العناصر الإيديولوجية والثقافية المحليّة (١٢٢). وفي الحالين اتَّسمت الأمينيّةُ بلونٍ من الحداثيّة البرّانيّة التي لا تستطيع دائماً أنْ تُفكِّرَ مُجْتَمَعَها بذاتِه وتاريخه وتراكيبِهِ.

إلى ذلك كان للإنخراط المُباشَرِ في الحياة البرلمانية منذ ١٩٧٠ أنْ تَرَكَ تأثيراتٍ لم يَكُفَّ أمين الجميل عن الإشارة إليها والتوكيدِ عليها. ففي العام المذكور توفِّيَ خالُه القطب الكتائبي موريس الجميل الذي كان يَشْغَلُ أحد المقاعدِ النيابية عن دائرة المتن الشمالي، فاختير أمين ليخوضَ المعركةَ الفرعيةَ عن الكتائب وهي التي أوصلته مُذّاك إلى البرلمان،

(١٢٢) في ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٩ نشر أمين الجميل مقالاً في **العمل** بعنوان «الكتائب كمؤسسة ومدى ملاءمتها لظروف ما بعد الحرب» حيث أكَّدَ على الطابع المؤسسي للحزب، وعلى دور المؤسسات لا في الكتائب فقط بل في الوطن. هذا المقال الذي يشي بتصور تعاضدي (كوربورالي) يتكرر فيه وبصورة لافتة تعبيراً «مؤسسة» و«مؤسسي».
لاحقاً انشأ الجميل عدداً من المؤسسات التي انضوت في إطار مؤسسة أم دعيت «أسرة مؤسسات الإنماء للبنان ـ انما»، في سبيل تعداد لهذه المؤسسات، انظر جريدة **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٤.

ليخوضَ بعد سنتين معركةَ القضاءِ نفسِه من ضمن الانتخاباتِ العامة التي جرت في ١٩٧٢.

غير أنَّ انتخابات ١٩٧٠ كانت لها أهميّةٌ خاصةٌ في صِلَتِهَا بالكتائب وبأمين الجميل على السواء. وقد قُيِّضَ لها أن تُلَخِّصَ عدداً من التناقضاتِ التي لازمت الحزبَ خلال سنواتٍ مديدة. فمن ناحيةٍ جاء اختيارُ أمين الجميل لِشَغْلِ المقعد الذي شَغَرَ بوفاة موريس ليدُلَّ أصلاً على حدودِ الحزبيةِ الكتائبيةِ واصطباغِها بالإعتباراتِ العائلية المحلية، الشيءُ الذي رأيناه يتفاقم على نحو خطيرٍ في سنواتِ الحرب الأهلية. ذلك أنَّ نجلَ بيار الجميل وابنَ شقيقةِ موريس الجميلِ حلَّ في المكانِ الذي كان، حزبياً، من حَقِّ المحامي منير الحاج رئيس إقليم المتن الشمالي الكتائبي(١٢٣).

ومن ناحيةٍ أخرى، وَجَدَ أمين الجميل نفسَهُ في ١٩٧٠ يستأنفُ الخطَّ الشهابيَّ في ترجمتِهِ وتحالفاتِهِ المتنية. فالقوى التي أيَّدت معركتَهُ هي التي وَقَفَتْ وراء التحالف الشهابي ـ الكتائبي في ١٩٦٠ مُمَثَّلًا بجميل لحود وموريس الجميل، أمّا القوى التي أيَّدت خَصْمَهُ فؤاد لحود فهي قوى «الحلف الثلاثي» في ١٩٦٨ بعد إنقاص الكتائبيين منها وإضافة القوميين السوريين إليها(١٢٤).

بِلُغَةٍ أخرى، وَجَدَ أمين الجميل نفسَه في ١٩٧٠ في مواجهةِ التكتل الموصوفِ تقليدياً في المتن بـ «التطرف» المسيحي، والذي يَضُمُّ الشمعونيةَ من خلال فؤاد لحود، والكتلويةَ التاريخيةَ من خلال ألبير مخيبر والقوميَّةَ السورية من خلال أسد الأشقر.

وكان لتمثيله المتنَ في البرلمان أنْ أضافَ إلى ما وصفناهُ بكتائبيته المُسْتَرْخِيَةِ جُرْعَةً أخرى من استرخاء. فالمنطقةُ التي يَقُومُ هَرَمُهَا الإجتماعيُّ على بورجوازيةٍ متوسطةٍ هي أعرضُ مثيلاتها في المناطق اللبنانية، تَضُمُّ إلى اكثريتها المارونيةِ كتلةً أرثوذكسيةً كبرى نسبياً وأخرى أرمنيةً كان حزبُها الأقوى، حزبُ الطاشناق، حليفاً ثابتاً للكتائبِ والشهابية.

زِدْ على ذلك كله تأثيراً آخرَ وَفَدَ على أمين الجميل من طريقِ العائلةِ والحزبِ، وهو الذي تَرَكَهُ خالُه موريس الجميل.

فهذا الأخير مَثَّلَ اللقاحَ الشهابيَّ ـ الكتائبيَّ خصوصاً لجهةِ ما سُمِّيَ بالثورةِ الدستورية أو الإنقلابيةِ من ضمن المؤسسات، وهي التي حَمَلَت في داخلها جرعةً كبيرةً

(١٢٣) تبعاً لجوزيف ابو خليل (المقابلة الشخصية) إنَّ ما أملى موقفه وموقف كتائبيين آخرين كون امين الجميل كمرشح مؤهلاً للفوز أكثر بكثير من منير الحاج.
(١٢٤) في ١٩٦٨ وبموجب تسوية غير معلنة تم الاتفاق على انْ يُطْلَق سراح القوميين السوريين الذين اعتقلوا بسبب محاولتهم الانقلابية في ١٩٦١ مقابل تصويت الحزب للمرشحين الشهابيين.

من الطّوباويّة والتبشيرِ في النَّظَرِ إلى وَحْدَةٍ لبنانيةٍ يتمُّ البلوغُ إليها بالتقنية.

ولم يكن موريس الجميل بعيداً عن مصادر تكوينه عن إتّجاهاتٍ إنقلابيةٍ سَبَقَ انتسابُهُ إليها انتسابهُ إلى الكتائب، إذ انضمَّ في أوائل الثلاثينات إلى الحزب السوري القومي الذي غادره إلى «حزب الإستقلال الجمهوري» الأشدّ تصالحاً مع الواقعِ اللبناني، حيث أصبح نائباً لأمين سرّه[١٢٥].

وإلى تعويلِهِ على المؤسَّسات والتخطيط، والشبيبةِ والتحديث، شَابَ علاقةَ موريس الجميل بقريبه بيار قَدْرٌ من الإرتجاجِ والمُنَاكَفَةِ، بعضُهُ شخصيٌّ، وبعضُهُ الآخر من طينةِ النفورِ المعروفِ بين التأمليين والعمليين في السياسةِ والأفكار[١٢٦].

غير أنَّ تلك المقوماتِ وهذا النفورَ هيأت موريس الجميل لأنْ يرعى رعايةَ الأبِ الروحي ما عُرف بـ «تيّار الشباب» في الكتائب أواخر السّتينات، وهذا التيّار الذي كان أمين الجميل قريباً منه، قرّبَهُ من والده وخاله على السواء، هو الذي جعل الحزبَ في ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ يعقد ندوتي «أسبوع الفكر الملتزم» لأهداف منها: «محاربةُ الطائفية» و«التقنيةُ» و«التحديثُ» و«تطويرُ المؤسسات» و«امتصاصُ إمكانيات الثورة العمالية والطلابية» وإبداءُ الإستعداد لـ «تعديلِ الدستور» على الطريق إلى «القضاءِ على الطائفية» و«عَلْمَنَةِ الدولة».

لكنَّ التيارَ المذكورَ الذي طمح أبرزُ قادتِهِ، كريم بقرادوني، إلى الحدِّ من سلطةِ بيار الجميل، لم يَخْلُ من تلك النظرةِ التبسيطيةِ إلى «الجوار العربي»، التي كانت تَشُقُّ على الدوامِ قنواتٍ من الشطارةِ القابلةِ لأنْ تصيرَ انتهازيةً سياسيةً أو لوناً من السذاجة والتسليم.

ففي الفترة إيَّاها التي كانت تُسَجِّلُ صعودَ المقاومةِ الفلسطينيةِ وأحزاب اليسار في لبنان، توجَّهَ بعضُ أفراد «تيّار الشباب» إلى المخيمات الفلسطينية في الأردن بقَصْدِ إنشاءِ علاقةٍ مع ياسر عرفات تُقْنِعُهُ أنَّ الصلةَ بالمسيحيين في لبنان في استطاعَتِهَا أنْ تَحُلَّ مَحَلَّ الصلةِ بالمسلمين وتُقَدِّمَ لثورته الخدماتِ نفسها. ولم يكن مُصادفاً أنْ يُسْتَعَادَ هذا النهجُ، في صورةٍ مُوَسَّعَةٍ ومن خلالِ الأشخاصِ أنفُسِهِم، حينَ أصبحت العلاقةُ بدمشق هي الموضوعُ المطروح.

أبعدُ من ذلك أنَّ المطالبَ التنظيميةَ والداخليةَ التي رفعها بقرادوني في ١٩٦٨ و١٩٦٩ كرئيسٍ لمصلحة الطلاب في حزب الكتائب سريعاً ما تحققت، بحيث أصبح

(١٢٥) راجع جان سرور، **جمعية التضامن الأدبي**...، سبق الاستشهاد، ص ٤٢.
(١٢٦) من المقابلتين الشخصيتين مع جوزيف أبو خليل وكريم بقرادوني، تصحُّ النسبة نفسها في الكلام اللاحق عن «تيار الشباب»، كذلك راجع مقابلة «**المسيرة**» مع بقرادوني في ١١/١٠/١٩٨٦.

بقرادوني في ١٩٧٠ عضواً في المكتبِ السياسي للحزب، وأمْكَنَ إشراكُ الطلاب عبر مُمَثّليهم في صُنْعِ القراراتِ السياسية الحزبية استناداً إلى مُشاركتِهِم في أرفعِ هيئاتِهِ.

قُصارى القول إنَّ أمين الجميل هو أيضاً وريثُ تفاؤليّةٍ ساذجةٍ سادت حياةَ الحزبِ في أزمنةِ السلم، وَبَرْهَنَتْ لأصحابها على وجودِ قُدْرَةٍ تَطوريَّةٍ هائلةٍ على تذليلِ المصاعبِ وامتصاصِها. ومثلُ هذه التفاؤليةِ لا تعدمُ جذورها وأسبابَهَا السابقةَ على تجربةِ «تيّار الشباب»، ففي ١٩٥٢، وبُعَيْدَ انتقالِ الكتائبِ من «منظمةٍ» إلى «حزبٍ» بحسب تحقيبها الرسمي، أمكن لبيار الجميل أنْ يمتصَّ تياراً معارضاً في وسط المثقفين ويَتَحَوَّلَ من «رئيسٍ أعلى» إلى «رئيس»[١٢٧].

بعدت سنواتٍ بدت العدّة التي استقبلت بها الكتائبيةُ المُسْتَرْخِيَةُ، مُمَثَّلَةً بأمين الجميل، حربَ ١٩٧٥، تَحْمِلُ في داخِلِها كلَّ أصنافِ تلك التعارضاتِ المتراكمةِ عن المراحلِ السابقةِ المذكورة.

فقد انخرط أمين في الحرب لكنّه انخرطَ دفاعياً، كما اقتصرَ مسرحُ مشاركَتِهِ على منطقةِ المتن وجوارها، فلم يذهب للحرب «في طرابلس أو صبرا أو الشوف أو شرق صيدا»[١٢٨]. ولئن عبَّرت حدودُ هذا الإنخراط عن التناقضِ الموروثِ في الكتائبيةِ التقليدية، فهي أيضاً كشفت كيفَ يُمْكِنُ لـ «الإعتدالِ» الدفاعي أنْ يحتوي في داخله استعداداً للتراجع عن «الوطنِ» إلى «الجماعةِ» و«المنطقة».

(١٢٧) من الذين دفعوا آنذاك إلى هذا التحول: جوزيف مغيزل وأدوار صعب ونديم دكاش ونخلة المطران ومخايل عون (من المقابلة الشخصية مع أبو خليل). الجدير بالذكر أنَّ أوَّل الخمسة بات من مؤسسي «الحزب الديمقراطي» والثاني امتهن الصحافة واحترفها والرابع والخامس باتا من قياديي تنظيم ماركسي صغير. بدوره وجد «تيار الشباب» في أواخر الستينات من يسميه «يسار الكتائب».
وإلى هذه السمة شبه الإنقلابية التي احتواها الحزب في الحالتين، جمعت بين حركتي أوائل الخمسينات وأواخر الستينات سِمَتَان اخريان: أنَّهما ظهرتا في الوسط الطلابي ووسط المثقفين، وأنَّ قيادتهما كانت متعددة الطوائف المسيحية وليت مارونيتية حصراً فضلاً عن تعددهما المناطقي. وتحمل هذه السمة الأخيرة على التذكير بتيار إيلي حبيقه في أواسط الثمانينات الذي انضوى فيه ميشال سماحه الكاثوليكي المتني ممن قادوا «تيّار الشباب». من ناحية أخرى يوجز ج. انتليس في مقالة له التحولات التنظيمية التي تعرض لها الحزب منذ ١٩٥٢ واستوعبها، ودلالة تلك التحولات على قدرته التطورية، ففي ١٩٥٢ أصبح «القسم» الوحدة ـ الركيزة في التنظيم بعد أن كانت «الميليشيا» في المرحلة الفالانجية، كما حصل انتقال في العام نفسه إلى «ديمقراطية مركزية» يتعايش فيها التعيين والانتخاب، انتقال القيادة المركزية للحزب من «مركزية أوتوقراطية» إلى «مركز اوليغارشية». وفي ١٩٥٦ بدأ «المؤتمر العام» بالانعقاد لكنه تعطَّل خلال حرب ١٩٥٨ ليُعَاود الانعقاد مرة كل سنة بدءاً بـ ١٩٥٩. ومرة أخرى كان لحرب ١٩٥٨ والخوف الذي أطلقته أنْ ادَّت إلى إنشاء «الفرقة» شبه العسكرية كوحدة تنظيمية معبرة عن انبعاث المرحلة الفالانجية من جديد. انظر: John.P.Entelis, «Structural change and organizational develoment in the lebanese Kataéb party», *The Middle East journal*, vol. 17m no.1 Winter 1973. كذلك راجع الفصلين الثالث والرابع في هذا الكتاب.
(١٢٨) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ٣، **الحياة** ٦/١٢/١٩٩٠.

كائناً ما كان الحالُ، فإنَّ هذا الاستعدادَ الذي حَمَلَ أمين الجميل على نَزْعِ بِزَّتِهِ العسكريةِ بمجرّدِ انتهاءِ حرب السنتين، والرهانِ على العملية السياسية، سُرْعانَ ما دَفَعَ به إلى المبالغةِ في التعويلِ على الدور السوري، إذْ، وَتَبَعاً لروايته هو، عن موقفِه إبّان حرب ١٩٧٨ ضد السوريين: «خرجتُ وحدي من هذا الإجماعِ المعادي لسورية (ضمن «الجبهة اللبنانية») واتخذتُ موقفاً معارضاً منه. وأصبحتُ في مواجهةٍ سياسيةٍ مع الجميع وخصوصاً مع الفريقِ السياسي الذي كان أقربَ الناس إليّ»(١٢٩). وما كان يقولُهُ أمين الجميل باقتصادٍ وحذر، كان يقولُهُ بعلنيةٍ واحتفاليةٍ المحامي كريم بقرادوني الذي دَرَجَ اعتبارُهُ آنذاك من السائرين في خطِّ أمين داخلَ الحزب، الشيء الذي لم يتغيّر إلّا بُعَيْدَ صعودِ بشير اللاحق(١٣٠).

فبقرادوني حينذاك لم يَتَمَلَّكْهُ العجبُ «من أنْ يكونَ في لبنان تيّاران كبيران، موجودانِ في كلِّ الطوائف المسيحية والإسلامية، وفي كلِّ الأحزاب اليمينية واليسارية.

هذان التيّاران هما التيّار الإسرائيلي الذي يُريد التقسيمَ والتوطينَ، والتيّار السوري الذي يُريدُ التوحيدَ والسيادةَ»(١٣١).

بلُغَةٍ أخرى، إذا كانت البشيرية، في وجهٍ أساسيٍّ منها، هي الصراعُ مع الفلسطينيين الذي استأنفَ نفسَه صراعاً مع السوريين، بالتحالفِ مع الإسرائيليين في المرّتين، فإنَّ الأمينيّة كانت لحظةً دفاعيةً ضدَّ الفلسطينيين وجدت تتويجَها في ١٩٧٦ - ١٩٧٧ في التحالفِ مع السوريين الذين تدخّلوا لمصلحةِ المسيحيين ولِقَطْعِ الطريقِ على التدخّل الإسرائيلي.

ولم يَكُنْ لهذه التناقضات كلِّها إلّا أنْ تظهر إلى العلن مع تحوّل الموقفِ السوري

(١٢٩) المرجع السابق، الحلقة ٩، **الحياة** ١٢/١٢/١٩٩٠.
(١٣٠) بحسب جوزيف أبو خليل (المقابلة الشخصية) كان هو من أقنع بشير أنَّ كريم «طاقة يجب كسبها» وهكذا بدأ بقرادوني التحول من معسكر أمين في الحزب إلى معسكر شقيقه.
(١٣١) في سبيل التهليل الغزلي بالإنقاذ السوري للبنان وبشخص الرئيس الأسد، أنظر مقالاً كتبه كريم بقرادوني في ١٩٧٧ ولم ينشر آنذاك إلى أنْ نشرته مجلة **المستقبل** ٩/١١/١٩٨٥ تحت عنوان «كيف انقذ الأسد لبنان؟».

بلغ هذا التهليل أن قال بقرادوني في مقابلة صحافية عقب فيها على محاولة لاغتيال الوزير عبد الحليم خدام في ١٩٧٦: «الواقع أن شخصية الوزير الإنساني عبد الحليم خدام شخصية جديرة بالاحترام. فهو أكثر الدبلوماسيين تنسكاً إذْ اعتاد أنْ يقوم في الساعات القليلة التي تسمح بها ظروفه بمشوار في سيارته مع زوجته. الواقع أنَّ الوزير خدام يعيش في مكتبه ١٨ ساعة وينام في منزله ٦ ساعات لدرجة أنّه عندما تشكلت الوزارة السورية الأخيرة كانت رغبة زوجته وابنه أنْ يترك الوزارة، لأنَّ ابنه الثاني جهاد قال له: «أشعر بأنني يتيم فإنّك لا تهتم بنا». وقد تأثّر أبو جمال بكلام ابنه وأخذ يصرّ في المرحلة الأخيرة على تكريس ولو ساعة في الأسبوع للعائلة، وتلك الساعة التي كرسها في الأسبوع الفائت كانت ساعة محاولة اغتياله». من مقابلة مريم شقير أبو جودة معه في مجلة **الصياد** ٩/١٢/١٩٧٦.

في مُقابل الضَّعْفِ المُتنامي للدولةِ اللبنانيةِ وتزايدِ التَّجَذُّرِ واتِّساعِ الجَيْبِ الريفي في الوَسَطِ المسيحي.

الضبط المستحيل

كان العملُ بمبدأ الإحالةِ إلى الدولةِ يستدعي ظهورَ أمين الجميل بمظهرِ الرمزِ القوي في طائفته وتنظيماتِها الأهلية، وفي هذا الإطار كان التَّمَسُّكُ بإيلي كرامة على رأس حزبِ الكتائب وَدَفْعِ فؤاد أبو ناضر إلى قيادة «القوات اللبنانية» بعد مرحلةِ الإضطرابِ والتجاذبِ والانتكاساتِ التي تَلَتْ رحيلَ بشير، حين كان فادي فرام قائداً لها.

لقد مرَّت القوّاتُ حينذاك، وفي مُوَازاة حصادِها التدريجي لمراراتِ حربِ الجبل والتخلي الإسرائيلي، بمراحلَ ثلاثٍ قصيرةٍ لم تَدُمْ الواحدةُ منها غيرَ أشهر: الأولى، مرحلةُ التطرف اللفظي والإصرار على البقاءِ والتمايزِ عن خطِّ أمين الجميل ـ الكتائب. وربما كان الإحتفال الذي جرى في كنيسة دير مار الياس بأنطلياس في أواخر تشرين الثاني ١٩٨٢ خَيْرَ تعبيرٍ عن هذه المرحلةِ ونزاعاتِها العلنية. آنذاك اعتُبِرَت كلمةُ فرام نافرةً برغم توكيدها مِنْ قبيل رَفْعِ العتب على حُسْنِ الصلةِ مع رئيس الجمهورية الذي «هو مِنّا ونحن له». وكانت أبرزَ عناصر النفور مسألتَا «المحاكاةِ الحضارية والعلاقات بين كلِّ أقليّات المنطقة»، وأنَّ القوّات، والمسيحيين بالتالي، لن يستمرّوا «في معاداةِ إسرائيل من أجل الفلسطينيين»(١٣٢).

وفي مقارنةٍ مع «خطاب الوعد» الذي ألقاه بشير الجميل بُعَيْدَ انتخابِهِ للرئاسة وتحدّث فيه عن الـ «١٠٤٥٢ كلم٢»، لم يَفُتْ أحدَ المُراقبين تسميةَ خطاب فرام «خطاب الوعيد» واعتبارُهُ علامةَ تَذَبْذُبٍ «بين بشير ما قبل الرئاسة وبشير ما بعدها»(١٣٣).

لكنَّ التيّار القواتي لم يَسْتَطِعْ خلال تلك المرحلةِ أنْ يكتُمَ إخفاقاتِهِ وإحباطاتِهِ ومصاعبِهِ، ومِنْ أهمِّها «أنَّ بيار الجميل ليس معه وإنْ كان لا ينوي الإصطدامَ به [...] (و) أنّه يفتقدُ إلى رمزٍ قيادي [...] (و) أنّهُ يفتقدُ إلى برنامجٍ مرحليٍّ وإلى برنامج»(١٣٤). تلازمت هذه المرحلةُ مع أعمالِ خطفٍ وانتقاماتٍ قام بها قوّاتيون وعسكريون مُوالون للقوات، في بيروت الغربية عَمِلَتْ على إضعافِ مِصْدَاقِيَّةِ العهدِ إسلامياً، وعلى التَّشكيك بعلاماتِ اعتدالِهِ الكثيرة، كما أمْكَنَ استعمالُها في وقتٍ لاحقٍ كذريعةٍ لانقضاض دمشق ومويّديها على النظامِ اللبناني.

(١٣٢) راجع الخطاب في صحف ٢٩/١١/١٩٨٢.
(١٣٣) **انظر جوزيف سماحة في السفير** ٣٠/١١ و١/٢/١٩٨٢.
(١٣٤) جوزيف سماحة، في **السفير** ٨/٤/١٩٨٣.

بدورها كانت المرحلةُ الثانيةُ مرحلةَ الإنكفاءِ أمام أمين الجميل والتراجعِ أمام رهانٍ مُسْتَجِدٍّ على السلامِ في أوساطٍ واسعةٍ في المجتمعِ اللبناني. في هذه المرحلة أمْكَنَ للجيش الذي أقام «بيروت الكبرى» أنْ يَتَسَلَّمَ الحوضَ الخامس في المرفأ من القوّات، فيما كان كريم بقرادوني يُعلن أنَّ خيارَهُ الوحيدَ هو أمين الجميل وأنَّ «الواجبَ يقضي» أنْ يكونَ في تَصَرُّفِهِ[١٣٥]، لا بل إنَّ مشكلةَ الجميل «هي مع الأطراف الأخرى وليست مع حزبِهِ أو قوّاته، وأنا اعتبرُ أنَّ الكتائبَ حزبُ أمينَ الجميل والقوّاتَ اللبنانيةَ هي قوّات أمين الجميل. إذن هو يأمرُ هذه القواتِ ولا يتفاوضُ معها. يتفاوضُ مع الآخرين وليس مع حالِهِ»[١٣٦].

اتّسمت هذه المرحلةُ بمحاولةِ تلوين الجميل بلونِ القوّات، على ما يُمكنُ أنْ يَنُمَّ عنه ذلك من توريطٍ وتعزيزٍ لحُجَجِ الطاعنين بالشرعيةِ وحيادِها ولا حِزْبيَّتِها. غير أنَّ هذا التناولَ لم يُخْفِ أزمةً وجودِ القوّات نفسِها، وهي الأزمةُ التي دفعتها إلى الإختباءِ وراءَ واجهةِ حزب الكتائب الباحثِ عن صيغةٍ معقولةٍ لاستيعابها. وفي هذه الحدودِ صِيْرَ إلى تشكيل «هيئةٍ تنفيذيةٍ تَضُمُّ رئيسَ الحزب (بيار الجميل) ونائبَ رئيس الحزب (إيلي كرامة) والأمينَ العام (جوزيف سعادة) والقوّات (فادي فرام) وأحدَ النواب الحزبيين (جورج سعادة) ورئيسَ الأمانة العامة (جوزيف أبو خليل) أهمُّ أهدافها إعادةَ تنظيم العلاقةِ بين الحزبِ والقوّات[١٣٧].

أما المرحلةُ الثالثةُ فبدأت في أواسط ١٩٨٣، ومع اتّضاح المصاعبِ السورية والإسرائيلية، وتالياً الداخلية، التي تُواجِهُ مشروعَ الدولة وإعادةَ استنهاضِها. هنا عادَ التباينُ مع الحكم لِيَطْغى ويتعاظمَ، بحيث يُدينُ رئيسُ الحكومة شفيق الوزان «بشدة» قصفَ «القوّات» لشحيم في إقليم الخروب، فيردُّ عليه فرام بأنَّ القصفَ لم يَكُنْ غيرَ دفاعٍ عن النفسِ وردٍّ على الاشتراكيين[١٣٨]. وصولاً إلى تقييم إجمالي للعام ١٩٨٣ بوصفه «عام خيباتِ الأمل» وأنَّ «القوّة الذاتيةَ اللبنانيةَ وحدَها قادرةٌ على تحويرِ أيِّ حدثٍ لمصلحةِ هذا الوطن»[١٣٩]. والقوَّةُ الذاتيةُ هي، كما لا يَخْفَى، القوّةُ التَّجَمُّعِيَّةُ التي يُصارُ إلى وَضْعَها في مقابل الدولة.

كان لا بدَّ، مع التَّقَدُّمِ نحو «استحقاقاتٍ» أكثرَ جديَّةً وذاتِ طابعٍ إقليميٍّ، من حسم «الإشكال القوّاتي» عبر الدولةِ ونفوذِ رئيسها في الحزب. فالجميل، بعد كلِّ حسابٍ، قليلُ

(١٣٥) **الأنوار** ١٤/٣/١٩٨٣.
(١٣٦) **الأنوار** ٣/٤/١٩٨٣.
(١٣٧) انظر جوزيف سماحة، في **السفير** ٨/٤/١٩٨٣.
(١٣٨) انظر **العمل** ٢٩/١٢/١٩٨٣.
(١٣٩) كريم بقرادوني في مقابلة أجرتها معه **العمل** ١٢/١/١٩٨٤.

الحرص على استقلالية القوّات قِلَّةَ شعورِهِ بالدَّيْنِ حيالَهَا في وصولِهِ إلى الرئاسة[١٤٠].

هكذا أدّى وصولُ أبو ناضر إلى إحلالِ مزيدٍ من الإنسجام بين توجهاتِ القوّات والحزبِ والدولةِ، كما بدأت تَسُودُ لغةٌ إيجابيّةٌ في الكلامِ والمواقفِ القوّاتيين، كأنْ تؤيّدَ «القوّاتُ» البيانَ الصادرَ عن اجتماعِ مجلسِ البطاركةِ والمطارنةِ الكاثوليك في ١١/١٢/١٩٨٤، وتُشيدُ «بالمواقفِ المسؤولةِ والجريئةِ التي تتَّخِذُها المراجعُ الروحية المسيحيةُ في لبنان والمشرقِ والفاتيكان»[١٤١].

لكن فيما سارعت «من حصاد الأيام» إلى التَّعليق الإنتصاري على انتخابِ فؤاد أبو ناضر حيث أنَّ «ما بعد بيار الجميل هو هذا الذي تأسَّس على صخر لا على رمال. فالكتائبُ في خير والقوّات اللبنانية في خير»[١٤٢]، تبيَّنَ منذُ البداية أنَّ هذا الإملاءَ الدَّوْلَتِي على «القوّات» يُجافي الطبيعةَ القوّاتيةَ المتعاظمةَ، وأنَّ الأمورَ لن تبقى طويلاً على «خير». فمع «انتخابِ» أبو ناضر تساءلت جريدة «السفير» عن المصير «المجهول» لسمير جعجع[١٤٣]، وكانت قبلَ يومٍ واحدٍ تحدَّثت عن «صراعٍ مصيري» بينَهُ وبينَ أبو ناضر استعداداً للإنتخابات التي تُرافِقُها «استنفاراتٌ مسلحةٌ في منطقتي جبيل وجونيه» وإقفالُ معابر[١٤٤].

في ١٢ آذار ١٩٨٥ كانت «الإنتفاضة» التي أطاحت أبو ناضر وأعلنت استعصاءَ «القوّات» القويّةِ على أنْ تنضَبِطَ بدولةٍ ضعيفةٍ وحزب أضعف، حتّى إذا ما انتهت ولايةُ الجميل الرئاسيّةُ وَجهَّتَ القوّات ضربةً مباشَرَةً له ولاحتمالِ عملِهِ السياسي مُسْتَقبلاً، وكان ذلك في اقتحامِهَا العسكري للمتن الشمالي في ٣ ـ ٤ تشرين الأول ١٩٨٨[١٤٥].

مع الحزب اتَّخَذَت الأمورُ منحًى مختلفاً. فقد وَجَدَتِ الكتائبُ نفسَها، بعد أنْ تماسكت «القوّات» في ظلِّ جعجع، موضوعاً للتجاذبِ بين طرفين كلٌّ منهما كتائبيٌّ لا كتائبي في الوقت عينه:

«القوّات» بميلها إلى التَّوَسُّعِ والقضمِ ونزعتها إلى الحاقِ الحزبِ بها، وأمين الجميل بقوَّة موقِعِهِ على رأس الدولة بمعزلٍ عن هذا الضَّعف الذي يشوب هذا الموقعُ ضعيفاً.

(١٤٠) راجع تحقيق فؤاد حبيقة في **الوطن العربي** ٢٨/٣/١٩٨٥.
(١٤١) انظر **النهار** ١٨/١٢/١٩٨٤.
(١٤٢) **العمل** ١٠/١٠/١٩٨٤.
(١٤٣) **السفير** ١٠/١٠/١٩٨٤.
(١٤٤) **السفير** ٩/١٠/١٩٨٤. راجع كذلك الجريدة نفسها في ٧/١٠/١٩٨٤ من أجل رؤية «غربية» عن نزاعات الشرقية».
(١٤٥) انظر رواية أمين الجميل في مذكراته، «حوار وذكريات»، الحلقة ٣، في **الحياة** ٦/١٢/١٩٩٠. وفي الحلقة نفسها يتهم جعجع بالعمل على قتله عند انتهاء ولايته.

وبدورِهِ لم يَكُنْ الأخيرُ، الذي هو مُلْتَبِسُ الحزبيَّةِ أصلاً، قليلَ الـرغبةِ في مصـادرةِ الكتائب استناداً إلى المِنصَّةِ السُّلطويـةِ في خارجهـا. فرغبَتُـهُ في إحالـة السياسـةِ إلى الدولةِ فَاقَمَهَا الهجومُ المُتَعَدِّدُ الأطـرافِ على الدولـة إيَّاهـا، فيما بـدا الإمساكُ بـالكتائب مقدمةً ضروريةً للإمساك بكلِّ ما عداها.

غير أنَّ طبيعةَ الهجومِ الخارجي، مصحوبةً بالظروف المُتَرَاكِمَةِ للحرب الأهلية التي عَمِلَتْ في صورةٍ متعاظمةٍ على تفريغ السياسةِ والحزبيةِ من معناهما، تَرَكَتْ بصماتها على «استراتيجية» أمين الجميل في إلحاق الحزب. فإذا صـحَّ أنَّ الأخير لم يمتلـك القوَّةَ التي امتلكتها القوّاتُ «على الأرض»، إلَّا أنَّ سلوكَهُ الإلحاقيَّ حيالَ الحـزبِ لم يختلفْ كثيراً عن سلوكِها. ذلك أنَّ الدولةَ، تحت وطأةِ الهجومِ الخارجي وظروفِ الحرب الأهليـة، دُفِعَتْ هي أيضاً إلى أنْ تصيرَ طرفاً يُطالِبُ بـ «حصَّةٍ» له ويُحاولُ جاهداً توسيعَ هذه الحِصَّة.

وإذا ما صدَّقنا روايةَ الياس ربابي عن ظروفِ ترشيـح أمين للرئـاسة، بـدا واضحاً كيف أنَّ ذلك لم يخرج عن قرارٍ حزبيٍّ شَرَعَ الجميل يتنصَّـل منه بعـدَ رحيل والـده(١٤٦): فقد «كان مساء الأحد ١٩ أيلول ١٩٨٢ يومَ جاء درابير إلى منـزل الشيخ بيـار في بكفيا، لتقديمِ التعازي (ببشير) والتباحثِ في ترشيح أمين. وكانت خلوةٌ التقى فيها الشيخ بيـار ودرابير وأنا، ولفت الشيخ بيار أنَّ درابير ما انفكَّ «بارداً» في تـرشيح أمين فقـال له مـا مُجْمَلُهُ: «لماذا الحـذر؟ وإلى متى التردد؟ إنَّ أمين ليسَ مـرشحاً مستقـلاً. وإذا نَجَحَ في الإنتخاب لن يكون حـرّاً في التَّصَرُّف على كَيْفِـهِ وهواه. إنَّـهُ مرشَّـحُ حزبٍ هـو المسؤولُ عنه».

ويُضيف القطبُ الكتائبيُّ حتَّى ذلك الحين:

«كان من المُتَوَاضَعِ عليه أنْ تُعْقَدَ اجتماعاتٌ دوريّةٌ بين أمين والمكتب السيـاسي (كلَّ ثلاثة أو أربعة أسـابيع) للتشـاورِ والتنسيق، أُسوةً بمـا تَتَمَشّى الأحزابُ عليـه. وأنْ تُؤَلَّفَ لجنةٌ كتائبيةٌ قليلةُ العدد، كضابطِ ارتباطٍ بين الرئيس والحزب. ورُوعِيَ التزامُ التَّقَيُّدِ بالشائنين: شأنِ الإجتماعات وشأنِ اللجنـة في الثُّلْثِ الأوَّلِ من الولايـةِ، أيْ إلى أنْ غاب الشيخ بيار، وتدريجاً سَقَطَ الإلتزام»(١٤٧).

غير أنَّ الأمورَ لم تَكُنْ تماماً في مثـل هذه البسـاطة. فمحـاولةُ الجميـل في مرحلـةِ الوفاقِ مع الحزب، أيْ المرحلةِ الأولى من ولايَتِهِ، تطويقَ «القوّاتِ اللبنانيـة» ومحاصَـرَتَها، رافَقَهَا تعويضٌ جزئيٌّ للكتائب وَاجَهَتْهُ المعارضةُ الإسلاميةُ المدعـومةُ سـوريّاً بحملـةِ نقدٍ

(١٤٦) من ناحية أخرى، وكما سنرى لاحقاً، كان هذا التنصـل مطلوبـاً من أمين الجميل كـرئيس للجمهوريـة، وذلك فيما كانت كل الجماعات ترفع مطاليب قصوى يصعب التوفيق بينها.

(١٤٧) الياس ربابي، مذكرات العين الواحدة، في **الحياة** ٢٢/٩/١٩٨٩.

وتشكيكٍ واسعةٍ. ففي هذه الوُجْهَـةِ، مثلاً، هبَّت الحملـةُ على تعيين الكتائبي ديـاب يونس مُحافظاً للبقاع، علماً أنَّ الإداراتِ الـرئاسيـةَ السابقـةَ على الجميل كـانت كُلُّها تـأخُذُ في الإعتبار وجودَ «حِصَّةٍ» كتائبيةٍ.

وتَبَعاً لرواية جوزيف سماحة التي لم تُحْجِم جريدةُ «السفير» عن نشرها برغم غُلُوِّها في مُعارَضَةِ عهد الجميل، كان الأخيرُ «وهو يُجَدِّدُ رهـانَهُ على «لبنـان الكبير»، مُلْتَقِيـاً في ذلك مع رغبةٍ إسلاميـةٍ لا شكَّ فيهـا، يعملُ على تعـزيزِ وجـودِ حزب الكتـائب في إداراتِ الدولة تحقيقاً لهدفين: طَمْأَنَةُ المسيحيين «الخائفين» ربَّما من «إعادة تكبير لبنـان» وسعياً وراءَ كسبِ الحـزبِ من أجـل مـواجهـةٍ أفضـل مـع التيّـار «الـراديكـالي» في الـوَسَطِ المسيحي»(١٤٨).

في ما يتعلَّقُ بالمرحلةِ التاليةِ التي وَصَفَهَا ربابي، أي مـرحلةِ التَّنَصُّـلِ من الإلتزام تجاه الحزب، يبدو أنَّ الجميل ضَمِنَ، عبر رئاسةِ إيلي كرامة، استتباعَ الحـزبِ للدولة من دون التزاماتٍ تُؤَدِّيها الأخيرةُ لـه بما يُثيـرُ حفيظةَ المعـارضـةِ الإسـلامية ويُشَكِّـلُ ذريعةً للتحريض السوري.

إلَّا أنَّ حزيران ١٩٨٦، حين كانت «القوّات» في ذُروةِ هجومِها على حكومة كـرامي، وعلى «تَرَدُّدِ» الجميل ضِمْنـاً، حَمَلَ تغييـراتٍ لم تَكُنْ في مصلحةِ رئيس الجمهـورية. فقـد تَقاطَعَ التَّـوَسُّـعُ القـوّاتيُّ مع رغبـةٍ عند بعض الكتائبيين، ما لَبِثَ الأحـداثُ اللاحقـةُ أن بَرْهَنَتْ على وهمِيَّتِهَا، في إحداثِ قَدْرٍ من الإستقلاليةِ عن الدولةِ ورئاسةِ الجمهورية. وكان لهذا التقاطع أنْ عبَّر عن نفسِه في انتخابـاتِ رئاسـةِ الحزب التي جَـرَت حينذاك، حـاملةً نائب رئيس الحزب جورج سعادة إلى السُّدَّةِ التي جَلَسَ فيها إيلي كرامة مُنْذُ رحيل بيـار الجميل(١٤٩).

وما لَبِثَ الجسمُ الحزبيُّ أنْ دَخَلَ في عمليةِ تَصَدُّعٍ مديـدةٍ بلغت ذُروَتَهَا في أواسط ١٩٨٧ حين صدرت تعييناتٌ حزبيةٌ اعتبرَهَا مُؤَيِّدو أمين الجميل غيرَ شرعيةٍ، مُشَكِّلِينَ في أواخر العام «حركةَ انقاذ»(١٥٠) يُعيدُ اسمُها إلى الأذهان عشراتِ الحركاتِ «التصحيحية» و«الإنقاذية» العربيةِ.

ولئن رأى جوزيف أبو خليل، أحد قادة التحرك، أنَّ علاقةَ الحـزب بـ «القوّات» هي، مُنْذُ «انتفاضة» آذار ١٩٨٥، «غيرُ طبيعية وغيرُ مستقرّة وغيرُ محكومةٍ بأيِّ اتفاقٍ خطيٍّ أو

(١٤٨) **السفير** ٩/٤/١٩٨٣.

(١٤٩) يومذاك راجت تقديرات بأن كرامة «سيحجز» الرئاسة لأمين إلى أنْ تنتهي مدته في رئاسة الجمهورية.

(١٥٠) أكّد جوزيف أبو خليل أنّه وأصحابه لم يعتمدوا هذه التسمية لكن إذاعة «صوت الحق» (التي انشأها مؤيدون للجميل في المتن) هي التي اعتمدتها، من مقابلة مجلة الشراع معه في ١٩/١٠/١٩٨٧.

ميثاقٍ أو دستور أو أيِّ شيء. وهي ما زالت تُدارُ بطريقةٍ استِنْسَابيّةٍ. هذا رغم معرفتِنَا الأكيدةِ [...] أنَّ «القوّات اللبنانية» أصبحت مؤسّسةً تختلفُ كُلَّ الإختلافِ عن مؤسَّسة حزب الكتائب»[١٥١]، فهذا لم يُلْغِ ظهورَ أصواتٍ مقابلةٍ تُصِرُّ على تَعَرُّضِ الحزب للإمتحان من موقعٍ آخر، هو موقعُ رئاسةِ الجمهوريةِ، إذْ بعد فوزِ سعادة وسقوطِ كرامة، كان ما فَعَلَهُ الجميل، بحسب الياس ربابي، أنْ «أعلَنَ الحربَ على سعادة، دون رفقٍ أو هوادةٍ، كما يُقال: نادى بالقطيعة واللاإعتراف بالرئيس الكتائبي الجديد. مَنَعَ الأقسامَ الكتائبيةَ في المتن الشمالي من أيِّ تَعَاطٍ مع الرئيس سعادة وإداراتِهِ: فلا تَلَقّي لأيِّ تعليماتٍ، ولا ردَّ على أيِّ مكاتباتٍ، ولا رَفْعَ لأيِّ صورةٍ لسعادة في بيوت الأقسام. ولا حضورَ في أيِّ مهرجانات عامّةٍ يُقيمُها الحزبُ... حتى ولا اشتراكَ في حفلة إحياءِ ذكرى الشيخ بيار في «بيت المستقبل».

وإمعاناً في التعبير عن الغضب لم يُفْسَحْ لرئيس الكتائب الدكتور سعادة أن يُلقي كلمةَ الحزب في مهرجان إزاحةِ الستار عن تمثال الشيخ بيار في بكفيا (آب ـ أغسطس ١٩٨٧). وليس هذا فحسب، فإنَّ بطاقاتِ الدعوة إلى المهرجان كانت خاليةً من أيِّ ذِكْرٍ لـ «الكتائب». وثالثةُ الأثافي كانت في إقصاءِ رئيس الكتائب عن أيِّ اجتماعٍ كبيراً كان أو صغيراً، يدعو أمين إليه وتُبْحَثُ فيه شؤونُ البلاد، وذلك ما بين حزيران ١٩٨٦ ـ تاريخ ترئيس الدكتور سعادة ـ وأيلول ١٩٨٨ ـ تاريخ انتهاء ولاية الشيخ أمين... مع أنَّ كثيرينَ مِمَّنْ ليسوا في العِيرِ ولا في النَّفيرِ كانوا يُدْعَوْنَ إلى تلك الاجتماعاتِ»[١٥٢].

وكائنةً ما كانت الحالُ بقيت المساجلاتُ الإتِّهاميَّةُ صورةً دقيقةً عن دخول التفتت (ولغته) إلى متن حزب الكتائب الذي انكمشت حِزْبِيَّتُهُ وضمرت سياسيته.

فإذا ما علّقت «المسيرةُ» القوّاتيةُ على رموز «حركة الإنقاذ» بأنّهم «من منطقة واحدةٍ لها منطقٌ خاص بها»[١٥٣]، ردَّ أمين الجميل مُعَلِّلاً:

«أمَّا إذا قيل بأنّني جعلتُ من منطقة المتن التي كُنتُ مسؤولاً عنها منطقةً مُسْتَقِلَّةً عن الحزب فكلامٌ يحتاجُ إلى تصحيح. أنا لا أُنكر أنّني كنتُ على قَدْرٍ من التمرد والاستقلالية من هذا القبيل، لكنَّ ذلك لم يَكُنْ إلّا عندما بدأ الحزبُ نفسهُ يفقدُ استقلاليَّتَه والمناقبيَّةَ التي عُرِفَ بها ويُصْبِحُ تحتَ سيطرةِ السلاح وسُلْطَةِ الميليشيات حتّى لَيَصُحَّ القولُ إنَّ منطقةَ المتن مَثَّلت الأصولية الكتائبية بعدما ابتعَدَ الحزبُ في مناطقَ عديدةٍ عن

(١٥١) المرجع السابق، راجع كذلك المؤتمر الصحافي الذي عقده الأمين العام السابق للحزب شارل دحداح داعياً فيه إلى المعارضة العلنية لرئاسة سعادة، في **النهار** ١٩٨٧/١٠/٢٣.
(١٥٢) الياس ربابي، مذكرات العين الواحدة، سبق الاستشهاد.
(١٥٣) أمجد اسكندر، في **المسيرة** ١٩٨٧/١١/١٧.

مشروعِهِ الوطني الديمقراطي تأثُّراً بمنطقِ السلاحِ والذهنية الميليشياوية»[١٥٤].

وإذا ما سَجَّل الجميل أنَّ الحزبَ شهدَ، بعد انتهاءِ ولايته الرئاسيةِ، «تجريدَ كلِّ من يَمُتُّ إليـ [ـه] بصلةٍ من مسؤولياته الحزبيةِ كمقدمة لتعييناتٍ جديدةٍ تمّت بعد حين بما يصحُّ اعتبارُه «مسخرةً ديمقراطيةً»، كونَ البعضِ منها، على الأقلّ في المتن مثلاً، تمَّ في ظلِّ الإحتلال القوّاتي للأقسام الكتائبية»[١٥٥]، عَلّق رفيق غانم، عضوُ المكتب السياسي وهيئة الشورى في حزب الكتائب، على مُراجعة جوزيف أبو خليل[١٥٦] لتجربَتِهِ الحزبيةِ، بلغةٍ تَرُدُّ إلى محاكمِ التفتيش، إذ «إنَّ النقدَ الذاتيَّ الجَامِحَ هذا، يصيرُ تهوّراً يؤدّي إلى فقدان الإيمان بالقِيَمِ والثوابتِ المدقوقةِ وشماً بالدمِ والفداءِ على جباه أجيالنا»[١٥٧].

واقعُ الأمر أنَّ جورج سعادة، بتكوينه وتجربته، ليس تابعاً لسمير جعجع قائدِ «القوات اللبنانية»، وتَبَعاً لروايته كان أحدَ أسباب خوضِهِ معركةَ الرئاسة تلافي ترشيح جعجع لهذا المنصب[١٥٨]، لكنَّ مشروعَ استقلالية الحزب لم يُقَيَّضْ له إلَّا أنْ يكون وهماً بعد سنواتٍ على يقظةِ الريف وزحف العروبة وامتشاقِ السلاح على أوسع نطاقٍ في حرب كان لنتائجها، بَحَسْبِ أحدِ دارسيها، أن «رَكّت أُطُرَ التضامن الأهلي الضيقةَ على حساب الأُطُرِ الواسعةِ، وهي الأقربُ إلى دائرةِ السياسة، فانتعشت العائلةُ، تليها القريةُ أو المدينةُ بجماعةِ أهلها الأصليين، وتَلِيهما الطائفةُ وذوو الوطن. واجتاحت الأُطُرُ التقليديةُ أيضاً، بعضاً من الأُطُرِ الوسيطةِ المناسبةِ لمثالِ الوطن ـ الدولة بِحُكْمِ حداثتها المشتركة، ومنها الحزبُ والنقابةُ»[١٥٩].

الهجوم السوري ـ الإسرائيلي

لم يسبحْ صِدامُ أمينَ الجميل ودولتِهِ، وسمير جعجع وقوّاتِهِ، في فراغ، فهو كان امتداداً ومُوَاكَبَةً لعنصر آخر زادهُ حِدَّةً واحتقاناً. ذلك أنَّ الجميل وَجَدَ نفسَه بُعَيْدَ تَسَلُّمِهِ رئاسَةَ الجمهوريةِ مطالباً بأنْ يُرضي المسلمين ويُطَمْئِنَ المسيحيين، الباحثين عن الإطمئنان في مكانٍ آخر فقط، بل أيضاً بأنْ يستعيدَ الأرضَ ووجهَ لبنان العربيَّ ومعهما السيادةَ والصيغةَ والميثاقَ والإعتدالَ الخارجيَّ والبرلمانيَّةَ في الداخلِ، كلُّ ذلك دفعةً واحدةً.

(١٥٤) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، في **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٥.
(١٥٥) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، في **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٦.
(١٥٦) التي نشرت على حلقات في الحياة في النصف الثاني ١٩٨٩، ثم جمعها صاحبها في كتاب حمل عنوان «قصة الموارنة في لبنان».
(١٥٧) **الحياة** ١٩٨٩/٩/١٤، وقد لوحظ في رده الإنشائي الذي نشر على حلقات أنَّ دفاعه عن «القوّات» فاق دفاعه عن الكتائب.
(١٥٨) أنظر روايته في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(١٥٩) احمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ٧٩.

وإذا جازَ التشبيهُ بالشهابيةِ التي كانت أقلَّ سياسيَّةً، فإنَّ الشهابيّةَ كانت بالتأكيد أكثرَ قوّةً من السلطةِ التي تَسلَّمَهَا الجميل[١٦٠] فيما بدت التناقضاتُ الإقليميةُ أقلَّ اضطراباً وأقلَّ استدخالاً في الوضعِ اللبناني في آنٍ معاً.

إنَّ العلاقاتِ الإيجابيةَ بسورية في مقابلِ التَّحفُّظ عن إسرائيل لها مقدِّماتٌ سبقت الإشارةُ إلى بعضِها في شخصِ أمين الجميل وتكوينِهِ. ويروي جوزيف أبو خليل كيف أنَّ أمين لم يكتمْ منذُ ترسيحه للرئاسة مُعارضَتَهُ للخطِّ الإسرائيليِّ الذي اتَّبَعَهُ شقيقُهُ الراحل:

«لقد حاول الجانبُ الإسرائيليُّ، وحاولتُ أنا شخصياً ـ ولم يَكُنْ الشيخ أمين، بعدُ، إلّا مرشحاً للرئاسة ـ حَمْلَهُ أنْ يكونَ مُكَمِّلاً لِمَا بداه «بشير». وبقيتُ الاحقةُ أيّاماً حتّى نزلَ عند رغبتي في استقبال الوزيرين الإسرائيليين، شامير وشارون. وكنتُ أراهِنُ على هذا الإتّصالِ الشخصي في إزالةِ هذا الحذرِ المُتَبَادَل بينَهُ وبينَ الإسرائيليين. وقد ندمْتُ لاحقاً، على ما فعلتُ، إذْ تضاعَفَ الحذرُ من اللقاءِ بدلاً من أنْ يَخِفَّ ويتضاءلَ. والجديرُ بالذكر في هذا المجالِ أنَّه فيما كان المسؤولان الإسرائيليان يحاولان الحصولَ على تسميةٍ فوريةٍ للمفاوضِ اللبناني، وعلى أنْ تكونَ المفاوضاتُ على مستوى سياسيين ووزراء، كان الشيخ أمين يحاولُ، من جهتِهِ، النزولَ بهذه المفاوضاتِ إلى المستوى العسكريِّ والأمني فقط. ولشدَّ ما كانت خيبةُ شامير وشارون وخيبتي أنا عندما تنازلَ الشيخ أمين ووعد بانتداب موظف من مُوَظَّفي الخارجية اللبنانية ليكونَ من أعضاءِ الوفدِ العسكريِّ المفاوض. ويُعَبِّرُ هذا الموقفُ عن حرصٍ لدى أمين الجميل، وقبلَ أنْ يُصْبِحَ رئيساً للجمهورية، على عَدَمِ تجاوزِ الإطارِ الأمنيِّ والعسكري لاتّفاقِ الهدنة، إتّفاقِ ١٩٤٩»[١٦١].

ولئن راهن العهدُ الجديدُ على «الخيار الأميركي» المُزَكّى ضِمْناً من المُحَافظين العرب في المحور السعودي ـ المصري[١٦٢]، بديلاً من الخيارين السوري والإسرائيلي، فهذا ما لم يَدْفَعْ الجميل مرّةً إلى المساواةِ بين الطرفين اللذين باتا يملكان حضوراً واسعاً في لبنان.

غير أنَّ هذه المعاملةَ لم تكن هي المرغوبةُ من قِبَلِ دمشق التي أخافَهَا الموقعُ الجديدُ الذي أحرزته الولاياتُ المتحدةُ في جوارِها المباشر، خَوْفَهَا من إفلات «الساحةِ اللبنانية» قبل العثورِ على تسويةٍ ملاءمةٍ لها على جبهتي الجولان والمسألةِ الفلسطينية.

تدريجاً ومع النَّهج الإنسحابي الذي اعتمدته الولاياتُ المتحدة والقوّاتُ متعددة

(١٦٠) في هذا الملمح كانت البشيرية أقرب إلى الشهابية، إلّا أنّها كانت شهابية مقلوبة من حيث تحالفاتها.
(١٦١) جوزيف أبو خليل، «حرب لبنان، مراجعة ونقد ذاتي»، الحلقة ٥٥، **الحياة** ١١/٩/١٩٨٩.
(١٦٢) هذا التوجه نحو مراكز السنية العربية (واللبنانية) كان موضوع اختلاف آخر عن القوات. راجع الفصل السابق.

الجنسية، بدا أنَّ «الحلَّ» الذي يُطالِبُ أمين الجميل بتقديمِهِ هو في يَدِ سورية وحدَهَا، أي أنَّ المبايعةَ لدمشق لم تنفصلْ عن ظروفِ التَّسليمِ الأميركي ـ العربي المُحَافِظِ بالدّور السوري الأوحد، فيما الكتلة المسيحيةُ أسيرةُ هزيمتها المرّةِ في الجبل، والدولةُ اللبنانية تَئِنُّ تحتَ وطأةِ عجزها عن ممارسةِ سُلْطَتِهَا على عاصمتها[١٦٣].

وتكررت لقاءاتُ الجميل بالرئيس السوري حافظ الأسد أو بكبار مُسَاعديه منذ قِمَّة نيودلهي في ١٩٨٣ وحتى اجتماع ٢١/٩/١٩٨٨ قُبَيْلَ انتهاءِ الولايةِ الرئاسية، كما تكررت المبادراتُ التي قام بها عددٌ من الشخصيات اللبنانية والعربية والدولية[١٦٤]، غير أنَّ الثابتَ بقي ثابتاً وهو أنَّ المطلوبَ في آخر الأمر نقلُ السيادةِ والقرارِ اللبنانيين إلى خارج لبنان. ولمَّا كان توازنُ القوى اللبناني ـ السوري قد اختلَّ تماماً لصالحِ الطرفِ الأخير تَبَعاً للإنسحاب الأميركي وانتفاضاتِ «القوّات اللبنانية» ونجاحِ حُلفاء سورية اللبنانيين في استئنافِ الحروب الأهليّة، لم يكن هناك بدٌّ أمامَ الجميل سوى اتِّباعِ سياسةٍ من المماطلةِ والتسويفِ والمراهنةِ على تَغَيُّرِ العناصرِ السياسةِ مع الزمن، الشيءُ الذي أكسَبَهُ، في عُرْفِ الكثيرين، وَجْهَ المراوغةِ والإلتفافِ على الأمور.

في سياق الحملة السورية المُتَواصِلَةِ والتي أدّت إلى هَلْهَلَةِ السلطة الشرعية اللبنانية قوّةً ودوراً ووجهاً ورموزاً، كانت هناك محطتان بارزتان، إحداهُما في ١٩٨٣ وقد دُشِّنَتْ بها العلاقةُ مع عهد الجميل، والثانية في ١٩٨٦ حيث أُغلِقَت كلُّ الأبوابِ أمامَ احتمالِ أنْ يُنْجِزَ العهدُ المذكورُ شيئاً.

فمع اتّفاق ١٧ أيار لاستعادةِ الأراضي اللبنانيةِ المحتلةِ مِنْ إسرائيل بأقلِّ كلفةٍ مُمْكِنَةٍ شَنَّت دمشق عبر إعلامِها وحلفائِها هجوماً مُتَعَدِّدَ الجبهاتِ. وبرغم أنَّ الإتفاقَ هذا كان أقلَّ وأدنى بكثير من معاهدةِ الصلح، كما أنَّه لم يُفْضِ إلى أيِّ تَنَصُّلٍ من علاقاتِ لبنانَ بمحيطِهِ العربيِّ، فإنَّ الرغبةَ في إبقاءِ «ساحةِ» الجنوب مفتوحةً ومربوطةً بأزمةِ الشرقِ الأوسط غَلَبَتْ كلَّ اعتبار آخر. هكذا خِيضَت المواجهاتُ الداميةُ في الجبل وبيروت والضاحية الجنوبية فيما كان النُفوذُ الإيرانيُّ يَجِدُ في لبنانَ ميداناً فسيحاً له تحت يافطةِ مقاومةِ إسرائيل.

ويَصِفُ الجميل لاحقاً ذاك الحلفَ العريضَ والقويَّ الذي واجهته الدولةُ حينذاك، إذْ كانت «إيران تتحرك ودخلت جماعاتٌ أصوليّةٌ إلى لبنانَ بمساعدةِ سوريةٍ. فتَكَوَّنَ في مطلع سنة ١٩٨٣ حِلفٌ رباعيٌّ بين موسكو ودمشق وطهران وطرابلس الغرب لمواجهةِ الوضع

(١٦٣) بمعزل عن الحملة التشهيرية لم يكن «القمع» الذي وُجِهَت به حركة ٦ شباط مما يستحق ذكره قياساً بالقمع العربي في إبادات المدن.
(١٦٤) أنظر مذكرات أمين الجميل، «حوار وذكريات»، **الحياة** ١٢/١٢/١٩٩٠، ومذكرات جوزيف أبو خليل في الجريدة نفسها في ٨/٩/١٩٨٩.

في لبنـان. وكان الإتِّحـادُ السوفيـاتيُّ مُتضايقـاً من وجودِ قـوّاتٍ أطلسيّةٍ في لبنـان. أمّا سورية فبسبب مفاوضاتِ لبنان مع إسـرائيل، وطهـران استغلّت الأمرَ لمـواجهةِ الـولاياتِ المتحدة على أرض الآخرين (السيارات المفخخة والرهائن) والليبيون «في كلِّ عـرس لهم قرص»(١٦٥).

كانت الحملةُ على الحكمِ شَرِسَةً قاسيةً عزَّ فيها الدعمُ الخارجيُّ فيما حالَ الإرهـاب الداخليُّ دون ظهورِ أصواتٍ مسلمةٍ تَضَعُ الأمورَ في نِصـابها(١٦٦)، وذلـك كلُّه فيمـا أمين الجميل منشغلٌ أيضاً «بتخليصِ الساحةِ المسيحية من دور أنصار شقيقه بشير»، بحسب الرواية التي ذَكَرَ منح الصلح أنَّه سمِعَها من الجميل(١٦٧).

ولم تتـوقّف الحملـةُ(١٦٨) نسبيـاً إلّا مـع وصـولِ أميـن إلى دمشـق لِيُعْلِـنَ في ١٩٨٤/٢/٢٩، أي بعد ٢٣ يوماً على سقوطِ العاصمةِ، استعدادَهُ لإلغاء معاهدة ١٧ أيار، وهو ما فَعَلَهُ بعد خمسةِ أيّام لِتُـواجِهَهُ عـاصفةٌ مسيحيـةٌ مقابلـةٌ تقضي على ما تبقّى من صورةِ الحكم وهيبَتِه.

تَكَرَّرَ الأمرُ مع «الإتّفاق الثلاثي» الذي لم تتم إحاطةُ الجميل كرئيسِ للجمهورية بما يجـري في مفاوضـاته. ولئن أبـدى الإستعدادَ لإحـالـةِ مشـروعِ الإتِّفـاقِ على المجلس النيابي، فهذا ما بدا شديدَ القصورِ قياساً بما تَطَلَّبُهُ رغبةٌ انقلابيةٌ جارفةٌ في عدائها لكـلِّ ما هو دستورٌ أو عرفٌ أو تقليد. ولم يتردّد يومذاك عصام النايب وزير الدولـة السوري في أنْ يقولَ للجميل عند زيارتِهِ إلى دمشق في ١٩٨٦/١/٢ «أنَّ رئيسَ الجمهوريـة لا سُلْطَةَ

(١٦٥) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٨.

(١٦٦) خلال عهد الجميل وبعد إخراج «جيشه» من بيـروت الغربيـة سقطت رؤوس كثيرة لسيـاسيين ورجالات دين مسلمين اغتيالاً.

(١٦٧) **الحياة** ١٩٨٩/٩/٧.

(١٦٨) في ١٩٨٤/١/٣٠، مثلاً، كتب رئيس تحرير جريدة **السفير** متنبئاً بشكل بيـروت الغربيـة بعد تحـريرهـا من نفوذ أمين الجميل:

«بـالحب وإرادة البقاء، والإنتصـار على مصاعب العيش، سَنُحَـوِّلُ كلَّ بنـاية إلى أسـرة واحدة متكـافلة، متضامنة، تتقاسم الرغيفَ الواحد إذا لـزم الأمر، تتنـاوبُ تأمينَ الميـاه بالصفـائح «المستـوردة» من أحياء أخرى وتشترك في دفع ثمن المولد الكهربائي (بغضِّ النظر عن نسب أرباح المتاجرين بالعتم، فيوم حسابهـ آت ولو بعد حين).

سنخترع ملعباً آمناً لأطفالنا داخل الشقة أو حتى داخل الملجأ وسَيُدَرِّسُ الجـارُ أبناء جـاره، وستساعـد الزوجة جارتَها المريضة، ولسوف يعالجُ الطبيب أهل حَارته بتعرفة مخفضة، ومجاناً حيث تدعو الحاجة.

سنُنَظِّفُ كلَّ شبر، ولن تبقى قمامة في الشوارع، وعند المنعطفات وسنصون المرافق العامة، وكأنها غرفة أطفالنا وحوائجهم الحميمة،

سنهتمُّ بأمن الجميع، المواطن والأجنبي، وسنحمي بأهداب العين مراكزَ العلم والتعليم ودور العبادة وكلَّ ثوابت وحدتنا وحقيقة انتمائنا إلى وطن واحد وأمة واحدة».

بعد أسبوع واحدٍ فقط كان ٦ شباط وتحققت الطوبى على الأرض. انظر كَعَيِّنَةٍ تحريضية كثـرت مثيلاتهـا افتتاحيات سلمان التي جمعها في كتاب **إلى أميرة اسمها بيروت** الصادر عن المركز العربي للمعلومات.

له على الأرض، وإنَّ المجلسَ النيابيَّ لا يتمتَّـعُ بأيِّ صفـةٍ تمثيليةٍ لـه وإنَّ الجيشَ مُعَطَّلٌ والإقتصادَ مُنْهَارٌ، هذا فيما الميليشياتُ وحدَهَا الأمرَ التي تملكُ سلطةً على الأرض وتمثِّلُ الناسَ والقواعدَ الشعبيةَ، الأمرُ الذي يُعطيها صِفـةَ الشرعيـة الثوريـة التي هي أهمُّ من شرعيـةِ رئيسِ الجمهورية وباقي المؤسّسات [...] لذلك اعتبرنا الشرعيةَ الثـوريةَ هي التي تُعطي الإتفاقَ الصِّفَةَ الشرعيةَ والبُعْدَ الوطني»(١٦٩).

وكما في ١٩٨٣ تَعَدَّتِ الحملةُ كلَّ الحدودِ(١٧٠) مع سقوطِ «الإتّفاق الثـلاثي»، واتَّبَعَ رئيسُ الحكومة وبعضُ الوزراء «سياسةَ» مقاطعةِ رئيسِ الجمهوريـة التي آلت إلى تعطيل الحكمِ تماماً ما بين أوائل ١٩٨٦ وأيلول ١٩٨٨، وذلك في مـوازاةِ دعواتٍ متـواصلةٍ إلى الإقالةِ والإسقاطِ وتقصيرِ الولايةِ، تُواكِبُهَا محـاولاتُ «القوّات اللبـنانية» تـوطيدَ سيطـرتها على المناطق الشرقية وما تبقّى من حياتها السياسيةِ والحزبية. أمَّا النموذجُ الذي أقامتـه «الشرعيةُ الثوريةُ» في بيروت الغربيـة فكان بـدوره مسرحـاً لصراعـاتٍ لا حدودَ لهـا بين أطـرافِ «الصفِّ الواحـد»، مِمَّـا استـدعى الـدخـولَ العسكـريَّ السـوريَّ المُبَـاشـرَ في ١٩٨٧/٢/٢١ إلى العاصمةِ المُتَمَرِّدَةِ على حُكْم أمين الجميل(١٧١).

بدوره لم يكن اللقاءُ الواسعُ الذي سجَّلَتْهُ حربُ الجبلِ دعماً وتأييداً لرئيس «الحزب التقدمي الاشتراكي» وليد جنبلاط، غير تعبير عن المصلحةِ الموضوعية الواحدةِ لأطـرافٍ كثيـرين مُتَبَاعـدين. وهذه المصلحـةُ تستدعي مَنْـعَ الحلِّ اللبنـاني ما دام كـلُّ واحدٍ من الأطراف لم يَتَوَصَّل إلى أغراضِهِ من خلالِ «الساحة اللبنانية»(١٧٢).

(١٦٩) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/١١. وتبعاً لروايةٍ أخرى يقول جوزيف أبـو خليل أنَّ الرئيس السوري قال للجميل إبَّان القمة الحاديـة عشرة «مـا معناه، رداً على تمسُّـك الرئيس الجميـل بالأصول الشرعية والدستورية: أين هي هذه الشرعية... إنَّما الشرعية هي في هذه القوى الثلاث المتحـالفة والمُتَّفِقَة على تصوّر معين... إنَّهـا حال ثـورية متى استتبت كـانت هي الشرعيـة الجديـدة [...] ورداً على ملاحظات الرئيس اللبناني في موضوع «العلاقات المميزة» قال الرئيس السوري مـا معناه: «الأجـواء أجواء وَحْدَوِيَّة عندكم وعندنا، والاتفاق المطروح لا يعكس إلَّا القليل القليل من هذه الأجواء». مذكرات جوزيف أبـو خليل، في **الحياة** ١٩٨٩/٩/٧.

(١٧٠) وكما في ١٩٨٣ كان الفسـاد المنسوب إلى الجميـل أحد بنـود الحملة، لكن حتى لـو صحّت دعوى الفسـاد الذي يصعب التأكد منه، يبقى أنَّ الفساد لم يكن غرض الحملة كما أنَّ المشاركين فيها كـانوا كلهم عـرضة لاتهامات مشابهة. ومن عاش في بيروت الغربية آنـذاك لمس فعاليـة الآلة الإشـاعيّة المُنَظَّمَـة ذات الرؤوس والأدوار المتعددة.

(١٧١) حول محاولـة التسويـة الأخيرة مـع الأسد للحؤول دون مـأزق دستوري بعـد الاتفاق السـوري - الأميركي، راجع: أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٥. حيث أثناء الإجتمـاع سلّم الأسد ورقة «فقرأها ثم مدّها إليَّ وفيها خبر اجتماع وزارة الـدفاع بين ميشـال عون وسميـر جعجع والـذي وصفه بالانقلاب على اجتماع دمشق. عندها تبدلت المعادلة برمتها وتغيّر تماماً جو الاجتمـاع وبدا الـرئيس الأسد أكثر تصلباً، واستمرّت المحادثات سطحيّة ونظرية، وكان الإجتماع هو الأقصر من بين كل الاجتماعـات التي عقدت طوال ولايتي».

(١٧٢) يروي الجميل أنَّ الوزيرين الإسرائيليين شارون وأرينز كانا «يقولان من جهة، عبر الصحف، أنَّهمـا لن يَدَعَـا

فالجميل الذي عَوَّل الكثيرون من المُعارضين التقليديين للكتائب على أنَّ وصولَهُ إلى الـرئاسـةِ كفيلٌ بـإخراجِ الإسـرائيليين من لبنان، لم يكن في وُسْعِـهِ أنْ يُمَـارِسَ الـتَّـرَفَ والعزوفَ الكاملَ حيالَ دولةٍ تحتلُّ مساحاتٍ كبيـرةً من الوطنِ، وتُحَـاصِرُ قُـوَّاتُهَا العـاصمةَ وأبوابَ القصر الجمهوري.

ومنـذُ البدايـة حاولت إسـرائيل من خـلال حربِ الجبـل كمـا من خـلال «القـوّات اللبنانية»[١٧٣]، أنْ تضغطَ على العهد كي يُوَقِّعَ اتفاقَ سَـلامٍ كامـلٍ، حتى إذا ضمرَ هـذا الإحتمالُ بدأت المشادَّةُ حولَ مكانِ التفاوض ومستوى التمثيل، فـرفض الجميل أنْ تكـونَ القـدسُ المحتلةُ مكـاناً وأنْ يكـونَ الوفـدُ المفاوضُ سيـاسياً، ومن قَبيـل تخفيف الطبيعة المباشَرَةِ للمفاوضات طَلَبَ إدخالَ الولايات المتحدة طرفاً أساسياً فيها، حتى بدا أنَّ وزيـرَ الخارجية الأميركية جورج شولتس هو مُهَنْدِسُ اتّفاق ١٧ أيّار.

بَيْدَ أنَّ النتائجَ التي لم تُرْضِ إسرائيل ولم تُشَكِّل مُعَادِلاً مقبلاً لأكلافها في الحرب، وهي التي أرادت «مكـافأةً» من المسيحيين اللبنـانيين، حَمَلَتْ تل أبيب على التَّنَصُّـلِ من ١٧ أيّار والإستعاضة عن العلاقـة بدولـةٍ لبنانيـةٍ واحدةٍ بعـلاقاتٍ متعـددةٍ مع الأطـرافِ والطوائفِ اللبنانية. وهكذا التقت إسرائيل ومقـاوَمَتُهَا على تعليقِ الـدولة اللبنـانية وتفتيتِ مجتمَعِها، فيما كانت «القوّات اللبنانيةُ» تضغطُ من جهتها للقفزِ فوق سائرِ هذه التعقيداتِ، وصولاً إلى حسمٍ بسيطٍ ووُجْهَةٍ واضحةٍ![١٧٤].

واقعُ الأمرِ أنَّه بِقَدْرِ ما لَخَّصت تجربةُ أمين الجميل استحالةَ السياسةِ في ظلِّ يقظةِ الريفِ والعروبةِ، وحروبِها العصبية، لَخَّص المصيرُ الذي آل إليه حزبُ الكتـائب استحالـةَ

الرئيس الجميل يحكم خارج قصر بعبدا. وكان السيد عبد الحليم خدّام يقول من جهـة ثانيـة: «على الجميل أن يمشي أو بيمشي»... أي أنَّ على الـرئيس أنْ يقبل بشـروط سوريـة أو أن يـرحـل». المـرجـع السـابق، الحلقة ، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٩.

(١٧٣) من رواية للجميل عن تلك الفترة:

«أذكر أنني كنت مرّة قد تفاهمت مع فادي فرام يوم كان قائـد «القوات اللبنـانية» على بعض الإجـراءات الرامية إلى فتح الطريق الساحلية في اتجاه الجنوب. وبعد قليل جاءني أحد الأصدقاء يقـول إنَّ فادي فـرام اتصل به وطلب منه إبلاغي أنَّ ما اتفقنا عليه قد تعرقل. وبدأت أسأل ما القصة، وأخيراً عرفت أنَّ ضغـوطاً إسـرائيلية حملت «القـوات» على تغيير مـوقفها، وأفهمـوها أنَّ هـذا فخ لهـا وقضـاء على نفـوذهـا وخطهـا السياسي».

(١٧٤) من هذا الكلام التبسيطي شرح جعجع لبعض أسباب «انتفاضة» آذار ١٩٨٥:

«لا نملـك الآن، كمجتمعٍ مسيحي وحـزب، أيَّ مشروعِ حـل يكون هـدفاً لنضـالنا وتضحيـاتنـا. نُطـالب بالفيدرالية في لوزان ونتمسّك بالصيغة في بيروت. نتكلم عن تعزيز «القوّات اللبنانية» ودعمها ونعمـل يوميـاً على قضمها وتحجيمها. وافقنـا على اتفاق ١٧ أيـار ومن ثُمَّ باركنـا إلغاء هـذا الإتفاق فتـرانا نطلب الشيء وعكسه في آن واحد». عن: جوزيف الخوري طوق ـ إقليم الجبة ـ بشري، مكتب التوثيق، **الانتفاضة**، لا ذكر للتاريخ أو الدار، ص ٢٣. علماً أنَّ الحسم الذي يجعل صـاحبه معبـود طائفتـه هو «حـلٌ» سهل كمـا برهنت الحروب اللاحقة للعماد ميشال عون.

الحـزبيّةِ في ظـلِّ الظروفِ المـذكورة. والظـروفُ هذه، في إفضـائهـا إلى تَغْيِيْبِ الـدولـةِ والإحتكامِ إلى الحالاتِ الشعورية، كالخوفِ الذي ينقُلُ أهْلَهُ إلى عراءِ الطبيعـةِ ووحشَتِها، ليست بحالٍ من الأحوال ظروفاً عابرةً أو استثنائيةً في هذا الشرقِ، حيث حصلت، في ظلٍّ يافطاتِ الوَحْدَةِ، أوسعُ عملياتِ التفتيت والتدمير.

فهرس الاعلام

فهرس

على إلمامِهَا بتاريخٍ حزب الكتائب إلماماتٍ وإفادتِهَا مِمَّا يُوَفِّرُهُ البحثُ الإجتماعيُّ، فهذه الصَّفحاتُ ليست بتاريخٍ له على معنى الإحصاءِ والإحاطةِ ولا بتاريخٍ اجتماعيّ: إنْ هي فَتَتَبُّعٌ للمعاني المُلَابِسَةِ مسارَهُ.

فحزبُ الكتائب اللّبنانيَّةِ الذي انطلقَ انطلاقةً شِبْهَ مدينيَّةٍ محفوفةً بالتَّناقضاتِ ومُشْرَعَةً على احتمالاتٍ عدَّةٍ، بما فيها الإحتمالُ المسيحيُّ الديمقراطيُّ، لم تَلْبَثْ يَقَظَةُ الرِّيفِ المُسَلَّحِ والمُحْبَطِ على السِّياسةِ أنْ «عَرَّبَتْهُ» في ما «عَرَّبَتْ» بأنْ أناطت بالخوفِ إمامَةَ السِّياسةِ فأشاعتِ العنفَ ونَحَّتِ الدَّولةَ وردَّتِ الطَّائفةَ المارونيَّةَ، في سياقِ الإرتدادِ اللبنانيِّ العامِّ، إلى السَّويَّةِ الدَّمويّةِ العشائريّةِ المُغايرةِ للطّائفيّةِ والرّسْمَلَةِ والسِّياسَة.

كذلك، فَحَدُّ فضاءٍ يَحُقُّ عليهِ اسمُ العروبةِ، امتناعُ السّياسةِ من القيامِ والأحزاب من التَّرَعْرُعِ وَفَشْوُ حَضٍّ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ على وَحْدَةِ الجماعةِ قرينُهُ تفتيتٌ، إلى ما لا نهايةَ، لها.